



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

كلية العلوم الانسانية والعلوم

الاجتماعية

قسم التاريخ



أصروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه لم د تخصص تاريخ العصر الوسيط - المغرب الإسلامي -
الموسومة بـ :

المجتمع التلمساني الزياني - دراسة للعادات والتقاليد والأعراف - من

القرن 7هـ/13م حتى القرن 10هـ/16م

بإشراف: الأستاذ الدكتور

ميدي محمد نقادي

إعداد الطالب:

عبد العالي غزالي

أعضاء لجنة المناقشة :

اللقب والإسم	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ.د ميدي محمد الفوئي بسنومي	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
أ.د ميدي محمد نقادي	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقرر
أ.د حنفي هلايلي	أستاذ التعليم العالي	جامعة ميدي بلعباس	عضوا مناقشا
أ.د محمد الزين	أستاذ التعليم العالي	جامعة ميدي بلعباس	عضوا مناقشا
د. عبد الكريم كصير	أستاذ محاضر -أ-	جامعة شلف	عضوا مناقشا
د. رشيد يمانى	أستاذ محاضر -أ-	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 1441-1442 هـ / 2020-2021 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وعرفان

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات وجعل رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه
وعلى أتباعه الذين ختم لهم بكمال الحسنات ورفقة الدرجات، رضي الله
عنهم وعن أتباعهم إلى يوم الدين

أجد لزاما علي أن توجه بالشكر والعرفان إلى الأستاذ المفضل البروفيسور
"سيدي محمد نقادي"

الذي أمدني بالشئ الكثير من علمه وخلاصة تجاربه، كما زوجني بالعديد
من المصادر والمراجع، وكان له الفضل بعد الله سبحانه وتعالى فيما توصلت
إليه من إضافات ونتائج جديدة

إلى أبحاثي الذين تكونت على أيديهم لهيئة مشوارتي الدراسي في
الجامعة

كما يسرني أن أتوجه بجزيل الشكر وخالص الإمتنان، إلى أعضاء لجنة
المناقشة، على تفضلهم بتقييم هذا العمل، والذي سيكتسي حلة
جديدة بملاحظاتهم ونصائحهم السديدة

إلى زملائي في الدراسة، وإلى كل من قدم لي المساعدة أو النصيحة في
انجاز هذا العمل من قريب أو بعيد.

غزالي عبد العالي

إِهْدَاء

إلى

" الوالدين الكريمن "

كنز الدعوات وفيض العطاء

وإلى كل أفراد عائلتي و كل أصدقائي.

إلى كل من يسعى جاهدا في المثابرة

والوصول إلى أسمى درجات العلم والمعرفة.

مقدمة

إنّ دراسة التاريخ الاجتماعي للمغرب الاوسط، تختلف حسب الفترات التاريخية والعناصر الاثنية المتواجدة به، حيث يعتبر المجتمع التلمساني خلال العهد الزياني، من المجتمعات التي توفرت فيها مظاهر الحضارة الاجتماعية؛ الراقية على مستوى العادات والتقاليد والأعراف السائدة والباقية بين ظهرانينا إلى اليوم، لذا فالكشف عنها والمساهمة في إزالة الغموض منها يكون من الأهمية بما كان في وقت نحتاج فيه إلى أن نسلط الضوء بدقة عليها، ونقيم تراثنا الحضاري الذي ضاع أغلبه تحت وطأة الصراعات السياسية، ونحاول أن نبين للأمة مجدها العلمي والحضاري .

وعلى هذا الأساس عرف المجتمع التلمساني، تنوعا في العادات والتقاليد على المستوى المعيشي والثقافي والديني وغيرها من المجالات، نظرا لطبيعة المجتمع العرقية؛ حيث يتركز هذا المجتمع على مظاهر اجتماعية متعارف عليها منذ القدم، مستمدة من أفكار ومعتقدات وتراث قبلي معين، ويضبط هذه العادات والمعتقدات جملة من الضوابط الدينية والمدنية، التي تحدد لأفراد المجتمع التلمساني منهج اجتماعي معين له مميزاته وخصوصياته على المستوى المعيشي والاخلاقي وجميع المستويات الاخرى.

ومن هنا تظهر أهمية طرح الموضوع "المجتمع التلمساني الزياني - دراسة للعادات والتقاليد والأعراف - من القرن 7هـ/ 13م حتى القرن 10هـ/ 16م"، للبحث التاريخي لما له من مدلول تاريخي وبعد حضاري في ماضي وحاضر ومستقبل مدينة تلمسان، لأنه لم يحض بالاهتمام الكافي من قبل الباحثين، رغم وجود دراسات تناولت الجانب الاجتماعي في العهد الزياني، إلا أنّها لم تتطرق إلى دراسة في خصوصيات هذا المجتمع، ومدى الرابطة الاجتماعية لعناصره المختلفة المكونة له، لاسيما بعض العادات الوافدة من أصقاع اسلامية أخرى، خاصة الأندلس التي وفد بعض أهلها على تلمسان، ونشروا عاداتهم وتقاليدهم المختلفة في جميع المجالات.

يتحدد الإطار الزمني الذي توخينا هذه الدراسة؛ في الفترة الممتدة ما بين القرنين السابع والعاشر الهجريين/13-16م، لبنيات معرفية ومنهجية منبثقة من حضارة تلمسان الزيانية، إذ تعتبر الفترة باتفاق جُل الباحثين والمؤرخين، أزهى عصور تاريخ المغرب الأوسط الحضاري على الاطلاق، وتبرز أهمية ذلك على وجه الخصوص في خلق مؤسسات اقتصادية وعلمية بالغة الأهمية، وتأسيس منظومة اجتماعية راقية مستمدة من ثقافة تعايش أفراد المجتمع؛ في سلام ووثام وتساكن، قائم على الود وصون العرض ومبدأ الاحترام وقبول الآخر، فضلا عن إقامة علاقات منتظمة مع العالم الخارجي، على إثرها ترسخ استمرارية التبادل المعرفي والاقتصادي والسياسي بواسطة أعراف وتقاليد روحية عميقة.

إنَّ النقص الحاصل في دراسة جوانب مختلفة من خصوصيات المجتمع التلمساني في الفترة الزيانية، كان السبب الرئيسي في اختيارنا لهذا الموضوع، وعلى هذا الأساس ارتأينا أن نشتغل على هذا الجانب المهم من الدراسة الاجتماعية بنوع من التدقيق والتفصيل، وإن وجدت هناك اهتمامات في هذا الجانب؛ إلا أنها تبقى اهتمامات عامة، بالإضافة إلى رغبتنا في البحث التي دفعتنا إلى تسليط الضوء على مجموعة من الحقائق التاريخية والعلمية المتعلقة بالدراسات الانثروبولوجية والاثنوغرافية .

دفعتنا الرغبة في دراسة هذا الموضوع؛ لإيماننا بأنه معرفة ومهارة وفنّ، فضلا على أنه موضوع ذو قيمة تاريخية وتراثية وعلمية، وكنا قد جمعنا ما أمكن من نصوص مصدرية وحاولنا أن نستخرج منها جوهر الدراسة ومضمونها العلمي، مستعينين بقرائن نصية أخرى لتوضيح عملنا أكثر من الناحية الشمولية، علما بأنَّ المجتمع التلمساني تعايش أفراده بفضل الأعراف والتقاليد، وهي في مجملها مستمدة من الخلفية العقديّة الاسلاميّة.

كما تهدف هذه الدراسة للوصول إلى تقديم معطيات جديدة، وتصحيح بعض المفاهيم المتعلقة بجوانب كثيرة من البحث، فضلا على إيصال حقائق تاريخية للباحثين في مجال التاريخ الاسلامي، وعلى هذا الأساس أردنا بهذا البحث المتواضع أن نضع لبنة في صرح التاريخ الوسيط، لتكون منا مساهمة في إثراء المكتبة الوطنية .

الاشكالية الرئيسية والتساؤلات الفرعية :

تبرز الاشكالية الرئيسية للموضوع على النحو التالي: - ما وَقَعُ العادات والتقاليد والأعراف في بناء شخصية المجتمع التلمساني في العهد الزياني؟
و تتفرع عن الاشكالية الرئيسية جملة من التساؤلات الفرعية وهي كآآتي :
فيم تتمثل فئات المجتمع الزياني ؟
ما هي مظاهر الاحتفالات والمناسبات الدينية والغير الدينية؟
ما هي صنوف الطعام وآداب الاكل لدى المجتمع التلمساني ؟
كيف كانت الألبسة عند هذا المجتمع ؟
ما هي تقاليد الحرب عند بني زيان؟
عرض خطة البحث :

وللإجابة على الاشكالية و التساؤلات الفرعية اتبعنا خطة بحث مفادها كآآتي :
مقدمة : وتناولنا فيها تقديم للموضوع وأهميته العلمية، مع عرض لخطة البحث ثم المنهج المستعمل ودراسة نقدية للمصادر والمراجع، مع أبرز الصعوبات التي واجهتنا.
تسعى فصول هذه الدراسة إلى إزالة اللثام عن كثير من القضايا التي أفرزتها بنية المجتمع الزياني، بحيث قسمنا هذه الدراسة إلى أربع فصول، حيث عنونا الفصل الأول بالتعريف بالظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي، وتعرضنا فيه إلى تعريف مصطلح (العادة) وأهميتها الاجتماعية، وتناولنا في هذا الفصل العادات الاحتفالية داخل المجتمع التلمساني الزياني الدينية والغير دينية، بما في ذلك الاحتفال بالمولد النبوي الشريف والأعياد الدينية والمناسبات الكبرى، إضافة إلى ذلك، تطرقنا بعرض تفصيلي لاحتفال الأسرة بعاداتها الموسمية: كالزواج والوليمة والعقيقة وغيرها، فضلا على أنّ المجتمع التلمساني عرف مناسبات أخرى مثل الاحتفال بالجيش في ملعب المدينة.
أما الفصل الثاني فقد خصصناه لتركيبية المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل، ويتضمن ثلاث عناصر رئيسية: العنصر الأول: درسنا فيه تركيبية المجتمع التلمساني، والعنصر

الثاني : عالجنا فيه عادات الأكل وآداب المائدة، ثم تطرقنا كذلك إلى تقاليد اللباس عند الملوك ومختلف الطبقات الاجتماعية، كالمتصوفة والعلماء وأهل الذمة وعادات لباس المرأة في تلمسان الزيانية.

كما قمنا في الفصل الثالث بالتطرق إلى عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة، بحيث عالجنا في هذا الفصل جودة المجتمع الزياني في الدقة والتصنيع وكان ذلك دأبهم، ثم أشرنا إلى عوائد منبوذة داخل المجتمع أنكرتها المدونة النوازلية والكتب الفقهية - العقباني (تحفة الناظر أنموذجا) -، فضلا على أننا قمنا بالتعرف على عادات التبرك بالقبور ودفن الجنائز بالجبانات، والتطرق إلى المعتقدات الشعبية المكونة لذهنية المجتمع والمتوارثة عندهم، على اعتبار أنها أعراف غير مدونة؛ تؤمن بها شريحة كبيرة من المجتمع بإرادتها، لقناعتها التامة بصدقها.

أما الفصل الرابع فحاولنا أن نسلط الضوء على ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية، ومضمون هذا الفصل يدور حول عادات حربية تقلدها بني زيان؛ في مختلف مواجهاتهم مع جيราهم سواء من الشرق أو من الغرب، وأفرز ذلك مثلا: عادة إخلاء المدينة لتفادي خرابها، عادة بث العيون في صفوف العدو والحصول على أخبار سرية... إلخ.

كما تطرقنا في هذا الفصل كذلك إلى ظاهرة التكافل الاجتماعي وأثره في بناء المجتمع، ويتضمن الأمن الغذائي، وعادة النسوة في عمل التوزيع، فضلا عن ظاهرة تهافت النسوة على ادخار الذهب، ولتضامن الاجتماعي المتمثل في التصدق بالمال الفائض.

وأنهينا دراستنا بجائمة عامة حول نتائج واستنتاجات البحث، وثبت الملاحق المدعمة للدراسة التي قمنا بها، مع كشف تفصيلي للبيبلوغرافيا المعتمدة، ودعمنا دراستنا بفهرس الأماكن والأعلام، ثم فهرس المحتويات .

المنهج المتبع :

يقوم المنهج على استقصاء المادة التاريخية من مصادرها وتحليلها وتوظيفها وفقا لخطة الموضوع، مع وصف شامل للتركيبية السكانية الاجتماعية، أثناء عرض الأحداث التاريخية التي وثقت لمظاهر العادات والتقاليد والأعراف للمجتمع التلمساني الزياتي، بالإضافة إلى تفسير مظاهر هذه العادات الاجتماعية حسب ما تشير إليه الأنثروبولوجيا التاريخية والطوبونيميا والذهنيات، خاصة وأنّ هذه الحقول المعرفية جعلت من المجال الاجتماعي والديني إطارا لأبحاثها، قصد الوصول إلى صورة واضحة وشاملة للموضوع. واستخدمنا المنهج الاحصائي الذي أتاح لنا التعرف على العديد من الأحداث والحقائق التاريخية، حول حركة التأليف التاريخي لدى النخبة العاملة بتلمسان على العهد والزياتي، فضلا على عاداتهم المتعلقة في طرائق التلقين وأهم العلوم الواردة في برامجهم التعليمية، ومن خلال ذلك قمنا بتحليل البيانات الواردة في النصوص، وقد عرضناها على شكل جدول ودائرة نسبية بيانية.

قراءة المصادر والمراجع :

تعددت المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة وتباينت طريقة عرضها لموضوع دراستنا، والتي نذكر منها بحسب الأهمية لهذه الدراسة :

أولا : كتب التاريخ السياسي

1- عبد الرحمان ابن خلدون (ت 808هـ/1406م)، "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، اعتمدنا على هذا المصدر في معرفة أنساب القبائل العربية والبربرية، ومظاهر مدينة تلمسان السياسية، ونظرا لاشتماله على العديد من الأخبار السردية لقبيل بني زيان، فإنه أتى على ذكرها أحيانا بنوع من التفصيل والتحليل، وأحيانا أخرى اكتفى بالسرد فقط، لاسيما فيما يتعلق بتقاليد الحرب لدى بني زيان، ويتمثل ذلك في المقدمة والجزء السابع.

2- يحيى ابن خلدون (ت780هـ-1378م)، "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد"، يعد من بين أهم المصادر الاخبارية التي عايشت الفترة الزياتية، ودونت أخبارها وعاداتها وتقاليدها في المجال السياسي والاجتماعي والأخلاقي، فضلا على إبراز جوانب احتفالية

خاصة من داخل دار السلطان بتلمسان، وزودنا بمعلومات هامة عن معظم العادات والتقاليد الاجتماعية والسياسية والعلمية، إلا أن كتابه شحّ من المعلومات التفصيلية حول بعض العادات المتعلقة بالأعياد الدينية مثلا وغيرها، المهمة لموضوع بحثنا.

3- التنسي محمد عبد الله بن عبد الجليل، (ت 899هـ-1493م)، "نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان"، رغم أن هذا المصدر قد أغاض الطرف عن سرد الحقائق التاريخية المتعلقة بقبيل بني زيان، إلا أنه أفادنا بشكل ايجابي في التعرف أكثر على هذا القبيل، من حيث عاداته وتقاليده الاحتفالية والحربية بتلمسان، فضلا عن التوجه الأخلاقي للدولة الزيانية من خلال سياساتها الداخلية والخارجية.

4- مؤلف مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، رغم أن مؤلف هذا الكتاب مجهول، إلا أنه ينتمي إلى بلاط بني زيان، وألّفه في فترة حكم السلطان الزياني "أبي حمو موسى الثاني" (760هـ/1359م-791هـ/1389م)، وكان الهدف من تأليفه هو تخليد مآثر بني زيان وبطولاتهم، فضلا عن ذكر انجازات السلطان "أبا حمو" في احياء دولة بني زيان.

ورغم أن كتابه ركز بشكل كبير على الجانب السياسي؛ إلا أنه يكتسي أهمية كبيرة في رصد عادات وتقاليدي بني زيان في الاحتفالات الحربية، والأعراف الدبلوماسية، مع وصفه للأحداث الجارية وسردها بقصائد شعرية أفادتنا كثيرا في البحث، وتميز أسلوبه بالدقة والتحليل، لأنه كان شاهد عيان لما جرى من أحداث، أو تلاقها مروية من صانعيها.

ثانيا: كتب الرحلة والبلدان: أفادتنا هذه المصادر خاصة في معرفة الجغرافية الغذائية والنباتية والعمرانية لمدينة تلمسان، والتي هي أساسا تشكل العادات والتقاليد لموضوع بحثنا، ومنها كالآتي:

1- ابن فضل الله العمري (ت749هـ/1349م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الرابع-ممالك اليمن والغرب الاسلامي وقبائل العرب -، يعتبر هذا الكتاب موسوعة شاملة في التعريف بملل الناس ونحلهم، والممالك والأمصار والأقاليم وحواضر بلدان العالم الإسلامي، أفادنا في الفصل الثاني عندما أشار إلى عادة المكاتب والمراسلة للملوك المغرب،

ويقصد بملوك المغرب (كل الذين تربعوا على أعراسهم ببلاد الغرب الإسلامي)، ثم إنّه زودنا بمعلومات تفصيلية وموجزة حول عادة الادخار وبناء المطامير في دولة بني زيّان، فضلاً عن التحصينات الدفاعية وبناء الأسوار واتخاذ الآلات.

2- الحسن الوزان الفاسي، (ت 939هـ/ 1532م)، في كتابه "وصف إفريقيا" والذي استفدنا منه كثيراً في معرفة الأمصار والمدن، خاصة طبائع أهل تلمسان وطريقتهم المعيشية وعوائدهم في اللباس والأكل، وأعرافهم السياسية والاقتصادية، إلا أن ما أورده من عادات وتقاليد حول مدينة تلمسان كانت ضئيلة من الناحية الكمية، ثم إنه تمحل تمحلاً واضحاً في بعض مواقفه من المدينة وأهلها.

3- أبو الحسن القلصادي (ت 891هـ/ 1486م)، "رحلة القلصادي"، أورد لنا في رحلته العلمية المسماة - تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمراتب - أحد عشرَ علماً من أعلام مدينة تلمسان وكانوا من نخب المدينة، وجعل "القلصادي" تراجم هؤلاء النخب متفاوتة في الذكر، فمنهم من يذكره بوصف دقيق وتحليل عميق مبينا قيمته العلمية ومكانته الاجتماعية، ومنهم من يكتفي بذكر حياته العلمية بإيجاز ولا يتوسع في ترجمته، وهذا ما جعلنا نستفيد من رحلته إلى حاضرة تلمسان، التي تتميز بالدقة والمصداقية في الكشف عن تقاليد تلقين مختلف العلوم والمعارف وطرائق التعليم التي كانت سائدة بها في القرن 9هـ/ 15م.

ثالثاً: كتب المدونة الفقهية: تعتبر المدونة الفقهية من أثرى المصادر لأنها تصف حياة الناس بمختلف طبقاتهم الاجتماعية اليومية، فتتقل عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم بصورة فقهية مستنبطة من حياة الناس اليومية، ومن بينها ما يلي:

1- أبو العباس الونشريسي، (ت 914هـ/ 1508م)، "المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية و الأندلس والمغرب"، وهو عبارة عن موسوعة فقهية شاملة لأخبار بلاد الغرب الإسلامي، وقد حضيت تلمسان الزيانية بحظ وافر من الفتاوى الفقهية، التي عاجلت بعض العادات والتقاليد الخاصة بالجنائز والموت وطقوسه، بالإضافة إلى عادات احتفالية كالمولد النبوي الشريف والأعياد، ويعتبر المعيار ذو قيمة تاريخية بارزة، حيث قدم من خلاله

"الونشريسي" خبرته الواسعة نتيجة التعامل التطبيقي مع قضايا تتعلق جُلها بواقع الناس اليومي.

2- أبو عبد الله محمد العقباني (ت871هـ/1467م)، "تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر"، يعتبر من المصادر الأساسية في الكشف عن جانب مهم من الدراسة، ألا وهو عادات منكرة انتشرت في مدينة تلمسان، تتعلق بأحوال السوق والجنائز وخروج النسوة واختلاطهن بالرجال بغير ضوابط شرعية، واعتمد العقباني في إصدار فتاويه على كتب الفقه المالكي لاسيما في الحسبة، ومع ذلك لا يخلو من فوائد عديدة تشير إلى عادات التوزيع والتصدق بالمال الفائض بمدينة تلمسان، وبالتالي ساعدنا كثيرا في جوانب كثيرة من الدراسة.

رابعا: كتب المناقب والتراجم: تميزت كتب المناقب والتراجم التلمسانية المعتمدة في البحث بشكل متواصل، في سرد عادات وتقاليد العلماء والأولياء المختلفة بصورة عفوية، من بينها:

1- أبو عبد الله ابن مرزوق (ت781هـ/1380م)، "المناقب المرزوقية"، يتضمن هذا المصدر خطابا دينيا يتمحور حول عادات وتقاليد الأولياء وخوارق العادات عندهم، كما استفدنا من هذا الكتاب خصوصا من حيث الواقع التلمساني الزياني المعاش في القرن (8هـ/14م)، في المأكل والمشرب واللباس والكرامات وغيرها، واعتمدناه كمصدر مباشر في جميع فصول الأطروحة، لأنه اشتما على أخبار كثيرة ركزت على ذكر مناقب أسرته وبعض المتصوفة تخللتها عادات روحية بالدرجة الأولى.

2- عبد الله بن محمد الثغري التلمساني (كان حيا نهاية القرن 8هـ/14م)، "مناقب أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني صاحب مفتاح الوصول ومناقب ولديه"، يكتسي هذا الكتاب أهمية كبيرة في المضان التاريخية، حيث قدم لنا صورة واضحة حول تقاليد اجتماعية وثقافية معتبرة، وهو يعدد مناقب بيت "أبي عبد الله الشريف" وولديه، كما يوجد في ثناياه اشارات كثيرة حول عادات العلماء في الاستئثار بحياة التقشف والزهد.

3- ابن سعد التلمساني (ت901هـ/1399م)، "روضة النسرین في التعريف بالأشیاخ الأربعة المتأخرین"، وإذا تمعنا في محتوى هذا الكتاب الذي يعد من بين أهم الكتب المناقبية، نجد بأنه أعطانا صورة واضحة المعالم حول عادات أخلاقية ذات صبغة صوفية لأهم عالین بمدينة تلمسان، وهما الشيخ "سيدي أحمد بن الحسن الغماري" والشيخ "الحسن أبركان"، وكلاهما يعتبر رمزا للتدين الشعبي، ورائدا المشروع الأخلاقي الذي ترك انطبعا سلوكيا واضحا في حياة الناس.

ثانيا : المراجع :

تكمّن أهمية المراجع في استقراء وتحليل الجوانب النظرية والتاريخية والتوصيفية المتعلقة بعادات وتقاليد المجتمع التلمساني الزيّاني، وتنوعت هذه المراجع في الدراسة التي نحن بصدد إعدادها من مراجع ودراسات حديثة ومقالات علمية محكمة، بالإضافة إلى دراسات استشرافية؛ استفدنا منها بشكل ايجابي في التعرف على البنية السياسية والاجتماعية والثقافية لمدينة تلمسان على العهد الزيّاني، وإن لم يخصّ الباحثون عادات وتقاليد مدينة تلمسان ببحث مفرد، فإنّ لبعضهم الفضل في جمع ما وجدوا بعضها في المصادر المستخدمة في أعمالهم، وهم كالآتي:

1 - سيدي محمد نقادي، الخطة العمرانية لمدينة تلمسان ودلالاتها الاجتماعية. تعتبر الخطة العمرانية لمدينة تلمسان ووظائفها الاجتماعية من بين أبرز الدراسات الحديثة، التي كشفت النقاب على تلمسان في العهد الزيّاني، بحيث عالج فيها المؤلف البنى الاجتماعية والعمرانية والحضارية الهامة لموضوع بحثنا، وبالتالي كان لهذا المرجع حضورا قويا في الدراسة لأهميته العلمية الكبيرة، حيث أفادنا كثيرا في العادات المتعلقة بالنسيج الاجتماعي لمدينة تلمسان، وكذلك العادات العمرانية.

2- أحمد عزاوي، المغرب الاسلامي خلال القرنين 7 و8هـ - دراسة وتحليل لرسائله - . استعنا بهذا المرجع في التعرف على عادات سلاطين وأمراء القصر الملكي بتلمسان الزيّانية السياسية والدبلوماسية، لاسيما مع بني حفص في تونس ومملكة أراغون في اسبانيا وبني

الأحمر في غرناطة، ويحتوي هذا المرجع على وثائق ورسائل حققها واعتنى بها أحمد عزراوي، بحيث تعتبر إضافة للبحث من حيث الجانب الخارجي.

3- عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني - دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية-. تعتبر هذه الدراسة التي قدمها الباحث فيلاي من بين أبرز الدراسات على واقع العادات والتقاليد بمدينة تلمسان، إلا أن بحثه هذا لم يغطي كل العادات الاجتماعية وخاصة الدبلوماسية بالمدينة.

يعتبر موضوع العادات والتقاليد والأعراف لمجتمع مدينة تلمسان من بين أهم المواضيع دراسة وبحثاً وتنقيحاً، في طرائق العيش ووسائل الاتصال والايان بمعتقدات شعبية ذات أبعاد دينية واجتماعية واقتصادية؛ وغيرها من جوانب عديدة ومتشعبة تركز عليها الحياة اليومية لأفراد المجتمع، مما أدى ذلك إلى تعذر توفر المعلومة وشموليتها في المصادر الأساسية للبحث، وكذا عدم التعرض لبعض القضايا والظواهر الخاصة بتجليات الأعراف على واقع المجتمع الزياني التلمساني، وهذا ما جعلنا نلجأ ونستعين بمصادر مشرقية وثقت بطريقة أو بأخرى بعض العادات والتقاليد، السائدة ببلاد الغرب الاسلامي عامة وتلمسان خاصة.

كما واجهتنا صعوبة الوصول إلى مراجع متخصصة في دراسة الموضوع بشكل واضح، والتي كانت ستثري الموضوع أكثر من الناحية العلمية وتكشف الغموض عن بعض الحقائق، كما واجهتني صعوبة الامام بجزئيات صغيرة في إطار المدة الزمنية للدراسة، بحيث مثلت هذه الجزئيات مشاريع بحثية بحد ذاتها، وبالتالي جمع المعلومات من مضانها المختلفة كانت تشح في الكثير من الأحيان، حتى تبلغ القطرات أو الايماءات في جانب من جوانب البحث، مما جعلنا بالاستعانة بما خلفه الزمن في مخيلة الموروث الشعبي لتلمسان، لتعزيز أكثر وجهة نظرنا وتصوراتنا عن بعض التقاليد والعادات التي كانت سائدة ضمن إطار البحث.

نعتقد جازمين بأن الإحاطة بتفاصيل العادات والتقاليد والأعراف بالمجتمع التلمساني الزياني؛ أكبر من أن يلم بها ملم أو يحصيها حاص، فهي لكثرتها وتنوعها وغنى

مجالاتها وتوسع مراميها، وتطورها عبر الزمن بفعل المتغيرات المؤثرة فيها، تحتاج إلى جهد جهيد واهتمام كبير من طرف المتخصصين لجمعها وتدوينها، لأنها أوشكت على الضياع والإهمال.

كما أتقدم بالشكر الخالص للأستاذ المشرف "أ.د سيدي محمد نقادي"، الذي لم يبخل علي بنصائحه وتوجيهاته وارشاداته في بحثي، التي شجعتني أكثر في مواصلة البحث بكل جدية واهتمام وحرص.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

أولاً: الاحتفالات بالأعياد وممارسة الشعائر الدينية عند المسلمين وأهل الذمة

1. المولد النبوي الشريف - جذور الممارسة الاحتفالية وانتقالها الى المغرب الإسلامي -
2. مظاهر الاحتفال بشهر رمضان
3. الاحتفال بالعيدين (الفطر والأضحى)
4. الاحتفال بمذق القرآن
5. طقوس الاحتفالات الدينية عند أهل الذمة

ثانياً: العادات الاحتفالية العامة عند الأسرة

1. عادة الاحتفال بموكب الحج
2. الزواج وتجهيز العروس
3. الوليمة والعقيقة
4. عادة الاحتفال بالتمليحة

ثالثاً: الزيانيون وتقاليدهم في الاحتفالات المدنية

1. تدشين المنشآت المعمارية
2. عادة ركوب الخيل
3. مجالس اللهو والطرب.
4. احتفالات حربية

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

أولاً: الاحتفالات بالأعياد وممارسة الشعائر الدينية عند المسلمين وأهل الذمة

تُعتبر ظاهرة الاحتفالات الدينية في حواضر العالم الإسلامي عادةً⁽¹⁾ راسخة في ذهنيات المجتمع والسلطة الحاكمة، إذ تختلف طقوس الممارسة وطريقة الاحتفال من مجتمع إلى آخر، وتعتبر هذه العادة بمثابة الحضور الديني في المخيال الإسلامي لدى المجتمعات وإبقائه حاضراً في حياة الناس؛ وتثبيته كتقليد رسمي يُوطد التواصل العام بين أفراد المجتمع، وهذا ما سنبرزه في هذا الفصل.

1. المولد النبوي الشريف - جذور الممارسة الاحتفالية وانتقالها إلى المغرب الإسلامي -

يُعتبر شهر ربيع الأول رمزاً للعادة الاحتفالية المولدية الموسمية، ولازال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ﷺ؛ ويقىمون الولائم لذلك، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويُظهرون السرور ويزيدون في المبرات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويُظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم⁽²⁾، وأصبح هذا التقليد ملزماً لكل المجتمعات والدول المتعاقبة على تعظيم المولد منذ ظهوره على يد الفواطم في مصر إلى نهاية الفترة الوسيطة؛ كما أصبحت هذه العادة تأخذ أبعاداً سياسية ودينية لاعتبارات عديدة منها: "النسب الشريف وتعظيم النبي ﷺ"، على شكل حفل رسمي يقيمه السلطان في قصره ويجضره العامة والأعيان.

¹ - العادة: هي الدأب والاستمرار، يقال كل شيء اعتياد حتى صار يفعل من غير جهد فهو عادة، فالعادة مؤخوذة من المعادة فهي في الشيء المتكرر المستقر بتكراره في النفوس والعقول فصار بذلك حقيقة عرفية، والعادات هي التي اعتاد الناس عليها وكرروا ممارساتها إلى حد أصبحت تقاليد يتبعونها ويتداولونها جيلاً إثر جيل بعفوية وتلقائية، وهي سبب الاستمرار في أفعال الانسان، وناظمة لسلوكاته كما تشكل دعامة للحياة الاجتماعية، وهي من المصطلحات التي سنركز عليها في بحثنا سيما وأن المجتمع الزيناني عرف عادات احتفالية وغيرها والتي بقيت بعضها إلى الآن كمعلم تاريخي وحضاري، للإطلاع أكثر على تعريفها العادة ينظر إلى: غوستاف لوبون، الآراء والمعتقدات، ترجمة: عادل زعيتر، ط1، مؤسسة هندواوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2014م، ص30. وعبد الحي حسن العمراني، المجتمع المغربي من خلال كتب النوازل، ط1، مطبعة الجديدة، الدار البيضاء، ص22، وعباس الجراري، الحضور الديني في العادات والتقاليد المغربية، مطبوعات الأكاديمية المملكة المغربية، المعارف الجديدة، الرباط، المغرب ص 44.

² - محمد بن عبد الرحمان السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ج1: تح: نجوى مصطفى ولبيبة ابراهيم مصطفى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، مصر، 2002م، ص 55.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

وألفت في ذلك كتب ونظمت المتون والأمداح وتغنى الشعراء بسيرته ﷺ، لكن هذه الظاهرة شكّلت قضيةً فقهيةً اختلف الفقهاء بين مؤيدين ومُنكرين، لما يترتب عنها من تجاوزات والمبالغة في تعظيم النبي ﷺ؛ إلى درجة الوقوع في البدعة من خلال الطقوس الاحتفالية التي يُمارسها المحتفلون، فأصدّرت الفتيا والنوازل لتبيين ما أشكل على أذهان الناس من ممارسة هذه الطقوس الاحتفالية.

فإلى أي مدى انتشرت عادة الاحتفال بالمولد النبوي في مختلف المجتمعات الإسلامية؟ وما هو موقف الفقهاء من هذه العادة الاحتفالية؟ وما هي أهم الممارسات والطقوس الاحتفالية لاسيما عند الزينيين بتلمسان؟

أ. الاحتفال بالمولد النبوي عند الفاطميين بمصر

أول ما ظهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف عند الشيعة الاسماعيلية خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وتُشير المصادر الإخبارية التي اهتمت لتاريخ الفواطم وعاداتهم في احتفالاتهم بالمولديات لاسيما "المولد النبوي الشريف"، كالمقريزي في "الخطط" و"القلقشندي" في "صبح الأعشا"، إلى أنّهم أول من سنّ هذه العادة لترسيخ وجودهم وإثبات نسيبهم⁽¹⁾.

لكن لم يُورد لنا صاحب "الخطط" تفاصيل دقيقة عن ذلك؛ بل اكتفى بذكر إشارة ضبابية ضمن سياق سياسي لدى الفرقة الإسماعيلية، حيث قال: «وكان للخلفاء الفاطميين طول السنة أعياد ومواسم، وهي موسم رأس السنة وموسم أول العام ويوم عاشوراء ومولد

¹ - ينقسم المؤرخون وأصحاب السير في نسب الفاطميين إلى قسمين: قسم مؤيد وآخر منكر؛ فأنصار القسم الأول أكثرهم من الفرقة الشيعة الاسماعيلية الذين يثبتون بأن نسبهم يعود إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ولذلك يدعون بالإسماعيلية)، أي أنهم من الطائفة العلوية المنحدرة من سلالة النبي ﷺ، من بنته فاطمة الزهراء ورابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بينما ذهب القسم الثاني إلى إرجاع هذا النسب إلى عبيد الله المهدي مؤسس الدولة في المغرب الاسلامي سنة 296هـ/908م، وهو يهودي من يهود الفرس الذين تظاهر بموالة جعفر الصادق وأرسى دعائم الباطنية في هذا المذهب، وأغلب أنصار هذا القسم من أهل السنة. للمزيد من الاطلاع أكثر ينظر إلى: موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م، 193 وما بعدها.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

النبي ﷺ، ومولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه⁽¹⁾، وفي نص آخر لنفس المؤلف كان أكثر توضيحاً لكنه لم يُصرح بشرعية الاحتفال كطقس ديني رسمي لدى الخلفاء الفاطميين بالقاهرة في ربيع الأول سنة 394هـ/1003م⁽²⁾.

ويُضيف "عبد الله حمادي" متعجباً أن ينصب اهتمام "المقريزي" على هذه المواسم بالشرح والتفصيل ما عدا المولد النبوي الشريف، وهو من رجالات القرن التاسع الهجري/الخامس عشر ميلادي، مُشجاً علينا بما دة كان يمكن أن تكون هامة لو أنه فصل فيها أكثر⁽³⁾، لكن وردت توضيحات لطقوس الاحتفال بالمولد الشريف عند "المقريزي" وهو يُورخُ ولمناقِب الخلفاء الفاطميين ويمجد أفعالهم في مواطن أخرى، غير التي يشرح فيها بشكل دقيق مراسيم الاحتفالات بالأعياد الأخرى، وهذا ما لم يتفطن له الباحث "عبد الله حمادي"، وسنحاول أن نلم بهذه الشذرات عند "المقريزي" وغيره فيما سيأتي.

أورد "المقريزي" بأن الاحتفال شمل شهر ربيع الأول ولياليه، وذلك بإلزام الناس بوقود القناديل في سائر الشوارع والأزقة بمصر⁽⁴⁾، لاسيما إكرام وخدمة الطيب "أبي يعقوب بن نسطاس"⁽⁵⁾ وحمله على بغلتين ومعه ثياب كثيرة⁽⁶⁾، ولم يتضمن هذا النص أي دعوة صريحة للاحتفال بالمولد النبوي الشريف، بل تضمن فقط إبراز البهجة والسُرور، ولعل

¹ - تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ص 490.
² - نفسه، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج2، تح: محمد حلمي محمد أحمد، لجنة احياء التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، 1971م، ص 48.

³ - ينظر إلى التقديم والتعليق الذي أعقبه عبد الله حمادي في كتاب محمد بن أحمد العزفي السبتي، الدر المنظم في مولد النبي الأعظم، تحقيق: عبد الله حمادي، دار دروب للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، 2015م، ينظر إلى التقديم والتعليق الذي أورده المحقق في هذا الكتاب، ص 19.

⁴ - المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج2، نفسه، ص 48.

⁵ - (أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن نسطاس) بن جريج النصراني، كان طبيبا محنكا، له ملكة الحفظ وكان يتقن الموسيقى، انفراد بخدمه الحاكم بأمر الله الفاطمي كطبيب، واستطب بعده أبا الحسن علي بن رضوان واستمر في خدمته وجعله رئيسا على سائر الأطباء، توفي بالقاهرة سنة 397هـ/1006م. ينظر إلى: المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص70، وينظر كذلك إلى: أبي العباس أحمد بن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج2، ط1، المطبعة الوهيبية، القاهرة، مصر، 1886م، ص86.

⁶ - المقريزي، اتعاظ الحنفا، نفسه، ص 48.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

مردُّ ذلك إلى مُنافسة ومضاهات الطوائف الأخرى سيما المسيحية⁽¹⁾، ويُعتبر من بين أقدم ما كُتِبَ حَوْلَ الظاهرة الاحتفالية عند الفاطميين بمصر، وذلك في عهد الخليفة السادس "الحاكم بأمر الله"⁽²⁾.

شاعت هذه العادة الاحتفالية لدى الفاطميين مع مُنتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي بصفة رسمية، ومن القرائن الدالة على ذلك ما أورده "المقريزي" في "الخطط" من مظاهر احتفالية سنة (517هـ/ 1123م)، أنَّها كانت جارية في عاصمة الفاطميين (القاهرة)، فتميّزت هذه المظاهر بكثرة توزيع الصدقات والأطعمة والحلوى، فكان يُخصَّصُ من مال النَّجَوى⁽³⁾ التي يدفعها أتباع المذهب الفاطمي، مقدار ستة آلاف درهم تُوزَّع على الفقراء والمحتاجين مع أربعمئة رطل حلوى وألف رطل خُبز⁽⁴⁾.

كما كانت دار الفِطْرَة مكاناً هاماً للاحتفال وإقامة كل الطُّقوس المتعارف عليها إذ يقول "القلقشندي" في هذا الصدد: «وكانت عادتهم في أن يعمل في دار الفِطْرَة عشرون قنطاراً من السكر الفائق حلوى من طرائف الأصناف، وتُعبى في ثلاثمئة صينية نحاس، فإذا كان ليلة ذلك المولد تُفرَّق في أرباب الرسوم: كقاضي القضاة، وداعي الدعاة، وقراء الحضرة، والخُطبَاء والمتصدرين بالجوامع بالقاهرة ومصر، وقومة المشاهد وغيرهم ممن لهم اسم ثابت

¹ - اسماعيل سامعي، تاريخ الإحتفال بالمولد النبوي الشريف في العالم الإسلامي والجزائر دراسة وصفية تحليلية نقدية، دار الفجر، قسنطينة، 2016م، ص 76.

² - هو "أبو علي المنصور" بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بنصر الله بن القائم بأمر الله بن المهدي عبيد الله، وهو السادس من ملوك الدولة العبيدية، والثالث من ملوك مصر والشام منهم، بويح له صبيحة وفاة أبيه في رمضان سنة 386هـ/ 996م وليس أثواب الخلافة وعمره إذ ذاك لم يتجاوز احدى عشرة سنة وستة أشهر، وتلقب بأمين الدولة وهو أول من لقب في دولتهم بمصر، وكانت خلافته متضادة بين شجاعة واقدام وجبن واحجام ومحبة للعلم وانتقام من العلماء وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء، وصفته الكتابات بأنه خبيث العقيدة ومضطرب العقل، انتهت ولايته سنة 411هـ/ 1021م. ينظر إلى النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 28- 29، تح: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004م، ص 105. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1963م، ص 176.

³ - عبد المنعم عبد الحميد سلطان، الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي دراسة تاريخية وثائقية، دار الثقافة العلمية، الاسكندرية، مصر، 1999م، ص 126.

⁴ - المقريزي، المواعظ والاعتبار، المصدر السابق، ص 432.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

بالديوان، ويجلس الخليفة في منظره قريبة من الأرض مقابل الدار القطيية⁽¹⁾، وكانت هذه المراسيم تبدأ من بداية أول النهار إلى الظهر طبقاً لمراسيم محددة منوطة بالاحتفال على عهد الخليفة "الأمر بأحكام الله".

وكانت عادتهم بعد ذلك أن يخرج قاضي القضاة بعد ذلك على رأس موكب الاحتفال، بمرافقة المتصدرون والشهود والمكلفون بمحمل صواني الحلوى، فيجلس مقدار قراءة الختمة الكريمة⁽²⁾، ثم يعود الموكب إلى القصر وسط احتشاد كبير للعامة، مسرورين ومطلعين لرؤية الخليفة من منظره القصر، إذ تُفسح الطريق أمام قاضي القضاة والمرافقين تحت جو بهيج، من تنظيف المسالك المؤدية إلى القصر، وثرش بالماء وتغطي بالرمل الأصفر، ثم يظهر وجه الخليفة من المنظره⁽³⁾ للناس ومعضه الخواص والرجال المحنكين، ثم يظهر أحد الأستاذين ويشير بيده قائلاً: «أمير المؤمنين يرد عليكم السلام»⁽⁴⁾.

ليبدأ الاحتفال بعدها بقراءة القرآن، ويتبارى خطباء الجوامع الكبرى في الخطابة وذكر مناقب الرسول ﷺ، ثم يختم الخليفة بالدعاء إلى أن ينتهي الاحتفال، برد السلام عن طريق أحد الأستاذين ثم تعلق طاقة المنظره ويتفرق الناس، وعلى هذه الرسوم وهاتيك القواعد مصى الاحتفال بذكرى مولد النبوي الشريف، طوال قيام عهد الدولة الفاطمية إلى أن دالت بقيام الدولة الأيوبية⁽⁵⁾.

أول ما ظهرت هذه العادة بالاحتفال عند الفاطميين بمصر كما أسلفنا، وتوارثها عنهم من جاء بعدهم من ملوك بلاد الشام والعراق ومصر؛ لاسيما في بلاد ماوراء النهرين التي شهدت احتفالاً ضخماً لمولد النبي ﷺ، وبالضبط في مدينة (إربل) نهاية القرن السادس

¹ - أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج3، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914م، ص ص 502-503.

² - المقرزي، المواعظ والاعتبار، المصدر السابق، ص 433.

³ - كانت هذه المنظره قبالة دار فخر الدين جهار كس والفندق المستجد، ينظر إلى: حسن السندوبي، تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الاسلام الاول إلى عصر فاروق الأول، ط1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، 1948م، ص 67.

⁴ - القلقشندي، نفسه، ص 503.

⁵ - حسن السندوبي، المرجع السابق، ص 70.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

الهجري/ الثامن عشر ميلادي، ثم عمّت هذه العادة بلاد المشرق والمغرب، على عكس ما ذكرت المستشرقة الفرنسية (Catherine Mayeau-Jaouen) بأن هذا الاحتفال ورثه المماليك في مصر عن الفاطميين وغيروا بعض طقوسه،⁽¹⁾ على إعتبار أن المماليك من الطائفة السنّية الغير مُتشددة لما كان يفعلُه الفاطميون من قبلهم، مُتناسيةً دورَ ملك (إربل) في تعظيم هذه العادة الاحتفالية قبل أن يؤسس المماليك دولتهم.

على غرار ذلك يذهب المُستشرق الألماني "آدم ميتز" أن الاحتفال بالمولد النبوي كان من بين أعظم شعائر المسلمين من أهل الصّلاح والورع، وصار يحتفل به عام (300هـ/912م)⁽²⁾، ثم يُقدّم لنا نموذج عن "الكرخي"⁽³⁾ المتوفى عام (343هـ/954م)، أنه كان من الزهاد المتعبدين وكان يصوم ولا يفطر إلا في العيدين وفي يوم مولد النبي عليه السلام⁽⁴⁾، وهذا ضرب من الخيال ومبالغة في سرد أخبار "أبي جعفر الكرخي"، ومع تَبُعنا ترجمته في المصادر، لم نعثر على أنه كان يفطر أو يحتفل بعيد المولد؛ ويرى "حسن السندوبي" إلى أن أول من قام بالاحتفال مصر الفاطمية هو "المعز لدين الله"⁽⁵⁾.

ونجده في كتابه "تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي" يؤكد على ذلك بأن "المعز لدين الله" حينما إنتهى من ترتيب الديار المصرية؛ أخذ بالأسباب للوصول إلى أغراضه التي تمت بصلة

¹ - Catherine Mayeau-Jaouen, Gens de la maison et mouleds d'Égypte. De la religion civique à la religion populaire, Publications de l'École Française de Rome, paris, 1993, p 314.

² - آدم ميتز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، تر: محمد عبد الهادي أبوريدة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، 2008م، ص 250.

³ - هو أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي كان على جانب عظيم من كرم النفس والذكاء وقوة الحافظة، تقلد ولايات كبيرة مثل البصرة والأهواز كما تقلد عدة دواوين كبار جليلة بالحضرة ثم تقلد الوزارة للراضي بالله العباسي ثم الوزارة للمتقي بالله أخوه، وأطلق اسم الكرخيين على سلالته لأن أصلهم من ناحية الرستاق الأعلى بالبصرة في عراض المفتاح تعرف (بالكرخ)، كان يعرف بالجرى، اضطربت الاحوال في آخر عمره فلزم بيته وآلت حاله إلى الفقر الشديد، توفي في شوال سنة 343هـ/954م عن عمر يناهز سبع وسبعين سنة. ينظر إلى: ياقوت الحموي، معجم البلدان، م4، دار صادر بيروت، لبنان، ص ص 447-448. وشمس الدين الذهبي، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج25، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص287. وعز الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، م7، مراجعة وتصحيح: محمد يوسف الدقاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987، ص 251.

⁴ - آدم ميتز، نفسه، ص 250.

⁵ - حسن السندوبي، المرجع السابق، ص ص 64-65.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

إلى المظهر الديني، واستمالة قلوب العامة وامتلاك نفوسها واستثارة العواطف بإقامة مواسم حافلة وأعياد شاملة.

وكان أولها وأفضلها وأجلها الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، لاسيما أن المؤرخ "عبد العزيز فيلاي" يجزم بذلك ويعتقد أن "المعز لدين الله" سن للمجتمع المصري سنة مواليد من بينها المولد النبوي⁽¹⁾، ونحن لا نوافق الرأي في ذلك لأنهما لا يقدمان لنا دليلاً صريحاً على أن "المعز لدين الله" هو أول ملوك الفواطم؛ سن عادة الاحتفال بالمولد، لأن الظروف القائمة في وقته لم تعد سائحة للقيام بذلك.

ب. الاحتفال بالمولد النبوي عند أبي سعيد كوكبوري في إربل

خلدت المضان التاريخية مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في بلاد الشام على عهد الملك المظفر "أبو سعيد كوكبوري"⁽²⁾ صاحب مدينة (إربل)⁽³⁾ مع نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الهجريين، إذ يعتبر أحد الأجواد والسادات الكبراء والملوك الأمجاد له آثار حسنة، وكان مضرب الأمثال في العظمة والجلال وييدي فيه من العناية والبذل ما هو

¹ - عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزيناني - دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية -، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ص 274.

² - كوكبوري (كوكبوري): بضم الكافين بينهما واو ساكنة، ثم باء موحدة مضمومة، وواو ساكنة بعدها راء، وهو اسم تركي معناه بالعربي ذئب أزرق. ينظر إلى: ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، م 7، تح: محمد الأرنؤوط، ط 1، دار بن كثير، بيروت، لبنان، 1991م، ص 243.

³ - إربل: ويطلق عليها كذلك اسم (أربيل) هي مدينة بشمال العراق من إقليم كردستان الآن، وهناك اسم لمدينة صيداء التي تقع بالساحل من أرض الشام وهو (إربل)، إلا أن المدينة العراقية هي المقصودة بالذكر، وكانت تمثل قاعدة بلاد شهنرور ومنها إلى الموصل يومان خفيفان، لها قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعتها خندق عميق وهي في طرف من المدينة، وسور المدينة ينقط في نصفها، وهي على تل عال من التراب عظيم واسع الرأس، وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية وجامع للصلاة، وهي شبيهة بقلعة حلب، إلا أنها أكبر وأوسع رقعة، تقع بين الزابين، تعد من أعمال الموصل، وفي ريبض هذه القلعة في عصرنا هذا مدينة كبيرة عريضة طويلة، قام بعمارته وبناء سورها وعمارة أسواقها وقيسارياتها الأمير "مظفر الدين كوكبوري"، فأقام بها وقامت بمقامه بها، وقصدها الغرباء وقطنها كثير منهم حتى صارت مصراً كبيراً من الأمصار، ينظر: إلى: عماد الدين بن محمد أبي الفدا، تقويم البلدان، مراجعة وتصحيح: رينود والبارون ديسلان، دار الطباعة الملكية، باريس، فرنسا، 1840م ص 413. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977م، ص 137.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

فوق الآمال⁽¹⁾، وكان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ويحتفل به احتفالاً هائلاً⁽²⁾، أتم عناية واهتمام جاوز الغاية⁽³⁾.

وأعتبر "أبو شامة" ذلك من البدع الحسنة لما يكثر فيها من الخير وتعظيم النبي ﷺ في النفوس والقلوب، في قوله: «ومن أحسن ما ابتدع في زماننا من هذا القبيل، ما كان يفعل بمدينة (إربل) كل عام في اليوم الموافق ليوم مولد النبي ﷺ من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسُرور، فإن ذلك مشعر بمحبة النبي ﷺ وتعظيمه وجلالته في قلب فاعله»⁽⁴⁾.

نظراً لأهمية هذه العادة الاحتفالية في نفوس الناس وتعظيم شأنها وتأثيرها على سلوكياتهم وذهنياتهم، فإنَّ الضرورة لذلك أصبحت واجبة في العمل والإعداد طيلة ثلاثة أشهر متواصلة، تتعطل فيها أعمال الناس لينشغلوا على المغاني والملاهي في القباب المنصوبة لهذا الغرض⁽⁵⁾.

إذ يُفيدنا "ابن خلكان" في هذا الموضوع: «ولا يزالون يتواصلون من مُحَرَّم إلى أوائل شهر ربيع الأوَّل، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب كل قبة أربع أو خمس طبقات، ويعمل مقدار عشرين قبة أو أكثر منها قبة له، والباقي للأمرء وأعيان دولته لكل

¹ - حسن السندوبي، المرجع السابق، ص 70.

² - أفاضت المصادر التاريخية في ترجمة الملك المظفر وذكر خصاله ومناقبه وتبسطه للناس خاصة في موسم الاحتفال بالمولد، وكان ابن خلكان من أبرز الذين خصص أكثر من تسع صفحات في تخليد مآثره. أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي بن سبكتكين بن محمد الملقب الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل، ولد يوم الثلاثاء (27 محرم 549هـ/1153م)، تولى مقاليد الحكم بعد وفاة أبيه وعمره أربع عشرة سنة، شهد مع صلاح الدين الأيوبي مواقف كثيرة وأبان فيها عن قوة ونجدة وقوة ونفس وعزيمة، وكان يباليغ في فعل الخيرات وإغداق الأموال على الفقراء والمساكين وبذل الصدقات، كما مصر البنايات الرفيعة وكان ينزل بنفسه ليسأل عن حال العامة في البيمارستانات ويتفقد ويتولى أمرهم، وبنى للصوفية خانقاهين فيهما خلق كثير من المقيمين والواردين، ويجتمع في أيام المواسم فيها من الخلق ما يعجب الانسان من كثرتهم، وتوفي يوم الجمعة 14 رمضان 630هـ بإربل ثم حمل بوصية منه الى مكة ليُدفن لكن الظروف لم تشأ الا أن يستقر جثمانه في مدينة الكوفة. ابن خلكان، وفيات الأعيان، م4، ص 113 وما بعدها. بن كثير، البداية والنهاية، ج17، ص 204، سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج22، ص 322، بن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، م7، ص 243.

³ - السخاوي، التبر المسبوك، المصدر السابق، ص 56.

⁴ - شهاب الدين أبو شامة، الباعث على انكار البدع والحوادث، تح: محمد محب الدين أبو زيد، ط1، مكتبة مجد الإسلام، القاهرة، مصر، 2007م، ص 93-94.

⁵ - اسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص 81.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

واحد قبة، فإذا كان أول صفر زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المستجملة، وقعد في كل قبة جوق من المغاني وجوق من أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي، ولم يتركوا طبقة من تلك الطباق فيها كل قبة حتى رتبوا فيها جوقا، وتبطل معاش الناس في تلك المدة، وما يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم»⁽¹⁾.

هذه الطقوس لم تكن واردة عند الفواطم من قبل، بالمقارنة مع ما فعله الملك "مظفر الدين" تبقى طريقة احتفالهم متواضعة غير مبالغ فيها، ولهذا السبب رأى بعض الاخباريين أن الملك "مظفر الدين" أول من أحدث ذلك من الملوك⁽²⁾ أي توفير الأجواء الاحتفالية المناسبة المكلفة للجهد والمال والوقت، نظرا لكثرة الوفود على مدينة (إربل).

يبدأ الاحتفال الرسمي بعد العصر إلى ساعات متأخرة من الليل، كما هو متعارف عليه في مدينة (إربل) وحتى عند الفاطميين من قبلهم، فليلة المولد هي الوقت المفضل لإقامة الشعائر الدينية والطقوس الاحتفالية حيث كان الملك بعد صلاة المغرب يعمل السَّماعات⁽³⁾، وهي المدائح والأغاني والأهازيج الصوتية التي كانت تزين الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، كما تمثل وسيلة لجمع عدد كبير من الناس وإغراقهم في الروحانيات⁽⁴⁾.

لاسيما وأنَّ تمثلات هذه المراسيم لا تتم إلا بحضور أعيان الصوفية، الذين استطاعوا أن يكسبوا ود الملك بطرائقهم في المدح والتهايل الليلة والأناشيد، بحضور العامة مع ايقاد الشموع، وما يدل على ذلك قول ابن كثير في البداية والنهاية: «وكان يحضر عنده في المولد أعيان العلماء والصوفية، فيخلع عليهم ويطلق لهم، ويعمل للصوفية سماعا من الظهر إلى الفجر ويرقص معهم بنفسه»⁽⁵⁾، ثم ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيء كثير⁽⁶⁾.

¹ - ابن خلكان، الوفيات، م4، المصدر السابق، ص 118.

² - محمد بن يوسف الصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج1، تح: مصطفى عبد الواحد، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة، مصر، 1997م، ص 438.

³ - ابن خلكان، نفسه، ص 118.

⁴ - اسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص 83.

⁵ - ابن كثير، البداية والنهاية، المصدر السابق، ص 205.

⁶ - ابن خلكان، نفسه، ص 118.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

تستمر الممارسات الاحتفالية على هذه الشاكلة حتى صبيحة اليوم الموالي، ليشرع "مظفر الدين كوكبوري" في أعطياته على المشيخة الصوفية والعلماء وكل الحاضرين على مختلف أجناسهم على عادته، وهذا ما ورد عند "سبط بن الجوزي" في قوله: «فإذا كان من الغد بعث إليهم من يكتب أسماءهم، وكل شيخ ومعه جماعة فيعطي المشايخ على قدر طبقاتهم من المئة دينار إلى الخمسين والثلاثين، ولأتباعهم على حدة، ويعطي كل واحد على قدر حاله دائما، وبني حيزا عظيما وقسمه أربعة أقسام: مكان للزمني، ومكان للعميان، ومكان لليتامى، ومكان للمساكين وأجرى عليهم الجرايات والجوامك⁽¹⁾ والكساوي⁽²⁾». كذلك توزع الخلع السنية على الصوفية والعلماء⁽³⁾، وبعد الانتهاء من الأعطيات ينصب الملك في ميدان الاحتفال، ويجتمع الأعيان والرؤساء وطائفة كبيرة من بياض الناس⁽⁴⁾، لينظر الاستعراضات العسكرية والجند تارة وإلى الناس والوعاظ تارة أخرى⁽⁵⁾، وهكذا دأبه في كل موسم إحتفال إلى أن يحين وقت الأكل ليتوجه الجميع إلى موائد الطعام. جرت العادة في (إربل) نحر الإبل والبقر والغنم وزف الطبول والأناشيد، تعبيرا على الفرحة والسرور بمناسبة تعظيم مولده ﷺ، وتقام هذه الممارسات قبل يوم المولد بيومين وذكر "بن خلكان" اختلافا يقع في تحديد هذا اليوم من كل سنة: «وكان يعمله سنة في ثامن الشهر وسنة في الثاني عشر، لأجل الاختلاف الذي فيه»⁽⁶⁾.

¹ - الجوامك: (الجامكية) المقصود بها هو: مرتب موظفي الدولة. ينظر إلى: جبران مسعود، معجم الرائد، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1992م، ص 266.

² - سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، المصدر السابق، ص 324.

³ - علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ج1، مطبعة بولاق، القاهرة، مصر، 1889م، ص 133.

⁴ - وصف الناس بالبياض لكثرة ما يرتدونه من جيب وأقمصة بياض التي تليق بمقام الاحتفال.

⁵ - ابن خلكان، المصدر السابق، ص 118.

⁶ - نفسه، ص 118.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

ثم يشروعون في نصب القدور والطبخ ليقدموها صبيحة المولد للأعيان والرؤساء والناس⁽¹⁾، ويسرد "بن كثير" أجواء الاحتفال بما فيها موائد الطعام والمأكولات التي كان "مظفر الدين" يقيمها؛ بأن يعد سماطا ضخماً فيه خمسة آلاف رأس شوي، وعشر آلاف دجاجة، ومائة ألف زيديية⁽²⁾ وثلاثين ألف صحن حلوى⁽³⁾.

ويضيف "سبط بن الجوزي" بأن عُدتْ على السماط مئة قشلمش⁽⁴⁾ وثلاثين ألف صحن حلوى⁽⁵⁾ بعد أن تضرب الخيام في ميدان الاحتفال، ومن ضخامة هذا المشهد الاحتفالي الاحتفالي لم يستطع "بن خلكان" يُقدّر ذلك بعدد، وجاء الوصف مطلقاً ليعبر عن خصوصية هذه العادة المبالغ في احيائها كل موسم لدى الملك "مظفر الدين" في إربل قائلاً: «يقدم السماط في الميدان للصعاليك⁽⁶⁾، ويكون سماطا عاما فيه من الطعام والخبز شيء كثير لا يجد يجد ولا يوصف، ويمد سماطا ثانيا في الخانقاه⁽⁷⁾ للناس المجتمعين عند الكرسي⁽⁸⁾.

¹ - علي باشا مبارك، المصدر السابق، ص 132.

² - الإناء المعروف من الفخار وقال صاحب سبل الرشاد أي من الطعام.

³ - ابن كثير، المصدر السابق، ص 204.

⁴ - أقراص الخبز.

⁵ - سبط بن الجوزي، المصدر السابق، ص 324.

⁶ - على الأرجح أن الصعاليك هم من عامة الناس.

⁷ - الخانقاه: بالكاف (Khangah) وتسمى (خانكه) هي لفظ أعجمي، وهو مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة والأعمال الصالحة، اتخذها "مظفر" موضعا لممارسة الشعائر التعبدية الروحانية وأوقف فيها مالا كثيرا، وأطلق عليها (الخانكاه الزينية) نسبة إلى أبيه زين الدين علي كوجك، وإلا في الحقيقة فهي (المظفرية) كما هو مكتوب عليها، وهذه الخانقاه كانت دارا للأستاذ قنبر أو (عنبر)، أحد خدام القصر أيام الفاطميين وكان يلقب بسعيد السعداء، وقد خصصها صلاح الدين الأيوبي سنة 569هـ/1173م للفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، وجعل لها أوقافا، ولذلك تعرف أيضا بالخانقاه الصالحة والظاهر أنها أول خانقاه وجدت في القاهرة. وهي كما يذكر بن مرزوق: بمثابة (الزاوية) أو (الرباط) ببلاد المغرب؛ والرباط في اصطلاح الفقهاء عبارة عن احتباس النفس في الجهاد والحراسة، وعند المتصوفة عبارة عن الموضوع الذي يلتزم فيه العبادة. ينظر إلى: أبو ذر سبط ابن العجمي الحلبي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، ج1، تحقيق: شوقي شعث وشوقي البكور، ط1، دار القلم العربي، سوريا، 1996م، ص ص 384-395. وينظر كذلك إلى: المقرئ، المواعظ والإعتبار، ج4، طبعة1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 282. وينظر كذلك إلى: ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 411.

⁸ - ابن خلكان، الوفيات، م4، المصدر السابق، ص 119.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

تم هذا الأجواء الاحتفالية البهيجة بطريقة تقليدية تمتاز بإدخال الفرحة والسرور في قلوب الحاضرين على اختلاف مشاربهم، ولا تزال هذه الأجواء كذلك إلى العصر ثم يبيت الملك هناك تلك الليلة، ثم يدفع لكل شخص من الوافدين شيئاً من النفقة هكذا دأبه كل سنة⁽¹⁾، ولما وصل الحافظ "أبو الخطاب بن دحية"⁽²⁾ وعمل "كتاب التنوير في السراج المنير" أعطاه ألف دينار سوى ما أنفقه عليه مدة إقامته⁽³⁾.

وينتهي هذا الاحتفال عندما يستوفي كل الناس صدقاتهم، ثم تنتقل هذه العادة إلى بلاد المغرب الإسلامي وتشيع بين مختلف أقطاره ابتداءً من عدوة الأندلس فالمغربين الأوسط والأقصى.

ج. الاحتفال بالمولد النبوي عند العزفيين في سبتة

إذا كان الاحتفال في البلاد المشرقية له طقوسه وخصوصياته المتعارف عليها بهدف تعظيم يوم مولد النبي ﷺ، واستحضار سيرته العطرة وإدخال البهجة والسرور على قلوب العامة وإنفاق الأموال والصدقات على العلماء وغيرهم؛ فإن المجتمع المغربي استطاع أن يتكيف مع هذه المراسيم الطقوسية بطريقته الخاصة، ويُخلف لنا تآليف مولدية دلت على الحضور الديني القوي لديهم، وهو الأمر الذي تمثل عند أسرة العزفيين بمدينة سبتة⁽⁴⁾، حيث

¹ علي باشا مبارك، المصدر السابق، ص 133.

² ابن دحية: هو أبو الخطاب بن الحسن بن علي بن محمد بن أحمد بن دحية الكلبي الأندلسي البلنسي الحافظ المعروف بذي النسبتين، ولد في ذي القعدة (544هـ/1149م)، كان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء، متقناً لعلم حديث النبي وما يتعلق به، عارفاً بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها، كان طلبة للعلم في مشارق الأرض ومغاربها، قدم مدينة (إربل) في سنة 604هـ/1207م، فرأى صاحبها الملك المعظم "مظفر الدين بن زين الدين" مولعاً بعمل مولد النبي ﷺ عظيم الاحتفال به فعمل له كتاباً سماه التنوير في السراج المنير وقرأه عليه بنفسه، وذيله بقصيدة مطولة أولها:

لولا الوشاة وهم... أعداؤنا ما وهموا، توفي يوم الثلاثاء ربيع الأول (633هـ/1235م). ينظر إلى بن خلكان، الوفيات، م3، ص ص 448-450.

³ ابن خلكان، الوفيات، م4، المصدر السابق، ص 119.

⁴ سبتة: (Ceuta) وهي بلدة مشهورة على قواعد بلاد المغرب، تشرف على البحر المتوسط قريبة من الأندلس، تحيط بها جبال كثيفة، تعاقب عليها دويلات منذ الفتوحات الإسلامية وكانت دائماً حاضرة يلتجأ إليها الأندلسيون لذلك تتميز في عمرانها ومرافقها العامة بالطابع الأندلسي، استقرت بها أسرة آل العزفي وخذلوا فيها آثار ومنشآت عديدة، من بينها

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

كانوا يجوبون آل البيت وهم من أحدثوا بالمغرب تعظيم ليلة الميلاد النبوي على صاحبه الصلاة والتسليم⁽¹⁾، وكانت لهم الرياسة في سبته مدة من الزمن وينتسبون إلى "محمد الشهير بن أبي عزة اللخمي"، ينتهي نسبهم إلى "قابوس بن النعمان بن المنذر"⁽²⁾، قال فيهم "بن خميس"⁽³⁾ التلمساني:

بَنُو الْعَزْفِيِّينَ الْأَوْلَى مِنْ صُدُورِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ ثَمَلَا الْقَرَاطِيسُ وَالطَّرْحُ⁽⁴⁾
إِذَا مَا فَتَى مِنْهُمْ تَصَدَّى لِغَايَةِ تَأَخَّرَ مَنْ يَنْحُو وَأَقْصَرَ مَنْ يَنْخُو
رِيَّاسَةَ أَخْيَارٍ وَمُلْكَ أَفَاضِلِ كِرَامٍ لَهُمْ فِي كُلِّ صَالِحَةٍ رَضَخُ
وَمَا الزُّهْدُ فِي أَمْلَاكَ لَحْمٍ وَلَا الثُّقَى بِيَدِ مَنْ يَلْدُنِيَا لَزُوقُ يَمَنْ يَرْخُو⁽⁵⁾

حامات وفنادق وغير ذلك كما يشيد بذلك محمد بن القاسم الأنصاري، والذي يصفها وصفا دقيقا من حيث مساجدها ومدارسها ورباطاتها وخزائنها العلمية، ويعتبرها حاضرة علمية واقتصادية وسياسية كبيرة مع نهاية القرن الرابع عشر ميلادي/التاسع هجري، وهي الآن تحت الحكم الإسباني. ينظر إلى: محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبته من سني الآثار، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط، المغرب، 1983م، ص 15. وينظر كذلك إلى: Lévi-Provençal, une description de Ceuta musulmane au XV^e siècle, Hespéris, Année 1931, p 145.

¹ - أبو العباس المقرئ التلمساني، نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، م8، تحقيق: مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012م، ص 14.
² - المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج2، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، مصر، 1940م، ص 374.

³ - هو محمد بن عمر بن محمد بن محمد بن محمد الحجري الرعيني نسبة إلى حَجْرٍ ذِي رُعَيْنٍ وهو من أهل تلمسان، يكنى أبا عبد الله ويعرف "بابن خميس"، قال المقرئ نقلا عن بن الخطيب في عائد الصلة: كان رحمه الله نسج وحده زهدا وانقباضا وأدبا وهمة، قليل التصنع بعيدا عن الرياء والهوى، عاملا على السياحة والعزلة، قائما على العربية والأصليين، طبقة الوقت في الشعر، وفحل الأوان في المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب، رحل من تلمسان بلده إلى سبته، فأقام بها مدة ومدح رؤسائها بني العزفي، ثم أجاز البحر إلى الأندلس، فاحتل بحضرة غرناطة أواخر سنة ثلاث وسبعمئة، في جواز الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، وكان رحمه الله من فحول الشعراء، وأعلام البلغاء، كانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلا ضحوة يوم الفطر مستهل شوال سنة 708هـ/ 1308م، وهو بن ثمان وخمسين سنة. ينظر إلى: المقرئ، أزهار الرياض، ج2، ص 301-304.

⁴ - اسم جنس جمعي، واحده طرخة، وعلى حوض واسع يجعل عند مخرج القناة ليجتمع فيه الماء، وينصب منه إلى المزرعة.
⁵ - المقرئ، نفسه، ص 326.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

استناداً إلى ما ذكرته المصادر الاخبارية بأن المولد النبوي أوّل من احتفل به في بلاد المغرب الاسلامي هم بنو العزفي في سبتة، ويذكر "بن عذارى في البيان" أنّ الفقيه العالم "أبو القاسم العزفي" أوّل من استبدّ بمُلك (سبتة) كان أهلها يعظمونه بغاية الاعظام والتوقير لجانبه والاحترام⁽¹⁾، لما كان يقيم به من احتفال بمولد النبي ﷺ ويهتم لشؤونهم.

وأكد "ابن مرزوق" في المناقب أنّ "العزفي" قد أقامه بسبتة وبه وقع الإقتداء⁽²⁾، حيث قام سنة (647هـ/1249م) بهذا الاحتفال قال "بن عذارى": «ومن مآثره العظام قيام بمولد النبي عليه السلام من هذا العام، فيطعم فيه أهل بلده ألوان الطعام، ويؤثر على أولادهم ليلة يوم المولد السعيد بالصرف الجديد من جملة الإحسان عليهم والإنعام، وذلك لأجل يطلقون المحاضرَ والصنائع والحوانيت يمشون في الأزقة يصلون على النبي ﷺ، وفي طول اليوم المذكور يسمع المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي ﷺ، بالفرح والسرور والإطعام للخاص والعام، جارٍ ذلك على الدوام في كل عام من الأعوام»⁽³⁾.

يعطينا "ابن عذارى" صورة صادقة عن طقوس الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، إلّا أنه لا يسرد لنا تفاصيل الممارسة كما رأينا عند الفواطم في مصر أو في إربل عند "مظفر الدين كوكبوري"، لكن يظهر الاختلاف جلياً في أنّ المحتفلين كانوا يسرون في أزقة سبتة ويرددون الصلاة على النبي ﷺ كما يسمعون الأمداح لأهل البلد وهذا ما يميز المجتمعات المغاربية عن غيرها في أشكال الاحتفال بهذه العادة المتعارف عليها عند أهل المشرق والمغرب.

¹ - أبو العباس ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق وتعليق: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، م3، ط1، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2013م، ص ص 532-534.

² - أبو عبد الله محمد ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2008م، ص 295.

³ - نفسه، ص 534.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

يتفق المؤرخون على أن "أبا العباس" (1) أحمد بن محمد" كان أوّل من كتب في التآليف المولدية في أسرة العزفيين، ثم توفي ولم يكمل كتابه ليأتي ولده من بعده "أبو القاسم محمد" (2) رئيس سبته ليتم مشروع أبيه.

كما نجد "المقري" يبرز لنا الغرض من إقامة المولد النبوي الشريف، في تلك الظروف التي كانت بلاد المغرب الاسلامي مضطربة وتعج بالفوضى؛ لاسيما زحف المد النصراني وانتشاره بها، مما جعل المسلمون يقيمون شعائر وطقوس لا علاقة لها بمعتقداتهم، كانت قد تسربت إلى مقدساتهم إما عن جهل وإما عن تبعية أو عن تمادي في التقصير عن معرفة (3)، حيث يورد المقري في هذا الصدد: «ليتخذوا مولده الكريم موسماً يتركون به ما كانوا يقيمونه من أعياد النصراري وعوائدهم، التي يجب لمغانيها أن تعطل، ولبانيها أن تهدم» (4).

¹ - هو الشيخ الفقيه العالم العلم الأوحده الورع الفاضل الضابط الناقد المسند بقية المحدثين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي عزفة" اللخمي العزفي السبتي، مولده في السابع عشر من رمضان المعظم عام سبعة وخمسين وخمسمائة وتوفي في رمضان عام ثلاثة وثلاثين وستمائة. أوّل من ألف في المولد النبوي الشريف، وكان له قصب السبق في إحياء هذه العادة المستحبة في بلاد المغرب الاسلامي، له تواليف حسنة وكان ذا فضل وصلاح وجمالة واتقان. ينظر إلى: قاسم بن عبد الله بن الشاط السبتي، برنامج شيوخ بن أبي الربيع السبتي، قرأه وعلق عليه: العربي الدائر الفرياطي، ط1، مركز الدراسات والأبحاث وحياء التراث، الرباط، المغرب، 2011م، ص ص 63-64. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج46، م3، تحقيق وتعليق: بشار عواد معروف ص ص 141-142.

² - أبو القاسم محمد بن القاضي الحدث أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسين بن الفقيه الامام علي بن محمد بن سليمان بن "محمد الشهير بن أبي عزفة" اللخمي، ولد بسبته في منتصف شوال عام (607هـ/1210م) وكان قيامه بها ليلة سبع وعشرين من رمضان من عام (647هـ/1249م)، وكانت دولته ثلاثين سنة وشهرين وستة عشرة يوماً، من أهل الظرف والبراعة والطبع المعين والذكاء رئيس سبته وابن رؤسائها، أكمل كتاب والده (الدر المنظم) وأوضح فيه قصده وذكر فيه بعض ما خص الله تعالى به نبيه ﷺ وفضله على كل من تأخر من خلقه أو تقدم، وما امتن به عليه وعلى أمته في أن جعله أفضل الأنبياء، وتوفي بسبته يوم الخميس 13 ذي الحجة من عام (677هـ/1279م) وله سبعون سنة، كان فقيهاً أصولياً نحويًا لغويًا محدثاً عرفاً بالرواية شاعراً مجيداً فمن نظمه لآل بيت المصطفى ﷺ: ذرية المصطفى إني أحبكم*** وحبكم واجب في الدين مفترض. المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ص 377. ولسان الدين بن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، القسم الثالث، مراجعة وتقديم وتعليق: تحقيق بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص ص 487-486.

³ - ينظر إلى التقديم الذي وضعه عبد الله حمادي في كتاب الدر المنظم، ص 25.

⁴ - المقري، نفسه، ص 376.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

لاشك أن المسلك الذي سلكه العزفيين مسلك حسن لما توفرت في ذلك من احياء السنة وإغاثة الملهوف والاستكثار من الصدقة وأعمال البرّ هو أفضل مما سوى ذلك مما أحدث⁽¹⁾، إذ لا يخلوا من مزاحم في النية أو مفسد للعمل أو دخول شهوة⁽²⁾، وبالتالي سار على دربه الكثير من الملوك والسلاطين والعلماء في هذا التقليد المحمود مثلما سنرى عند ملوك بني زيان.

د. الاحتفال بالمولد النبوي عند الزيانيين في تلمسان

تشير المصادر التاريخية إلى أن المجتمع الزياني التلمساني احتفل رسمياً بالمولد النبوي مع تولي "أبي هو موسى الثاني"⁽³⁾ مقاليد الحكم سنة (760هـ/1359م)⁽⁴⁾، في حين شاعت هذه العادة الاحتفالية ببلاد المغرب والأندلس وأصبحت عادة رسمية على شكل حَضْرَة⁽⁵⁾ تقام لها كل طقوس الاحتفال، التي تخلف عنها المجتمع التلمساني حتى منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر ميلادي.

¹ - عبد الحلي العمراني، المرجع السابق، ص 243.

² - نفسه، ص 243.

³ - هو "أبو هو موسى بن يوسف بن عبد الرحمان بن يحيى بن يغمراسن بن زيان بن ثابت" (723هـ/1323م - 791هـ/1390م)، هو سابع ملوك بني زيان نشأ بتلمسان، ثم اضطرت الظروف إلى أن يخرج منها ويقيم لاجأ عند بني حفص بمحاضرتهم، ثم تنقل في بلاد الجريد بين القبائل العربية الموالية له ليستقر به الأمر في النهاية إلى تلمسان ويدخلها عنوة على أبو عنان المريني سنة (760هـ/1359م)، وكان رجلاً شجاعاً ذا مروءة وشهامة قال يحيى بن خلدون: «بأنّ له نظم ارتفعت طبقة عن شعر الملوك وسياسة تكفل بتعريف فضلها تأليفه المسمى بوسطة السلوك»، وأوّل ملوك بني زيان اتخذ عادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف كمعلماً رسمياً في تلمسان. ينظر ترجمته إلى: يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، ج2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2011م، ص 39. ص 16 - 15.

⁴ - محمد بن عبد الله التنسي، نظم الدر والعيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمود بوعياذ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص 164.

⁵ - الحَضْرَة: (hadra) هو مصطلح له دلالة روحية صوفية، والحضرة هي تجمع كبير وموسع لمناسبة احتفالية على شرف أحد المرابطين، وتكون بذلك مجالاً للقاء ومعالجة أهم القضايا التي تخص الجماعة، وهي فضاء أو مكان لها حرمتها، ولها ارتباط وثيق بالموسم أي الدورة الزمنية التي يتمّ فيها الموعد الرسمي للعادة الاحتفالية، لقد أخذت هذه العادة الاحتفالية (الحضرة) طابع القداسة؛ وأصبحت المحافظة عليها من الأهمية بما كان بالنسبة لجميع أفراد المجتمع، وهذا ما ينطبق بالدرجة الأولى على المجتمع الزياني الذي كان يرى في حضرة الاحتفال بالمولد النبوي واجب مقدس. ينظر إلى: Louis Rinn, Marabouts et Khouan étude sur l'islam en Algérie, Alger, 1884, p84.

السابق، ص 55.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

➤ قصر المشور رمز الاحتفال الرسمي بعادة المولد النبوي الشريف: المشور أو المشوار: قال الفيروز آبادي: ماشارة به، والمخبّر والمنظر، كالشورة⁽¹⁾، وهو مصطلح تاريخي يعني على وجه الإجمال مكان انعقاد الاجتماعات والندوات والمداومات، وهو مجلس لإقامة العدل؛ وقد يتناول فيه الأمير واجباته اليومية مع رجال بطانته⁽²⁾، وتدارس القضايا الخاصة بالعشيرة ونحوها، مثله في ذلك مثل سقيفة بني ساعدة في المدينة المنورة⁽³⁾.

ويسمى كذلك (قلعة المشور) أو (القصر الملكي)، كما تشير إلى ذلك المصادر التاريخية والدراسات الأثرية، يقول "الدكتور نقادي": "أن قلعة المشور توجد في مركز المدينة جنوبا وبمحاذاة سور المدينة يقابلها في الشمال الجامع الكبير ومقر الولاية من المرابطين ثم الموحديين من بعدهم، والذي أطلق عليه قصر يغمراسن ثم القصر البالي أو القديم، وتقع هذه القلعة بأعلى نقطة لمركز المدينة إذ توجد على ارتفاع يقدر بثمانمائة وستة أمتار على مستوى سطح البحر، أنشأها "يغمراسن بن زيان" لما اتخذها عاصمة لدولته"⁽⁴⁾، على عكس ما يذهب إليه البعض بأنها من تمصير "عبد المؤمن بن علي" بعد سيطرته على المدينة.

كما اتخذها "يغمراسن" مقرا رسميا لإقامته، وكان يستقبل فيه الأمراء والسفراء الاجانب؛ ونجد في (البغية) لهجة زناتية تدل على احدى ساحات قصر المشور "ثم يحشرون بمشوار إيمي ان تجمي وغيره من الرحاب الفسيحة"⁽⁵⁾ قال "حاجيات": معناها (باب البستان) أو (البستان) وهو المكان الذي بني فيه القصر، وقد تطلق كلمة (المشور) على جناح مستقل من أجنحة القصر، وصاحب المشور هو أمين الدولة وكاتب السر، ومولى المشور هو

¹ - مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مراجعة وإعتناء: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2008م، ص 899.

² - ينظر إلى محمد بلقراد، تلمسان، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد 27، سبتمبر- أكتوبر 1975م، ص 307.

³ - الرزقي شرقي، المعالم التاريخية والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان في عدسات مصوري القرن(19م)، نشر ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، 2013م، ص ص 67- 68.

⁴ - سيدي محمد نقادي، الخطة العمرانية لمدينة تلمسان ودلالاتها الاجتماعية، تلمسان، 2013م، ص ص 33- 34.

⁵ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 298.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

المشرف على الندوات والمحافل الرسمية⁽¹⁾، كاحتفال بالمولد النبوي الذي كان "أبا همو موسى الثاني" يقيمه فيه بطريقة انفرد بها بني عبد الواد منذ سنة (760هـ/1359م)⁽²⁾، وتم بناء السور العظيم الذي أدير على القصر سنة (850هـ/1447م)⁽³⁾ كما ورد عند "التنسي".

حاول "التنسي" أن يُقنِعَنَا بأنَّ سبب بناء السور العظيم الذي أدير حول القصر وما انظم إليه هو ثورة (الأمير أحمد بن الناصر بن المولى أبي همو)⁽⁴⁾ على (صاحب تلمسان) المقصود بالذكر في رواية "عبد الباسط بن خليل" وهو (أبو العباس أحمد العاقل بن أبي همو الثاني) الذي حكم في (834-866هـ/1431-1462م)؛ هو التهديدات الخارجية المحدقة به من كل حدب وصوب، خاصة التي كانت تأتي من جهة الشرق من عثمان صاحب تونس⁽⁵⁾، حيث تم "بناء برج عظيم على باب تلمسان وأخذ في قطع ما إلى جانب الباب من خارجه من الأشجار واجتهد في تحصينها وتفقد أسوارها وجد في العمل في إنشاء هذا البرج حتى أنهاه"⁽⁶⁾.

الظاهر أنَّ التهديدات والتحرشات الخارجية وما تتبعها من ثورات على (قصر المشور) من أجل بسط النفوذ عليه والتحكم فيه كما ذكر (التنسي) و(بن خليل) هي السبب الرئيس في تسوير (المشور)، إلا أننا نعتقد بأن ذلك لم يكن السبب المهم في بناء السور، بدليل أنَّ عملية تسوير القصر تمت أساسا لعزله عن حي اليهود، ومراقبتهم من أعلى أبراجه وكان

¹ - محمد بلقراد، المرجع السابق، ص 307.

² - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 35.

³ - التنسي، المصدر السابق، ص 253.

⁴ - نفسه، ص 253.

⁵ - هو أبو عمرو عثمان بن أبي عبد الله محمد المنصور بن أبي فارس عبد العزيز، أمه علجية اسمها ريم، ولد في (27 رمضان عام 821هـ/1419م)، وبويع بتونس سلطانا على رضى الخاصة والعامه صبيحة يوم الجمعة (12 صفر عام 839هـ/1436م)، وظهرت الدولة الحفصية في أيامه أتم الظهور، استطاع أن يخترق المجال الجيوستراتيجي للزيانيين ويخضعهم لسلطته. للمزيد من التعرف أكثر ينظر إلى: الزركشي، تاريخ الدولتين، المصدر السابق، ص 134.

⁶ - عبد الباسط ابن خليل، المصدر السابق، ص 61.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

ذلك في سنة (850هـ/1446م)⁽¹⁾، عندما قرر السلطان (العاقل) بضرورة منح ساحة القوافل في وسط المدينة لاسكان اليهود حتى تنتعش التجارة وهذه ما سنوضحه في أوامه. تكتسي عادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المجتمع المغربي بصفة عامة والمجتمع التلمساني بصفة خاصة أهمية كبيرة⁽²⁾ في الحضور الديني⁽³⁾ والمتخيل الذهني عندهم، وتكمن هذه الأهمية في تعظيم النبي ﷺ في اليوم الذي ولد فيه واستحضار الذات الالهية في هذا التعظيم.

إذ قرن الله عز وجل اسمه بإسمه وشرّفه على خلقه فأجلّه بأن شق له من أسمائه ما دل على كمال صفته ووسمه⁽⁴⁾، إنَّ هذا الاسم مشتق من أسمائه سبحانه وتعالى، وسُمي النبي ﷺ محمداً وأحمد بمعنى محمود أي يحمده الأنام⁽⁵⁾ وما نستدل به في هذا الموضع ما ذكره التنسي في نظم الدر:

نَبِيٌّ تَسْمَا أَحْمَدًا وَمُحَمَّدًا وَأَطْنَبَ فِيهِ الْوَحْيُ بِالْمَدْحِ وَالْحَمْدِ
نَبِيٌّ جَمِيعُ الرُّسُلِ تَحْتَ لَوَائِهِ وَقَدْ خُصَّ فَضْلًا ذُوهُمْ يَلُؤَا الْحَمْدِ
كَمَا خُصَّ بِالسَّبْعِ الْمِثْنِي كَرَامَةً مِنْ اللَّهِ وَهِيَ السَّبْعُ مِنْ سُورَةِ الْحَمْدِ⁽⁶⁾

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 253.

² - يرى الباحث المغربي عبد الهادي التازي إلى طبيعة المجتمعات المغربية، أنها تبنت المبادرة العزفية اقتناعاً منها بضرورة شد الجماهير بالتمسك بالبيئة الاسلامية والتعلق بالنبي الكريم، وبقي التقليد المحمود فيها الى اليوم يتبادل الناس التهاني وإقامة المراسيم بشكل رسمي، ينظر إلى: عبد الهادي التازي، لماذا عيد المولد النبوي في الغرب الاسلامي والأسباب التي كانت وراء إنشائه، مجلة دعوة الحق، العدد 277، ديسمبر 1988م، ص 03.

³ - الحضور الديني يتمثل في المعتقد الإيماني الذي هو متجذر في وجدان الانسان والمجتمع، والذي تبلوره الممارسات الثقافية التي تعتبر العادات والتقاليد جزءاً منها، لانخراطها في التنظيمات التي تحكم مجموع هذه الممارسات. ينظر إلى: عباس الجراي، الحضور الديني في العادات والتقاليد المغربية، مطبوعات الأكاديمية المملكة المغربية، المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ص 45.

⁴ - محمد بن القاسم الرصاع، تذكرة الحبين في أسماء سيد المرسلين، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط3، المجمع الثقافي أبو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 2002م، ص 37.

⁵ - القاضي عياض اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 236.

⁶ - التنسي، نفسه، ص 198.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

فخالق العالم بأسره الموصوف بكونه في ذاته وصفاته حميدا محمودا، قد شقَّ سبحانه ما سُمى به تاج العارفين، وبالغ في حمده لأنه سيد ما خلق من المحمودين⁽¹⁾، كذلك أقرن الله تعالى اسم محمد مع اسمه في الشهادة فنقول: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ووصفه في القرآن بصاحب الخلق العظيم يقول تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁽²⁾ وجاء في مسند الامام "أحمد" أنَّ "عائشة" رضي الله عنها سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»⁽³⁾ أي أدبه ربه بالقرآن ومنحه خلق عظيم؛ كل هذه القرائن تدل على الشعور الديني في ذهنية المجتمع الزيناني وغيره مما جعلهم يترجمون هذا الشعور إلى تعظيم النبي ﷺ، في ممارسات احتفالية لازالت آثارها باقية إلى اليوم، وسمي شهر ربيع الأول عندهم بشهر البركة والتنهاني⁽⁴⁾ تيمنا بذكرى المولد.

يصور لنا "حسان بن ثابت" هذه الأهمية في بيتين من الشعر قوله:

وَصَمَّ الْإِلَهَ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمَوْدُنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُحِلَّهُ فَدَوَّ الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ⁽⁵⁾

حيث أصبحت هذه العادة تمثل عرفا ملزما في تطبيق شعائر وطقوس الإحتفال، وباعتباره عاملا أساسيا في تشكيل البنية الاجتماعية ذات الاجناس المختلفة، فأنه يساهم بشكل كبير في تشكيل الارتباط الوثيق بين السلطان فمن دونه من رعيته، وبالتالي يضيف على ذلك نوع من الرضا النفسي، لاسيما إذا ساعدت الظروف في تمتين روابط الولاء للدين التي طالما غذت شعورهم بالإنتماء المشترك له.

¹ - الرصاع، المصدر السابق، ص 68.

² - سورة القلم، الآية رقم 04.

³ - أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل، مسند الامام أحمد بن حنبل، ج41، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2001م، ص ص 148-149.

⁴ - مؤلف مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، تحقيق: عبدالحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص 248.

⁵ - حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرحه وكتبه هوامشه وقدم له: عبد.أ. مهنا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994م، ص 54.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

ولم تكن هذه العادة مقتصرة في مجتمع دون غيره بل لقيت انتشارا كبيرا واستحسنها الملوك والعلماء وتفنونوا في طريقة الاحتفال إذ نستثني القلة من الفقهاء الذين أنكروا الاسراف والبدع التي ظهرت لهم وهذا ما سنتطرق إليه في عنصر لاحق.

يصف لنا ذلك "ابن مرزوق" التلمساني في مسنده وصفاً دقيقاً لما اشتملت عليه هذه العادة الدينية من طقوس احتفالية؛ نعتقد أنها كانت مشتركة بين المرينيين والزيانيين على حد سواء في قوله: «ومن العادة أن يستعد لها بأنواع المطاعم والحلوات وأنواع الطيب والبخور، وإظهار الزينة والتأنق في إبداء المجالس، فإذا صلينا المغرب ركع ركعات ثم قصد مجلسه الحافل، فيستدعي حينئذ الناس على ترتيبهم، دعوي بالطعام فاشتغل به على ترتيب ونظام، وجميع ما يفضل من بخور وشماع على كثرتها، ووفور عدتها يقتسمه الفقراء المسافرين على قدر استحقاقهم»⁽¹⁾.

كما يستند إلى ذلك ما ذكره "يحيى ابن خلدون"، أن سلاطين بني زيّان كانوا يُقيمون مراسيم الاحتفال بعناية فائقة، ويدعون كافة الناس خاصتهم وعامتهم إلى حضور هذا الاحتفال فيقول: «فأقام لها بمشوار داره العلية مدعى كريما وعرسا حافلة، احتشدت لها الأمم وحشر بها الأشراف»⁽²⁾ والسوقة»⁽³⁾.

ولم تكن هاته العادة حكرا على الزيانيين والمرينيين، بل شملت المجال المغاربي الذي أبدى فيه الناس فرحهم وسرورهم بهذا المولد، كما يفيدنا "الرصاع" في فهرسته "وجرت

¹ - أبو عبد الله ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم، محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص ص 153-154.

² - الأشراف: بمعنى (Notables) وهم السادة والنبلاء والأعيان البارزين في تلمسان، كذلك يحتمل هذا المصطلح (الشرفة)، وهو المسلمون الذين يتصل نسبهم بفاطمة بنت النبي ﷺ، وفي المغرب الأوسط تلك السلالة التي ترتبط بالسليمانيين والادارسة الذين استقروا بكثرة في الغرب، لاسيما بتلمسان كما هو مدون في الاسطوغرافيا التاريخية التي هي منطقة الشرفاء والصلحاء حيث كانوا يجالسون سلاطين بني زيّان ولهم دور كبير في حركة العلم والتأليف واصلاح المجتمع. ينظر إلى: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 1972م، ص 21 وينظر كذلك Arnaud, Les tribus chorfa, Revue Africain, n^o 99, 1877, p208.

³ - يحيى ابن خلدون، ج2، المصدر السابق، ص 39.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

عادة المغاربة بإظهار السرور والفرح، باليوم الذي ظهر فيه سر الوجود وحبیب الملك المعبود⁽¹⁾، وكانت تلمسان قد عادت إلى مجدها لأهلها بعد طول فراق عنها من سلاطين بني زيان، الذين أحيوا عاداتها ونشاطها الذي عهدته من قبل، ويرجع الفضل في ذلك إلى أبي حمو موسى الثاني، إذ يوضح لنا "يحيى بن خلدون" الصورة أكثر على "لسان محمد بن يوسف" الثغري:

حَيَا الإلَهُ زَمَانَ وَصَلِكَ إِئَهُ زَمَنْ يَحِقُّ لِمِثْلِهِ أَنْ يُذَكَّرَا
وَسَقَى عُهُادَ السَّحْبِ عَهْدَكَ بَلْ سَقَتْ زَمْنَا بِخَيْرِ خَلِيفَةٍ قَدْ بَشَّرَا
الْأَمْجَدِ الْأَسْنَى أَبِي حَمُو الرُّضَى فَمِثْلُهُ مَا إِنْ رَأَيْتَ وَلَا تَرَى
فَبِفَضْلِهِ نَلْنَا الْأَمَانَ مَعَ الْمَنَى وَبَعْدَلِهِ طَابَ الزَّمَانُ وَعَطَّرَا
عَادَتْ تَلْمَسَانُ إِلَى عَادَاتِهَا وَبِحُسْنِكُمْ حَسُنْتُ وَرَأَقْتُ مَنْظَرًا⁽²⁾

احتفل "أبوحمو موسى الثاني" بالمولد النبوي في قصر المشور بطريقة مميزة، لاسيما إقراضه الشعر وتشجيعه للعلماء والشعراء على الاهتمام بذلك،³ وكانت عادة شعراء البلاط الجمع بين مدح المصطفى ﷺ ومدح السلطان، خاصة وأن شعر "أبي حمو" يكثر فيه طلب الشفاعة من رسول الله ﷺ، ثم يذكر فضائله وشوقه إليه وهفته إلى زيارة البقاع المقدسة والوقوف على قبره ليختم بسلام عليه⁽⁴⁾، وفي ذلك نقتبس ما ذكره "التنسي" في مآثر "أبي حمو" الشعرية عن المولد:

بِمَوْلِدِهِ قَدْ أَشْرَقَ الْكَوْنُ كُلُّهُ وَكُلُّ سَنَى شَمْسٌ وَبَدْرٌ وَدُرِي
سَلَامٌ عَلَى مَنْ بِالْبَقِيعِ وَبِالْحِمَى سَلَامٌ عَلَى الْبَدْرِ الْمَنِيرِ الثُّهَامِي

¹ - أبو عبد الله محمد الأنصاري، فهرست الرصاع، تحقيق: محمد العنابي، ط1، 1967م، المكتبة العتيقة، تونس، ص23.

² - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص 53-54.

³ - Bargés (L.J.JL), complément de l'histoire des Beni -Zeiyan rois de Tlemcem, ouvrage du Cheikh Mohammed Abd'al-Djalil al-Tenesty, Paris, 1887, p154.

⁴ - زينب قوني، الشعر الديني القديم في القرون السابع الثامن التاسع الهجرية موضوعاته وآثاره، أطروحة دكتوراه في اللغة والأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2015م، ص127.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَزُورُ مُحَمَّدًا وَأَمْنَحُ مَا أَهْوَاهُ فِي مَنْزِلِ الْوَحْيِ⁽¹⁾
على غرار ما ذكره كل من "يحيى ابن خلدون" و"التنسي" في فضل هاته الليلة وبركتها على مجتمع مدينة تلمسان لاسيما على عهد "أبي حمو موسى الثاني"، ها هو صاحب زهر البستان يعطينا صورة صادقة عن كرم هذا السلطان الزيناني لرعيته من الفقراء والمعوزين وإقراض المدائح والشعر حيث "أمر بإقامة الليلة الشريفة، ضاعف فيها الإنفاق، وأجاد المدائح الشعراء، وواسى المعوزين الفقراء وتليت الأمداح صوراً على السنة الشادين"⁽²⁾.

إذ كانت المدائح الدينية عبارة عن روحانيات؛ يتمثلها المحتفلين التي كانت تتلى على السنة الشادين، ومن غير المستبعد أن كان السلاطين والعلماء يحضرون هؤلاء - المتصوفة والمدّاحون - من أجل كسب قلوب العامة لما كانوا يكسبونه من سلطة روحية قوية.

كانت عادة إقراض الشعر وجزل النثر والنظم والأمداح واردة عند "أبي حمو موسى الثاني"، ويقابل أصحابها بالعطاء والإكرام والاهتمام لأنهم يزينون ليلة المولد بأحسن الكلام وأعطره عن المصطفى ﷺ.

وعلى هذا الأساس يذكر صاحب زهر البستان: «فأنته الشعراء بالقصائد يذكرون ما له من المواقف والمشاهد، فأقبل على نظامهم وثاب بنخوته إلى اكرامهم وأظهر محبته للشعر وأنه يدين بالنظم والنثر، ثم أحسن لهم الجوائز وأجزها، ولم تنزل الأمداح تأتية، إلى أن رفعت له الدواوين من الأمداح وانتشر عنه من الكرم والجوائز ما استمال روحانية الأرواح»⁽³⁾.

يورد صاحب زهر البستان على لسان الفقيه "أبي محمد عبد المؤمن بن يوسف المديوني" في فضل ليلة المولد:

مَدْحُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الْعَدْنَانِي هُوَ عُدَّتِي لِقِيَامَتِي وَكَفَانِي
صَيْرْتُهُ شُعْلِي وَغَايَةَ مَقْصَدِي حَتَّى جَرَى بِجَوَانِحِي وَجَنَانِي
رَسَخَتْ مَحَبَّتُهُ بِقَلْبِي فَكَتَفَى وَجَرَتْ مَجَارِي الرُّوحِ مِنْ جُثْمَانِي

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص ص 167 - 168.

² - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 115.

³ - نفسه، ص ص 46 - 56.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

الهاشيمي الأوفى الكريم المُجْتَبَى مَنْ جَاءَ بِالنُّورِ وَيَالْبُرْهَانَ
وَضَعْتُهُ آمِنَ لَمْ تَجِدْ فِي وَضْعِهِ أَلَمَّا كَمَا يَأْتِي إِلَى النَّسْوَانَ
فِي لَيْلَةٍ أَهْدَتْ لَنَا كُلَّ الْمُنَى بظُهُورِ خَيْرِ الْخَلْقِ مِنْ عَدْنَانَ
لَكَ يَا رَبِّيعُ عَلَى الشُّهُورِ مَزِيَّةٌ إِذْ جِئْتَهَا بِالْحُسْنِ وَالْإِحْسَانَ⁽¹⁾

أصبح المجتمع التلمساني في عهد "أبي حمو موسى" يحتفل بذكرى المولد النبوي على طريقته الخاصة التي وصفها لنا المصادر التاريخية، وما يثير الانتباه هو اختراع ساعة المنجاة⁽²⁾ التي كانت تؤدي حركات عجيبة عند مُضي كل ساعة من ليلة الاحتفال، وكان سلاطين بني زيان يستمتعون بها وصارت تُشكل عادة مستحبة في قصر المشور، وهذا ما يدل على تطور صناعة الآلات الميكانيكية بأشكال هندسية مثيرة للإعجاب في تلمسان.

ويبدو أن حدث المنجاة هذا الذي زين قصر الزينيين كان من صنع عالم البلاط "أبي الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الفحام"، حيث شكّلت هذه الصنعة العجيبة من بين أبرز المعالم لدى المجتمع الزيناني التلمساني، وهذا ما سنتطرق إليه بشكل دقيق عندما نتناول عادات الزينيين في مجال التصنيع والمهنية في الفصل الثالث.

يبدأ الاحتفال منذ المساء؛ ويقوم السلطان بإلقاء قصيدة في مدح النبي ﷺ ثم يلقي الشعراء قصائدهم، ثم ينتقلون لمدح السلطان والتغني بمدينة تلمسان وساعة المنجاة تدق كلما مرت ساعة من الليل⁽³⁾، وبعد الاستماع إلى القصائد يكون الليل قد اقترب من آخره فيؤتى بموائد الطعام⁽⁴⁾؛ التي وصفها "التنسي" في نظم الدرر قائلا: «ثم يؤتى آخر الليل بموائد

¹ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص ص 50 - 51.

² - منقانة أو منجاة أو منكلة (mangana) وهي آلة-ساعة- تعرف بها الأوقات الليلية، ذات شكل هندسي غريب وجدت بمشور تلمسان إستعملها أبو حمو موسى كرمز احتفال بليلة المولد النبوي ينظر إلى: Dozy (R),supplément aux dictionnaires Arabes,Tome 2, Leyde, E.J.Brill, 1881, p617.

³ - عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزيناني (633-962هـ/1235-1555م)، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2002م، ص 163.

⁴ - نفسه، ص 163.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

كالهالات دورا، والرياض نورا، قد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشهيتها الأنفس وتستحقها الأعين»⁽¹⁾.

وهذه الموائد تحتوي على أنواع كثيرة من الطعام التي كان يفضلها الناس في تلمسان، ويتناول الحضور الطعام بما فيهم السلطان⁽²⁾، ذكر "يحيى بن خلدون" بأن يأتي في آخر الليل بالخرس الشهي الملاذ الحافل الملامح والمشام، المتعدد الخوانات مما أرحبت ساحته وحبرت بروده وناء بالعصبة أولي القوة محمله ثم الفواكه فالحلواء⁽³⁾، وبذلك تنجلي هاته الليلة بمرأى منه ومسمع حتى يصلي هنالك صلاة الصبح⁽⁴⁾. على هذا الاسلوب تمضي ليلة المصطفى ﷺ في جميع أيام دولته، أعلى الله مقامه في عليين وشكر له في ذلك صنعه الجميل⁽⁵⁾.

ومن بين أهم الشعراء الذين تركوا أثراً واضحاً في "أبي هو موسى الثاني" بقصائدهم ومدائحهم كما يعرف بشعر المولديات "أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري"⁽⁶⁾ في قصيدة له نقتبس منها هذه الأبيات:

لَنَا الْفَضْلُ إِذَا كُنَّا بِهِ خَيْرَ أُمَّةٍ نُفَاخِرُ مَنْ شِئْنَا بِهِ وَنُطَاوِلُ
يَمَوْلِدِهِ الْأَيَّامَ رَاقَ جَمَالِهَا فَطَابَتْ لَنَا أَسْحَارَهَا وَالْأَصَائِلُ
أَشْهَرَ رَيْعِ حُزْتِ كُلِّ فَضِيلَةٍ بِأَفْضَلِ مَنْ تَمَّتْ لَدَيْهِ الْفَضَائِلُ
وَلَيْلَةَ ثِنْتِي عَشْرَةَ مِنْكَ شُرُفَتْ فَفِيهَا بَدَأَ بَدْرُ الْهَدَى وَهُوَ كَامِلُ
بِهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَشَاهِدُ لَنَا مِنْهُ فِيهَا أَنْعَمَ وَفَوَاضِلُ

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 163.

² - عبدالرزاق شقدان، المرجع السابق، ص 163.

³ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 46.

⁴ - التنسي، نفسه، ص 164.

⁵ - المقرئ، المصدر السابق، ص 243.

⁶ - أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي التلمساني الثغري ووردت نسبته عند يحيى بن خلدون (بالأندلسي)، أهم الشعراء والأدباء والعلماء في المائة الثامنة بالمغرب الأوسط على عهد "أبي هو موسى الثاني"، أصبح كاتب إنشائه وشاعره الفذ الأول، وكان ينظم فيه مدائح ومولديات كما نراه يشيد به في هذه الابيات فيجعل منه أميراً للمؤمنين يقيم مشاهد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، ويبدو أن الثغري يبالغ حينما يلبس أبي هو صفة الخلافة الاسلامية عندما يطلق عليه أمير المؤمنين بينما هي إمارة لا تتعدى حدودها بضع مناطق من المغرب الأوسط. ينظر ترجمته إلى: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ط2، مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة، بيروت، لبنان، 1940م، ص 92.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

عَوَائِدُ إِحْسَانٍ وَحُسْنَى عَوَائِدُ تَنَالُ بِهَا مِنْهُ هِبَاتٌ جَلَائِلُ
فَمَا مِثْلُهَا فِي الدَّهْرِ لَيْلَةٌ مَوْلِدِ وَلَا مِثْلُهُ لِلدِّينِ كَافٍ وَكَافِلُ
هُوَ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ مُوسَى بْنِ يُوسُفَ إِذَا احْتَفَلْتَ يَوْمَ الْفَحَّارِ الْحَافِلِ⁽¹⁾

ولعل ما ميز طقوس الاحتفال عند ملوك بني زيّان؛ بروز لون جديد من الشعر عرف بالمولديات أو المديح النبوي حيث كان الشعراء الزينيون يقرضون القصائد الشعرية في مدح النبي ﷺ، "إذ كان ذلك دأب أئمة المسلمين، ومن خصال رجال الدنيا والدين، بالتأسي بالأشعار كالأوائل، وتلك عادة الملوك الأفاضل"⁽²⁾، وعلى رأسهم "أبي حمو موسى الثاني"⁽³⁾ الذي كان شاعرا فحلا وأديبا مفوها، ترك قصائد في المولديات عبر فيها عن مشاعره الروحية في تعظيم ليلة المولد حيث يقول:

نَبِيٌّ أَتَى رَحْمَةً لِلْعِبَادِ فَمَحَى وَمَحَضَ عَنَّا الدُّثُوبَا
وَسَنَّ الشَّرِيعَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَشَقَّ عَلَى الْكَافِرِينَ الْحُرُوبَا
بِمَوْلِدِهِ أَشْرَقَ الْأَفُقُ نُورًا وَأَلْبَسَتْ الْأَرْضَ حُسْنًا قَشِيبًا⁽⁴⁾

يعطينا "الرصاص" في تذكرة المحبين صورة صادقة عن مظاهر الاحتفال الرسمي التي تليق بمقام النبوة، من غير أن تطرأ عليها بعض المنكرات فيصبح المباح بدعة، فينبغي لكل شائق ومحِب أن يظهر السرور والبشارة في تلك الليلة وصبيحتها⁽⁵⁾، يتضح من هذا أن عادة الاحتفال بالمولد كانت تدوم حتى صبيحة اليوم الآخر، إذ يلزم على كل واحد بتمتع أولاده وأهله بما أمكن به لحصول بركة هذه الليلة⁽⁶⁾، من ذكر صفات النبي ﷺ الخلقية والخلقية

¹ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 67-68.

² - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 152.

³ - عبد المالك مرتاض، حركة الشعر المولدي في تلمسان على عهد أبي حمو الثاني، مجلة الأصالة، العدد 26، السنة الرابعة، جويلية- أوت 1975م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م، ص 312.

⁴ - أبو حمو موسى الثاني الزيناني، واسطة السلوك في سياسية الملوك، تحقيق: محمود بوترة، دار النعمان للنشر والتوزيع، 2011م، ص 161-162.

⁵ - الرصاص، المصدر السابق، ص 153.

⁶ - نفسه، ص 153.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

وسرد سيرته وتحفيظهم القصائد في مدحه والثناء عليه وإظهار الزينة بلبس أحسن الثياب بما يجوز به شرعا وإقامة السماعات والمدائح بغير مناكير في ذلك اليوم⁽¹⁾.

ويعتقد أنه عيد من أعياد المسلمين لأنه يوم مسرور، حيث تُوقد فيه الشموع ويمتدح البصر مع ركوب فاره الدواب، فكل هذا عند "الرصاع" أمر مباح لا ينكر قياساً على غيره من أوقات الفرح، إلا إذا استعملت آلات اللّهُو عند الاجتماع في هذه اللّيلة، واختلاط النساء بالرجال وانحراف الأطفال وقت اجتماعهم ووقوعه في المناكير بدون علم⁽²⁾.

يتضح مما رأينا أن الاحتفال بهذه اللّيلة كانت قناعة راسخة في ذهنية المجتمع الزيناني وعقيدة دينية ثابتة، مرجعيتها القرآن والسنة خلافاً للفواطم الذين اعتمدوا فقط على القرآن، بحيث لا يمكن مخالفتها باعتبارها عرفاً متواتراً وسنة مؤكدة في كل عام.

وهذا ما وصى به "أبو حمو موسى الثاني" ابنه في قوله: «يا بُني عليك بإقامة شعائر الله عز وجل، وابتهل إليه في مواسم الخير، وتوسل واتبع آثارنا في القيام بليلة مولد الرسول عليه السلام، واستعد لها مما تستطيع من الإنفاق العام، واجعله سنة مؤكدة في كل عام، تواسي في تلك الليلة الفقراء وتعطي الشعراء، وإن ركبت فيك الغريزة الشعرية وتحليت بالحلية الأدبية زدت جمالا إلى جمالك، وكمالا إلى كمالك، فانظم المولديات واجر مع جملة السابقين في الأدبيات تحوز بذلك أفضل المزيات، فهذا يا بني دأبنا في كل عام وستتنا على الاستمرار والدوام»⁽³⁾ يشير إلى ضرورة الحفاظ على العادة والسنة في إقامة شعائر الله بإحياء ليلة المولد النبوي⁽⁴⁾.

¹ - الرصاع، المصدر السابق، ص 154.

² - نفسه، ص 155.

³ - أبو حمو موسى الثاني الزيناني، المصدر السابق، ص 258.

⁴ - يعتقد الباحثين الانثروبولوجيين أن المولد النبوي يشكل الفضاء الديني الطقوسي الذي من خلاله تظهر كلمة (ميلود) التي تقترن (بالموسم)، فالموسم ينعقد في ذكرى المولد النبوي وهو ما يمنحه اسم الميلود، وبالتالي تتحول ذكرى ميلاد النبي ﷺ إلى ممارسة رمزية في كل موسم ومقدس ديني راسخ في أذهان المجتمع، وهذا ما يفسر ذهنيات الناس في تسمية ابنائهم بهذا المقدس (الميلود) خاصة في الجزائر. ينظر إلى: نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2005م، ص ص 53-54.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

استمر ملوك تلمسان على هذا التقليد المستحب حيث كان "أبا تاشفين" يحتفل "ليلة مولد المصطفى ﷺ بأعظم الاحتفال، ونسجه ونسج أبيه في ذلك على منوال، ويرفع إليه من الممادح الغر الحجال"⁽¹⁾ وقد زاد من بروز خصوصية الاحتفاء بمولده ﷺ عند سلاطين بني زيان كون احتفالهم بالموسم لم يكن رسماً على أهل البلاط وحدهم، فقد أجمعت مختلف الروايات أنّ بني زيان قد أضافوا على هذا الموسم صبغة شعبية، وذلك تعميماً للفرحة والتوادد والتحابب، وهو أمر لم تفعله بلاطات الملوك المجاورين⁽²⁾.

و. رأي الفقهاء في المولد النبوي بين الاستنكار والتأييد

تباينت آراء الفقهاء والعلماء في تحديد مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف؛ بين مؤيد للاحتفال بطقوسه وممارساته المتعارف عليها، وبين متحفظ أو منكر للبدع المستحدثة التي تفتشت في المجتمع الزيناني وغيره من المجتمعات، فإذا كان الاحتفال محل اختلاف بين الفقهاء والعلماء في تأييد مشروعيته كعادة مستحبة، تعبر عن شعور مشترك لدى العامة والنخبة بمحبة الرسول ﷺ وتعظيم ليلة مولده؛ وإنكاره على أساس ما ظهر فيه من البدع التي يجب قطعها، فما هي المرجعية الفقهية التي استند عليها كلا الطرفين؟ وما هو موجه الاختلاف في ذلك؟

يتأتى لنا الاجابة على هذه الاشكالية استناداً إلى المدونة النوازلية "للونشريسي" وكتب الأحكام التي وضحت آراء الفقهاء واجتهادهم في ذلك؛ إذا تأملنا في النصوص المصدرية⁽³⁾ حول وجه الاختلاف، فنجد أنّ فقهاء البلاط والسلطة سكتوا عن المنكرات،

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 186.

² - محمد بن أحمد العزفي السبتي، الدر المنظم في مولد النبي الأعظم، تحقيق: عبد الله حمادي، دار دروب للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2015م، ص 48. يثبت لنا "ابن مرزوق" في المسند غير ما ذكره "عبد الله حمادي" أنّ الصبغة الشعبية كانت مقتصرة على المجتمع التلمساني دون غيره من المجتمعات المجاورة، إذ كان المرينيون يبالغون في البذل والعطاء للعامة لينالون بركة هذه الليلة، حيث يقول بن مرزوق: «فيستدعي حينئذ الناس على ترتيبهم، ويأمرهم بأخذ المجالس على طبقاتهم، والخيرات لا تزال بسبب الاعتناء بها عليهم متظافرة متكاثرة» ص ص 153-154.

³ - كثيراً ما ترد في هاته النصوص خاصة في كتب النوازل عبارات (جرى العرف بالبلاد) أو (وجرت العادة) أو (العمل عندنا)، وهي تنم على وجود مظاهر اجتماعية ذات سند قانوني وفقهي يسير على نهجه المجتمع بجميع أطيافه، حيث يظهر من خلال حديث المفتي والمستفتي أنّ الأعراف كانت لها جذور عميقة في السلوك القانوني للمجتمع، وأنها كثيراً ما فرضت

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

التمثلة ايقاد الشموع وإسراف وتبذير وما إلى ذلك التي أحدثت في مناسبة هذا الاحتفال، فضلا عن الميل للسلطان وإشراكه في المدح والثناء مع النبي ﷺ، وذكر مناقبه وانتصاراته وإطلاق العنان لأقلامهم في ذلك.

بينما يرى غيرهم من الفقهاء والعلماء ذلك بدعة وضلالة يجب قطعها، وإذا جعلت هذه المناكر الغربية التي لا تمت للإسلام بصلة فضلا عن أنها تسيئ إلى شخصه ﷺ؛ فإن الاحتفال يصبح في هذه الحالة من البدع المنكرة التي يثاب المرئ على تركها.

لكن المثير للانتباه في هذه المسألة حسب اعتقادنا أن هؤلاء الفقهاء المنكرين أجمعوا ضمينا على استحسان هذه العادة الاحتفالية⁽¹⁾ شرط عدم حضور المنكرات المبطله لمشروعيتها، كاستحضار سيرته ﷺ والتأمل في معجزاته وذكر غزواته وقراءة أوراد من القرآن الكريم مع اطعام الطعام دون اسراف وبذخ.

بناء على ما ذكرنا يورد لنا "الونشريسي" إجابة واضحة على نازلة⁽²⁾ المولد وطقوس الاحتفال⁽³⁾، تتعلق بإيقاد الشموع والتزيين وغيرها من أشكال وألوان الاحتفال بالمولد بدع

على الفقهاء تكييف القوالب الفقهية مع بعض أعراف المجتمع. للمزيد من التعرف أكثر ينظر إلى: عمر بنميرة، النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط، ط1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، 2012م، ص ص 70-71.

¹ - يبدو أن عادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ليست عيدا كما يظنه البعض، لأن العيد لا يعود إلا مرة واحدة في السنة وأما احتفال بالمولد يجب أن يكون دائما لا يتقيد بمكان ولا بزمان، فمن أطلق عليه اسم العيد فهو جاهل ولا يقع إلا من العوام وهم لا يقصدون به العيد الشرعي المعروف، وإنما جريا على عادة الناس في تعبيرهم عن الفرح والسرور بكل عزيز..ومن هنا يقول عامة الناس هذا عيد المولد والعيد النبوي، ومعلوم أنه ليس عندنا إلا عيدان موسميان: الفطر والأضحى، وعيد أسبوعي: وهو عيد المسلمين (الجمعة)، لكن يوم المولد أكبر وأعظم من العيد وإن كنا لا نسميه عيداً، فهو الذي جاء بالأعياد والأفراح ومن حسناته كل الأيام العظيمة في الإسلام. ينظر إلى: محمد بن علوي المالكي الحسني، حول الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2010م، ص ص 11-12.

² - التنازلة في اللغة هي المصيبة أو الطارئة. وجمعها نوازل وهي الشدائد التي تنزل بالناس، ويقال نزل به الأمر بمعنى حل به. وعرف هذا المصطلح في الغرب الاسلامي ببيان الحكم الشرعي في وقائع عرضت على القضاة والمفتون وجرى تفسيرها والنظر اليها على مذهب الامام مالك. ينظر إلى: ابن منظور، لسان العرب، م6، المصدر السابق، ص 473. وينظر كذلك إلى: عفيفة خروبي، أصول أبي العباس الونشريسي من خلال المعيار العربي، ج2، دار البصائر، الجزائر، 2011، ص 590.

³ - يورد "الونشريسي" في المعيار أسماء المفتين ونصوص الأسئلة إلا في حالات قليلة فيقول: سئل بعض الفقهاء ونحو ذلك، فإن لم يقف على السؤال فيقول: سئل فلان عن مسألة تظهر من الجواب، ويأتي بنصوص الأسئلة على حالها من غير تغيير، وقد تكون فيها ألفاظ محلية عامية، وقد تتكرر الفتوى في المعيار بنص الجواب والسؤال.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

وضلالة وجهل للذين يسعون في دوامها ومن أعان عليها على لسان "أحمد بن قاسم القباب"⁽¹⁾ فأجاب في قوله: «جميع ما وصفت من محدثات البدع التي يجب قطعها ومن قام بها أو أعان عليها أو سعى في دوامها فهو ساع في بدعة وضلالة، ويظن بجهله أنه بذلك معظم للنبي صلى الله عليه وسلم، متظاهر بذلك محدث في الدين ما ليس منه»⁽²⁾، ثم يستدل بآية من القرآن في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁽³⁾.

والغالب أنَّ هذا الشَّمع صارت له أهمية خاصة في المغربين الأقصى والأوسط⁽⁴⁾ تلك العادة المتبعة⁽⁵⁾، وهذا ما يذكره "الونشريسي" معقبا على إحدى النصوص قائلا: «يظهر من هذا الكلام القضاء بالشمع للمعلمين على آباء الصبيان في ميلاد النبي ﷺ، لأنه فاش معتاد ببلاد المغرب الأوسط والأقصى، ولا انتزاع في انتصاب المعلمين لأجله ولاسيما وهو موسم عظيم عند أهل ملة الإسلام، يعتنون به في الحواضر تعظيما لبنينا وسيدنا محمد ﷺ»⁽⁶⁾.

يتضح جليا رأي "أبو العباس الونشريسي" في ايقاد الشموع بأنه مظهر من مظاهر المفاسد، قام بالنهاي عنها ومحاربتها "بن مرزوق" حيث يذكر "الونشريسي" في هذا الصدد: «ومنها ايقاد الشمع ليلة مولد النبي ﷺ وسابعه وما في ذلك من أنواع المفاسد، وقد تصدى

¹ - أحمد بن قاسم بن عبدالرحمان أبو العباس المعروف بالقباب، أحد محققي الحفاظ متقدما في العلوم، من أئمة الورع والدين والتقوى، تولى الفتيا بفاس وله فتاوي مجموعة، وهو أول من نقل عنه في المعيار، وله مناظرات مع الإمام أبي سعيد العقباني جمعها في جزء (سماه لب اللباب في مناظرة القباب)، ينظر إلى: أحمد بابا التنبكي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج1، تحقيق: محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، المغرب، 2000م، ص ص 98-99.

² - أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، ج2، تحقيق: محمد حجي وآخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1981م، ج12، ص ص 48-49.

³ - سورة النور الآية 63.

⁴ - محمد المنوني، وركات عن حضارة المرينيين، ط3، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، المغرب، 2000م، ص 525.

⁵ - الحسن الوزان الفاسي، وصف افريقيا، ج1، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983. ص 261.

⁶ - الونشريسي، ج8، نفسه، ص ص 254-255.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

لتغيير ذلك وشدة النكير فيه شيخ شيوخنا أبو عبدالله سيدي محمد بن مرزوق⁽¹⁾ فانقطعت تلك المفاسد من تلمسان طول حياته رحمه الله، ثم عادت بموته رحمه الله بل زادت⁽²⁾.

كما يثبت موقفه في موضع آخر على إجابة لنازلة في توقيف ثلث من المال على إقامة المولد النبوي فأجاب على لسان "أبي اسحاق الشاطبي" أن إقامة المولد على هذا الوصف المعهود بين الناس - ايقاد الشموع وفعل المنكرات - بدعة محدثة، وكل بدعة ضلالة والإنفاق على البدعة لا يجوز⁽³⁾.

يورد لنا "الرصاع" في فهرسته مسألة عرضت على الشيخ الإمام "ابن عبّاد"⁽⁴⁾ عن الذي يقع في ذلك اليوم من ايقاد الشمع وتزيين المكاتب والأولاد والإنشاد في محاسن سيد العباد، فأجاب رضي الله عنه لأن هذا اليوم عيد من أعياد المسلمين لظهور نور خير الخلق فيه وسيد المرسلين، فالتزيين فيه بأحسن الثياب من اللباس واستعمال الطعام وإظهار المحبة بالركوب على أحسن الدواب وكثرة الصلاة عليه وإنشاد القصائد في صفته، وتزيين الأولاد

¹ - هو "محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي" ولد (711هـ/1311م) من أهل تلمسان، يكنى "أبا عبد الله" ويلقب من الألقاب المشرقية شمس الدين ويعرف بالخطيب وبالجد، من العلماء الفطاحل والنبغاء الفضائل له تصانيف عديدة في فنون متعددة وكلها بديعة كثيرة الفائدة، تدل على كثرة اطلاعه، فقد أطنبت المصادر في وصفه مما يدل على تفوقه على أهل زمانه وبتالي هو فخر المغرب على المشرق توفي سنة 781هـ/1379م. ينظر إلى: أبو عبد الله محمد بن مرزوق، المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2008م، ص 298. وينظر إلى: عبدالرحمان بن خلدون، رحلة بن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004م، ص 60. وابن داود نصر الدين، فخر المغرب على المشرق بن مرزوق الخطيب، مجلة القرطاس، تصدر عن مخبر الدراسات الفكرية والحضارية، جامعة تلمسان، العدد التجريبي، ديسمبر 2008م، ص 73 وما بعدها.

² - الونشريسي، نفسه، ج2، ص ص 471 - 472.

³ - نفسه، ج9، ص 252.

⁴ - هو العالم المتصوف والزاهد التقي شيخ عصره، تميز بتواضعه وحيائه وكرمه وبعلمه وحسن خلقه "سيدي محمد بن ابراهيم ابن عبّاد الرئدي" ولد برندة سنة (733هـ/1333م)، من بلاد الأندلس ونشأ بها، رحل إلى فاس وتلمسان وقرأ بهما الفقه والعربية والأصول كان يحضر السماع ليلة المولد، توفي بفاس سنة (792هـ/1390م) ودفن داخل باب الفتوح، ينظر إلى: عبد الله ابن عبد القادر التليدي، المطرب بمشاهير أولياء المغرب، ط4، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2003م، ص 140 - 142.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

والمكاتب بما يجوز شرعا ولاشك في جواز ذلك كله إذا سلم منه البدع المحرمة التي لا يجوز تعظيم شعائر الله تعالى بها"⁽¹⁾.

كما يعطينا "المقري" صورة صادقة عن مظهر من مظاهر المنكرات التي شاعت في بلاد المغرب الاسلامي، خاصة على عهد السلطان الزياني "أبي هو الثاني" والمتمثلة في البذل والإسراف إلى حد الغلو في قوله: «كان السلطان أبو هو موسى الممدوح، يحتفل لليلة مولد رسول الله ﷺ غاية الإحتفال، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر، على أنّ بعضهم قد خرج في ذلك إلى حد الاسراف والغلو»⁽²⁾.

هناك إشارة واضحة فيما ذكره "المقري" وهي سكوت فقهاء السلطة على هذه المنكرات؛ التي كانت منتشرة في طريقة الاحتفال مما جعل السلاطين يخرجون عن حد الممارسة الاحتفالية إلى الإسراف والغلو، إذ حضر الاحتفال بالمولد النبوي مع "يوسف بن يعقوب المريني" أيام حصاره لتلمسان، كبار فقهاءها ومتصوفتها أبا الحسن التنسي⁽³⁾ الذي اختار البلاط المريني مستقرا له⁽⁴⁾ وأبدى رغبته في ذلك.

لاشك في اعتبار المؤيدين لعادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من العلماء، أنهم استندوا على مرجعية دينية تبرر لهم الاحتفال تشريفا وتعظيما وتفضيلا⁽⁵⁾ لروحه الطيبة ﷺ،

¹ - أبو عبد الله محمد الأنصاري، فهرست الرصاع، تحقيق: محمد العنابي، ط1، 1967م، المكتبة العتيقة، تونس، ص ص 23-24.

² - المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ص 243.

³ - هو "أبو الحسن التنسي" تربى في حجر أخيه أبي اسحاق ابراهيم بن يخلف التنسي وهو سليل أسرة معروفة بالعلم والصلاح نشأ بمسقط رأسه مدينة تنس وأخذ عن مشايخها، رحل إلى بجاية وقرأ بها على من أدرك من العلماء، أجلسه أخوه مكانه في اخر عمره للتدريس والفتوى، حظي بمكانة مرموقة عند السلطان "يغمراسن" ثم ابنه عثمان، وأصبح فقيه حضرة السلطان "أبي يعقوب المريني" بعد التحاقه ببلاطه. ينظر إلى: ابن مرزوق التلمساني، المناقب المرزوقية، الصدر السابق، ص ص 294-295.

⁴ - نفسه، ص ص 294-295.

⁵ - الونشريسي، المصدر السابق، ج11، ص 281.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

وأنه أرسل لأمته رحمة لهم لاخراجهم من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾.

يستدل "الونشريسي" في بيان تشریف هذه الليلة وتفضيلها على سائر الليالي بمحدث النبي ﷺ، عندما سئل على يوم الإثنين فقال: «ذلك فيه ولدت وفيه أنزل علي»⁽²⁾، قال "بن الجزري": «أن المصطفى ﷺ هو الأسوة الحسنة قد احتفل بمولده فصام الإثنين»⁽³⁾، كما استحسنا عمل المولد المشتمل على الخيرات والصدقات وقراءة القرآن ورواية حال مولده ﷺ إذ خلا عن المعاصي والمفاسد منهم⁽⁴⁾.

فيصبح هذا الإحتفال سنة حسنة متفق على جواز فعلها والاستحباب لها وملزم بها ورجاء الثواب لمن حسنت نيته فيها، غير مخالف لشيء لقواعد الشريعة⁽⁵⁾، وبالتالي هناك اعتقاد راسخ بوجوب الإحتفال، وكان الشعراء في بلاط "أبو حمو موسى الثاني" يتغنون بذلك وعلى رأسهم "يحيى بن خلدون" في قوله:

يَا لَيْلَةَ الْإِثْنَيْنِ نُورِكَ قَدْ سَمَا وَأَنْجَابَتِ الظُّلَمَاتُ عَنْ أَفْقِ السَّمَا
وَأَنْهَدَ إِيْوَانُ لِكِسْرَى عِنْدَمَا خُلِقَ النَّبِيُّ الْهَاشِمِيُّ مُعْظَمَا
فِي لَيْلَةٍ غَرًّا بِشَهْرِ رَبِيعِ وَالْبَدْرُ شَقَّ بَعِيرٍ إِنْكَ يُفْتَرَى⁽⁶⁾

يكشف لنا الشيخ "الابراهيمي" رأيه الفقهي وموقفه الشخصي من الإحتفال بالمولد النبوي، الذي ظهر ببلاد المغرب العربي منذ الفترة الوسيطة إلى عصره، بعدم إقرار ذلك

¹ - سورة الأنبياء، الآية رقم 107.

² - أبو الحسن مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: نظر محمد الفريابي، ط1، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 2006م، ص 519.

³ - ابن الجزري، عرف التعريف، المصدر السابق، ص 06.

⁴ - أبو العباس سيد أحمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1906م، ص 93.

⁵ - محمد الشامي، المصدر السابق، ص 442.

⁶ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 120.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

الاستحسان الذي يبالغ فيه بعض من نقل الكاتب⁽¹⁾ كلامهم من علماء تلك العصور، فهم يجعلون من حب المولود العظيم عذرا في ارتكاب بدع المولد، ومسوغا لأعمال الملوك الذين لا غاية لهم من تلك الموالد إلاّ الدعاية لأنفسهم، وقرن أسمائهم بإسم النبي ﷺ في مديح الشعراء واستجلاب العامة بذلك كله⁽²⁾.

كما يوضح لنا الشيخ حقيقة الاحتفال الصحيحة على طريقة السلف، في قوله: «أما الحب الصحيح لمحمد ﷺ؛ فهو الذي يدع صاحبه من البدع ويحمله على الاقتداء الصحيح، كما كان السلف يحبونه»⁽³⁾، ثم يعطينا صورة الاحتفال بطريقة أخرى يُجلى فيها السيرة النبوية والأخلاق المحمدية، ويكشف عما فيها من السرّ وما لها من الأثر في الاصلاح المتبع، وتجديد الصلة بنبينا عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم⁽⁴⁾، وهذا ما يدل على استحسانه لعمل المولد النبوي لكن بمنهج السلف وانكار البدع.

ونحن نعتقد أنّ عادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ظاهرة دينية اشتملت على استحضار سيرة النبي ﷺ، وتعظيمه وإظهار الفرح والسرور، لأن الله سبحانه وتعالى جعله سبباً لنجاة أمته وزين أخلاقه بالقرآن، فلا حرج في اتباع بما سنه السلف الصالح من فضائل وخيرات ردا للشبهات وانتصارا للإسلام والمسلمين، فإذا كان أهل الصليب اتخذوا ليلة مولد نبيهم عيدا أكبرا، فأهل الاسلام أولى بالتكبير وأجدر، فرحم الله امرءاً اتخذ ليالي هذا الشهر المبارك وأيامه أعيادا، ليكون أشد علة على من في قلبه أدنى مرض وأعيا داء⁽⁵⁾، وهذا ما اعتاد عليه المسلمين وذلك جبلة فيهم متوارثة ثابتة خالدة⁽⁶⁾.

¹ - يقصد بالكاتب "عبد الوهاب بن منصور" الذي كتب مقالا في البصائر عن ظهور البدع والمنكرات في طقوس الاحتفال، تحت عنوان المرقصات والمطربات لابن سعيد، ينظر إلى: محمد البشير الابراهيمي، آثار الامام محمد البشير الابراهيمي، ج1، ط1، جمع وتقديم: أحمد طالب الابراهيمي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1997م، ج2، ص 341.

² - نفسه، ص 341.

³ - نفسه، ص 341.

⁴ - نفسه، ص 341.

⁵ - السخاوي، التبر المسبوك، المصدر السابق، ص ص 55-56.

⁶ - عبد الحلي العمراني، المرجع السابق، ص 263.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

أخذت عادة الاحتفال بمولد النبي ﷺ أبعاد اجتماعية ودينية كبيرة لاسيما في مجتمع مدينة تلمسان، وتوصلنا من خلال النباش في هذه الظاهرة الاجتماعية إقرار الفقهاء والعلماء لشرعية الاحتفال ولكن بشروط لا تتعدى ما أجازته الشرع⁽¹⁾ في مسائل الذكر والصلاة عليه، وإبداء الفرح، وإطعام الطعام لمن هم في حاجة إليه والتوسعة على العائلة، بالإضافة إلى تلاوة أوراد من القرآن الكريم، فضلا عن تعليم النشء سيرته العطرة وما إلى ذلك من العلوم. صارت هذه العادة الاحتفالية من الأمور التي ألفتها الأمة ودخلت في تقاليدها الهامة، وجرت منها مجرى العقائد الواجبة الرعاية والأداء، وأصبحت عندها من الشعائر التي يعز عليها اغفالها أو ترك القيام بها في أوقات التي أضحت مقدسة⁽²⁾، كما تباينت مواقف فقهاء السلطة الضمنية في السكوت عن المنكرات التي يمكنها أن تبطل عمل المولد، وبالتالي بقيت هذه العادة الدينية المستحبة راسخة في أذهان المجتمع إلى اليوم، شأنها شأن الأعياد الدينية الأخرى مثل عيد الفطر وعيد الأضحى.

ز. الاحتفال بالليلة السابعة للمولد:

شهد مجتمع مدينة تلمسان عادة إحتفال بليلة السابع من ذكرى المولد النبوي الشريف على عهد السلطان "أبي تاشفين الثاني" (791 - 795 هـ / 1389 - 1393 م)، حيث يذكر التنسي قائلا: «ولما كانت ليلة سابع المولد المذكور احتفل لها أيضا أعلى الله مقامه، بمثل احتفاله لليلة المولد أو أعظم، ورفع إليه فيها أيضا أبو عبدالله محمد بن يوسف الثغري⁽³⁾، قصيدة مدحه فيها ومدح نجله الكريم ولي عهده المولى أبا ثابت⁽⁴⁾»، يقول فيها:

¹ - اسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص 244.

² - حسن السندوبي، المرجع السابق، ص 79.

³ - هو العالم الأديب الكاتب البارع والشاعر المفلق "أبو عبدالله محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري"، من أشهر شعراء تلمسان وبلغائها البارزين المقدمين لدى سلاطينها وملوكها، كان ملازما لبلاط السلطان "أبي حمو موسى الثاني"، وله القصائد الغراء الطوال التي كان ينظمها بمناسبة احتفال السلطان بليلة المولد النبوي الشريف، ويلقيها بنفسه في ذلك المحفل الجميل. ينظر إلى: ابن مريم التلمساني، البستان في الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م، ص 222. عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 2، ط 2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1965م، ص 215.

⁴ - التنسي، المصدر السابق، ص 196.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

وَيَكْفُلُهُمْ بِالْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنَّدَى وَيَشْمَلُهُمْ بِالْجُودِ وَالرَّفْقِ وَالرَّفْدِ
لِيَهْنِكَ مَا جَدَدْتَ مِنْ عَهْدِ مَوْلِدِ وَسَابِعُهُ أَكْرَمُ بِدَلِكِ مِنْ عَهْدِ
جَمَعْتَ جَمِيعَ الْحُسْنِ فِي لَيْلَتَيْهِمَا تُذَكِّرُنَا كِلْتَاهُمَا جُنْدَ الْخُلْدِ
هُوَ الْمَوْلِدُ السَّامِيُّ وَسَابِعُهُ الرَّضِيُّ فَمَا لَهُمَا فِي مَظْهَرِ الْفَخْرِ مِنْ حَدٍ⁽¹⁾

ومن القرائن الدالة على ذلك ما يشير إليه صاحب زهر البستان، على أن "أبا هو موسى الثاني" أخذ يرتب شؤونه بعد انقضاء أسبوع المولد، وبالتالي الاحتفال كان يبقى طيلة الاسبوع⁽²⁾، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن ليلة السابع مثلت ليلة الختام في مراسم الاحتفال "ولما انقضى أسبوع المولد السعيد أخذ في شأن التسديد والتمهيد"⁽³⁾؛ كما تفيدنا نوازل الونشريسي بصورة واضحة عن ذلك في قوله: «ومنها ايقاد الشمع ليلة مولد النبي ﷺ وسابعه»⁽⁴⁾.

كانت هذه العادة جارية عند بني زيّان، إذا ما انقضى اليوم السابع من المولد النبوي الشريف، ينصرف الناس لانشغالاتهم وقضاء حوائجهم، وكأن هذا الاسبوع يشكل أيام راحة وعطلة، يستمتع بها المحتفلون ويتفرغون كل الوقت في الابتهالات الدينية والامثال

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 201.

² - يمثل الرقم (سبعة) في ذهنية المجتمع الإسلامي؛ المقدس الاسلامي الذي له ارتباط مباشر بالعادات الموسمية الاحتفالية، وبالتالي انعكس ذلك في أدبيات شعرهم ومدائحهم واحتفالاتهم لاسيما في بلاد المغرب الإسلامي، وما يمكن أن ندعم به في هذا الصدد البيتين الذين ذكرهما "بن الأحمر الغرناطي" على لسان "أبو العباس بن عبد المنان" وهو يمدح السلطان المريني "أبو عنان" في قوله:

وَجُنْحَ لَيْلٍ تَجَلَّى عِنكَ فَاحْمُهُ *** وَاَنْتَ قَائِمُهُ بَرًّا وِرَاكِعُهُ
وَمَوْسِمَ جَلٍّ قَدْرًا بَاعَتِنَاكَ بِهِ *** رَاقَتْ لِيَالِيهِ وَاَزْدَانَتْ سَوَابِعُهُ. ينظر إلى: ابن الأحمر، نثر الجمان، المصدر السابق، ص 324. ومما يدعم ذلك اتخاذ الآلة (الراية) عند أهل المغرب لاسيما بربر زناتة بسبعة ألوان ومنهم من يزيد عن ذلك ومنهم من ينقص، وإنما اقتصروا على سبع من العدد تبركا بالسبعة على العادة الجارية. ينظر إلى مقدمة بن خلدون، المصدر السابق، ص 202. كما كان بنو زيّان يحتفلون بأسبوع (العراسية)، أي تستمر عادة الاحتفال بالعرس والزفاف من عزف على الأنغام وتقديم المأكولات والمشروبات سبعة أيام كاملة. ينظر إلى زهر البستان، المصدر السابق، ص 249.

³ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 181.

⁴ - الونشريسي، المصدر السابق، ص 471.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

لطقوس التعظيم الروحانية، وبالتالي كان يطلق على هذه الفترة بأسبوع المولد⁽¹⁾، كما تتجلى هذه العادة كذلك في العرائس؛ التي كانت تقام عندهم كما ورد في زهر البستان ولما كمل أسبوع العرَاسِيَّة⁽²⁾، صرف موصلها مستصحبا بهدية أي لما انقضت فرحة الاسبوع تمت العروس إلى بيت زوجها مستصحبة الهدايا.

2. مظاهر الاحتفال بشهر رمضان

يعتبر شهر رمضان من بين الشعائر الدينية؛ التي كان أهل تلمسان يعظمونها وينتظرونها كل موسم بغية الاحتفال والتبرك وترقب ليلة القدر، فهذا الشهر له قداسته الروحية الدينية، لأنها تبعث في قلوب المسلمين روح التبتل والزهد والاجتهاد في العبادات، كما له طابع احتفالي يتمثل في التأهب والاستعداد له منذ شهر شعبان، بمختلف المأكولات والعطور والبخور كتعبير على مدى الفرحة المعنوية التي تنبثق من جراء أول ليلة يظهر فيها الهلال، وعلى هذا المنوال سارت عوائد الناس في تلمسان إلى آخر ليلة منه.

لكن المصادر خلت من ذكر تفاصيل هذه الأجواء الاحتفالية، التي كانت تقام في فناء المدينة، إلا بعض النتف والشذرات التي تجعل الباحث يستند إلى مقارنة تاريخية بين المجتمعات الأخرى المحاذية لتلمسان، على اعتبار أن هذه المجتمعات كانت لها نفس العادات والتقاليد في مختلف المجالات لاسيما مجتمع مدينة فاس، غير أن الاختلاف بين مجتمع تلمسان وغيره يتجلى في طبيعة العمران المدني، ذو الطابع التقشفي والمتواضع⁽³⁾ في بنائه ونقشه وتمصيره، الذي ميّز تلمسان عن غيرها من المجتمعات زهاء أربعة قرون من الزمان.

¹ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 247.

² - نفسه، ص 249.

³ - بناءً على ما توصل إليه الأثريون وما جاء في المصادر الاخبارية، أن مدينة تلمسان كانت تحتوي على تشييد عمراني بسيط خال من التكلف والزخارف والتزين الباذخ كالذي نجده في فاس مثلاً أو في الأندلس، رغم الثراء الذي كان عند بعض البيوتات التلمسانية، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على فضائل التقشف عند التلمسانيين؛ وهذا ما يؤكد روجه لوتورنو عندما كتب عن العمارة في فاس زمن المرينيين قال: «كانت ثمة أنماط مختلفة للبيوت زمن المرينيين.. وهي مساكن لأسر كانت على شيء من الثراء والنعمة» ينظر إلى كتابه، فاس في عصر بني مرين، ترجمة: نقولا زيادة، مكتبة لبنان، 1967م، ص 91.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

يحتفل الناس بعد ترقب هلال رمضان بشغف أوّل أيام الشَّهر، بايقاد القناديل والإكثار من البخور بالعود والعنبر وأنواع الطيب، لاسيما في المسجد الأعظم⁽¹⁾، الذي يباشر فيه المسلمون صلواتهم الخمس مع التراويح وإقامة الحلقات الدينية بعد الافطار، حتى في وقت العز والقيظ وشدة البرد⁽²⁾.

وكانت ليالي رمضان في تلمسان تعبدية وتهجدية، يواظب فيها المسلمون على الذكر وقراءة القرآن ومذاكرة السُّنة النبوية، إذ يتركون بمصحف "عثمان رضي الله عنه" ولهم في ذلك ترتيب حسن⁽³⁾، وذكر "محمد بن سعيد العقباني" في تحفة الناظر أن المجتمع اعتاد على الاستيقاظ لوقت السحور عن طريق الأبواق التي تأتي أصواتها من المسجد الجامع بتلمسان إلاَّ أنَّه يستنكرها بشدَّة لأنها مفزعة ومنفرة⁽⁴⁾.

ومن العادات الحسنة في هذا الشهر عند التلمسانيين؛ مراعاة الجوار وتفقد الغريب بالصَّدقات وتعدد الزيارات بين الأقرباء، حيث يذكر "بن مرزوق الخطيب" عن والده كان يأمر خديمه بأن يعمل طعاما ليفطر عليه مع المجاورين على عادته⁽⁵⁾، خاصة في ليلة السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر).

كان المسلمون يحتفلون بهذه الليلة إذ يجتمعون القرآن ويوقدون الشمع ويتناجون الحلوى⁽⁶⁾ ويقدمونها تبركا بها، وهي ليلة شرفت كليلة الاحتفال بالمولد النبوي باعتبارات:

¹ - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 286. يذكر ابن مرزوق الخطيب أن اليهود والنصارى من بين الذين يستبقون إلى تعطير والمسجد الأعظم بالبخور وغيرها؛ لعل أنهم كانوا عبيدا وخداما في البلاط الزيناني ويتلقون الأوامر رغبة عنهم دون مراعاة جنسهم أو خصوصياتهم.

² - ابن مرزوق، المسند، المصدر السابق، ص 222.

³ - التنسي، المصدر السابق، ص 124.

⁴ - محمد بن سعيد العقباني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تح: علي الشنوفي، المعهد الثقافي الفرنسي، دمشق، سوريا، 1967م، ص 41.

⁵ - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 198.

⁶ - يشير يحيى بن خلدون في ترجمة الولي أبي عبد الله الحلوي أنه كان كثير الصدقة في رمضان، حيث أخذ في ثمن شيء من حلوائه كسرى خبز سميد فتصدق بها على اليتيم ذي أطمار - أي يرتدي أثوابا مهترئة وبالية - علما أن هذا الشيخ التصق به هذا اللقب (الحلوي) نظرا لبيعه الحلوى والتصدق بها. ينظر إلى: يحيى بن خلدون، البغية، ص 165 - 166.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

منها أنها في رمضان، ومنها نزول القرآن الكريم فيها إلى سماء الدنيا كما تقرر، ومنها تنزل الملائكة عليهم السلام إلى الأرض للسلام على أهل الايمان⁽¹⁾، وفقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾⁽²⁾.

إذا كان شرف ليلة القدر مقترن بشرف ليلة المولد النبوي الشريف، فإن الاحتفال بهما على الوجه الذي أجازه علماء أهل السنة يصبح واجبا دينيا على كل مسلم⁽³⁾، وهذه ما دأب عليه التلمسانيون على عهد بني زيان، وتعتبر ليلة المولد النبوي من أعظم الليالي منزلة وأكرمها فضلا، وعلى هذا الاعتبار رجح "ابن مرزوق في جنى الجنتين" فضل ليلة المولد على ليلة القدر من نحو عشرين وجها⁽⁴⁾، تستوجب الاحتفاء بها كعادة احتفالية موسمية.

أ - عادة الضرب في البوقات في رمضان بالمساجد: عرفت هذه العادة (بعادة التسحير)، وهي الضرب في البوقات والآلات لتنبية الناس وإيقاظهم للسحور، والتهيؤ للإمساك عن الطعام والشراب، وكانت البوقات المستعملة للضرب في تلمسان لا تصلح إلا لإيقاظ النائم للسحور؛ لأنها تحدث ضجيجا مدويا، ويستحب استعمالها داخل المساجد والجوامع في شهر رمضان على حد ما أفتى به "العقباني" في تحفة الناظر⁽⁵⁾، وكانت هذه العادة منتشرة ومشهورة في بلاد المغرب الإسلامي، إلا أن هذه الطبول والبوقات أُعتبرت من المعازف المنهي عنها شرعا.

¹ - الونشريسي، المصدر السابق، ج 11، ص 285.

² - سورة القدر، الآية رقم 05.

³ - أبو عبد الله ابن مرزوق، جنى الجنتين في شرف الليلتين - ليلة القدر وليلة المولد -، مخطوط، المكتبة الوطنية المغربية، رقم 1380، ورقة رقم 26.

⁴ - ابن مرزوق، نفسه، ورقة رقم 23.

⁵ - العقباني، المصدر السابق، ص ص 41 - 42.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

3/ الاحتفال⁽¹⁾ بالعيدين⁽²⁾ (الفطر والأضحى)

أ - عيد الفطر: تُعْمُ الفرحة والبهجة والسُرور قلوب التلمسانيين بمناسبة حلول عيد الفطر، والذي يُعتبر أحد الأعياد المشروعة في الإسلام، وأشادت بها السنة النبوية في الاحتفاء والاحتفال بها، إذ يأتي مباشرة بعد صيام رمضان في أول شهر شوال، ويصف أحد الذين زاروا مدينة تلمسان في القرن (9هـ/15م) وهو (عبد الباسط بن خليل)؛ أن جرت العادة في البلاط الزياني إقراض الشعر حيث يقول: «فسألني عبد الرحمان في شيء من النظم في مدح صاحبه أعني صاحب تلمسان ليقراً عنده بالقصر في المجلس العام في يوم عيد الفطر»⁽³⁾.
ونظم قصيدة فيها أربعين بيتاً جيداً⁽⁴⁾، أنشدها على مسامع الحضور مما لقي اهتمام كبير من طرف صاحب البلاط وانبسط لها ووقعت منه الموقع، لاسيما وفيها التعريض لصاحب تونس⁽⁵⁾، يقول فيها:

أَعْنِي الْمَلِيكَ الَّذِي شَاعَ مَكَارِمُهُ مِنْ آلِ زِيَّانٍ أَقْيَالُ أَمَاجِيدُ
هُمُ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ وَمَنْ يَقْلُ سِوَى ذَا فَذَاكَ الْقَوْلُ مَرْدُودُ⁽⁶⁾

¹ - الاحتفال: الاحتفال من أقدم الممارسات الإنسانية التي تعضد المجتمع وتعمل على تأوين الروابط الاجتماعية، فمنذ البدئ الانساني والاحتفال يرافقه ويؤسس الديناميات والتفاعلات الاجتماعية، في اطار ترويض الجسد والتكيف مع الطبيعة ومواجهتها والتقرب الى قواها، وبالتالي هو عادة موسمية ترتبط بدورة الطقوس الزمنية الدينية، ينظر إلى: عبدالرحيم العطري: بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، 2014م، ص 146.

² - العيد: العيد في معناه الديني كلمة شكر على تمام العبادة، لا يقوؤها المؤمن بلسانه ولكنها تعتلج في سرائره رضى واطمئنانا، وفي معناه الانساني يوم تلتقي فيه قوة الغني وضعف الفقير على اشتراكية من وحي السماء عنوانها الزكاة والاحسان والتوسعة، وفي معناه النفسي حد فاصل بين تقييد تخضع له النفس وتسكن إليه الجوارح، وفي معناه الزمني قطعة من الزمن خصصت لنسيان الهموم واطراح الكلف واستجمام القوى الجاهدة في الحياة، وفي معناه الاجتماعي يوم الأطفال يفيض عليهم الفرح والمرح ويوم الفقراء يلقاهاهم باليسر والسعة ويوم الأرحام يجمعها على صلة والبر ويوم المسلمين يجمعهم على التسامح والتزاور، ينظر إلى: آثار الامام الابراهيمي، المرجع السابق، ج3، ص 479.

³ - Robert Brunschfig, deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV^e siècle- Abdal Bassit B.Hallil et Adorne, Paris V^e, 1936, p 48.

⁴ - Ibid, p 48.

⁵ - Ibid, p 49.

⁶ - البحر البسيط.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزنانيين وأثرها الديني والاجتماعي

لاشك أن هذه المناسبة كان يكثر فيها الصدقات وبيع الحلوى وتقديم الهدايا وتبادل التهاني والزيارات للأقرباء وصلات الرحم، بما في ذلك زيارة طلبة العلم لشيخوخهم ومعلميهم وكرامهم ولو بالشيء اليسير، تعبيراً على الفرحة أولاً وتقديراً ووفاءً لمقام الشيخ، ومما يثبت هذا في المجتمع التلمساني ما ورد عند "يحيى بن خلدون": «فلما جاء الفطر ابتعت سميداً وعسلًا وقلت لعمتي: اصنعي لي مشهدة⁽¹⁾ يُفطّرُها عندي رجل من الصالحين. ففعلت والتمسته في الناس بعد صلاة العيد»⁽²⁾.

إذن هناك إشارة واضحة على تقاليد الفرحة في أوساط أفراد المجتمع التلمساني، مما يدل على مدى الارتباط الوثيق بين كل الفئات؛ سيما وأن هذه الأعياد كانت تتخللها البهجة والسُرور والنشاط والحبور، فضلاً عن المناظرات الخطابية التي تذكر بطولات الأجداد وإنجازاتهم، تقوي الشعور بوحدة الانتماء للقبيلة، مما يعني أن المعتقدات الدينية تؤطر الحياة الاجتماعية بامتياز.

ب - عادة الاحتفال بعيد الأضحى: يسمى كذلك بعيد النحر يعقب كل موسم في شهر ذي الحجة، وكان له حضوراً قوياً في المجتمع التلمساني، لأنه يرتبط بالدرجة الأولى بإحياء سنة "إبراهيم" عليه السلام وما يترتب عن ذلك من فرحة القلوب وألفة النفوس وتجدد أواصر المحبة وتنبذ الضغائن لتشمل البهجة والغبطة، بعد ذلك يبادرون إلى تبادل التهاني والتبريكات وهم في أبهى حلة، ثم يقومون بزيارة الأقارب والجيران وصلة الأرحام تعظيماً لشعائر الله تعالى، ويعتبر العيد فرصة سانحة للترابط الأسري، حيث تجتمع العائلة الكبيرة الممتدة والصغير بيت العائلة الكبيرة، ثم تكون فرصة أخرى يستغلها أفراد العائلتين للخروج في نزهة جماعية لتتعمق بذلك معاني الحب والود.

هذا ما دأب عليه التلمسانيين في عاداتهم الموسمية؛ فكانوا يتهيؤون له يستعدون بشراء الأضحية وبصنع شيء من الحلوى والمأكولات والسهر على تنظيف الأزقة وتزيين كل

¹ - المشهدة: وهي فطائر تقليدية جزائرية قديمة كانت تقدم للضيوف في المناسبات وتعرف بالبغريز.

² - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 166.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

المرافق قصد الاحتفال وإقامة شعائر العيد المعروفة، التي تبدأ بصلاة العيد كما أخبرنا "بن خليل" في رحلته قائلا: «وفيها في يوم الأحد عاشر ذي حجة كان عهد النحر بتلمسان فخرجنا للمصلى بظاهراها وحضر محمد بن أبي ثابت صاحب تلمسان صلاة العيد في هذا اليوم بعد أن خرج في موكب حافل حين تعالى النهار جدا»⁽¹⁾.

كان السلطان الزياني يخرج في موكب بهيج حافل قبل صلاة العيد، ثم يؤدي الصلاة رفقة الأعيان والعلماء فمن دونهم من المرافقين والعامّة، حتى إذا فرغ من صلاته نحر أضحيته في المصلى ويشهر بها محمولة على بغل⁽²⁾، واقتضى العرف الديني أن تكون هذه الأضحية كبشا أملحا إقتداءا بسنة إبراهيم عليه السلام، وفي هذه الأجواء الاحتفالية يشق به المدينة لأجل أن يتيقن بتضحية الإمام على قاعدة مذهب "الامام مالك" رضي الله عنه، وكان هذا الرجل لما سار بهذه الذبيحة الأضحية مجدا ببغله فيها محثا في ذلك⁽³⁾ أي ايذانا بالذبح.

استغرب "عبد الباسط ابن خليل" ذلك السلوك من السلطان الزياني لأنه لم يألف مثل هذه الطقوس الاحتفالية من قبل، فأخذه الفضول وسأل بعض أصحابه عن ذلك فأجابه: بأن ذلك من عادة ملوك هذه البلاد، وأصل ذلك ما لحظته أنا من إعلام الناس بأنّ الامام ذبح⁽⁴⁾، ومما نستدل به في هذا المقام ما استفتي به "الونشريسي" حول أضحية العيد، فكان جوابه صريحا أنه من آداب عيد الأضحى لدى المجتمع التلمساني؛ وهو الشأن عند عموم المسلمين، أن تذبح الأضاحي بعد ذبح إمام الصلاة لأن الأضحية معتبرة بالصلاة، والذبح يوم النحر للضحايا مرتبط بذبح الامام أضحيته على مذهب الامام مالك، وإلتبس على الناس من هو الامام المقصود بذلك الخليفة أم امام الصلاة؟.

فأجاب: الامام المعتبر هو الامام المعتبر شرعا. والامام عند المعتبر في تلمسان هو السلطان الزياني الذي يقوم بواجب التضحية كما هو معروف عند المالكية في تلمسان، حيث

¹ -R. Brunschfig, Op cit, p 41.

² - Ibid, p 41.

³ - Ibid, p 41.

⁴ - Ibid, p 42.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

جرت العادة أن يخرج أضحيته إلى المصلى فيذبجها وينصرف الناس بانصرافه ويوقعون الذبح⁽¹⁾.

وكان من عادة "محمد بن ثابت" السلطان الزياني أن يعود بموكبه الحافل بعد الذبح إلى بلاطه والنساء تدعوا له بدعوات⁽²⁾، وعلى هذا ينصرف الناس إلى بيوتهم لإتمام ما بقي من شعائر العيد.

ج. عادة ركوب السلطان لصلاة العيدين أو للسفر: كانت هذه العادة منتشرة ومعروفة على مستوى المغرب الاسلامي، ومن المؤلفات المشرقية التي وثقت ذلك، ما ذكره (القلقشندي) في صبح الأعشى عن ملوك تونس والمغرب الأقصى، وقال عن تلمسان: «لم أقف على شيء من ترتيب مملكتها، والظاهر أنها تشبه مملكة تونس في الحال والترتيب أو قريب من ذلك»⁽³⁾.

بما أنّ الكثير من العادات الاحتفالية في المملكتين الجارتين في ترتيب حال الملك هي نفسها أو قريبة منها في مملكة تلمسان، فلا نرى بأساً من وضع إسقاط تاريخي لهذه التقاليد على مملكة تلمسان، وبذلك نكون قد غطينا جانباً مهماً من الدراسة حول خروج السلطان في أجواء احتفالية لصلاة العيدين أو للسفر.

يركب السلطان موكبه الاحتفالي جرياً على العادة المألوفة؛ وهو محاط بهالة من الأعيان الشيوخ والحرس والجند، متقلدين سيوفهم راجلين على اليمين واليسار، قال "القلقشندي": «وعادته في ذلك أن يركب السلطان، وعن يمينه فارس وعن يساره فارس من أكابر أشياخه، ويمشي إلى جانبه رجلان مقلدان سيفين رجالة إلى جانبه: أحدهما ممسك بركابه الأيمن، والثاني ممسك بركابه الأيسر، ويليهما جماعة رجالة من أكابر دولته، ومن يجري

¹ - الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص ص 32-34.

² - ذكر عبد الباسط بن خليل بأنه سمع امرأة عجوزاً تدعوا للسلطان بأن يسخر الله تعالى سليمان بن موسى وكان هذا من كبار أمراء عرب تلك البلاد، وهو أمير عربان هلال أعظم من أمير آل فضل في هذه البلاد ومن كان سليمان هذا معه من ملوك تلمسان راج أمره ومن كان عليه كان في ادبار وتخوف، ينظر إلى: Brunschfig, p 42

³ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، المصدر السابق، ص 151.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

مجراهم من أعيان الجند، وتسمى هذه الجماعة ايربان، يمشون حوله بالسيوف وبأيديهم عكاكيز⁽¹⁾.

قد يمشي قاضي القضاة راجلا مع هؤلاء الجماعة لإضفاء نوع من الهيبة والأبهة والعظمة على الموكب، وأمام هؤلاء يوجد جماعة المشائين؛ وهم نفر كثير من أقارب السلطان بسيوف ومزاريق⁽²⁾، "وقدامهم جماعة يقال لها جفاوة: وهم عبيدٌ سودٌ بأيديهم حِراب في رؤوسها راياتٌ من حرير، وهم لابسون جباباً بيضاً مقلدون بالسيوف، وأمام هؤلاء قومٌ يعبر عنهم بعبيد المخزن، وهم عوامُ البلد وأهل الأسواق، وبأيديهم الدرق والسيوف، ومعهم العلم الأبيض المسمى بالعلم⁽³⁾ المنصور"⁽⁴⁾، وكانت العادة بأن ينادى في أهل البلد ليلة العيد أو ركوب السلطان للسفر، فيخرج أهل كل صناعةٍ بظاهر البلد⁽⁵⁾.

أما خلف السلطان كذلك يكون صاحب العلامات وهو أمير علم راكب، ووراءه أعلام القبائل⁽⁶⁾، "ووراء الأعلام الطبولُ والبوقاتُ، وخلفهم مُحركو الساقة الذين هم بمثابة النقباء، وبأيديهم العصي يُرتَّبون العساكرَ، وخلف هؤلاء العسكر"⁽⁷⁾، ثم يقوم الفارس الذي الذي على يمين السلطان بإعطاء أمر دقّ الطبول، ويستمرُّ حول من حول السلطان من المشاة يمشون ثم يركبون، ويطوف بالسلطان جماعةٌ يقرؤون حزباً من القرآن الكريم، ثم يقف السلطان ويدعو ويؤمن وزير الجند على دعائه، ويؤمن الناس على تأمينه، وبعد ذلك يُجدُّ السلطان والناس السَيْر⁸.

¹ - القلقشندي، المصدر السابق، ص 146.

² - مزاريق: جمع مزارق وهو الرمح القصير.

³ - هو علم أبيض يسمى (العلم المنصور) يحمل مع السلطان في المواكب وهو شعار السلطنة.

⁴ - القلقشندي، نفسه، ص 146.

⁵ - نفسه، ص 146.

⁶ - نفسه، ص 146.

⁷ - نفسه، ص 146.

⁸ - نفسه، ص 147.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

يسير الموكب على هذا الترتيب المذكور؛ بحيث إذا كان الطريق ضيق "مشوا كيف جاء على غير ترتيب، إلا أن الجند لا يتقدمون على السلطان، فإذا قربوا من المنزلة وقف السلطان ودعا وأمن على دعائه كما تقدم، وإن كان في صلاة العيد ذهب في طريق وعاد في أخرى"¹، من المرجح أن يكون هذا الترتيب في موكب الملك وفقا لما يقتضيه التقليد الرسمي وارداً عند ملوك بني زيان.

4- الاحتفال بمذق القرآن.

أولى التلمسانيون اهتماما كبيرا بمذق القرآن الكريم، لأنه يردع الناس بالحق ويربي صاحبه على البصيرة دون أن يشعر ويفتح للنشئ أبواب العلم والمعرفة، وبما أن هذا المقدس الديني له خلفياته وآثاره الناجمة عنه بحكم أنه كلام الله من حفظه والتزم به حتما يكون مآله الاستقامة والشرف. فهل كان بنو زيان يحتفلون احتفالا رسميا يليق بمقام القداسة والشرف؟ أم بالغوا في الاحتفال حتى البذخ؟.

الاجابة على هذا السؤال تقتضي منا التوقف قليلا عند الشواهد التاريخية المروية من المصادر التي روت لنا تفاصيل الاحتفال؛ حيث يعطينا "يحيى بن خلدون" مشهدان تاريخيان حول تقاليد الاحتفال بمذق القرآن في البلاط الزيناني، فالمشهد الأول: في سنة (770هـ/1368م) إذ حذق الأمير "المنتصر" - أحد أبناء أبو هو موسى الثاني - سورة البقرة، فأقام نصره الله لذلك بمشوار داره الكريمة مدعى حافلا وعرسا شائخة، اجتمعت لها الأمم عربها والعجم، وحشر فيها المغنون على اختلاف أصنافهم وأطوارهم فكان يوما للسرور مشهودا وحفلا للفخر جامعا².

يتضح جليا أن الاحتفال بمذق القرآن عند بني زيان؛ كان من التقاليد التي يتفاخرون ويتباهون بها أمام غيرهم إلى حد البذخ والإسراف، فيتحول المقدس الديني من فضيلة تستوجب الشكر لله على اتمام ختمة القرآن، إلى رذيلة وخروج عن جادة الصواب، بعدما

¹ - القلقشندي، المصدر السابق، ص 147.

² - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص 212 - 213.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

تجتمع الجموع ويحشر في مجلسهم المغنون على اختلاف أصنافهم، بهدف اسعاد السلطان وابنه وهو لم يتم الختمة بعد بل سورة البقرة.

ومن القرائن الدالة على ذلك ما روي في المشهد الثاني إذ يقول "يحيى ابن خلدون": «وفي شهر رجب الفرد من سنة (776هـ/1374م) حذق المولى الأمير "أبو زيان محمد" سورة البقرة، فأقام نصره الله - أبو هو موسى - لسروره مدعى كريما وعرسا حافلة جمعت الشريف والمشروف، والرفيع والوضيع ونودي في أرباب الغناء والعزف والطبرخانات والكريج وسواهم بالمدينة حاشرين، فاجتمعوا بمشوار داره الكريمة يروقون الأبصار ويبهجون الأسماع، وجيء بخوانات الطعام الكثيرة، من كل ما حلى في الفم وحلي في العين فطعم الناس وحمدوا الله تعالى على ما منح مولاهم من قرة العين في النفس والمال والبنين»⁽¹⁾.

يبدو أنّ الاحتفال كان مبالغ فيه من طرف السلطان الزيناني بهذه المناسبة التي يحضرها أرباب الغناء والعزف فتكثر بذلك المنكرات بلا شك، ومثل هذا ما استنكره الفقهاء في مناسبة الاحتفال بالمولد، لكن العادة الجميلة التي أثارت انتباهنا هي دعوة عامة الناس إلى المشاركة في الاحتفال والطعام وهذا إن دل على شيء إنما يدل على العلاقة الوثيقة بين العامة والسلطان وتبادل المشاعر الصادقة وهو مؤشر صريح على أن أهل تلمسان كانوا يدينون بحكم السلطان ويدافعون عنه حتى في السراء والضراء.

عبر عن هذه الأجواء الاحتفالية؛ في قصيدة مطولة الشاعر "محمد بن يوسف القيسي

الأندلسي" نقتبس منها ما يلي:

وإنَّ أَبَا زِيَانَ زَيْنُ لِدَاتِهِ	زَكَى مِنْهُ نَجْلٌ حِينَ طَابَ بِهِ نَجْرُ
وَقَدْ حَذَقَ الْقُرْآنَ حَذَقَ مُجَوِّدٍ	فَأَشْرَقَ مِنْهُ الْقَلْبُ وَأَنْشَرَ الصَّدْرُ
وَهَشَّتْ لَهُ الْجَوَازُءُ تَحْدُمُ حَفْلَهُ	وَقَدْ شُدَّ لِلْجَوَازَا بِمَنْطِقِهِ خَصْرُ
وَيَتْلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَاللَّهُ حَافِظُ	لِتَالِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَفِظَ الذِّكْرُ

¹ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 288.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

وَقُرَّةَ عَيْنِ الْمَجْدِ يَوْسُفَ صِنُوهُ بِمَجْدِهِمُ الْعَلِيَاءُ شُدَّ لَهَا أَرْزُ⁽¹⁾

وإذا اعتبرنا أن ختم القرآن أو (الختمة) نوع من أنواع الحدق؛ فإننا نجد أغلب علماء وزهاد تلمسان اعتادوا ذلك في حياتهم اليومية، "فابن مرزوق الخطيب" مثلاً يُورد لنا عن أبيه قائلاً: «أنه كان رضي الله عنه من اليوم الذي عقلت فيه وميزت إلى يوم فارقته رضي الله عنه يختم ختمة من كتاب الله عز وجل، بين يومه وليلته، رحلته الثانية والثالثة كان يختم ختمة بالليل وختمة بالنهار ويختم بلا مصحف بإحدهما وفي المصحف بالأخرى»⁽²⁾.

فإذا كان ختم القرآن الكريم وحثه يقيم له إحتفالاً كبيراً عند الزينيين فضلاً عن عادة الختمة بالليل والنهار؛ فإن "أبا عبد الله الشريف" كان يختم تفسير القرآن الكريم بالمدرسة اليعقوبية، ويقام لذلك الختم حفلاً يطعم فيه الحضور في أجواء بهيجة، وقد ذكر "التنسي" في مؤلفه ذلك مبيناً بأن "أبا هو موسى الثاني" هو من شجّع وحرص على أن يتميز التلمسانيين بهذه العادة، حيث أورد قائلاً: «ختم السيد أبو عبد الله تفسير القرآن العزيز فيها، فاحتفل أيضاً لحضور ذلك الختم، وأطعم فيها الناس وكان موسماً عظيماً»⁽³⁾.

5- طقوس الاحتفالات الدينية عند أهل الذمة:

يستحيل علينا أن نرسم صورة صحيحة عن الأسلوب الذي كان يسير عليه أهل الذمة في عاداتهم وتقاليدهم الدينية في تلمسان، بإعتبارهم مكون رئيسي للمجتمع خاصة اليهود، فلا سبيل لنا إلا التخمين مع الإستعانة ببعض الشذرات المتناثرة عنهم.

فمن المحتمل أن عاداتهم الدينية الاحتفالية؛ كانوا يمارسونها بتقية وتكتم نظراً للتمهيش المؤقت الذي تعرضوا له عندما كانوا يقطنون في قباسة⁽⁴⁾ خارج المدينة، ليتمتعوا بشيء من الاهتمام والنشاط الاقتصادي بعد انتقالهم داخل المدينة، واستقرارهم فيها بفضل حاخامهم (افرايم ألكاوه) مع نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر ميلادي، وكان هذا

¹ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 289.

² - ابن مرزوق الخطيب، المناقب، المصدر السابق، ص 212.

³ - التنسي، المصدر السابق، ص 180.

⁴ - قباسة: هي المكان الذي تجتمع فيه الجالية اليهودية بتلمسان. ينظر الملحقان الأول والثاني.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالاتية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

الأخير متمكنا من التعاليم التلمودية، التي ورثها عن أبيه، وأصبح عالما بدوره، كما أخذ بقسط معتبر من العلوم الطبية التي تميز بها اليهود المقيمين في أوروبا والأندلس⁽¹⁾.

أفادت الروايات المتواترة عند بعض المؤرخين وهي متداولة بشكل كبير في ذهنية المجتمع التلمساني، أن الحاخام اليهودي (افرايم ألانكاوه) هاجر من الأندلس إلى تلمسان والتحق باليهود في قباسة عام (796هـ/1394م)، وزعمت الروايات اليهودية أنه استعان بأسد ليعينه في محتته، وقد كان يحيط برأس الأسد ثعبان على شكل حلقة طرفاه في فم الأسد ليكون بذلك لجاما ووسيلة للامتطاء⁽²⁾، كذلك يطلقون على اسمه "النقاوة" في حين أن اسمه الأصلي هو "ألانكاوه".

في الجانب المتخيل عند اليهود يرمز الأسد بالعلم والثعبان بالطب والصيدلة ثم إنهم قالوا: "النقاوة" وفيها إشارة إلى تلك العين الموجودة داخل قباسة محاذية لضريحه، وكأنهم يقدسونه بتلك الزعامة الروحية والانتصار الضمني، الذي حققه لهم عندما استطاع أن يشفي ابنة السلطان الزياني (أبو العباس العاقل 834هـ/1431م) التي عجز غيره أن يشفيها، فنال بذلك رضا السلطان وأشفع لليهود عنده وأسكنهم المدينة⁽³⁾.

لكن تحولات الواقع الاقتصادي الذي كانت تعيشه الدولة الزيانية يفند هذه الأساطير، لأن اليهود سكنوا المدينة بترخيص من السلطة حتى تستغل حرفيتهم ونشاطهم الاقتصادي الذي حلّ بديلا عن طريق الذهب الجنوبي، الشريان الرئيسي لحياة سكان حاضرة تلمسان الزيانية، الذي سيطر عليه الوطاسيون ثم البرتغاليون لاحقا لتفقد تلمسان حظها من الذهب هناك، وكان الذهب هو المادة الأولى المغربية للتجار المسيحيين الأوروبيين، وكانوا يسافرون

¹ - Darmon, Origine et constitution de la communauté Israélite de Tlemcen, in Revue Africaine, vol 14, 1870, p 378.

² - Achel Israel Hadas-Lebel, Rebi Ephraim Elnkaoua, Rab de Tlemcen 1359-1442, Tlemcen, 1954, p 16.

³ - Damron, Ibid, p 378. □

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالاتية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

من أجلها إلى بلاد المغرب الاسلامي خاصة تلمسان، التي أصبحت رواقا تجاريا للبحر الأبيض المتوسط⁽¹⁾.

زد على ذلك أن تلمسان كانت في هذه اللحظة التاريخية تعج بالأطباء الحاذقين لاسيما اليهود منهم في بلاط السلطان، وبالتالي جاءت هذه الروايات كإنتصار للطائفة اليهودية بتلمسان وقت احجام المصادر التاريخية عن تدوين الحقيقة التاريخية.

تعتبر مدينة تلمسان الوحيدة من مدائن المغرب الإسلامي التي أعطت مركزها لليهود، الذين كانوا يحترفون مهنة وفن صياغة الذهب والفضة، وبالتالي أعتبروا مكسب مادي حقيقي للمدينة؛ وبذلك يصبح الاقتصاد داخلي محلي محض، وخصصت السلطة الزيانية ساحة القوافل المحاذية لقصر (المشور) حياً يقطنه اليهود ويمارسون فيه نشاطهم الحرفي، وبالتالي نقلوا من الملاح⁽²⁾ (قباسة) إلى داخل المدينة لإنعاش الاقتصاد.

أفادت الدراسات الاستشراقية؛ بأن جميع المهن والحرف المتعلقة بصياغة الذهب وفن تصنيع وتشكيل الحلي وغيره كان من اختصاص اليهود، وجميع صانعي المجوهرات بتلمسان هم اليهود⁽³⁾، ولم يكن لديهم رمز يُعرفوا من خلاله في الأسواق وأماكن شغلهم، بل يتم وضع علامة بالأحرف الأولى من أسمائهم الأولى والأخيرة تميزهم عن غيرهم⁽⁴⁾، وهم يحترفون مهنتهم هذه باتقان محكم.

رفع السلطان الزياني (العاقل) سياج السور العظيم بقلعة (المشور) عن ديار اليهود التي سوف تحيط بالقلعة من ناحية الغرب والشمال⁽⁵⁾، وفرض عليهم بأن يتميزوا عن المسلمين بعاداتهم وتقاليدهم في اللباس والعمارة واستخدام وسائل التنقل الخاصة بهم، ويبدو كذلك أن السور كان يؤدي وظيفة المراقبة اليومية لهم باعتبارهم ذميين، وحتى يتمكن

¹ - عبد العزيز فيلاي، الأقليات المسيحية في تلمسان الزيانية ودورها في المجال العسكري والتجاري والعمراي، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية، العدد 19، فبراير 2004م، ص 196.

² - الملاح: هو مكان لإستقرار اليهود خارج أي مدينة من المدن، في تلمسان سمي (بقباسة) والتي تحمل نفس المعنى، وتعتبر مستوطن للجالية الأجنبية.

³ - Paul Eudel, L'orfèvrerie Algérienne et Tunisienne, Alger, 1902, p 422.

⁴ - Ibid, p 422. □

⁵ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 202.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

السلطان إكمال هذا المشروع الاقتصادي؛ كان لزاما عليه بأن يهدم الدور⁽¹⁾ المحيطة بقلعة المشور ليعمرها اليهود، وأصبح لليهود داخل المدينة مركزا إقتصاديا محوريا، يعرف الآن بجي اليهود أو (درب اليهود).

أفادنا "النويري" في نهاية الارب أن لأهل الذمة تسعة عشرة عيداً أربعة عشر منها للنصارى الأقباط وخمسة لليهود؛ وفي نظرنا أن هذه الأعياد بعضها كانت تمارس بشكل علني ورسمي خاصة الأعياد الدينية، عندما تقوى شوكة أهل الذمة مثلما كان عليه الأمر في مصر أو في القدس الشريف أو حتى ليهود قباسة، وأغلبها كان يتم الاحتفال بها سرىا وبتقية، لاسيما في تلمسان، لأن تواجدهم كان شكليا ومهمشا من طرف السلطة، فلم تصلنا أخبار احتفالاتهم الرسمية وما سكوت المصادر والتكتم على نقل مللهم ونحلهم في تلمسان إلا أكبر دليل على ذلك.

وبما أن الظروف السياسية فرضت وجودهم كعنصر مؤثر اقتصاديا بتلمسان، فنكاد نجزم على أنهم مارسوا طقوس الاحتفالات الدينية وغيرها على طبيعتهم الخاصة، وهنا نضطر للاعتماد على بعض المصادر المشرقية التي وثقت هذه العادات الاحتفالية لهم⁽²⁾.

أفادت الدراسات بأن النصارى التجار الوافدون من إسبانيا خاصة من مدينة أراغون على مدينة تلمسان؛ كانوا يقيمون شعائرهم الدينية الروحية داخل المبنى التجاري القيسارية بموجب اتفاقية (686هـ/1286م) في بندها الرابع، التي تم التوقيع عليها من طرف السلطان الزياني "أبي سعيد عثمان بن يغمراسن" ومن الطرف الآخر الملك الأراغوني "ألفونسو"، عينت السلطات الاسبانية قساً لهؤلاء النصارى بتلمسان حتى يتسنى لهم إقامة شعائر دينهم، وكان هذا القس يقيم بالقيسارية⁽³⁾، وبالتالي أصبحت تحتوي على كنيسة شريطة أن لا

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 253.

² - ينظر إلى الملحق رقم 03.

³ - Attallah Dhina, le royaume Abdelouadide a l'époque d'Abou Hammou Moussa I^{er} et d'Abou Tachfin I^{er}, Office des publications Universitaires, Alger, p 206.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

تُضاف إليها صومعة أو أجراس⁽¹⁾، وكانت عادة أهل تلمسان بيع سلعهم والمتاجرة بها في القيسارية التي ستطرق لها في أوانها.

وقد اقتضى العرف القانوني المفروض على اليهود في تلمسان ذو المرجعية الدينية الاسلامية، بأن يمنعوا من ركوب الخيل ويمكنهم استخدام الحمير أو البغال فقط⁽²⁾، لأنّ الفرس عند المسلمين حيوان يمثل النخوة والشجاعة والإقدام، فمن غير الممكن أن يمتطيه اليهود لأنهم من الفئة المغضوب عليها استناداً للأعراف التعسفية في حقهم، قال "الونشريسي": «ولا سبيل لهم إلى مركوب الخيل لأنها من مركوب رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وعليها جاهدوا وقتلوا عدوهم، والخيل من بهاء الاسلام ومعقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنية، فلا ينبغي أن يكن أهل الذمة مما هذا سبيله ويباح لهم ركوب البغال والحمير على أكف وأرجلهم من شق واحد»⁽³⁾.

من عوائد الأعراف السائدة في تلمسان على الدّمي؛ إرغامه على أداء المغارم والمجابي والملازم، وسماها "بن مرزوق" في المسند بألقاب منكرة كانت منتشرة عند سائر المسلمين؛ على إثرها عمت البلوى، حيث كانت المطالبة بتفتيش كل من يدخل من الأبواب الذي لا يحترم فيه من الناس أحد⁽⁴⁾.

قال "ابن مرزوق" مبيناً ذلك: «فيتولى المسلم نصراني ويهودي وخارجي ويحيطون به فيفتشونه من رأسه إلى قدمه ظاهراً وباطناً، لما عسى أن يدخل به من السلع التي يوظف عليها مغرم من المغارم، وحتى النساء يوكل بهن يهوديات، يفتشنهن ويدخلن يديهن إلى لحومهن، وفي هذا من الشناعة والبشاعة ما لا يخفى، وكان هذا العمل في تلمسان وأعمالها»⁽⁵⁾، كانت تلك عادة سيئة يقوم بها بعض الناس، ساهمت في إزعاج الناس لاسيما أهل الذمة منهم

¹ - العقباني، المصدر السابق، ص 170.

² - للمزيد من الاطلاع أكثر في طبائع اليهود وتواجدهم في الجزائر منذ القديم، ينظر إلى ما كتبه وليام مارسي في الموسوعة اليهودية 1901-1906 في الموقع الإلكتروني: <http://www.jewishencyclopedia.com>

³ - الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص 256.

⁴ - ابن مرزوق، المسند، المصدر السابق، ص 285.

⁵ - نفسه، ص 285.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

الوافدين على مدينة تلمسان بسلعهم، ويمكن ذلك من ازدياد شعورهم بالأذى النفسي والإذلال.

تحولت العادة من ركوب الخيل إلى ركوب البغال والحمير استناداً على أحكام الإسلام فيهم، ويقول كذلك: «وليركبوا السروج في الغيب لزيارة بعضهم بعضاً، أو من جرت عادتهم بزيارته من كبراء المسلمين»⁽¹⁾، كما لا يسمح لهم البتة باستخدام سروج الركوب وكانوا مضطرين بخلع أحذيتهم ويختصون بلباس معين ووضع علامات⁽²⁾، تبدو مجحفة في حقهم لا نجد لها سند شرعي يبرر هذا القانون العرفي الذي أجبروا عليه وهم مكرهين، إضافةً إلى ذلك منعهم من التطاول في البنيان بحجة أن الإسلام يعلى ولا يعلوا عليه، بالرغم من ذلك تمتع اليهود بالحرية الدينية وبات أهل الذمة يدفعون الجزية مقابل الدفاع عن حياتهم وضمان ممتلكاتهم واحترام عقائدهم وقوانينهم الشخصية⁽³⁾.

لذلك أبدى "الونشريسي" رأيه في إقصاء اليهود من مدائن المسلمين، وتبريره في ذلك سوء عاداتهم الاحتفالية الدينية وغيرها، مما يجعل المسلم ينفر منها بناءً على ما تمليه عليه عقيدته ودينه الإسلامي، إذ يقول: «أمصار المسلمين التي لا سبيل لأهل الذمة فيها إلى إظهار شيء فيها من شرائعهم، يعني باتخاذ الكنائس واطهار الخمر والخنزير وضرب الناقوس»⁽⁴⁾.

يبدو أن هذه القوانين أصبحت الأقلية اليهودية مجبرة عليها من طرف المجتمع الزيناني، ومع مرور الزمن سار تقليداً خاصاً بهم، في حين جاءت صدقة واتفاقاً بين الطرفين لتعبر عن حتمية التعايش الديني كما يريده النظام السائد في تلمسان.

نتيجة لانصهار الفئة اليهودية داخل المجتمع الإسلامي؛ لاسيما في تلمسان واختلاطهم بثقافتهم وعاداتهم فكانوا يشتغلون بالكثير من الأعراف والخرافات التي كانت منتشرة في زمانهم؛ والتي أخذوها من العرب والبربر المسلمين، مثل تشويه النساء وجوههن بموت

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 256.

² - Attallah Dhina, Op cit, p 56. □

³ - عبد الرحمن بشير، اليهود في المغرب الإسلامي وإسبانيا المسيحية، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، جامعة الزقازيق، مصر، 2014م، ص 61.

⁴ - الونشريسي، المصدر السابق، ص 239.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

عشيرتهن والإيمان بسحر الجن والثقة في فعالية الطيور البيضاء الموضوعة تحت فراش المرضى وغيرها من هذه المعتقدات المنتشرة على نطاق واسع⁽¹⁾.

كما جرى التقليد عند اليهود؛ بأنهم كانوا يحتفلون على عاداتهم في دار الاسلام بأعياد دينية خاصة بهم مثلما ورد في كتاب المعيار، إذ يتبادلون التهاني والتبريكات وتقديم رغائف من صنعهم لجيرانهم من المسلمين ويسمى بعيد الفطر (الفطيرة)⁽²⁾، فمن غير المستبعد أن كانت هذه الطائفة بتلمسان تقوم بذلك على اعتبار أن "الونشريسي" لم يحدد لنا مكان وقوع هذه النازلة، التي استنكر فيها على لسان "ابن الأزرق"⁽³⁾ هذا السلوك بدعوى قبول هدية الكافر منهبي عنه⁽⁴⁾، وعلى العموم كان أهل الذمة يقيمون أعيادهم بالكنائس والمنازل وربما بالشوارع أيضا حسب الظروف وإجراءات العيد وموضوعه⁽⁵⁾.

احتفل اليهود على سبيل التبرك بمناسبة وفاة (الرَّبِّي صمويل)⁽⁶⁾ الذي يوجد قبره بجانب قبر (عنقاوة)⁽⁷⁾، وتذكر الروايات اليهودية بأن زيارة هذا القبر وما يتخللها من طقوس طقوس الاحتفال خاصة حفلات الزفاف، تدوم ثمانية أيام، بحيث لا يصح زواج اليهود إلا بزيارة قبر (افرايم ألانكاوه)، وأضحت عادة مستمرة عند اليهود لفترة متأخرة من القرن العشرين، ومن الألقاب التي كانوا يطلقونها كتقليد لفظة (هيلولة)، المستعملة في دارجتنا،

¹ - وليام مارسي، المرجع السابق.

² - الونشريسي، ج11، المصدر السابق، ص ص 111 - 112.

³ - ابن الأزرق: "محمد بن علي أبو عبد الله الغرناطي الأندلسي"، ولد سنة 834هـ/1427م نشأ وتعلم القرآن والفقه والعربية على ثلة من علماء المشرق والمغرب أثناء رحلته المتعددة، زار تلمسان ودخل تلمسان ثم توجه إلى القاهرة، له تأليف مهمة من بينها: بدائع السلك في طبائع الملك، كما تولى منصب قاضي القضاة ببيت المقدس وتوفي به سنة 895هـ/1489م، ينظر إلى: محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003م، ص 378.

⁴ - الونشريسي، نفسه، ص 111.

⁵ - ابراهيم حركات، المجتمع الاسلامي والسلطة في العصر الوسيط، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1998م، ص 144.

⁶ - Darmon, Op cit, p 381.

⁷ - مصطفى ابن حموش، يهود الأندلس في تلمسان قصة النزوح والاقامة، مجلة الوعي، العددان 3-4، ماي 2011م، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، الجزائر، ص 178.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

وهي تعبير عن الصراخ والضجيج في أصلها، المقترنة بهذا الاحتفال اليهودي المسمى بنفس الاسم⁽¹⁾.

ثانيا: العادات الاحتفالية العامة عند الأسرة

1. عادة الاحتفال بركب الحج

عرف أهل تلمسان كغيرهم من المغاربة عبر تاريخهم الاسلامي باهتمامهم الكبير في تأدية فريضة الحج، وكانت هذه المناسبة بمثابة فرصة للحجاج من تلمسان للتعرف والتواصل مع إخوانهم المسلمين في البقاع المقدسة، كما أنفقوا على الركب أموالا وأمتعة وكل المستلزمات لضمان رحلة آمنة وميسرة في الذهاب والإياب.

بعد استرجاع بني زيّان سيادتهم على تلمسان والمغرب الأوسط وتحرروا من الضغوط المرينية والحفصية؛ أصبحوا يشرفون بأنفسهم على تنظيم أركاب الحج وتجهيزها⁽²⁾، وتأمّر على الركب وزير "أبي تاشفين الأول" (هلال القطلاني)⁽³⁾، قال "بن خلدون" في العبر: «وكان مختصا عنده بالراحلة والبدالة»⁽⁴⁾، توجه الركب إلى مرفأ هنين ثم أقلع مبحرا نحو الاسكندرية في بعض سفن اشتراها هلال "بماله وشحنها بالعديد والعدة والأقوات والمقاتلة"⁽⁵⁾، وكان ذلك في سنة (724هـ/1324م)، ولقي في طريقه سلطان السودان من "آل منسى موسى"، واستحكمت بينهما المودة⁽⁶⁾، ثم رجع بعد قضاء فرضه إلى تلمسان.

ذكر "ابن مرزوق" في المناقب رحلة حجية قاد ركبها أحد أفراد الأسرة العبدوادية وهو "المقدم الشيخ أبو زكريا يحيى بن عمر بن جدار العبد وادي"⁽⁷⁾، وفي رواية العبر "عثمان بن

¹ - للمزيد من الاطلاع أكثر في طبائع اليهود وتواجدهم في الجزائر منذ القديم ينظر إلى: ما كتبه جورج شورافي في الموقع الإلكتروني: www.terredisrael.com/Rav-Tlemcen.php

² - محمد بن معمر، رحلات الحج من المغرب الأوسط إلى مكة خلال العصر الوسيط، مجلة الحضارة الاسلامية، جامعة وهران 1، العدد 1، ديسمبر 2017م، ص 285.

³ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 240.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، م7، المصدر السابق، ص 118.

⁵ - نفسه، ص 119.

⁶ - نفسه، ص 119.

⁷ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 301.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

يحيى بن محمد بن جرار⁽¹⁾، والرواية الأقرب إلى الصواب هي رواية العبر، لأن (عثمان) هذا كان أحد شيوخ بني عبد الواد شريفًا في قومه من أولاد تيدوكسن بن طاع الله، نزل تلمسان بعد الحصار الطويل وتناول للرياسة فاعتقله "أبي تاشفين" ثم فرّ من حبسه ولحق بفاس وسلطانها "أبي سعيد المريني"⁽²⁾.

وعلى ما يبدو أنّ (عثمان العبد وادي) حج مرتين الأولى في شهر ربيع الأول (724هـ / 1324م)⁽³⁾، أي في نفس السنة التي حج فيها مولى "أبي تاشفين" (هلال)، وبما أنّ هذه السنة كانت تلمسان تحت السيادة الزيانية و(عثمان) متواجد في فاس فإنه من المؤكد قد انطلق قائدا للركب من (فاس) وليس من تلمسان كما تُخلط في ذلك بعض الدراسات⁽⁴⁾، والمرة الثانية التي حج فيها فكانت على عهد السلطان "أبي الحسن المريني" وقاد وقاد ركب الحج كذلك من فاس إلى مكة⁽⁵⁾.

إذا كانت الرحلة الحجّية للوزير الزياني (هلال) متزامنة مع رحلة (عثمان العبد وادي) في سنة (724هـ / 1324م)، وبناء على ما سبق ذكره؛ فلماذا حج "أبو عبد الله بن مرزوق" وأبيه "أبو العباس" مع (عثمان العبد وادي) الفار إلى مدينة فاس، ولم يذهبا مع (هلال) الممثل للسلطة الزيانية؟ علما بأنهما يقطننا تلمسان؟.

يتأتى لنا الاجابة على هذا التساؤل في إشارتين أساسيتين وهما كالآتي:

¹ - عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 119.

² - نفسه، ص 119.

³ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 301.

⁴ - أخلط عبد العزيز فيلالي في دراسته عن تلمسان في العهد الزياني (ص 272) ومحمد بن معمر في بحثه الأنف الذكر (ص 285) في ضبط انطلاقة (عثمان بن جرار العبد وادي) إلى الحج، حيث جعلها هذه الانطلاقة من عاصمة بني زيان كما ورد عندهما ومصدرهما في ذلك هو مناقب بن مرزوق، إلا أن هذا الأخير أشار فقط إلى نسبه العبد وادي مع ذكره بأن (عثمان) هذا كان متواجدا في فاس وليس في تلمسان، ويوضح لنا بن خلدون في العبر(م8، ص 119) بأنه استأذن أبا سعيد المريني في رحلته إلى الحج للمرة الأولى، ثم كان (قائد الركب من المغرب إلى مكة) للمرة الثانية، وهذا ما جعلنا نصصح هذا الخلط الذي وقع فيه الباحثان، وأخذ عنهما باحثون آخرون دون تمحيص ولا تدقيق في ربط الأحداث ببعضها، والغريب في ذلك أنّ الباحث (فيلالي) لم يشير إلى الرحلة الحجّية الزيانية التي قادها (هلال القطلاني) على عهد أبي تاشفين الأول.

⁵ - عبد الرحمان بن خلدون، نفسه، ص 119.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

➤ ذكر "ابن مرزوق" في المناقب أنَّ الرحلة انطلقت في شهر ربيع الأوَّل من سنة (724هـ/1324م) بقيادة (عثمان)، بينما يذكر "يحيى بن خلدون" أنَّ الرحلة الحجية انطلقت في شهر شعبان من تلمسان يقودها (هلال)، بمعنى خرج "بن مرزوق" وأبيه بخمسة أشهر مع (عثمان) قبل أن يفكر (هلال) في استئذان مولاه "أبي تاشفين" للذهاب إلى أداء فريضة الحج.

➤ الإشارة الثانية التي تجيب على التساؤل: هي أنَّ "ابن مرزوق" وأبيه كانا يفضلان الذهاب إلى الحج رفقة العلماء والزهاد والمتصوفة وأصحاب الخير، ولا يهم إذا كانوا من مسقط رأسهم أو من غيرها، وذكر "ابن مرزوق" أنَّ (عثمان) كان خيراً، ورافقهم من أهل فاس "الفقيه العدل أبو حاتم محمد بن محمد المغيل، ومن أهل طنجة الفقيه الشريف أبو عبد الله الجراوي، ومن أهل تلمسان الفقيه أبو عمرو ميمون بن يوسف بن عبد الرحمان بن زاغ، وبن يحيى أبو بكر بن عبد الواحد المقري، ومن أهل مليانة الفقيه القاضي الصالح بن زكرياء يحيى بن محمد، وميمون الفاروندي"⁽¹⁾.

بينما كان ركب الحج الرسمي لبني زيان الممثل في (هلال) يضم حجاجاً موالين للسلطة في العادة، بل كان في هذا الركب من "المقاتلة"⁽²⁾ الذين يجمونه من أي مكروه قد يتعرض له في الذهاب والإياب،

بما أنَّ مجال الدراسة هو مدينة تلمسان الزيانية فإننا اكتفينا بذكر بعض النُتف الواردة في ذلك، خاصة التي ذكرها "بن مرزوق" في المناقب أنه عقد النية مرة ثانية للحج مع أبيه سنة (736هـ/1334م)، وجرت عادة الناس في أن يحتفلوا في جو من الابتهاج والتهليل والتكبير، ولاسيما إذا كان الموكب يضم أحد أفراد العائلة الحاكمة، فيخرج الأهل والأقارب وسكان تلمسان، في بهجة وسرور لتوديعهم⁽³⁾.

2. الزواج وتجهيز العروس

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 301.

² - عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 119.

³ - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 272.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

يشكل الزواج ركن اجتماعي مركزي في حياة التلمسانيين، وكانت عاداتهم في الاحتفال بالزواج تتسم بالطابع الذوقي وهو ما رأيناه في معظم الاحتفالات القائمة عند بني زيّان؛ حيث دائما تحضر الخاصية الجمالية الذوقية عندهم بشكل أساسي أحيانا مبالغ فيه، لاسيما في عرض موائد الطعام وقرع الطبول والمزامير، بما في ذلك تنظيم حفلات موسيقية وغنائية التي غالبا ما تكون السلطة هي الجهة المشرفة على كل ذلك.

فبعد مراحل الزواج المتعارف عليها؛ من خطوبة وما يتخللها من شروط وأعراف يأتي حفل الزفاف مركزا على اسعاد الزوجان في ارتباط وثيق وميثاق غليظ؛ إلا أن تنظيم الأعياد والأعراس والفرش والولائم أقل بهجة وأناقة مما كانت عليه في فاس⁽¹⁾ رغم تقارب المجتمعان في الكثير من العادات الاحتفالية.

وصف صاحب زهر البستان طقوس الاحتفال لزواج تم بين "بنت عبد الرحمان أبي تاشفين الأول" - لم يذكر المؤلف اسمها - والسلطان "أبو حمو موسى الثاني" بطريقة باذخة تعكس لنا الغلبة الزيانية على المرينية حينما استقدم "أبا حمو موسى" العروس مجهزة من فاس في سنة 764هـ/1363م⁽²⁾، بكرة عذراء ومن ذا يبأها من الناس، إلى أن قدرت لسلطان زمانه وواحد عترته وأقرانه فبعث في شأنها لصاحب المغرب⁽³⁾، فأسعفه بها وجعل في عراسيتها هو عظيم وتنويه جسيم، ركب لركوبها خمسون جارية وأقام لها خمسين عمارية⁽⁴⁾،

¹ - مارمول كاربخال، افريقيا، ج2، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1989م، ص ص 300-301.

² - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 248.

³ - وكانت هذه العروس تقيم في فاس، مجرة منذ هلاك أبيها مع إختوها عند استيلاء أبو الحسن المريني على تلمسان عام (737هـ/1363م)، فتعتبر من الشريقات اللاتي حظين بالزواج من أقربائها الزيانيين، كما تجدر الإشارة إلى أن الفتاة البكر كانت محل اهتمام لكل المقبلين على الزواج، مع مراعاة معيار الدين والأخلاق في الظفر بها فضلا عن نسبها وشرفها.

⁴ - العمارية: مستوحاة من اللهجة العامية، وهي مصممة على شكل هودج ملوكي منمق بالذهب أو الفضة، تحمل عليه العروس في الأعراس بحيث يقوم أربعة من الشباب بحمل العمارية فوق رؤوسهم يرتدون ثياب تقليدية ويقومون بالتمايل بالهودج على نغمات ومدائح تقليدية، فتتعالى الزغاريد وتنتشر رائحة البخور والطور ومن حين لآخر تنثر العروس الزهور على الحاضرين تعبيرا على الفرحة، ولازالت هذه العادة متأصلة في الجزائر والمغرب.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

دون ما تبعها من كرائم العبد الواديات ونساء الخدام الأحرار السريات، ثم أمر أن تخرج بالطبول والعلامات⁽¹⁾.

يشير الكاتب إلى تقاليد الزواج من هو وغناء بطريقة مبتكرة أصبحت عادة راسخة، وهي رفع العروس فوق الرؤوس بالعمارية، مرتدية القفطان بمشاركة كل النساء الحرائر لها في هذا العرس، وتخرج إلى بيت زوجها بالطبول والرايات وتركب لها الجيوش والساقات، والفرسان يلعبون والناس من ذلك يتعجبون، لأنها عروس من نسل الأمراء والأسياذ.

كما يسوق صاحب الزهر البستان خبر هذه الأجواء الاحتفالية دائما ويسميها ركة، لم تصنع إلا لأبناء جنسها ويضيف واصفاً ذلك: «وحاشا أن يكون عرس مثل عرسها، ذبحت فيه الأبقار والأغنام وجرى الأسبوع بالشراب والطعام، فكان عراسية شاع ذكرها في الآفاق وسرت بذكرها في الأقاليم الرفاق أظهر فيها حبا الملوك الكرام وأوسع سوابغ العطايا والإنعام»⁽²⁾. أي أنفقت فيه كل ما ينفق عادة في هذه المناسبات، وتم توزيع العديد من الهدايا والعطايا.

علاوة على ذلك يتم تحضيب الأيدي والأرجل بالحناء خاصة للعروس، وجاء على لسان إحداهن بتلمسان وكنت خضبت يدي ورجلي بالحناء المنقوشة⁽³⁾ حتى تظهر أكثر جاذبية وبهاء، وليس كل من يريد أن يزوج امرأة يقيم عرسا وحفلا غنائيا فاحشا إلا إذا كان غنيا أو من أهل الخاصة، بل هناك في شرائح المجتمع من يقيم زواجا متواضعا وهنا يتدخل العامل الديني ليردع النفس ويضع حدا للإسراف.

كما نرى ذلك عند المتصوفة وأغليتهم كانوا يعينون فقرائهم ويكفلونهم للزواج ولعل هذا دربهم في تلمسان، وما نستشهد به في هذا المقام ما ذكره "عبد الله الثغري" في مناقب "أبي عبد الله الشريف" أنه كان بينه وبين الأشياخ أولاد الإمام صحبة وصدافة، فأكد عليهم فيه وناب في القيام بأمره عن أبيه، ولم تزل هذه حاله حتى مات رحمه الله، فكان "أبو

¹ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 248.

² - نفسه، ص 248.

³ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 166.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

عبد الله" من أحسن الناس عهدا في بنيه من بعده، تولى كفالتهم وأحسن إليهم إحسانا لم يعهد مثله إلا من العلماء العاملين، فلقد كان يرى ولده "عبد الرحمن" مع أولاد "أبي عبد الله" وإنه لأكرمهم عليهم وأرفعهم مجلسا وأحسنهم ملبسا، كان رحمه الله يكسيه الكساء الرفيعة التي تليق بأبناء الملوك، وكفل ابنته ورباها أحسن تربية وزوجها لكبير بني "أبي عبد الله" واحتفل في تزويجها والإحسان إليها احتفالا عظيما⁽¹⁾.

جاء في روضة النسرين "لابن سعد" إشارة حول مجالس الغناء في الأعراس؛ وذكر ذلك بصفة عفوية وهو يريد أن يبين كرامة "الشيخ الحسن أبركان" ومكاشفته لطالبه الذي أخذ في نقل كلام بعض الشرائح على عاداته فلم يقبل الشيخ منه، لأنه كان غاضبا منه وقال له: «أسكت فما هذا المجلس على العواد⁽²⁾، والعواد يقصد به ذلك المطرب الذي يعزف الموسيقى على آلة العود التقليدية والشائعة بتلمسان في ذلك الوقت، لأن الطالب كان قد أخبر زميله بأنه بات في عرس مع المغني على العواد»⁽³⁾.

وحسبما نراه في التراث الشعبي التلمساني؛ أنّ العادة كانت جارية في أعراسهم على أنغام المزامير والدفوف وزغاريد النساء، وفي سهرة الليل تحضر الفرقة الموسيقية لتقضي سهرة بهيجة على الأنغام والأغاني الزناتية للجواري المعروفات في ذلك الوقت⁽⁴⁾، وكانت حفلات الزفاف واعداد المتاع في عصر بني زيان يبالغ فيها سكان مدينة تلمسان، ويغلب عليها في بعض الأحيان حب الظهور، ويشتد غنائهم وتعلو فيه أصواتهم، وهذا ما اعتبره "الونشريسي" انحلال خلقيا منها عنه شرعا في قوله: «ومنها متخذ الملاهي وأنواع الغناء

¹ - عبد الله بن محمد الثغري التلمساني، مناقب أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني صاحب مفتاح الوصول ومناقب ولديه، تحقيق: قندوز بن محمد الماحي، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2018م، ص 250.

² - ابن سعد التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق: يحيى بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 128.

³ - نفسه، ص 128.

⁴ - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 291.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

المحرمات والآلات والمزامير صناعة وحرفة، ويكتسبون بها ويستأجرون عليها عند السرور والحزن، مثل الزفانين والمغنين وسائر ما لا يحل⁽¹⁾.

وساق لنا "ابن مرزوق" عادة عند التلمسانيين؛ وهي أن يتمّ العرس في اليوم السابع، أي تقام كل مراحل الزواج وما يتخللها من أفراح قبل هذا اليوم، وهذا ما ورد عن زواج جده، وكان الطعام الذي جرت عوائد الناس في السابع يعمل⁽²⁾، كما تولى "بن مرزوق الجدي" إعانة تلميذه "أبي العباس بن القطان" وتزويجه بعدما شكاه له سوء حاله، فدعا له بالشهود وأنكحه وأصدق عنه ودفع إليه دراهم⁽³⁾، وأنفق "بن مرزوق الجدي" حليا كثيرا وفرشا وغير ذلك لما صاهر "أبا زيد عبد الرحمان بن النجار"، كما عمل لكل بنت من بناته وكن جملة، حليا بألف دينار من الذهب عدا ما جعل لهن من الفرش والثياب وأعطى كل واحد من بنيه نحو ذلك⁽⁴⁾.

يبدو أنّ عادة الاحتفال بالزواج عند أهل تلمسان؛ كانت على درجة كبيرة من البذل والعطاء والاحتفاء عند مختلف الأجناس، وهي ظاهرة عامة خلدت آثارها إلى اليوم، باستثناء الزواج التقشفي الذي كان أغلب أصحابه من الصوفية أو من المهمشين وهذه حالة طبيعية سادت في أغلب المجتمعات، وكانت عادة جميلة تعكس لنا ثقافة التكافل الاجتماعي في أوساط التلمسانيين وغيرهم، وهي الهدية التي يتبادلها الناس في أعراسهم⁽⁵⁾ من دراهم ودنانير وطعام إلى غير ذلك، ولا زالت هذه العادة المحمودة حاضرة إلى اليوم.

¹ - الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص 498.

² - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 197.

³ - نفسه، ص 162.

⁴ - نفسه، ص 163.

⁵ - الونشريسي، نفسه، ج9، ص 181.

3. الوليمة والعقيقة

احتفل المجتمع التلمساني بالمولود⁽¹⁾ الجديد عندهم كبشرى سارة تدخل على أفراد البيت البهجة والسُرور، حيث أقاموا لذلك الأفراح كتقديم الهدايا لأهل المولود الجديد وتهنئتهم بالبركة ومشاركتهم أجواء الفرحة، وبمناسبة هذه العادة الجارية عندهم يتم إعداد المأكولات، بما فيها الحلوى بمختلف أشكالها وتقديمها للضيوف.

اعتاد المجتمع التلمساني على إحياء عادة العقيقة، التي يرجع أصلها من الشعر الذي يكون على رأس الصبي حين يولد، ويحلق في سابع يوم من ولادته، كما يتم في هذا اليوم كذلك ذبح العقيقة عن المولود، ويصنع بسبب ذلك أطعمة وحلويات ويحتفل أهل المولود بهذه المناسبة التقليدية الموسمية، وحرص التلمسانيون على هذه العادة ولو كانت الأسرة غير ميسورة الحال وتعاني من نقص في الامكانيات، إذ تقوم العائلات بممارسة طقوس الاحتفال حسب ما تقتضيه العادة وعلى حسب مقدرها كذلك.

بعد بلوغ المولود عدة أشهر من يوم ولادته يتم ختانه في وسط أجواء احتفالية ممتعة، ومهما كانت الأضرار والآلام على المولود في ختن قفلة الذكر؛ فإن ذلك لم يمنع من إظهار الفرح والسُرور وإعداد الوليمة كذلك، وعادة ما كان يقدم المدعوون نقوداً وهدايا للصبي على ما يقاصيه من ألم.

4. عادة الاحتفال بالتمليحة:

تكتسي هذه العادة داخل المجتمع التلمساني أهمية كبيرة جداً، وهي تتعلق بالحرف والمهن التقليدية الاقتصادية، بحيث يستقبل المعلم الرائد والحاذق في هذه في الطائفة⁽²⁾ التي

¹ - أشار عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته إلى عملية الولادة بأنها صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه، وذلك أن الجنين إذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ غايته والمدة التي قدر الله لمكثه، وهي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلك، ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط، وربما انقطع بعض ما كان في الأغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم، وهذه آلام كلها يشتد لها الوجع. للمزيد من التعرف أكثر ينظر إلى: المقدمة، ص ص 324-325.

² - الطائفة: هي تنظيم اجتماعي مهني للحرفة، تكونت على الأساس الحرفي لا الفضائي، بحيث يفتح المجال واسعاً للتعامل الاقتصادي بين مختلف الطوائف من خلال المواد المستوردة والمنتجة، مما يزيد من توطيد العلاقات مع المدينة وريفها من

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

يشتغل فيها، أفرادا يرغبون في الانخراط والتعلم على يديه، وفي غالب الأحيان يكون هؤلاء الأفراد أطفالا مبتدئون تأتي بهم عائلاتهم إلى محل الحرفة، وهم من الذين انقطعوا عن مزاولتهم الدراسة بمساجد الأحياء ويسمى الطفل بـ(لَمْتَعَلَمٌ)⁽¹⁾.

كان لزاما على الأسر التلمسانية بأن يشجعوا أولادهم يدفعوا بهم إلى تعلم حرف ومهائن تضمن رزقهم في المستقبل، ويعدّ ذلك من واجبات تربية الأولاد، وخلال الفترة التمهينية لا يتقاضى المتعلم أجره ثابتة، بل تنفق عليه عائلته مع تقديم الثناء على المعلم وهو في محله يسهر على تلقيه المهنة وأسرارها، بعد انقضاء فترة من الزمن يكون المتعلم قد تعرف على فنيات إنجاز العمل، فضلا على اكتساب مهارات وتقنيات تتعلق بأداب المهنة والأخلاق⁽²⁾.

يَبْرَزُ المْتَعَلِمُ إمكانياته الحرفية وآدابه الخلقية في ميدان العمل وتقلد منصب الحرفة بالطائفة، حيث يقترحه مُعَلِّمُهُ لنيل ثقة مجلس الطائفة؛ حين الموافقة يترقى لمرتبة صانع، وخلال الحفل المقام بهذه المناسبة، يعلن المجلس الرسمي للصانع المبتدئ إلى الطائفة، وعلى إثر هذا الانضمام يصبح هذا الأخير يتمتع بكال حقوقه المهنية، وتسمي الطائفة الحفل المقام بمناسبة نيل الثقة بـ (التمليحة)⁽³⁾، ونظرا لأهمية الاحتفال عند أفراد الطائفة، ولإظهار مدى الصداقة بينهم هناك من يقسم (بحق الملح المتقاسم)⁽⁴⁾.

ثالثا: الزينيون وتقاليدهم في الاحتفالات المدنية

1. تدشين المنشآت المعمارية.

احتفل بنو زيان بتدشين المنشآت المعمارية في مدينة تلمسان كالمساجد والمدارس وقنوات الماء، ومن ذلك ما أتاح الله "لأبي همو موسى الثاني" بناء المدرسة التي تحمل اسم

جهة، ومن جهة أخرى بين المدينة والأسواق اللنائية وحتى لو كانت وراء مجار مائة أو رملية. للمزيد من التعرف أكثر يرجى العودة للخطة العمرانية، ص 212.

¹ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 214.

² - نفسه، ص 214.

³ - نفسه، ص 214.

⁴ - رمزية يشار من خلالها إلى الطعام وكأنه شئ مقدس، ويقال كذلك (وحق الملح الي كليناها).

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

والده "أبي يعقوب" وبها ضريحه سنة (763هـ/1362م)، وكانت مدرسة عظيمة بديعة البناء غريبة الشكل، فسيحة الساحة نزيهة المنظر مندفقة المياه مخضرة الرياحين، ملتفة البساتين وبني له دارا فسيحة حسنة ومصرية لكتبه ونظره⁽¹⁾.

كما حبس لها حبسا قويا يزيد على ألف دينار ذهباً في السنة، وأجرى فيها الجرايات ورتب الأرزاق⁽²⁾، وعين "الشريف التلمساني" للتدريس فيها فور انتهائها وحضر "أبي حمو موسى الثاني" مجلس إقرائه حتى ختم تفسير القرآن العظيم⁽³⁾.

بعدها يتم استكمال مراحل التمهيد والبناء والتجهيز على عادة ملوك بني زيان، يحتفلون لذلك احتفالاً بهيجاً يدل على مباركة هذا العمل، ومن العادات الحسنة كذلك أن طلب "أبا عبد الله الشريف" الإقراء فيها، وترتيب الطلبة بها، واحتفل السلطان لقراءته هنالك وحضر مجلسه وجلس على الحصر تواضعا للعلم وترفيعا له، فلما انقضى المجلس رتب الطلبة وأشهد بالأحباس وأطعم الناس أجمعين وكسا طلبتها كلهم، وفيها ختم القرآن تفسيرا، واحتفل لحضور ذلك الختم⁽⁴⁾، وأطعم الناس وكان يوما موسما عظيما، واستقام أمر المدرسة للطلبة وكثروا وانتفعوا بالدين والدنيا، وجرت لهم بها الجرايات ونفدت الأرزاق، فكانت أيامهم فيها أعيادا وأوقاتهم موسما⁽⁵⁾.

توارث أبناء "الشريف التلمساني" عادة إقراء العلم بها بعده، وإنها لمن أحسن مدارس المغرب وأكثرها علما وأنجبتها طلبة وأقواها راتبا وأبدعها حسنا، وهي رباط الصالحين ومأوى المتعبدين ومعدن العلم والدين، استنادا لما أورده "عبد الله بن محمد الثغري"، الذي يشير إلى تجديد الاحتفال بها سنة (784هـ/1383م) أثناء تربع عبد الله مجلس أبيه وأبدى من غزارة العلم العجب العجاب.

¹ - عبد الله بن محمد الثغري، المصدر السابق، ص 245.

² - نفسه، ص 254.

³ - ابن عمار، المصدر السابق، ص 167.

⁴ - التنسي، المصدر السابق، ص 180.

⁵ - عبد الله بن محمد الثغري، نفسه، ص 255.

2. عادة ركوب الخيل

تشير المصادر إلى تفوق بني زيّان على غيرهم في عادة الرياضة وركوب الخيل والفروسية، كما تعطينا انطباع على الحالة الذهنية والنفسية في تعظيم هذه العادة الراسخة لديهم إذ يلحق العار بمن يجهلها ولا يتقنها على وجهها، ومن القرائن الدالة على ذلك ما ورد في تاريخ الدولة الزيبانية "لابن الأحمر" في قوله: «ومن جنبه أنه ما رثى يجري فرسه قط، فإن اعتذر أن ذلك من رزانتة فليس الأمر كذلك، إذ من شأن الملوك الكبار الذين هم أكبر قدرا منه في الحسب وضحامة الملك أن يلعبوا مع خدامهم الموالي يجري الخيل بقصد الثقافة ومعرفة ركض الخيل، وهذه عادة مطردة لهم ومن لا يفعل ذلك منهم فهو خواف على نفسه أن يقع عن الفرس من جهله بالفروسية»⁽¹⁾.

كما يؤكد "ابن الصّبّاح" الأندلسي في تذكرة الأخيار على شهامة ملوك بني زيّان واكتساحهم مجال الفروسية ببلاد المغرب، في قوله: «وبالخيل والكُمّال من ركوب السروج المذهبة والركاب يفتخر به عن سائر الملوك من ملوك المغرب بالعدة والشدة والقوة»⁽²⁾، وكانت مخصصة لهذه الرياضة المشهور في تلمسان متنزهات رائعة وملاعب حالية ومعاهد كريمة⁽³⁾، ووصف بن الصّبّاح السلطان "أبو حمو موسى الثاني" بأنه "صاحب الرياضة"⁽⁴⁾، لكثرة ما كان يمتطي ظهر الخيل ويلعب الفروسية.

خلدت المضان التاريخية هذه العادة الاحتفالية عند بني زيّان في قصيدة شعرية، جمعت بين محاسن مدينة تلمسان وذكر فرسانها وخيولها وملعبها الفسيح، وهي كالآتي:

وَبِمَلْعَبِ الْخَيْلِ الْفَسِيحِ مَجَالُهُ تَرَهُ جُفُوئَكَ فِي الْعِتَاقِ الْحُفْلِ

¹ - ابن الأحمر، المصدر السابق، ص 80.

² - الحاج عبد الله ابن الصّبّاح الأندلسي، في كتابه نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق: جمعة شيخة، مجلة دراسات أندلسية، العددان 45-46، ديسمبر 2011م، تونس، في الصفحة 54.

³ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 122.

⁴ - ابن الصّبّاح الأندلسي، نفسه، ص 55.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزبانيين وأثرها الديني والاجتماعي

فَلِحَلْبَةِ الْأَفْرَاسِ كُلِّ عَشِيَّةٍ لَعِبٌ يَدَاكَ الْمَلْعَبِ الْمُتَسَهِّلِ⁽¹⁾
فَتَرَى الْمُجَلِّيَّ وَالْمُصَلِّيَّ خَلْفَهُ وَكِلَاهُمَا فِي جَرِيهِ لَا يَأْتَلِي⁽²⁾
هَذَا يَكْرُ وَذَا يَفِرُّ فَيَنْثَنِي عَطْفًا عَلَى الثَّانِي عَنَانَ الْأَوَّلِ
وَرَدُّ كَأَنَّ أَدِيمَهُ شَفَقُ الدُّجَى أَوْ أَشْهَبُ كَشْهَابِ رَجْمِ مُرْسَلِ
أَوْ أَحْمَرِ قَانِي الْأَدِيمِ كَعَسْجَدِ أَوْ أَشْقَرِ يَزْهُو بِعُرْفِ أَشْعَلِ
أَوْ أَذْهَمِ كَاللَّيْلِ إِلَّا غُرَّةً كَالصُّبْحِ، بُورِكَ مِنْ أَعْرٍ مُحَجَّلِ
جَمَعَ الْمَحَاسِنَ فِي بَدِيعِ شِيَاتِهِ مَهْمَا تَرَقَّ الْعَيْنَ فِيهِ تُسَهَّلِ
عُقْبَانُ خَيْلٍ فَوْقَهَا فُرْسَانُهَا كَالْأَسَدِ تُنْتَقِضُ انْتِقَاضَ الْأَجْدَلِ
فُرْسَانُ عَبْدِ الْوَادِ آسَادُ الْوَعَى حَامُوا الدَّمَارَ أَوْلُو الْفِخَارِ الْأَطْوَلِ
فَإِذَا دُنَّتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ لِعَرَبِهَا فَإِلَى تِلْمَسَانَ الْأَصِيلَةِ فَادْخُلِ
مِنْ بَابِ مَلْعَبِهَا لِبَابِ حَدِيدِهَا مُتَنَزِّهًا فِي كُلِّ نَادٍ أَحْفَلِ⁽³⁾

وتمثل الفروسية عند الزبانيين مظهرًا طبيعيًا من مظاهر حياتهم اليومية؛ وهو فن لا يقتصر على مهارة الفارس في ثباته على ظهر الحصان فقط، بل يشتمل على جانب آخر معنويًا، يتمثل هذا الجانب في روح الفروسية بكل ما يحمله هذا المفهوم من قيم وأخلاق، فضلًا على اتخاذ هذه العادة كوسيلة لمقابلة التحديات التي تفرضها الظروف كالحرب ومقارعة الخصم، وغالبًا ما تجتمع صفات الفروسية في رجل واحد إذ لا يتأتى ذلك إلا بالتجربة الحربية الطويلة، والممارسة الفعلية لقيادة المعارك.

ولعل أبرز المتفوقين في ذلك من ملوك بني عبد الواد، الملك المذكور والفارس المشهور صاحب الرياضة والادارة والفتق والرتق والسياسة والفتنة، الملك "أبو هو الثاني"

¹ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 254.

² - المجلي: أول خيل الحلبة في السباق. المصلي: اسم الفرس الثاني في السباق. لا يأتلي: لا يقصر.

³ - المقرئ، نفع الطيب، المصدر السابق، م 9، ص 348.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

والد هؤلاء المذكورين والفوارس المشهورين⁽¹⁾، اشارة إلى سلالة هذا السلطان المتمثلة في الفوارس وأصحاب الكفاءة العالية والمهارة الفائقة لعادة ركوب الخيل.

كما اتخذ بني زيّان الجواد الذي يركبونه رائع مسروج بفخامة، وإذا امتطى الملك صهوة جواده لم يكن هناك عادة كبير احتفال لأنه لا يمتلك سوى ألف فارس⁽²⁾، أي يكون الاحتفال على حسب الحاجة التي تدعوا إليها، وهذا ما يجرنا كذلك إلى الحديث عن عادة الفروسية لدى الزيانيين في مرحلة ضعفهم وتكالب الأمم عليهم، إذ تراجعوا عن مكانتهم الريادية في ركوب الخيل وتخلّفوا عن الركب ودرّب الآباء والأجداد وبالتالي أصبحوا جزءاً من متغيرات التاريخ⁽³⁾.

ورد في وصايا "أبي هو موسى الثاني" لابنه بأن يتخذ "جواداً من خيار الخيل وعناقها وكارمها وسابقها، كامل الخلقة معتد الحركة والمشية، لا يكل من السير ولا يسئم من الجري، كالطير إذا غار وإذا سار، لا يعارض في التسيار وإذا جرى لا يسبق، وإذا طرد لحق، أسبق من السهم وأسرع من الوهم، تعده للمهمات وتدخره للشدائد والمللمات"⁽⁴⁾.

توانى وفتّر الزيانيون عن هذه العادة شيئاً فشيئاً، إلى أن أصبحوا لا يمتطون جيادهم إلا للضرورة، نتيجة للظروف المتقلبة والمحنة لاستمرار هذه العادة الحميدة التي كانت محل افتخار وبأو شديد في خلفهم، حتى عندما يأتي مارمول كاربخال ويعقد مقارنة بين ملوك تلمسان وفاس يطلق العنان في تردي مكانة الفوارس التلمسانيين⁽⁵⁾، إذ لم يكن لديه - الملك

¹ - ابن الصّبّاح الأندلسي، المصدر السابق، ص 55.

² - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ص 22 - 23.

³ - يشير علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى نظرية التغير والتبدل في التاريخ، والعنصر الفاعل والمؤثر بشكل أساسي في ذلك هو الانسان لأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بدفة تدار بطريقة الصراع الحتمي، سواء الصراع بين البشر أنفسهم أو الصراع بين البشر والطبيعة في مراحل مختلفة يكون عنوانها التحدي، كما يرى أرنولد توينبي في فرضية (التحدي والاستجابة)، إذ كلما قبل الإنسان تحدي الطبيعة استطاع أن يبني الحضارة، وكلما توانى عن قبول التحدي كان ذلك مدعاة لضياح الفرصة في بناء الحضارة البشرية، فعندما تمكن بنو زيّان من تحدي الطبيعة والانسان ومعرفة ذاتهم بنوا دولة وأسسوا لمشروع حضاري بارز على مستوى البحر المتوسط، لكن عندما ضيقت عليهم أحلامهم وخنعوا إلى غيرهم فكانت الغلبة عليهم لا لهم.

⁴ - أبو هو موسى، المصدر السابق، ص 170.

⁵ - مارمول كاربخال، المصدر السابق ص 301.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

الزياني - سوى ألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة فارس لحرسه العادي، وإذا كان ركوبه للقيام بعملية عسكرية دعا رؤساء الأعراب والجماعات البربرية وبعض المرافقين للسكان، ولا ينفق على الجنود إلا ما دامت الحرب، لذلك فإنه لا يصحب معه كثيرا من العربات والأخبية عندما يسير عبر البادية، لأنه يعتبر نفسه كمجرد قائد، فهؤلاء الأمراء كانوا فقراء لا تكفي موارد ثلاث سنوات لسنة واحدة من الحرب⁽¹⁾.

3. مجالس اللهو والطرب.

لاشك أن المجتمع الزياني كان يعقد مجالس للهو والطرب والغناء والترف⁽²⁾، وما يتخلل ذلك من عادات سيئة، لكن هذا الجانب من الدراسة تعزوه نقص المادة العلمية المدعمة له؛ إلا أننا وجدنا عند "المقريري" توصيف ضمني لعادات منكرة مثل: شرب الخمر وانتشار الآفات الاجتماعية في نظره أحلت ببلاد المغرب، وجاءت هذه النعوتات منه عفوية في إطار الحديث عن مدينة القاهرة.

وبما أن تلمسان حاضرة في المجال الجغرافي المغربي الكبير؛ فينطبق عليها توصيف صاحب الخطط في قوله: «وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز والتفاح وأما الاجاص فقليل غال وكذلك الخوخ وفيها الورد والنرجس والنسرين واللينوفر والبنفسج والياسمين والليمون الأخضر والأصفر وأما العنب والتين فقليل غال ولكثرة ما يعصرون العنب في أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل ومع هذا فشراؤه عندهم في نهاية الغلاء، وعامتهم المزر الأبيض المتخذ من القمح، حتى أن القمح يطلع عندهم سعره فينادى المنادى من قبل الوالي بقطعه وكسر وكسر أوانيه، ولا ينكر فيها إظهار أواني الخمر ولا آلات الطرب ذوات الوتار ولا غير ذلك، مما ينكر في غيرها في بلاد المغرب»⁽³⁾.

ونفس السياق أشار "ابن الأحمر" إلى مجون الأمير الزياني "أبي تاشفين عبد الرحمان الأول"، بأنه كان فاسقا منغمسا في اللذات خليعا لا يصحوا من شرب الخمر، وكان فيه

¹ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 301.

² - الاستثناس بكتاب الظرفاء والشحادون في بغداد وباريس عن الترف.

³ - المقريري، الخطط، المصدر السابق ج2، ص 368.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

تخنت حتى سمي بزهيرة⁽¹⁾، يعطينا صورة حول شرب الخمر والصفات الدنيئة التي التصق بها بعض سلاطين بني زيّان، إلا أنه تحامل الكاتب لصالح بني مرين وهو يعلن ذلك في بداية كتابه «لما فرغت من الدولة المرينية في هذا المصنف، وكنت لأعدائها بالمعنف لا بالمصنف»⁽²⁾ ويضمّر الشر لبني زيّان أعداء بني مرين.

وبالتالي خرج عن المحايدة والموضوعية في السرد والإخبار عن أحداث ووقائع بني زيّان، ويغاملهم عندما يدخلون في طاعة بني مرين، تناقض في سرد الأحداث، وما يدحض ذلك في زهر البستان أن مجلس الأمير "أبا يعقوب" كانت له عادات غير ذلك إذ يذكر: «لا يسمع في مجلسه فحشاء، ولا تعرف منه البدع والأهواء، ولا السمعة والرياء»⁽³⁾.

ولا يُبالغ إذا قلنا أن هذه العادات كانت موجودة في بلاط ملوك تلمسان، لأن في كتاب زهر البستان ما يشير حياة الترف واتخاذ القينات وحضور الخمر وغيرها كعادة ملوك الغرب الإسلامي، ففي إطار حديث صاحب الكتاب على تمجيد السلطان "أبي هو الثاني" وذكر خصاله ومناقبه أشار بصورة واضحة عن هذه العادات، فيقول: «هذا المولى أبو هو مولعٌ بمعالى الأمور، فإنه صرف همته عن الركوب للذات ومعاطة الخمر والقينات ونكّب عن المشغلات عن سلطانه»⁽⁴⁾.

ورد عند "العقباني" في تحفة الناظر بأن بعض النسوة في تلمسان كن يتزينن ويجمعن ويحتفلن بمخالطة رجل أجنبي، فتصبح عادة احتفالية منكرة وفقا للمنظور الديني، حيث قال: «ومن ذلك خروج النساء، وقد كان يقال: لا شيء عليهن أضر من كثرة الخروج، ومن انتصبت منهم لهذه المجالس فإنما هو لجمعهن الدنيا وتخليق النساء عن أزواجهن وذكرهن في مجالسهن، ما يخالف طرق الشريعة ويجب على من ولاه الله النظر في أمور المسلمين أن ينظر

¹ - ابن الأحرر، المصدر السابق، ص ص 72 - 73.

² - ابن الأحرر، المصدر السابق، 57.

³ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص ص 70 - 71.

⁴ - نفسه، ص 152.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

في ذلك بقطع مادة مفسدتهن، قلت أما ما يقع في بلدنا ووطننا من اجتماعهن عن احتفالٍ أو تزئينٍ فَيَحْلَقْنَ دائرة على رجل غير محرم يغنيهن ويطربهن فمحرم اتفاقاً»⁽¹⁾.

4. إحتفالات حربية

أ - عادة الاستعراض العسكري: لاشك أن هذا الاستعراض العسكري في الجيش الزياني كان يستدعي وحدات مترجلة وراكبة، وكان يراد من ذلك إظهار القوة العسكرية والحفاظ على التعبئة الشعبية⁽²⁾ العامة، وتهيئها لخوض المعارك والمواجهات الدامية، وفي الأصل كان هذا الاستعراض مهرجان واحتفال بهيج يستظهر من خلاله سلاطين بني زيّان شرفهم وهيبتهم، وجريا على العادة الحربية كان يغمراسن بن زيّان يستعرض جيشه قبل انطلاقه للميدان⁽³⁾.

وشكلت فئة الفرسان المسيحيين والأتراك؛ الذين استأجرهم "يغمراسن" حرسه الخاص وكانوا أصحاب كفاءة كبيرة في الحرب، مسلحين بالقوس والرماح⁽⁴⁾ مستكثرا بهم معتدا بمكانهم مباهايا بهم في المواقف والمشاهد، وناولهم طرفا من حبل عنايته فاعتزوا به⁽⁵⁾ وكان عددهم زهاء ألفي فارس⁽⁶⁾، جمعهم يغمراسن كافة بالمئنة من ظاهر الحضرة⁽¹⁾،

¹ - العقباني، المصدر السابق، ص 77.

² - كان أهل تلمسان يحتفلون باستعداد الجيش واستعراضه في أجواء سرور وإبتهاج، حيث عرفوا هذه العادة منذ أن تشكلت الدولة الزيانية، لكن من جهة أخرى تؤكد المصادر بأنها بقيت سائدة حتى بعد زوال دولة بني زيّان بتلمسان وحلول دولة بني مرين مكانها ولو لفترة وجيزة، ومن القرائن التي تؤيد هذا التفسير؛ ما ذكره بن الحاج النميري في رحلته مع السلطان المريني أبي عنان في حدود سنة (758هـ/1357م) عندما قفل راجعا من الزاب وأناخ في تلمسان، حيث قال: «وفي يوم قدوم مولانا على تلمسان بالتعبئة والترتيب الفخم الذي أذكر بعرض العساكر يوم العرض، واحتفل أهل تلمسان في البروز المشهود المشهور، وخرجوا عن بكرة أبيهم إظهارا للسرور، وسرورا بالظهور، وجروا على رسومهم المتعارفة في محاجرة أرباب الصنائع، وإبداء أعلامهم السافرة عن المنظر الرائع الرائع». ينظر إلى: ابن الحاج النميري، فيض العباب وإضافة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد، محمد بن شقرون، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2015م، ص 542.

³ - عطاء الله دهبينة، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن ضمن كتاب - الجزائر في التاريخ العهد الاسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني - المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 361.

⁴ - نفسه، ص 361.

⁵ - عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 88.

⁶ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص ص 227 - 228.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

ليقوموا بالاستعراض العسكري في ساحة باب القرمادين⁽²⁾ في الملعب⁽³⁾ المخصص لمثل هذه التظاهرات، وكان يغمراسن يشاهد كل ذلك من فوق حصانه واقفا في موكبه عند قائمة الضحاً⁽⁴⁾.

ذكرت المصادر أن هذا الاستعراض الذي أقيم سنة (652هـ/1254م) كاد أن يلقي فيه أمير الجيش وقائده "يغمراسن بن زيان"، حتفه من جراء غدر الفرقة النصرانية به، بينما كان يشاهد ويتربص الأنظار في مقام الاستعراض، طلب رئيس هذه الفرقة النصرانية محادثته في سرية⁽⁵⁾، فغادر الأمير حرسه الذي يرافقه واقترب منه، وكان الضابط مضطربا فشك "يغمراسن" في وجود خطر على حياته ورجع إلى حرسه، ولكن جند النصارى سارعوا إلى قتل أخ السلطان "محمد بن زيان"⁽⁶⁾، فاحتضن الأمير "يغمراسن" كبير قواده وصاح بقبيله فاعتورت سيوفهم أولئك الروم فقتلوا عن آخرهم⁽⁷⁾.

كان يوما مشهودا ولم يستخدم من بعدها "يغمراسن" جند النصارى بتلمسان حذرا من غائلتهم⁽⁸⁾، الأمر الذي أدى إلى إفساد نشوة الاستمتاع بعادة الاستعراض العسكري وفي نفس الوقت الاستغناء عن الخدمات التي كان يقدمها النصارى⁽⁹⁾.

بات هذا التقليد الاحتفالي العسكري لدى بني زيان، أحد مظاهر القوة والأنفة والأبهة خاصة على عهد "أبي هو الثاني" في سنة (767هـ/1366م)، الذي كان يُحضّر

¹ - نفسه، ص 228.

² - عبد الرحمان بن خلدون، نفسه، ص ص 88-89.

³ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص 406.

⁴ - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 89.

⁵ - عطاء الله دهينة، نفسه، ص 361.

⁶ - عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 89.

⁷ - نفسه، ص 227.

⁸ - نفسه، ص 89.

⁹ - عطاء الله دهينة، نفسه، ص 362.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

لفعاليات هذا الاحتفال وطُوقه منذ شهرين (من شهر شعبان إلى شهر شوال)؛ بحيث يُصدرُ الأوامر لقواد جيشه بجشد "العساكر إلى الحضرة الكريمة لتعرض بين يديه"⁽¹⁾.

فإذا دخل شوال تجتمع كافة المحلّات "بالبسيط الأفيح من ظاهر الحضرة، فيجلس أمير المسلمين لعرض جيوشها المُظفرة، في خباءٍ مطلٍّ من أعلى ربوة على بسيطٍ مستوٍ"⁽²⁾، يبدو أنّ المكان الذي كانت يجتمع فيه الجيش لغمرة الاحتفال (البسيط الأفيح) هو نفسه (ملعب المدينة)، الذي كانت الكتائب الكثيرة العدد والعظيمة المدد تصطف به، وكل جندي بها يتأهب بشكل منظم "شاكى السلاح، مُنحذبٍ على قناة المُنَادِ"⁽³⁾، لا يعرف إلا سيفه، ولا يستشير غير عزمه"⁽⁴⁾، مبتغاهم في ذلك التقدير والانضباط والطاعة لقواد الجيش الزيناني.

جرت عادة الجند وهم يتأهبون للإستعراض العسكري بأخذ زينيتهم في اللباس وترتيب أنفسهم، قال "بن خلدون" في البغية: «تَحْسُبُهُمُ الخُمَّائِلَ المَزْهَرَاتِ من فوق الكُثبانِ الهائلة، وسط كلِّ كتيبةٍ فنيقٍ"⁽⁵⁾ جُلْدَ الوَشِيِّ وَخُلْجَلَ اللّجِينِ، يُخْطِمُهُ بسلسلة من الفضّة غِلْمَانٍ لبسوا أقبية الخزّ الملون، وعليه هودجٌ مغشى بأنواع الحُللِ، قد برزت منه قبنة يسبي جمالها وصِقَالٌ ملبسها الناظرين، فأَمْسَكَتْ بِشِجَارِهِ"⁽⁶⁾»⁽⁷⁾.

وبما أنّ رأس الجيش ومعظم مكوناته من قبيل بني زيّان وعصبتهم؛ فإن العرف اقتضى بأن يكون التغني بأشعار زنايية بربرية، "مما يُهَيِّجُ أُرْيَحِيَّاتِ الهِمَمِ، ويبعث حَمِيَّاتِ النُّفُوسِ"⁽⁸⁾، وأثناء ذلك يقوم الجند المحتفل بالزحف للسلام على أمير المسلمين دراكاً وزرافات من ضُحى اليوم إلى غروب شمسهِ، بينما يحصي حُذاقُ الأمير من الكتيبة جُمَلَ

¹ - يحيى بن خلدون، ج2، المصدر السابق، ص 170.

² - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 170.

³ - أناد: يعني انحنى وانعطف.

⁴ - يحيى ابن خلدون، نفسه، ص 170.

⁵ - الفنيق: هو الحصان الكريم، لا يؤذى ولا يركب لكرامته.

⁶ - الشجار: هو عود الهودج.

⁷ - يحيى بن خلدون، نفسه، ص 170.

⁸ - نفسه، ص 170.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

القبائل والشعوب، "وينوعون منها الرامح والنايل، فكانت فذلِكَ حساب الجميع اثني عشر ألف فارسٍ مُرْتزَقَة" (1).

ب- خروج الجيش: من المظاهر الحربية التي كانت حاضرة في تنقل الجيش واستعداده للقتال هي المحافظة على بعض تقاليد البداوة في هذا المجال، من ذلك إضفاء طابع لا يخلوا من احتفالية على معظم حملاتهم (2)، ومن أهم ملامح هذا الطابع خروج الجيش "في احتفال عظيم وزى عجيب بالعيال والمواكب والقباب" (3).

أعطى هذا الاحتفال طاقة ايجابية وشعور بالحماسة في الاقدام على القتال، كما أنه يضفي على جو المعركة بهالة من الفخر والثقة بالنفس العالية، ومما يزيد هذه الأجواء الاحتفالية حماسة أكثر هو اصطحاب النساء والعيال، واللواتي كن يلعبن دوراً بارزاً في المجال العسكري؛ إذ يشحذن عزيمة الجنود ومنعهن من التخاذل أو الفرار، ويحرضن على القتال وتقديم الدعم والإسناد والرعاية كإعداد الطعام، وعلاج الجرحى ونقل المال والسلاح، وحراسة الأسرى وغير ذلك من الأعمال التي تستلزمها الحرب النفسية قبل الحرب القتالية.

يصف لنا "ابن أبي زرع" عادة هذه الأجواء الاحتفالية المشحونة بالحماسة البطولية لدى الفريقان المتقابلان في معركة (وادي تلاغ) قائلا: «واصطفت عيالات الفريقين خلف الجيوش في الهودج والمراكب والقباب المزينات باديات الوجوه، عليهن الحلل وثياب الوشي يحرضن الأبطال على الأبطال، واختلط المثل بالأمثال وتمازجت الركاب، وبرزت الغانيات من القباب (4) سافرات على سبيل التحريش والتحريض» (1).

¹ - نفسه، ص 170.

² - حميد تيتاو، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، المغرب، 2010م، ص 202.

³ - ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنينة في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، المغرب، 1972م، ص 115. جاء هذا الوصف في سياق معركة وادي تلاغ التي سنذكر أحداثها في الفصل الرابع، كذلك وصف ابن أبي زرع هذه العادات الحربية عندما استعد يعقوب بن عبد الحق لمواجهة يغمراسن بن زيان، غير أن هذا الوصف ينطبق على كلا الفريقين كما أشار إلى ذلك صاحب الكتاب.

⁴ - نفسه، ص 115.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزيانيين وأثرها الديني والاجتماعي

كانت عادة متأصلة في ذهنية الجيوش مما يجعلها ذات طابع مميز في السلوك الحربي، ومن المؤشرات الدالة على صحة هذا التفسير ما عزم عليه "أبا حمو موسى الثاني" في فتح البلاد الشرقية بعدما استقرت له الامارة سنة (760هـ/1359م)، "وجهز محلة وافرة سنية لأبيه أبي يعقوب متوجها إليها، فخرج بطبولة وعلاماته، وجيوشه الوافرة وساقاته"⁽²⁾.

ج- الاحتفال بالنصر: وكانت عادة الزيانيون الاحتفال بالنصر على خصومهم بنبرة الاستعراض العسكري والتباهي بقوة الجيش أمام الأهل والرعية، ولا شك أنهم كانوا يقيمون عرسا يخلد بطولاتهم ومآثرهم التي وصلتنا في اشارات ولحات شعرية؛ كانتصار "يغمراسن بن زيان" على غريمه "أبي الحسن السعيد" صاحب فاس بجبل تامز وردكت في ضواحي مدينة وجدة سنة (646هـ/1248م)، وخلد هذا النصر العظيم الوزير "أبو علي الحسن بن خلاص" صاحب سبتة بقصيدة طويلة نقتبس منها هذا البيت⁽³⁾:

بُشْرَى بِعَاجِلِ فَتْحٍ أَوْجَبَا الْعُرْسَا وَأَسْفَرَ الدَّهْرُ عَنْهُ بَعْدَ مَا عَبَسَا

يسرد لنا صاحب زهر البستان نصوصا واضحة وصريحة على عادة الاحتفال لما ينتصر الزيانيون على خصومهم أو لما يتهيؤون ويتأهبون للحروب والصراعات الطويلة مع بني مرين أو غيرهم، فاحتفل الناس في تلمسان بما فيهم السلطان أبو حمو موسى لما تقدم الفرسان بالبشرى السارة عندما قفل "أبا يعقوب" راجعا من البلاد الفاسية وعاملا إلى بلاده التلمسانية، عقب الغلبة الزيانية وتطويق مضارب المرينيين في عقر دارهم؛ فأقدم الناس يهنون المولى "أبا حمو الثاني" بهذه التحفة الكبرى⁽⁴⁾، ونلاحظ هنا العلاقة السوية بين السلطان والرعية وهي علاقة محبة متبادلة وشعور بالانتصار مشترك.

وعلى إثر ذلك أمر "أبو حمو الثاني" بركوب جيشه المنصور ثم أخرج الطبول والعلامات وأمر أهل تلمسان بالزينة والخروج للملاقة، فخرج الناس كالخروج للأعياد

¹ - أبو العباس الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، تحقيق: جعفري الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء المغرب، 1955م، ص 26.

² - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 75.

³ - التنسي، المصدر السابق، ص 119.

⁴ - مؤلف مجهول، نفسه، ص 72.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

وركب الجيش في أحسن الاستعداد، ولم يبق بتلمسان حاضر ولا باد ولا رائج ولا غاد إلا وخرج يشهد هذا القدوم العظيم ويحضر الملتقى الجسيم⁽¹⁾، وكان "أبا حمو الثاني" قد احتفل قبل دخول تلمسان في وجوه بني عبد الواد الكرام، عندما طرد بقايا بني مريم في تلمسان واستأصل شأفتهم وكان ذلك في سنة (760هـ/1359م)⁽²⁾.

تستمر هذه الطقوس الاحتفالية في جو يسوده نوع من الافتخار والثقة بالنفس في سكيئة ووقار، عندما أقبل "أبو حمو" إلى أبيه بالإبرار والأدب، ثم بايعه وتلاه على البيعة جيشه ومن تابعه لتضرب الطبول بعد ذلك على رأس أبيه وتنشر الرايات حسبما يرضيه⁽³⁾، يشير المؤلف إلى سلوكات أخلاقية بين الرعية والسلطان ثم بين السلطان وأبيه وهذا قلما يكون في بني زيان لكثرة الصراع على الملك، ويستطرد المؤلف في هذا الشأن واصفا مدى تبرك "أبو حمو الثاني" بتقبيل يد أبيه وبكاء الناس عند النزول للمبايعة لأبيه ويدعون له بإقامة الدولة وبلوغ ما يرضيه.

ثم اتصلت البشائر بتعظيم الأهل؛ واستبان المفاخر وذهبت الأنواح وأتى اليمن والانشراح، وفي ذلك يقول الطالب الأديب "أبو القاسم بن ميمون السنوسي":

أَطْلِقْ عَيْنَاكَ لَا تَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ كَفَى حَسُودَكَ مَا يَلْقَى مِنَ الْكَمَدِ
وَسِرْ يَمِينًا شِمَالًا كَيْفَ شِئْتَ فَلَا مُعَارِضَ لَكَ فِي الدُّنَى مِنَ الْأَفْدِ
كَمْ وَلَا وَكَيْفَ وَمُدَّ جِئْتَ اسْتِنَارَ لَنَا وَجْهَ الزَّمَانِ كُفِينَا نَظْرَةَ الْحَسَدِ
إِنْ كُنْتَ بِالْأَمْسِ لِأَهْلِ وَلَا وَلَدٍ فَالْيَوْمِ أَصْبَحْتَ بَيْنَ الْأَهْلِ فِي الْبَلَدِ⁽⁴⁾

يشير هذا النص إلى عادات احتفالية حربية؛ ثم في آخره يشير إلى منظومة من القيم الاجتماعية في استقبال وتوقير أبو حمو لوالده لاسيما الخاصة والعامة؛ كذلك من بين العادات الراسخة في البلاط الزياني اقراض الشعر وقت الانتصار والتمكين وهو ما مدح به

¹ - نفسه، ص 73.

² - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 45.

³ - نفسه، ص 73.

⁴ - نفسه، ص 73.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

"بن ميمون أبا يعقوب"، وعندما بكى الناس على إثر نزوله للمبايعة ودعوا له بالإقامة هذا دليل على خروجهم من مرحلة الخوف وتمسكهم بقائدهم الذي أخرجهم من محنتهم، ويبدو أنّ بني زيّان الأشهام كانوا يتخذون الحذر والحيلة في كل أحوالهم وتلك عادة جارية عندهم كما ذكر صاحب زهر البستان⁽¹⁾.

ومما هو واضح من خلال المصادر الاخبارية عن "أبي هو موسى الثاني"؛ أنّه شخصية مؤثرة بالغة التأثير على المستوى السياسي والعسكري، فكان يحتفل على عادته عندما ينتصر في مواجهاته على خصومه خاصة بني مرين ويفرض شروطه بقوة، وهو الشعور بالفخر الذي ينقله لنا صاحب زهر البستان عندما قفل نجله أبو تاشفين مظفراً بالهدايا وعقد الموائيق من عند أبي سالم في فاس، حيث قال: «وصل التعريف للمولى أبي هو بوصول الجميع لأوّل البلاد، بعد أن وصله الخبر بنيل الأمل وبلوغ المراد، فصنع بُروزاً⁽²⁾ عظيماً لقدوم ولده، استبشاراً بما ناله من مقصده، وتفاؤلاً بأوّل رسالته، وظهرت له آيات النَّصر وعنايته، فكان لدخوله بروزاً عظيماً، وصيتٌ جسيم، فرحتُ لذلك الأولياء، وشرقتُ الأعداء»⁽³⁾.

كان بنو زيّان يحتفلون غاية الاحتفال عندما يفتحون المدن، فاحتفل المولى "أبو يعقوب" عندما نزل على مدينة الجزائر وأخذها صلحاً بعد قتالها وحصارها مرتين، ففي يوم 13 ذي القعدة من سنة (762هـ/ 1361م) دخلها "ناشر الرّيات وضارب الطُّبول"⁽⁴⁾، ومن مظاهر الاحتفال إنشاء قصيدة شعرية خلدت هذا النصر والاحتفال، حيث قال محمد بن صالح البلنسي:

هَنِيئاً لَكَ الْفَتْحُ الَّذِي شَرَحَ الصَّدْرَا هَنِيئاً مَرِيئاً جَلَّ مَانِحُكَ النَّصْرَا
فَسِرْ لافْتِتَاحِ الْأَرْضِ آيَةً وَجِهَةً فَلَا وَجِهَةً إِلَّا بِفَتْحِكُمْ تُعْرَى

¹ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 109.

² - البروز: أي تنظيم حفل استقبال في الفضاء الواسع الخالي من الشجر.

³ - مؤلف مجهول، نفسه، ص ص 134 - 135.

⁴ - نفسه، ص 147.

الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي

وَجَيْشٌ جِيُوشَ النَّصْرِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ وَضَيْقٌ عَلَى أَعْدَائِكَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ⁽¹⁾

د- منح درجات الترقيات في مراتب الجند: ومن مظاهر الاحتفالات الحربية عند بني زيان؛ أن يمنح الجند درجات وترقيات في مراتب الجند وفيها يبدي السلطان ملاحظاته العسكرية عليهم فيأخذ بحسنها⁽²⁾، ولجميع هذه الفرق والكتائب رايات خاصة تتميز بها عن سواها، وتعرف بها في يوم العرض العام بين يدي الملك في أيام معلومة من السنة⁽³⁾، التي تتسم في العادة بالهالة والعظمة والتضخيم، لتبعث في النفوس روح الثبات والقوة والانتصار.

¹ - نفسه ص 148.

² - عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1965م، ص 131.

³ - نفسه، ص 131.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

أولاً: تركيبة المجتمع

1. الملوك والسلاطين
2. القادة وكبار الجند
3. الفقهاء والعلماء
4. التجار والحرفيون والفلاحون
5. فئة العوام
6. فئة العبيد وأسرى الحرب

ثانياً: العادات الغذائية وآداب الأكل

1. أماكن الأكل وآداب المائدة
2. المشاركة في الطعام
3. أنواع الطعام

ثالثاً: تقاليد اللباس

1. لباس القادة والملوك
2. لباس التجار والحرفيون
3. لباس العلماء والمتصوفة
4. لباس أهل الذمة
5. لباس المرأة

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

كَانَ الْمَلِكُ الزِّيَّانِيُّ هُوَ الرَّئِيسُ السِّيَادِي لِلدَّوْلَةِ، وَهُوَ يَفُوقُ فِي الرُّتْبَةِ جَمِيعَ الْأَفْرَادِ فِي الْمَمْلَكَةِ، وَفِي الْعَادَةِ يَرِثُ الْمَلِكُ الْحُكْمَ بِشَكْلِ شَخْصِيٍّ، وَيَكُونُ لَهُ الْحَقُّ الْقَانُونِي لِمَمَارَسَةِ الْحُقُوقِ السِّيَادِيَةِ لِلْمَمْلَكَةِ، أَوْ يَتِمُّ تَعْيِينُهُ بِوَأَسِطَةِ عَائِلَةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ مُؤَهَّلَةٍ لِذَلِكَ، وَقَدْ يُصْبِحُ الْفَرْدُ فِي تِلْمَسَانَ مَلِكًا عَنْ طَرِيقِ وَسَائِلٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلَ: الْعَزْوِ، أَوْ بِالتَّزْكِيَةِ، أَوْ الْإِغْتِيَالِ. وَمُدَّةُ الْبَقَاءِ فِي الْحُكْمِ يَمُكُثُ عَادَةً مَدَى الْحَيَاةِ، أَوْ يَضْطُرُّ أحيانًا لِلتَّنَازُلِ عَنِ الْعَرْشِ، لَكِنْ حُكَّامُ الْبَلَاطِ الزِّيَّانِيِّ اِكْتَفَوْا بِأَتَمِّهِمْ سَلَاطِينَ عَلَى مَدِينَةِ تِلْمَسَانَ وَمَضَارِبِهَا. يَرَى "ابن خلدون" فِي الْعِبَرِ أَنَّ مَلِكَ بَنِي زِيَّانٍ فِي تِلْمَسَانَ اسْتَقَامَ، وَعَرَفَ تَطَوُّرًا فِي الرُّتْبِ وَالْقَوَاعِدِ وَالْأَبْهَةِ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ "أَبِي حَمُو مُوسَى الْأَوَّلِ"، حَيْثُ قَالَ عَنْهُ: «أَنَّهُ كَانَ صَارِمًا يَقْضَى حَازِمًا ذَاهِيَةً، قَوِيَّ الشَّكِيمَةَ صَعْبُ الْعَرِيكَةِ، شَرَسُ الْأَخْلَاقِ مُفْرَطُ الدَّهَاءِ وَالْحِدَّةِ، وَهُوَ أَوَّلُ مُلُوكِ زِنَانَةَ رَتَّبَ مَرَامِسَ الْمَلِكِ، وَهَدَّبَ قَوَاعِدَهُ، وَأَرْهَفَ فِي ذَلِكَ لِأَهْلِ مُلْكِهِ حَدَهُ، وَقَلَبَ لَهُمْ مِجَنًّا بِأَسِهِ، حَتَّى ذَلُّوا لِعِزِّ مُلْكِهِ وَتَأَدَّبُوا بِآدَابِ السُّلْطَانِ.. سَمِعْتُ عَرِيفَ بَنِ يَحْيَى أَمِيرِ سُويْدٍ مِنْ زَعْبَةِ وَشَيْخِ الْمَجَالِسِ الْمُلُوكِيَّةِ يَقُولُ وَيَعْنِيهِ: مُوسَى بَنُ عُثْمَانَ هُوَ مُعَلِّمُ السِّيَاسَةِ الْمُلُوكِيَّةِ لَزِنَانَةَ، وَإِنَّمَا كَانُوا رُؤَسَاءَ بَادِيَةِ حَتَّى قَامَ فِيهِمْ مُوسَى بَنُ عُثْمَانَ، فَحَدَّ حُدُودَهَا وَهَدَّبَ مَرَامِسَهَا، وَنَقَلَ عَنْهُ ذَلِكَ أَمْثَالُهُ وَأَنْظَارُهُ، فَتَقَبَّلُوا مَذْهَبَهُ وَاقْتَدَوْا بِتَعْلِيمِهِ»⁽¹⁾.

يَنْقَسِمُ الْمَجْتَمَعُ التِّلْمَسَانِيُّ الزِّيَّانِيُّ فِي اعْتِقَادِنَا إِلَى سِتَّةِ طَبَقَاتٍ تَخْتَلِفُ مِنْ حَيْثُ الْجِنْسِ وَالْإِنْتِمَاءِ، لَكِنَّهَا تُدِينُ بِنِظَامٍ سِيَاسِيٍّ مُعَيَّنٍ؛ جَعَلَ مِنْهَا مُكُونًا رَئِيسِيًّا فِي تَنْوَعِ عَادَاتِ الْأَكْلِ وَاللَّبَاسِ، حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ الْأَعْرَافُ التِّلْمَسَانِيَّةُ وَالْبِيئَةُ الْمُحْتَضِنَةُ لَهُمْ، وَمِنْ هَذَا الْمَنْطَلَقِ سَنَحَاوِلُ فِي هَذَا الْفَصْلِ إِعْطَاءَ تَصَوُّرٍ دَقِيقٍ لِتَرْكِيْبَةِ الْمَجْتَمَعِ التِّلْمَسَانِيِّ وَعَادَاتِهِ فِي اللَّبَاسِ وَالْأَكْلِ.

¹ - عبد الرحمان بن خلدون، م7، المصدر السابق، ص 103.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

وَيَمَّا أَنَّ الْمُجْتَمَعَ التِّلْمَسَانِيَّ مُجْتَمَعٌ حَضْرِيٌّ؛ تُنْظَوِي تَحْتَهُ جَمِيعُ الْمَكُونَاتِ الْجِنْسِيَّةِ لَهُ، فَإِنَّ الْحَاجَةَ دَعَتْ إِلَى تَلْبِيَةِ كُلِّ مَا هُوَ ضَرُورِيٌّ فِي اللَّبَاسِ وَالْمَعَاشِ قَبْلَ الْحَاجِيِّ وَالْكَمَالِيِّ⁽¹⁾.

وفي هذا الصدد استطاع "عبد الرحمان ابن خلدون" أن يدرس طبائع مجتمعات المغرب الإسلامي، على غرار مجتمعات مدينة تلمسان؛ ويُعطينا صورة صادقة ننب عن انتقال هذا المجتمع من طور النشأة البدائية المتواضعة في عاداته وتقاليده، خاصة من مرحلة بناء الدولة وتأسيس عصبية جديدة، إلى طور اكتمال النمط الاجتماعي من سكون ودعة وتائق في اللباس وغيرها من العادات المكتسبة، بعد مرحلة تجاوز فترة تشكيل بنية قبلية موحدة وكيان سياسي مستقل.

وصف "عبد الرحمان ابن خلدون" هذه العادات والطبائع توصيفاً دقيقاً مما يمكن إسقاطه على المجتمع التلمساني الزياني، وهو يُفرق بين أهل الحضر وأهل البدو، فقال: «ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المتحليين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من العنى والرّفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملايس والتائق فيها، وتوسعة البيوت واختطاط المدن والأمصار للتحضر، ثم تزيد أحوال الرّفه والدعة، فتجيء عوائد الترف البالغة مبالغها في التائق في علاج القوت وإستجادة المطايخ وإنتقاء الملابس الفآخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ويختلفون في إستجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون، وهؤلاء هم الحضر، ومن هؤلاء من يتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أنمى وأرفه من أهل البدو، لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على نسبة وجدهم»⁽²⁾.

أولاً: تركيبة المجتمع:

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 96.

² - نفسه، ص 96.

1. الملوك والسلاطين:

شكّل الملوك والسلاطين في تلمسان الزيانية عنصراً رئيساً في هرم الدولة، ويرجع لهم الفضل في تكوين دولة ذات أبعاد سياسية وحضارية، خلّدت وجودها زهاء أربع قرون من الزمان، وانحصرت الزعامة والحكم في البيت الزياني بالقصبة⁽¹⁾، وهو السلطة المركزية في إدارة الأقاليم المختلفة الخاضعة لسيطرته.

وكانت لهذه الطبقة عادات وتقاليد سياسية ودبلوماسية واقتصادية وثقافية، دلت على المستوى الراقي الذي وصلت إليه، ومن العادات التي يعرف بها الملك الزياني هي: ضرب الطبول والخروج لملاقاته في موكب بهيج من قبل رعيته كخروجهم للأعياد⁽²⁾، وقد سماها "ابن خلدون" بشارات الملك وأحوال تقتضيها الأبهة والبذخ، "ومن هذه الشارات اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والتفخ في الأبواق والقرون"⁽³⁾.

فأحرى بمن كان ملكاً في البلاط الزياني؛ أن يعظّم الناس شأنه ويتقربوا إليه بالطاعة وبذل الخدمة ويتزلفوا بالمدح والإطراء، ويشير "مارمول كاربخال" إلى ملوك تلمسان فيما مضى بأنهم يعيشون بأبهة كبيرة، وكانوا أقدم وأعظم الأمراء بإفريقيا، لا يظهرون إلا يوم الجمعة للتوجه إلى الجامع، ولا يستقبلون سوى أعضاء مجلسهم وضباط بلاطهم الذين تمر جميع القضايا بأيديهم⁽⁴⁾، مما جعل ملوك تلمسان محل اهتمام وثقة عالية لدى حلفائهم على المستوى الإقليمي⁽⁵⁾، والذي يفرز عمل مشترك وهو تبادل المصالح على قدم وساق، وكل ذلك قائم على عادة دبلوماسية وهي تبادل الهدايا بين الملوك والأمراء.

¹ - القصبة: هي مقر الأمير أو حكومته، تشغل عادة على أعلى جزء من البلدة، ويفصلها عنها استحكام من الاستحكامات، فإذا كان موقعها متميزاً عن موقع مستوطن البلدة؛ فإن الأسوار تضم حيتل الحصنين المطوقين بالأسوار ويوجد ذلك بتلمسان. ينظر إلى: جي بريل، إعداد وتحرير، عبد الحميد يونس وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، ج 12، ط 1، مركز الشارقة للابحاث الفكرية، 1998م، ص ص 3985-3987.

² - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 72.

³ - عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 201.

⁴ - مارمول كاربخال، إفريقيا، ج 2، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1989م، ص 301.

⁵ - ذكر ابن الصبّاح في مؤلفه أن من عادات الملك الزياني أبو تاشفين الأول (718هـ - 737هـ/1318م - 1337م) الإفتخار على ملوك العرب بالمال والخزائن والحراث والتسل، وزينة الثياب وكنوز الذهب والفضة والدخائر من الجوهر

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

وأول مَنْ قام بذلك "يغمراسنُ ابن زيَّان" مع حليفه "ابن أبي دبوس" عندما استقل بمراكش في حضرة المغرب الأقصى، ثم حاصره بها "يعقوب بن عبد الحق" المريني العدو المشترك للحليفين، "فلما رأى بن أبي دبوس ما ناله من شدة القتال والحصار، وفساد الزروع ونسف الآثار وانتشار المجاعة ببلادهِ وغلاء الأَسعار، بعث إلى يغمراسنُ بن زيَّان أمير تلمسان يستنصرُ به على أمير المسلمين يعقوب، ويقول له: كُن معي يداً واحدةً على حربه وبعث إليه بهديةً سنيةً"⁽¹⁾.

ومما يذكره "ابن خلدون" في العبر عن عادة ربط التحالفات الخارجية والمراسلة الدبلوماسية، أن بني الأحمر في الأندلس خشوا على سلطانهم ومملكهم من "يعقوب بن عبد الحق" المريني "فراسلوا يغمراسن في الأخذ بحجزته، وأجابهم إليها وجرّد عزائمها، واتصلت أيديهم في التظاهر عليه، ثم فسد ما بين بن الأحمر والطاغية - يغمراسن -"⁽²⁾.

ومن العادات الدبلوماسية للملك تلمسان تبادل الهدايا والتحف مع غيرهم من الممالك والدول، حسب ما دلت على ذلك الوثائق الدبلوماسية⁽³⁾، إذ كان هناك مركب أندلسي يحمل هدايا وتحفاً نفيسةً بعث بها أحد ملوك بني الأحمر النصريين إلى "أبي حمو الثاني" في الثامن من شهر ربيع الثاني (768هـ/16 سبتمبر 1366م)⁽⁴⁾، كما هي العادة جارية بين ملوك الجزائر والأندلس⁽⁵⁾.

كما تظهر أثر هذه العادة المستحسنة في مزايا كثيرة بين الطرفين؛ وعلى رأسها الصلح وبذ الضغينة والحقْد، كما تشير رسالة بعثها على الأرجح السلطان الزيَّاني "عثمان بن يغمراسن" إلى سلطان غرناطة، تشتمل على هدايا وتحف، من أجل توثيق العلاقة وتقديم

والنِّفيس واللؤلؤ والزُّمرد، والقُدرة الواسعة بالمال والعبيد والوصيفات، وكان يفتخر على سائر الملوك من المغرب بالخيل والكمال من ركوب السروج المدهبة والركاب، وبالعدّة والشدة والقوّة. ينظر إلى: ابن الصَّبَّاح الأندلسي، المصدر السابق، ص 54.

¹ - ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، المغرب، 1972م، ص 115.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، م7، المصدر السابق، ص 223.

³ - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 131.

⁴ - نفسه، ص 176.

⁵ - ابن مرزوق، المسند، المصدر السابق، ص 394.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

الدِّعْمُ المَعْنَوِي فِي نُصْرَتِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ بِالْأُنْدُلُسِ، "فَبَعَثْنَا إِلَيْكُمْ مَعَ فُلَانٍ مُّوَصِّلَ هَذَا إِلَيْكُمْ مِنْ تَحَفِ هَذَا الْمَوْضِعِ، الَّذِي هُوَ مِنْ يِلَادِكُمْ مَعْدُودٌ وَإِلَى حُكْمِكُمْ مَرْدُودٌ، وَلَوْ أَنَّ الْهَدِيَّةَ تَكُونُ بِقَدْرِ الْمَهْدَى إِلَيْهِ لَقُلْتُ لَقَدْرُكُمْ الْجَلِيلِ"⁽¹⁾.

تَوَثَّقَتْ هَذِهِ الْعَادَةُ الدِّبْلُومَاسِيَّةُ مِنْذُ عَهْدِ "يَعْمَرِاسِنْ" وَابْنِهِ "عُثْمَانَ"، وَتَطَوَّرَتْ نَظْرًا لِلْعَلَاقَاتِ التِّجَارِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ، وَأَسْفَرَتْ عَنِ تَقْرِيْبِ الرَّعِيَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ مِنْ مَرَكْزِ السُّلْطَةِ فِي الْقَيْسَارِيَّةِ⁽²⁾، وَبِهَذَا تَكُونُ هَذِهِ الْعَادَةُ مَعَ الدُّوَلِ الْأَوْرُوبِيَّةِ أَنْتَجَتْ دَوْرًا إِيْجَابِيًّا فِي تَوْطِيْدِ الْعَلَاقَاتِ الدِّبْلُومَاسِيَّةِ مَعَهُمْ⁽³⁾.

رَبَطَ "أَبُو حَمُو مُوسَى الثَّانِي" أَوْاصِرَ الصَّدَاقَةِ وَالتَّعَاوُنِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَلِكِ قَطْلَانَ فِي سَنَةِ (760هـ/1359م) وَفَقًّا لِلْأَعْرَافِ الدِّبْلُومَاسِيَّةِ الْجَارِيَّةِ، وَبِمَقْتَضَى هَذِهِ الْأَعْرَافِ؛ لِأَبْدَ مِنْ تَبَادُلِ هَدَايَا وَأَمْتَعَةٍ، كَأَدَاةٍ رَسْمِيَّةٍ لِلتَّعْبِيرِ بِهَا عَلَى صِدْقِ التَّوَايَا فِي تَعْزِيْزِ هَذِهِ الْأَوْاصِرِ.

فَقَدْ سَرَدَ لَنَا أَخْبَارُ هَذِهِ التَّقَالِيْدِ السِّيَاسِيَّةِ "يَحْيَى بْنُ خَلْدُونَ" فِي الْبَغِيَّةِ قَائِلًا: «وَأَحْصَى مَا غَادَرَتْهُ الدَّوْلَةُ الذَّاهِبَةُ مِنْ مَتَاعٍ وَزَرْعٍ وَسَلْعٍ بَحْرِيَّةٍ، وَمَا حَوَتْهُ هَدِيَّةُ الْمَلِكِ الْمَتَوَفَى إِلَى مَلِكِ قَطْلَانَ مِنْ خَيْلٍ عَتِيْقَةٍ وَسُرُوجٍ مُفْرَغَةٍ رُكْبُهَا مِنْ ذُؤَبِ اللَّجِيْنِ، وَلُجْمٍ مُوشِيَّةٍ وَأَسْبَابٍ مُخْتَارَةٍ، وَفُتْحٍ بَيْنَ يَدَيْهِ الْكَرِيْمَتَيْنِ، أَعْلَى اللَّهِ مَقَامَهُ، صَنْدُوقُ الْأَوْقَافِ الْمُنَوَّعَةِ مَفْعَمًا ذَهَبًا وَفِضَّةً، فَلَمْ تَعْرِهِ صَفْرَاؤُهُ وَلَا بِيضَاؤُهُ، شِنْشِيَّةٌ نَعْرِفُهَا مِنْ أَحْزَمِ، وَسِنَّةٌ عَلَوِيَّةٌ عَلِيَّةٌ»⁽⁴⁾، وَأَنْشَدَ "يَحْيَى بْنُ خَلْدُونَ" قَصِيْدَةً تَمْدَحُ وَتَمَجِّدُ تَلْمَسَانَ وَسُلْطَانِيْنَهَا، وَهِيَ تَسْتَرْجِعُ عَادَاتِهَا وَأَبْهَتَهَا.

عَادَتْ تِلْمَسَانَ إِلَى عَادَاتِهَا وَبِحُسْنِكُمْ حَسُنَتْ وَرَأَقَتْ مَنْظَرًا⁽⁵⁾

وَفِي هَذَا الصَّدَدِ يَقُولُ "صَاحِبُ زَهْرِ الْبِسْتَانِ" أَثْنَاءَ وَصْفِهِ لَطَقُوسٍ جِهَازِ الْعَرُوسِ - وَهِيَ بِنْتُ السُّلْطَانِ "أَبِي تَاشْفِيْنِ الْأَوَّلِ" سَارَتْ إِلَى فَاسٍ بَعْدَ مَهْلِكِ أَبِيهَا - مِنْ فَاسٍ إِلَى تَلْمَسَانَ: «فَاسْعَفَهُ بِهَا إِسْعَافُ الْوَلِيِّ الْأَرْغَبِ، وَاسْتَصْحَبَهَا بِهَدِيَّةٍ سَنِيَّةٍ، مُؤَدَّةً بِاتِّصَالِ الْوَدَادِ

¹ - ينظر إلى الملحق رقم 05.

² - Attallah Dhina, Op cit, p 206.

³ - نقادي سيدي محمد، المرجع السابق، ص 56.

⁴ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 37.

⁵ - نفسه، ص 54.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

والمهادنة والأمنيّة»⁽¹⁾، تُفيدنا هذه الخطبة بينة الطرفان في تجديد الصلح والمهادنة بينهما كما هو متعارف عليه، ودائماً ما كانت تنتهي بمصاهرة سياسية، أو ارسال هدايا بغيّة استلطاف الطرف الأقوى وكسب ثقته، واحتوت الهدية المرسلّة من صاحب المغرب على خيلٍ ومطايا وذخائر مما يليق بالهدايا، كما استرجع من خلالها الحرائر العبدواديات⁽²⁾.

كشف لنا "يحيى ابن خلدون" في كتابه عن عادات الصلح والسلم بين الزيانيين والمرينيين، هدفها الاتفاق على الحدود المألوفة الشروط الموثوقة، حيث قال: «توجه المولى الأمير أبو تاشفين إلى المغرب، في أواخر شهر ربيع الأول، بهديّة من عتاق الخيل المسومة، وأعد ملك المغرب السلطان أبو سالم لإنزالهم الدور الرحبة والفرش المرفهة والقرى الجزيل، وأركب للقائهم يوم الوصول أعلام دولته وكبار قبيله، واحتفل للسلام عليهم كل احتفاله، ومهد للأمير أعزه الله تعالى أريكة بإيذاء سريره، ودخلوا فتلقاهم بالترحيب والبشر، وبالغ لهم في الإكرام والإكبار، وأظهر لهم الفرح، وبسط الآمال، وانقضى المجلس الجمهوري، فلما انتهى أمد القرى وانعقد الصلح على الحدود القديمة والشروط المألوفة، كافأ السلطان أبو سالم على الخيل المهداة إليه بأضعاف من الأغلاق النفيسة والبغال الفارهة»⁽³⁾.

واستناداً إلى ذلك بعث "المستنصر"⁽⁴⁾ والأمير "أبو حفص"⁽⁵⁾ لصاحب تلمسان "أبي حمو الثاني" هدية تشتمل على ثياب رفيعة⁽⁶⁾ وكان الغرض منها توثيق العلاقة وأواصر

¹ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 248.

² - نفسه، ص 248.

³ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 85-86.

⁴ - يقصد السلطان أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء يحيى بن الشيخ أبي محمد بن عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص، الذي بويع بتونس في 3 رجب سنة (647هـ/1249م)، خلفاً لوالده السلطان أبي زكرياء الحفصي. ينظر إلى الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م، ص 69 وما بعدها.

⁵ - هو الأمير أبو حفص عمر بن أبي زكرياء الأول، بويع بتونس (24 ربيع الثاني 683هـ/10 جويلية 1284م). ينظر إلى ابن الشماخ، الأدلة البينة في مفاخر الدولة الحفصية، ص 61-80. والزركشي، نفسه، ص 104-105.

⁶ - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 189.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

الآخوة التي يقتضيها العمل الدبلوماسي وكان ذلك أواخر ذي القعدة عام (862هـ/1458م)⁽¹⁾.

وكانت تحية الملوك عادةً معروفةً ومألوفةً، يظهرُ فيها التأثير العربي بشكل واضح، والدليل على ذلك في مسند "بن مرزوق" حيث قال: «وما كان يستعمل تحية الملوك في المغرب ما كان العرب يحيى به بعضهم بعضاً: أنعم الله صباحك، أنعم الله مساءك»⁽²⁾، لكن المرجعية الإسلامية تنفي هذه العادة في إلقاء التّحية وتعتبرها من الجاهلية، والتّحية المشروعة هي (السلام) استناداً لما أدلى به الفقيهين "بني الامام"⁽³⁾.

انبثقت على هذه الصداقة الحميمة والعلاقة الوثيقة بين بني زيّان وبني حفص؛ في فترات الهدنة والتصالح والتحالف جنباً إلى جنب، من أجل تحقيق المصالح الشخصية، وهي من بين العادات غير مباشرة التي ساهمت في تطوير البناء المجتمعي على المستوى الهرمي للسلطة الزيانية، فمن بين هذه العادات التي ظهرت مع انتهاء فترة حكم يغمراسن وبداية العهد الجديد لنجله عثمان ما يلي:

• **عادة الاحتفال والبيعة لقدم أحد الحلفاء السياسيين:** كانت عادة سلاطين بني زيان وعلى رأسهم "يغمراسن"؛ الاحتفال بقدوم أحد الأمراء أو الحلفاء السياسيين إلى تلمسان ثم مبايعته على الوجه الذي يجب، وهو الأمر الذي فعله مع "أبي اسحاق الحفصي" عندما رأى بأنّه أحق بخلافة تونس فور هلاك أخيه "المستنصر" عام (677هـ/1278م)، فأجاز البحر من الأندلس "ونزل بمرسى هنين ولقاه يغمراسن مبرة وتوقيراً"⁽⁴⁾، واحتفل لقدمه وأركب الناس الناس للقاءه"⁽⁵⁾.

¹ - الزركشي، المصدر السابق، ص 150.

² - ابن مرزوق، المسند، المصدر السابق، ص 287.

³ - نفسه، ص 287.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 94.

⁵ - نفسه، م6، ص 348.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

"وأتاه ببيعته على عادته مع سلفه، ووعدته النصره على عدوه والمؤازرة على أمره"⁽¹⁾، وكتب له بذلك رسالة ولاء بعد ما وصل أبو اسحاق⁽²⁾ إلى بلاط الحفصيين وترجع على العرش، مما جاء فيها على لسان يغمراسن: «الحضرة الكريمة حضرة مولانا الأمير الأعلى أبي اسحاق ابن مولانا الأمير الأعلى أبي زكريا بن ساداتنا وموالينا الراشدين أدام الله أيامها... وإنَّ العبد أصدر خدمته هذه إلى الخدمة العلية أيدها الله، مقررًا ما لديه من الخدمة لباها»⁽³⁾.

رغم أنَّ "يغمراسن" كان أميراً في قومه؛ يصول ويجول في مضارب مختلفة من بلاد المغرب الإسلامي، إلاَّ أنَّه مال للخلافة الحفصية بتونس، بعدما زحف إليه الأمير "أبي زكريا" بجيشه سنة (640هـ/1243م)، وقدمَ له يد الطاعة والإنقياد، ذكر في هذا الصدد صاحب العبر: «وأما يغمراسن وبنوه فلم يزلوا آخذين بدعوتهم واحداً بعد واحد متجافين عن اللقب أدباً معهم، مجددين البيعة لكل من يتجدد قيامه بالخلافة، منهم يوفدون بها كبار أبنائهم وأولي الرأي من قومهم ولم يزل الشأن ذلك»⁽⁴⁾.

ومنذ ذلك الوقت أضحت عادة البيعة للحفصيين واردة عند بني زيَّان من بعد "يغمراسن" موثقة، وأخذت مشارب ومآرب مختلفة، حيث تطورت العلاقة إلى حدِّ المصاهرة السياسية، وطلب إغداء الأموال على بعض أمراء الزيَّانيين، كما دلت على ذلك الوثائق. كما كانت عادة البيعة لسلطان تلمسان موصولة لبيعة الإمارة الحفصية - الموحدية - بتونس، على ما تقتضيه العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين، وبموجب الوصية التي تركها

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، م7، ص 94.

² - أبو اسحاق ابراهيم ابن أبي بكر على يد الحاجب بن تافوجين، وهو يومئذ غلام مناhez، ولد في ربيع الأول من سنة (737هـ/1337م) وبويع بالخلافة في (11 جمادى الأولى من سنة 751هـ/1351م)، وتوفي بليل فجأة في رجب سنة (770هـ/1369م)، فكانت خلافته ثمانية عشر عاماً وعشرة أشهر ونصف شهر، وباع الناس ولده، ينظر إلى: الزركشي، المصدر السابق، ص ص 92-167.

³ - ينظر إلى الملحق رقم 06

⁴ - عبد الرحمان بن خلدون، نفسه، ص 94.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

"يغمراسن" لابنه "عثمان" نفهم منها أن هذا الأخير سَيَتَقَلَّدُ الإِمَارَةَ بَعْدَ أَبِيهِ بَعْدَ مَا تَوَفَّرَتْ فِيهِ صفات القيادة والشجاعة والزعامة.

وتذكر المصادر بأن "يغمراسن" حضرته المنية في مضارب مغراوة في أواخر ذي القعدة (681هـ/1282م)، فحمله ابنه "أبو عامر برهوم" إلى منطقة سيك ومن ثم إلى تلمسان، لتتم عملية المبايعة مباشرة لولي العهد الجديد "عثمان بن يغمراسن" من طرف أعيان المنطقة لاسيما زناتة⁽¹⁾؛ ثم يُرْسِلُ عقد البيعة إلى مقر الخلافة بتونس إلى "أبي اسحاق" وفق ما يستوجبه العرف السائد، وفي هذا الشأن يقول "بن خلدون" في العبر واصفاً ذلك: «فلقيه أخوه عثمان بن يغمراسن ولي عهد أبيه في قومه، فبايعه الناس وأعطوه صفقة أيمانهم، ثم دخل تلمسان فبايعه العامة والخاصة، وخاطب لحينه الخليفة بتونس أبا اسحاق وبعث إليه ببيعته، فراجعته بالقبول وعقد له عمله على الرسم»⁽²⁾.

من جهة أخرى يذكر "ابن مرزوق" في المناقب عن عادة كانت منتشرة في بلاد المغرب الاسلامي خاصة بالملوك والسلاطين، وهي عادة تقبيل الأرض أو الانحاء كهيئة الساجد⁽³⁾، وكان يقوم بها الوافدين على الملوك والداخلين عليهم من أوساط وصنف الخدام، فضلا عن عادة تقبيل اليد⁽⁴⁾ والقدم والبساط العلية والمتوسطة والدون⁽⁵⁾.

ولتعزيز الثقة أكثر للسلطان الزياني "أبي زيان الثاني" مع السلطان المملوكي في مصر "الظاهر برقوق"⁽⁶⁾، اغتتم "أبي زيان" فرصة الوفد المملوكي المرسل إلى المغرب الأقصى

¹ - ينظر إلى الملحق رقم 07

² - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص 95 - 96.

³ - ابن مرزوق، المسند، المصدر السابق، ص 287.

⁴ - ينظر إلى الفصل الثالث من الأطروحة.

⁵ - ابن مرزوق، نفسه، ص 287.

⁶ - **الظاهر برقوق**: هو سيف الدين برقوق يلقب بأبي سعيد أول الممالك الشراكسة البرجيين بمصر، تولى الحكم ما بين (784-801 هـ/1382-1399م)، وكانت له حنكة سياسية وشجاعة فائقة، قريب من الفقراء، وكانت له علاقات دبلوماسية مع ملوك المغرب الإسلامي؛ وعلى رأسهم سلطان تلمسان أبي زيان، توفي يوم (الجمعة 15 شوال 801هـ/1399م) بقلعة الجبل بالقاهرة. ينظر ترجمته في كتاب: النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي، المصدر السابق، ج 11-12، ص ص 221 - 168.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

والذي كان ماراً عبر تلمسان؛ "فبعث معهم هدية أخرى من الجياد بمراكبها، وكان يحوكُ الشعر، فامتدح الملك الظاهر بقصيدة بعثها مع هديته"⁽¹⁾، لكن رواية "التنسي" تفيدنا بأن ملك مصر؛ أرسل في جملة الهدايا المرسله لسلطان فاس هدية خاصة "لأبي زيان"⁽²⁾، مما جعل هذا الأخير يرد الجميل لأهله، كما جرى عليه التقليد الدبلوماسية مع هدية جليلة وقصيدة من نظمه يقول فيها:

لِمَنْ الرِّكَائِبُ سَيَّرَهُنَّ دَمِيلٌ فَالصَّبْرُ إِلَّا بَعْدَهُنَّ جَمِيلٌ⁽³⁾

• **عادة المصاهرة السياسية:** تُعتبر المصاهرة السياسية شكلاً من أشكال النفوذ في الحكم؛ فضلاً عن أنها تُقدم حلول للكثير من المشاكل والمعضلات بين الدول والجماعات والعوائل الحاكمة، ومن نتائج هذه المصاهرة بين الحيين - كما هو الشأن بين بني حفص وبني زيان - خلق حالة من التوازن السياسي وتأكيد التحالفات في الحروب الكبيرة، مما يجعل عادة المصاهرة السياسية أداة للردع المشترك، بالإضافة إلى ارتباطه ارتباطاً وثيقاً بالمال والثراء، وعندما لحق الأمير "أبو اسحاق الحفصي" بتلمسان سنة (677هـ/1278م) أكرمه "يغمُراسن" "وأصهر - الأمير الحفصي - إليه في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه "عثمان" ولي عهده، وأسعفه وأجمل في ذلك وعده"⁽⁴⁾.

والظاهر أن المصاهرة وتبادل النساء شكلاً أهم وسيلة لعقد التحالف، باعتبار أن علاقات القرابة في مثل هذه المجتمعات، هي الوسيلة الفضلى لضمان نجاح الحلف وتوثيق عقده⁵، كما ترتب عن هذه العادة السياسية بين (بني زيان وبني حفص) جملة من الروابط والتحالفات والإحتفاءات التقليدية، ذكرها "بن خلدون" في العبر وهي كالاتي:

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، رحلته، المصدر السابق، ص 267.

² - التنسي، المصدر السابق، ص 220.

³ - نفسه، ص 220.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، م7، المصدر السابق، ص 94.

⁵ - حميد تيتاو، المرجع السابق، ص 126.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

➤ إرسال "يغمراسن" بن زيّان ابنه "إبراهيم"⁽¹⁾ في رجال من قومه على الخليفة "أبي إسحاق" لإحكام الصّهر بينهما "فنزلوا منه على خير نزل من إسناء الجراية، ومضاعفة الكرامة والمبرة"⁽²⁾.

➤ أبتني بها "عثمان" حين وصّوها وأصبحت عقيلة قصره، فكان ذلك مفخراً لدولته وذكر له ولقومه.

➤ نزول الأمير "أبو زكريا بن الأمير أبي إسحاق" سنة (682هـ/1283م) على صهره بتلمسان "عثمان بن يغمراسن" خير نزل براً واحتفاءً وتكريماً وملاطفةً، وسرّبت إليه أخته من القصر أنواع التّحف والأنس.

➤ التّحاق بعض أولياء الأمير الحفصي وكبير دولتهم "أبو الحسن محمد ابن الفقيه" المحدث "أبي بكر بن سيد الناس اليعمري"، ففتيؤوا من كرامة الدّولة بهم ظلاً وارفاً واستنهضوه إلى تراث ملكه.

➤ تفاوض الأمير الحفصي ورجاله مع "عثمان ابن يغمراسن" على الملك؛ لكن هذا الأخير "نكره لما كان قد أخذه بدعوة صاحب الحضرة، أوفد عليه رجال دولته بالبيعة على العادة في ذلك"⁽³⁾، وكانت هذه العادة تقليداً رسمياً منذ عهد "يغمراسن" وخليفة عهده "عثمان" في ربط الولاء للحفصيين، ثم سار على الدرب من ورث الحكم بعدهم "كأبي حمو الأوّل"⁽⁴⁾.

وَمَا أَفَادْتْنَا بِهِ الْوُثَائِقُ الدِّبْلُومَاسِيَّةِ فِي شَأْنِ هَذَا الْوَلَاءِ الشُّكْلِيِّ - وَإِلَّا كَانَ بَنُو زِيَّانِ مُسْتَقْلِلِينَ سِيَاسِيًّا فِي تَلْمَسَانَ عَنِ الْمُوَحِّدِينَ بَتُونَسَ - رَسَائِلُ وَمُكَاتَّبَاتٌ؛ تَبَيَّنَ عَنِ وُجُودِ نَوْعٍ مِنْ

¹ - كانت تسميه زناتة برهوم ويكنى أبا عامر.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، م7، ص94، وينظر كذلك إلى م6، ص348.

³ - نفسه، م7، ص95.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، رحلته، المصدر السابق، ص97.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

التقاليد السياسية في تَمَتِين رَوَابِط الخِدْمَة الوَلَاء، وتجاوزت مظاهر التبعية مجال الاطار السياسي إلى مستوياتٍ أُخْرَى⁽¹⁾.

من ذلك ما نجده من طلب الأمير "محمد بن عامر ابن يغمراسن" الحصول على (إنعام) خاص به من الأمير الحفصي "الواثق بالله"، إضافةً إلى (الإنعام) الذي كان في حياة أبيه، بحيث "تسامى أمله إلى مزيد النعمة، ولتبقى النعمة القديمة خالصة للإخوة الأصاغر عبيدكم، فإنما هي كفايتكم، وبها تتم كفالتهم ورعايتهم"⁽²⁾.

كشفت الرسائل الديوانية في كتاب (فصل الخطاب) عن خضوع "محمد ابن أبي عامر بن يغمراسن" لبلاط الحفصيين في سبيل خدمتهم والتزول إلى مستوى العبودية، وهذا ما يتجاوز العادة والتقليد المتعارف عليه من طرف حاكم تلمسان، حيث طلب المزيد من الإحسان إليه وهو الشأن نفسه للأمير الزياني "عامر بن محمد بن يغمراسن"، عندما طلب من الأمير الحفصي "أبي اسحاق" الذي خلف الواثق في الامارة ما بين (678-681هـ/1279-1282م)، وكان الاحسان عند الحفصيين هو مبلغ مالي يوزع سنويا وليس له قدر مضبوط⁽³⁾، قال "بن خلدون" في العبر: «كان أبو عامر ابراهيم بن يغمراسن ثري بما نال من جوائز الملوك في وفاداته»⁽⁴⁾.

أما عادة المكاتبه عند هذه الفئة الحاكمة مع الملوك وأصحاب النفوذ في مختلف الأمصار والأقطار، كانت جارية بشكل رسمي وواضح ويختم عليها بخاتم السلطان⁽⁵⁾، ولا

¹ - أحمد عزاوي، المغرب والأندلس في القرن السابع/13م دراسة وتحقيق لديوانيات كتاب فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر ابن الخطاب، ط1، ربا نيت، المغرب، 2008م، ص 16.

² - ينظر الملحق رقم 08.

³ - أحمد عزاوي، نفسه، ص 17. وينظر إلى الملحق رقم 09.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، م7، المصدر السابق، ص 109.

⁵ - وهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية، وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته، يغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم، ويطبع به على طرفي السجل عند طيه وإصاقه، وقد يكون هذا الختم بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسييح، أو باسم السلطان أو الأمير أو صاحب الكتاب كائنا من كان، أو شيئا من نعوته، يكون ذلك الخط علامة على صحة الكتاب ونفوذه، ويسمى في ذلك المتعارف علامة ويسمى ختما، ينظر إلى مقدمة بن خلدون، ص ص 192-207.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

أدل على ذلك مما نجده في صبح الأعشى عن صياغة الرسالة شكليا "والعادة الجارية في الكتب الواردة عنهم أن تكون على نمط واحد في الورق، مع تقارب الحال في الترتيب، وتكون كتبهم في طُومار واحد، في عرض نحو شبرين، في طول نحو ثلاثة أشبار، والبسمة بعض بياض نحو شبر، وثلاثة أصابع مطبوقة من أعلى الطُومار⁽¹⁾»⁽²⁾.

أما الصياغة المنهجية للمكاتبة بين السلطان الزياني وصاحب الديار المصرية التي يوردها "القلقشندي"، مفادها كالاتي: «يبدأ الكاتب بقوله: إلى الحضرة الفلانية حضرة فلان - بالألقاب المعظمة المفخمة ثم يدعى له بما يناسب الحال، ويؤتى بخطبة ثم بالسلام، ويقع الخطاب في أثناء الكتاب بالإخاء بلفظ الجمع، ويختتم بالدعاء المناسب»⁽³⁾، ويضيف "القلقشندي" قائلا: «وعاداتهم فيها أن يكون الخطاب فيها خطاب مواجهة مثل: أنت، وأنا ولك، وعندني، وعندك، وربما خاطبوا الواحد بيمين الجمع تعظيما للمكتوب إليه، ولا يعرف ذلك لغيرهم»⁽⁴⁾.

ومن عادة المغاربة كلهم؛ أن لا تطول كتبهم ولا تبعد بين سطورهم كما جرت بها العادة في مصر والشام وإيران⁽⁵⁾، "وفي الغالب يكون صاحب العلامة الكبرى كاتب السر، وهذا في الأمور الكبار، والعلامة: الحمد والشكر لله، وأما ما دون هذا فإنما تكون الكتابة فيه

¹ - الطُومار: له معنيان: 1- الخط الذي كتبت به المصاحف العثماني وهو من أجل الخطوط 2- نوع الورق المصنوع من الكاغد أو ورق البُردي، وهو المقصود من القلقشندي. ويستدل بالأول على الخط المعروف عند العرب، وهو مكتوب بقلم مبسوط وشبه خالٍ من الإستدارة ونحوها، وبهذا الخط أو القلم كتبت أكثر نسخ القرآن الكريم في العصر الاسلامي، ويستدل بالثاني على قطعة من الورق، ذات أبعاد ومقاسات معينة، لاتزيد الواحدة منها عن 24 شعرة، كانت تستخدم في المكاتبات بين الخلفاء والسلاطين، استمرت حتى نهاية العصر المملوكي. ينظر إلى: مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم مصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1996م، ص 311.

² - القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، المصدر السابق، ص78.

³ - نفسه، ص 84.

⁴ - نفسه، ص 148.

⁵ - ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الأمصار، السفر الرابع بمالك اليمن والغرب الاسلامي وقبائل العرب، تحقيق: حمزة أحمد عباس، ط1، المجمع الثقافي أبوظبي، الامارات العربية، 2002م، ص 154 - 155.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

عن وزير الجند يكتب عليه صاحب العلامة الصغرى اسم وزير الجند، ومن خاصة كتب هذا السلطان أن يكتب في ورق أصفر، وأما ما يكتب عن وزير الجند ففي غير الأصفر⁽¹⁾.

ومن القرائن كذلك أن السلطان الزياني "يغمراسن" كانت له في أهل العلم رغبة عالية، يبحث عليهم أين ما كانوا، ويستقدمهم إلى بلده ويقابلهم بما هو أهله، ومن أعلم من كان في زمانه "أبو اسحاق بن ابراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي"⁽²⁾، فكان "أمير المسلمين" "يغمراسن" يكاثبه كثيرا، ويرغبه في سكنى تلمسان⁽³⁾.

فهذه العادة استحدثها ملوك تلمسان كسلاح يستخدموه في سبيل ارساء قواعد دولتهم، وتوغلهم في المناطق البعيدة وعقد شروط الصلح والوفاق مع جيرانهم في أوقات الهدنة هذا من جهة، ومن جهة أخرى رأينا أن هذه العادة حاضرة عند "يغمراسن بن زيّان" مع العلماء واستلطافهم وترغيبهم في تلمسان، التماسا لدعائهم وإتاحة لهم المجال في تنشيط الحركة العلمية ثم ترك وصية لابنائهم فحواها بأن يدفن بجوار هذا العالم أو الصالح أو الفقيه حتى يتطهر من ذنوبه.

ومن عادات الملك الزياني كذلك الكرم والبذل والعطاء والإنفاق على رعيته وعلى الوافدين بقصر المشور، بشهادة "الحسن الوزان"، الذي يقول: «وكانت هذه المملكة تحقق مردودا يبلغ ثلاثمائة ألف وحتى أربعمئة ألف دينار، طوال العديد من السنين عندما كانت وهران تابعة لها، لكن نحو نصف هذا المبلغ كان ينفق على الأعراب وحراس المملكة، والباقي لأجور الجند والقادة وكبار موظفي الحاشية، وكان الملك هو أيضا ينفق على قصره وعلى ما يتطلب تمثيله، لأنه كان كريما مضييفا إلى حدٍ كبيرٍ وقد أقمت على حاشيته شهورا أثناء اقامتي المختلفة بتلمسان»⁽⁴⁾.

¹ - ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص 155.

² - أبو اسحاق بن ابراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي: من العلماء الصالحين الأولياء كبير القدر حيا وميتا، زاهد ورع ذو كرامات شهيرة ومكانة عند الملوك عظيمة، ألف في العلم كثيرا، وحج وعاد إلى تلمسان، فتوفي في حدود الثمانين وستمئة، قبره رحمه الله بالعباد. ينظر إلى: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج 1، ص 151.

³ - التنسي، المصدر السابق، ص 126.

⁴ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ص 22-23.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

ظهر هذا العُرف الاجتماعي عند بني زيَّان في أوقات ازدهار مُلكهم وتثبيت دولتهم، وأصبح مصدر فخر وشرف "أبي هو موسى الثاني" فضلاً على توظيفه سياسياً كعهد يأخذه على رعيته والقبائل العربية التي تقدم فروض الطاعة والولاء، حيث "وفد على بابه الكريم أهل ندرومة وأهل وجدة وأهل هنين ببيعاتهم، وكان أهم ما بدأ به، الاحسان إلى أنصار الدعوة ووفود الهناء على بابه الكريم، من العرب العامرية والمعلقية، وهم زهاء ثمانية آلاف، فكسا كلا منهم على قدره، ونفل خواصهم الخيل المسوّمة والسروج المرفهة، والعدد المحلاة بالعسجد أو باللجين، ثم المال المتعدد، فصدروا فرحين بما أتوه"⁽¹⁾.

جرت العادة في عملية البذل والانفاق أن يكسب ولاء هؤلاء القبائل ثم يلتفت إلى قبيله، "فأخذ بضبعهم، وراش مهيض جناحهم، فاستركب منهم في يوم واحد ألف فارس، يكسى الرجل منهم بقدره، ويدفع إليه فرس مسرج ملجم ومهماز وسيف ورمح، وثلاثة من الذهب وعشرون برشالة من القمح وثلاثون من الشعير، على هذا مضت سنته فيهم إلى أن ركبوا من عند آخرهم، وآثر الفخر والشرف، واعتمد تشييد أركان الملك"⁽²⁾.

وفي نفس السياق يذكر "ابن عمار" عادة اكرام العلماء في البلاط الزيَّاني، دائماً عند السلطان "أبي هو موسى الثاني" "كان أوحده الملوك في استجماع خصال الفضل علماً وأدباً وجوداً وشجاعة، وكان في أيام دولته مكرماً للعلماء مجلاً لهم"⁽³⁾، ومن الأمثلة عن ذلك اكرامه للشيخ "الشريف التلمساني" مع حضوره لمجلس اقراءه في المدرسة التي ابتناها تخليداً لروح والده أبي يعقوب، فضلاً عن اكناره بها للأوقاف وكسا طلبتها طلبتها كلهم، وأطعم الناس وطول الله مدته حتى ختم السيد الشَّريف المذكور تفسير القرآن العظيم فيها، فاحتفل الحضور ذلك الختم وأطعم فيه الناس وكان موسماً عظيماً⁽⁴⁾.

¹ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 38.

² - نفسه، ص ص 38 - 39.

³ - ابن عمار، المصدر السابق، ص 166.

⁴ - نفسه، ص 167.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

2. القادة وكبار الجند

تتألف هذه الفئة من قادة الجناحين السياسي والعسكري⁽¹⁾ للمجتمع التلمساني الزياني، بمعنى أعضاء مجلس البلاط الذين كانوا يحظون باحترام وتقدير الناس، إضافة إلى قادة الجند الذين لم يتقاعسوا في الدفاع على عصبية الحكم الزياني، وإليهم يرجع الفضل في صنع أجداد التقدم الحضاري لمدينة تلمسان طيلة أربع قرون من الزمان. وهذه الطبقة كانت أعلى مكانة في المجتمع بعد الحكام؛ ويتمتعون بوضع سياسي واجتماعي خاص، وغالبا ما كانت تتم وراثة صفة القيادة والنبالة لأبنائهم على عادة أهل الغرب الإسلامي، ويحملون ألقابا لا يعرفون إلا بها، جعلها "مارمول" خمسة ألقاب بينما جعلها "الحسن الوزان" أربعة⁽²⁾ وهي كالآتي:

الشخصيات	الألقاب	مهامها
الشخصية الاولى	المزوار	الذي كان كئائب ملك أو قائد عام يجند الجنود ويؤدي لهم الأجور، ويعفيهم عند الإقتضاء، ويمنح وظائف بلاط الملك وكان ويرأس الجيوش ويقودها أحيانا ضد العدو وتخضع له مثلما تخضع للملك.
الشخصية الثانية	المستشار (كاتب الدولة)	وكان الشخص الثاني هو المستشار أو كاتب الدولة المؤمن على الخاتم الذي يصرف الشؤون إلى الملك. كما كان يحرر الرسائل

¹ - وصى "أبو هو موسى الثاني" ابنه بضرورة الاختيار المناسب لقواد الجيش وما يليهم من الرتب، حيث قال في واسطة السلوك: "فلتقدم على جيشك أهل النجدة والبسالة والشجاعة والبسالة، ممن مارس الحروب ودافع الخطوب وصارع الأبطال واقتحم الأهوال، اعلم يا بني أن خير الأصحاب أربعة وخير الراما أربعمئة وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يبلغ جيش اثنا عشر ألفا من قلة إلا اتفقت كلمتهم". المصدر السابق، ص 142.

² - للمزيد من الاطلاع أكثر حول الوظائف المنوطة بالطبقة الخاصة وألقابها، ينظر إلى كلا المصدرين: مارمول في افريقيا ص 301. والحسن الوزان في وصف افريقيا، ص ص 21-22.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

والأجوبة باسم الملك.		
والثالث هو الخازن العام أو ناظر المالية المكلف بجميع الموارد وبيت المال. الذي يقبض مداخيل الملكية ويحفضها.	الخازن العام (ناظر المالية)	الشخصية الثالثة
وهو صاحب النفقات الذي يوقع الحوالات على بيت المال حتى يتمكن موظفو القصر الملكي من مجابهة حاجيات القصر والإصطبلات. سواء العادية أو الاستثنائية.	أمين الصندوق (الأمين العام)	الشخصية الرابعة
وكان خامس الضباط هو عامل القصر الملكي المكلف بحراسة الملك، ثم كبير حملة السلاح والمكلفين بالخدم المسلحين، والإبل والأخبية، وما شابهها من الأعمال التي يلزم القيام بها بصفة شخصية، كان تحت أوامر هؤلاء القوم ضباط وما يتبعهم من كتائب الفرسان فكانوا يتصرفون بأبهة، ويعتزون بما يملكون من طقوم فاخرة لخيولهم».	عامل القصر الملكي	الشخصية الخامسة

كما هو موضح في الجدول؛ يبدو أن السلطة الزيانية جعلت من الوظائف السياسية وأعلاها عندهم وظيفة الحجابة، فللحاجب الاتصال بشخص السلطان نفسه متى شاء وهو الذي ينوب عن الملك في غيبته حرباً أو سلماً، ويسمى صاحب هذه الوظيفة بالمزوار⁽¹⁾. وهذا اللقب لم يكن وارداً عند الزيانيين إلا تلميحاً، كما قال "ابن خلدون" في مقدمته: «وأما دولة بني عبد الواد؛ فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب، ولا تمييز الخطط لبداوة

¹ - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 130.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

دولتهم وقصورها، وإنما يخصون باسم الحاجب في بعض الأحوال مُنْفَذَ الخَاصِّ بالسلطان في داره»⁽¹⁾.

وهناك وظائف أخرى أقل أهمية مثل قائد الاصطبلات، وقائد السيافين، والحاجب الأعظم الذي لا عمل له إلا عندما يستقبل الملك أحدا، ويخدم الملك داخل القصر جاريات مسيحيات وعدد كبير من الخصيان الساهرين على الحريم⁽²⁾، بيد أن عادة اتخاذ الجاريات المسيحيات داخل القصر انتهت في عهد "يغمراسن" (752هـ/1352م) بعدما غدر جند النصارى به، وهي عادة موحدية احتفظت بها الدولة المرينية، ويتضح جليا التنظيم الهرمي لهذه الطبقة المحيطة بالسلطان الزياني في مباشرة مهامها وعاداتها اليومية داخل القصر وخارجه.

أطلق "أبو هو موسى" في واسطة السلوك على هذه الفئة (خاصة الملك)، ووظيفتها تقوم على الاعتناء بالملك وتصويب آرائه وقراراته، وتسهر على خدمته في الحياة اليومية المدنية والسياسية، إذ يقول: «اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تتخذ خاصة من وجوه القبائل وكرام العشائر تستخلصهم لنفسك، ليعلمك كل واحد منهم محبا في جانبك ومائلا إليك ومعتمدا في أموره عليك، لأنه إذا كان محبا في جانبك قاد جميع جماعته إلى بابك، وسعوا كلهم في مرضاتك وآرائك، فلتنزل كل واحد منهم في منزلته وتربته على قد ما يليق به من مرتبته»⁽³⁾.

¹ - عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 189.

² - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 22. وردت اشارات متفرقة في المصادر الاخبارية توضح أن مختلف الأجناس كانت متغلغلة داخل المجتمع الزياني، سواء في حاشية الملك أو في عامة الناس، لكنهم كانوا أقلية وربما كانوا يستخدمون في لخدمة السلطان أو في المصانع استنادا لما ذكره يحيى بن خلدون في بغية الرواد، ج2، إذ يقول: "سوى أن دار الصنعة السعيدة تموج بالفعل على اختلاف أصنافهم، وتباين لغاتهم وأديانهم" ص 155. كلمة أديانهم تدل على الوجود الفعلي لأهل الذمة داخل دار تلمسان وكان ذلك (سنة 767هـ/1366م). كذلك وردت اشارة أخرى حول ما كان يشنيه أبو هو موسى الثاني في رحلاته الحربية، كما قال يحيى بن خلدون: "فثنى أيده الله العنان تلقاء أبنيته الكريمة، واستركب الحرم وحمل الأموال، وأكفل بذلك الخصيان والنصارى المستخدمين". ج2، ص 196.

³ - أبو هو موسى، المصدر السابق، ص 143.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

وتشير المصادر عادات هذه الطبقة؛ وهي التي تدل على نوع من الارتباط الوثيق بين الملك الزياني وحاشيته في تنظيم شؤون الدولة، لاسيما إبراز هبة السلطة في ذلك وهذا ما أحصاه "الحسن الوزان" في كتابه وصف افريقيا نظراً لأهميته البالغة في ذلك، على مرأى منه: "وقد أقيمت على حاشيته شهورا أثناء اقامتي المختلفة بتلمسان"⁽¹⁾، ثم "يتبع ملك تلمسان مراسيم شديدة، فلا يظهر الا للعظماء وكبار الشخصيات من رجال حاشيته ولا يستقبل إلا هؤلاء وحدهم، وهم الذين يُنجزون القضايا حسب النظام المقرر وفي هذا البلاط مناصب ومهام عديدة"⁽²⁾.

أما الجنود والمحاربون؛ فكان ترتيبهم على ما وضعه العرف من شجاعة ووجاهة، لأنهم هم الذين يرافقون الملك ويعتزون بذلك كثيرا⁽³⁾، ولا ندرى إذا كان ترتيبهم يقوم على أساس القبائل والأجناس حتى تتميز كل قبيلة عن غيرها وكل جنس عن غيره، أم كان مبنيًا على السبق والخبرة الحربية.

وعلى ما يبدو أنه كان يتم هيكلته على الولاء التام والطاعة لشخص الملك مهما كان انتمائه وجنسه، مع مراعاة السابقة في الخبرة الحربية المطلوبة في صد الغارات والهجمات، وما نستدل به في هذا المقام؛ تلك الفرقة العسكرية النصرانية القوية التي كانت جدارا منيعا "ليغمراسن بن زيان"، مستكثرا بهم معتدا بمكانهم مباهايا بهم في المواقف والمشاهد وناولهم طرفا من حبل عنايته⁽⁴⁾، إلا أنها غدرت به وكادت أن تقتله لولا تدخل الدهماء⁽⁵⁾ من الحامية والرعايا، فنكلت بهم ونجا "يغمراسن" من غائلتهم ولم يستخدم جند النصراري بتلمسان بعد ذلك.

¹ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ص 22 - 23.

² - نفسه، ص 23. أحجم الحسن الوزان عن ذكر عادات حاشية الملك الزياني حتى لا يميل القارئ من طول الوصف، كذلك لأنها شبيهة بما ذكره ووصف عن حاشية فاس على حد قوله

³ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 300.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج 7، ص 88.

⁵ - الدهماء: مشتقة من أذهم أي إسودَّ أي سَجَفَ اللَّيْلُ المظلم، وهي الجماعة الكثيرة، وقد دهمونا أي جاؤونا بمرّة جماعّة، ودهمهم أمر إذا غشيتهم فاشيّا. ينظر إلى: ابن منظور، المصدر السابق، م 6، ص 677.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

ويصنف الجيش الزياني إلى أربعة أصناف :

أ. الأعيان: وهم الرؤساء والقواد، يعينهم السلطان يشكلون مجلسا للحل والعقد.

ب. القبيل: وهم مطلق رعايا بني عبد الواد ورئيسهم يعرف بلقب (الشيخ)، وقد جاء ذكرهم في واسطة السلوك بأنهم جماعة من كبار الخاصة والأعيان وخيارهم، يترأسهم شيخ له يد في الطاعة والولاء، ولا يتعاملون مع السلطان إلا بالحق، ويكونون مقربون من الملك ومصطفين عنده، ويتحلون بصفة النصح والإخلاص⁽¹⁾.

ج. الأنصار: وهم نخبة الجيش وخلصته، ومكانهم في الزحف دائما حول السلطان محذقين به⁽²⁾ من جميع جهاته، لا يفارقون الملك ليلا ولا نهارا، وهم أربعة أقسام: الميمنة، وميسرة، وتقدمة، وساقة، فأما الميمنة: فيختارون من ذوي الشدة والكفاية والنجدة والحماية، ويتقدم عليهم من خاصة الملك الأجواد قائدا من القواد رابط الجأش صادق الناس، وأن يكون نزولهم في محلة الملك عن يمينه في المنزلة متزينين أحسن زي وأجمله، وأما الميسرة: أيضا هم من حماة الأبطال المقتحمين للأهوال، يتقدم عليهم قائدا ثابت القلب عارف بمواقع الحرب⁽³⁾، ويكون نزولهم في محلة الملك عن يساره مرتقبين إليه في إيراده وإصداره.

وأما التقدمة: فهم من أصحاب الخيول السوابق، العارفين بالشدائد والمضائق، ويتقدم عليهم قائدا بصيرا بالمواضع الفرص والغرة قد مارس الحروب المرة بعد المرة، ويكون نزولهم في محلة الملك أمامه لا يتجاوزون غرضه ومرامه، وأما الساقة: وهو أهل دخلة الملك المخصوصين بمولاته ونصره، وتتكون من الحماة الأجداد والعيان النجاد من سراة القبائل وصناديد المواقف والمحافل، وبهم ترد الهزائم وترد العظام وتنكشف الكروب، فهم يرهبون العدو بوقوفهم ويخذلونه بثبوت صفوفهم، فيكون جميعهم يقاتل أهل الميسرة والميمنة والتقدمة⁽⁴⁾.

¹ - أبو حمو موسى، المصدر السابق، ص 143.

² - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 130.

³ - أبو حمو موسى، نفسه، ص 144.

⁴ - نفسه، ص 144.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

د. المماليك: وهم خليط من العرب والبربر والزنوج وغيرهم⁽¹⁾، وهم على أربعة أقسام: الأعلاج والنصارى والأغزاز والوصفان، ويكون قدر هؤلاء الذين ذكرناهم قدر الحماة والأنصار، بحيث إذا ظهر منهم جموح للعصيان وإخلال بالجانب يتم قمعهم بهؤلاء الأصناف⁽²⁾، وليكن هؤلاء المذكورون أهل شدة وكفاية ونجدة في غاية وزينة وعدة وجرأة وشدة وحدة، وليكن سكناهم ببلد حضرة الملك ليجدهم لعضده ونصرته، لا يفارقونه طرفة عين ولا يزالون تلقاء وجهه كل أين.

وأما ترتيبهم في الركوب وطبقاتهم في هذا الغرض المطلوب فليكن الأعزاز والأعلاج بين يدي الملك يركبون خلفه مع أهل دخلته الفرسان⁽³⁾، وليتقدم على كل جماعة من هؤلاء قائدا متحفظا ناجدا، والأعزاز أربعة أقسام: وصفان، وأتراك، وأعلاج، ومناصفون، وتقدم كل جماعة منهم قائدا يقتدون به، ويكون لهم علم يمتازون بسببه، كل ذلك يجعل الملك في بهاء ملكه وجماله وضحامته وكماله، وهم مما يتزين بهم الملوك والأمراء والأشراف والكبراء⁽⁴⁾.

وكان لديوان الجند فروع بعضها للمراسلة وبعضها للعطاء وبعضها للنفقة حسب ما تقتضيه أحوالهم وظروفهم، فالرواتب المقدمة لهم كانت نقدا وغيرها من المعادن والجبايات وغنائم الحروب، ومضت سنة أبو حمو الثاني في جنوده الفوارس بأن يكسي كل رجل منهم على حسب قدره، ويدفع إليه فرس مسرج ملجم ومهماز وسيف ورمح وثلاثة من الذهب وعشرون برشالة من القمح وثلاثون من الشعير في ربيع الأول سنة (760هـ/1359م)⁽⁵⁾.

ولا شك أن الرواتب زادت في أيام القوة والظهور وتنقص في أيام الضعف، كما كان سلاطين وأعيان بني زيّان يحرصون بشدة، على ترغيب العرقيات المختلفة داخل الجند في خدمتهم وتأييد سلطانهم "فجنود الملك كلهم أناس ممتازون يتقاضون أجرة ملائمة للغاية إلى حد الآن، أقلهم رتبة ينال شهريا ثلاثة مئاقيل بسكتهم، تعادل ثلاث دوكات ونصف دوكة⁽⁶⁾

¹ - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص ص 130 - 131.

² - أبو حمو موسى، نفسه، ص 145.

³ - نفسه، ص 145.

⁴ - نفسه، ص 146.

⁵ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 2، ص 38.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

دوكة⁽¹⁾ ايطالية، وهذه الأجرة للرجل وللفرس، كأن كل جندي افريقي مفروض أن يكون فارساً محارباً"⁽²⁾.

واستطاع بنو زيّان أن يشكلوا جيشاً منظماً في المعارك التي ذاق فيها حلاوة الانتصار ومرارة الانهزام، فاهتمام سلاطين بني زيّان بالجيش كان شغلهم الشاغل وضرورة لا بد منها لاستمرار الدولة وحمايتها من الأعداء⁽³⁾، علاوة على ذلك كان بني زيّان يستأجرون القبائل الكومية أو (القومية) في حروبهم، وكانت عادة هذه القبائل أنهم يقضون الشتاء في الصحراء ويرحلون في الصيف اتجاه الشمال، "قاصدين الاسترزاق لدى ملوك تلمسان، فيضموهم بصفة مؤقتة إلى جيشهم مقابل أجور معينة، للمشاركة في العمليات الحربية"⁽⁴⁾.

تولدت أزمة ثقة بين السلطان وجنوده في بعض الأحيان مثلما رأينا مع "يغمراسن"، والأمر نفسه يتكرر في مرحلة متأخرة من الدولة الزيانية، لكن في هذه المرة؛ أصبح رعايا تلمسان لا يثقون الملك الزياني في كل قراراته، نتيجة تقلب الأحوال وتدهور الحالة المعيشية وترك الفراغ السياسي الذي ملأه العثمانيون في القرن (16م/10هـ)، وبالتالي أصبحت هذه الطبقة عرضة للاغتيال والتصفية، وهو ما أقدم عليه "عروج بربروس" على قتل سبعة أمراء من بني زيان على رأسهم "أبي زيان" (سنة 922هـ/1517م)، ونكّل بنحو السبعين من أكابر بني عبد الواد وما ينيف عن الألف من كبارها⁽⁵⁾، وهذا كان بدافع عملية انتقامية وثأر منهم.

وهذا استناداً لما يذكره "كاربنخال" في قوله: «لذلك فإن لهم عدة امتيازات واعفاءات مع رواتب حسنة تمكنهم من يعيشوا عيشة راضية، يقسم الملك بين العمال وأهم القواد جميع

¹ - دوكة: Ducas عملة متداولة بالجمهوريات الإيطالية.

² - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 22.

³ - علوي مصطفى، تلمسان من خلال كتب الرحالة والجغرافيين المغاربة والأندلسيين من القرن السابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري (13-15م)، أطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب الاسلامي الوسيط، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجليلي اليايس، سيدي بلعباس، 2015م، ص 193.

⁴ - مارمول كاربنخال، المصدر السابق، ج3، ص 160.

⁵ - محمد المصطفى ابن زرفة، الرحلة القمرية في السيرة الحمديّة، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3322، ورقة رقم 23.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

رعاياه ومدنه كولايات، ويوليهم المهام الرئيسية في قصره وبلاطه، ذلك هو النظام الذي كان يتبعه ملوك تلمسان، والذي لا يعمل به الأتراك الآن، لأن الحاكم الذي يرسله عامل الجزائر الى منطقة ليس له جهاز ملكي، وبما أنه عديم الثقة بالسكان فكل حرسه من الترك والإسلاميين بحيث أنهم مستبعدون أكثر مما كانوا عليه سابقاً»⁽¹⁾.

3. الفقهاء والعلماء

كانت لهذه الطبقة العاملة حظوة ومكانة كبيرتين في الوسط الاجتماعي الزياني، بحيث كانت تسهر على التدريس وتفقيه الناس وتعليمهم أمور دينهم، حتى أضحت تلمسان حاضرة اشعاع علمي مرموقة، وقبلة للفقهاء وطلبة العلم بفضل ما حباها الله تعالى من مقومات التفوق العلمي والحضاري في شتى المجالات.

وبناء على ما تقدم نجد أن طبقة العلماء والفقهاء كان لهم الحظ الأوفر في منصب القضاء، لما كان يعرف عنهم من ثقة وصلاح ودين وعفاف وعلم ومعرفة بكتاب الله والسنة والآثار لأنها مصدرية الشريعة الأساسيين وهما المرجع الأول للقضاء⁽²⁾، كما نجدهم حاضرين في مناصب مختلفة في الدولة.

رصد لنا "الحسن الوزان" صورة واضحة عن مكونات هذه الطبقة في مدينة تلمسان، بأن فيها عدد كبير من القضاة والطلبة والأساتذة في مختلف المواد، وتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بصفة منتظمة⁽³⁾.

من بين العادات التي تميزت بها هذه الطبقة في البلاط الزياني هي التأليف السلطانية؛ مثل تأليف "يحيى بن خلدون لكتاب البغية" و"التنسي لنظم الدر" والشريف التلمساني للمناقب"، إذ يقول محقق كتاب مناقب التلمسانيين: «وهذه العادة كانت موجودة عند علماء هذا القرن وحتى زماننا، فالشريف أبو عبد الله كتب مفتاح الوصول في تخريج الفروع على

¹ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 300.

² - آسيا تامر الهادي العبيدي، آل البيت العلوي بالمغرب وأثرهم في الحياة العامة حتى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2019م، ص 138.

³ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 20.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

الأصول للسلطان أبي عنان المريني، وكان الملوك والأمراء يساهمون في الحركة العلمية لمجتمعاتهم»⁽¹⁾.

كذلك يذكر سبب تأليف الكتاب - مناقب التلمسانيين - أنه أُلّف للسلطان "أبي زيّان محمد بن أبي همو موسى" لما كان محبا للعلم وأهله، واصطفى الفقيه "أبا يحيى بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني"، وقربه وأخذ عليه علوم الحقيقة، وأراد التعريف بمناقب هذه العائلة العلمية وتحليل شمائلها، وأن يطلع على أسانيدهم ويتعرف على سيرتهم؛ فانتدب المؤلف لكتابة مناقب وسيرة عائلة الشريف التلمساني⁽²⁾.

ومما يدل على ذلك من قول صاحب التأليف: «فابتدرت لمراده واستعنت بالله في نظمه وإيراده، وفاءا بحق نعمته ورجاء في عرفان شيخ أشياخي وبركته، فجمعت من ذلك دررا تشهد النفوس بنفاستها وغررا تذكرها بحاستها...ورصعته بفرائد من فوائد كلامه وعجائب من غرائب فتاويه وأحكامه»⁽³⁾.

تتضمن هذه الطبقة كذلك طلبة العلم، إذ يُقسّم "الحسن الوزان" جميع أهل تلمسان إلى أربع طبقات ويجعل الثالثة منهم الطلبة، "وهم أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بئيسة في مدارسهم، لكن عندما يرتقون إلى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم أستاذا أو عدلا أو اماما"⁽⁴⁾، هذا دأبهم في المجال العلمي، ويقصد بكلامه (أفقر الناس) أي أزهّد الناس وأورعهم؛ في التعفف والترفع عن ملذات الدنيا.

4. الثّجار والحرفيون والفلاحون

إنّ تزايد النّشاط الاقتصادي في تلمسان الزيّانية وتطور العلاقات الانتاجية بين الثّجار المحليون والجالية الأجنبيّة؛ أدى إلى تعاظم أهمية الأصناف الحرفية والفلاحية على حد سواء، بحيث تشكل هذه الطبقة في المجتمع شريحة أساسية منتجة، يغطون بمنتجاتهم حاجات

¹ - عبد الله الثغري التلمساني، المصدر السابق، ص 54.

² - نفسه، ص 82.

³ - نفسه، ص 83.

⁴ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 21.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

السوق المحلي، وبرع الحرفيون التلمسانيون في صناعة الدباغة والجلود والغزل والنسيج والحياكة، كما تميز التجار في عملية التصدير والاستيراد كالتبر والدَّهَب والملح.

بيد أنهم "أناسٌ منصفون مخلصون جداً وأمناء في تجارتهم، يحرصون على أن تكون مدينتهم مُزوَّدة بالمؤن على أحسن وجه، أهم أسفارهم التجارية هو الذي يقومون به إلى بلاد السودان، وهم وافرون الغنى أملاكاً ونقداً"⁽¹⁾.

ولا نبالغ إذا قلنا بأنَّ عائلة "المقري" كانت من بين أغنى العوائل ببلاد المغرب الإسلامي⁽²⁾، لأنهم كانوا أصحاب شركة تجارية كبيرة واحترافية، مفتوحة على أسواق جنوب الصحراء بالسودان الغربي، ومُصدِّرة لمختلف المنتوجات المحلية والمستوردة للتجار الأراغونيين والأندلسيين بأسواق تلمسان، وتدفقت الثروة أكثر⁽³⁾ عندما بادر "عثمان بن يغمراسن" بعقد معاهدة تجارية مع إمارة أراغون (Aragon) سنة (685هـ/1286م)⁽⁴⁾.

عبر "مارمول" عن تأثره الايجابي بالتجار التلمسانيين لطيبتهم ووفائهم لتجارتهم، إذ هم معتزون بالنظام والحضارة وحسن التدبير، مهذبون مع الأجانب، وأهم تجارتهم في غينيا حيث يحملون بضائعهم كل سنة، ويأتون منها بالتبر والعنبر والمسك، وسنور الزباد ورقيق السود وأشياء أخرى من بضائع البلد، ويتجرون بالتبادل محققين كثيراً من الربح حتى لتكفي رحلتان أو ثلاث ليستغنى التاجر، الأمر الذي يحملهم على أن يخرقوا رمال ليبيا متعرضين لأخطار عدة⁽⁵⁾.

بينما كان الصنَّاع أناسٌ أقوياء يعيشون في هناءٍ وامتعةٍ ويحبون التمتع بالحياة⁽⁶⁾، بسطاء لطفاء يعتزون بأنهم يعملون بأدبٍ ويصنعون أشياءً متقنة، يعملون هناك أقمشة وزرابي

¹ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 21.

² - ابن الخطيب، الاحاطة، ج2، ص 557.

³ - نقادي سيدي محمد، الاسهامات الفكرية للعلامة الألبى التلمساني بالحواضر المغاربية، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، 2016م، ص 30.

⁴ - Chantal de la Véronne, Yaghmurasan - premier souverain de la dynastie berbère des Abd-Al-Wadides de Tlemcen 633/1236- 681/1283, p 36.

⁵ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 300.

⁶ - الحسن الوزان، نفسه، ص 21.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

فاخرة ومعاطف صغيرة وكبيرة رفيعة جدا، حتى إنه يوجد منها ما لا يزن حتى عشرة أواق، فضلاً عن طقوم فاخرة للخيل مع ركابات جميلة، ولحم ومهاميز وأجود ما يصنع من رؤوس اللّجم في افريقيا، يعيش العمال عيشة راضية من كسبهم قوتا وتسلية⁽¹⁾.

5. فئة العوام

تُشكّل هذه الفئة أغلبية السكان وهم أبعد عن الحصر لاختلاف أصولهم، وأفرادها متساوون في أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، وهم الذين يكافحون من أجل الرزق والعيش البسيط وأهم ما يميز هذه الطبقة سرعة تأثرهم بالأزمات السياسية والاجتماعية، وتضم هذه الطبقة كل من المهمشين والكادحين وعاطلين وعبيد وغيرهم كثير، وغرضهم الوحيد هو تحسين أحوالهم المعيشية.

يصف لنا "مارمول كاربخال" سلوكات هذه الفئة على المستوى الاجتماعي، وفي نفس الحين يعقد مقارنةً بينهم سكان طنجة بالمغرب الأقصى، إذ يعتبر التلمسانيين أفضل من غيرهم في التعامل وطريقة التواصل مع الغير: "لكن ما يوجد منها - تلمسان - حسن الموقع وعيشة سكانه مشرفة، يتعاملون معاملة حسنة وفق عادات البلاد، ويتجرون كثيرا سواء في غينيا أو في نوميديا أو في غيرهما، وسكان الجبال من بربر زناتة وهوارة وصنهاجة وزواغة وكلهم شجعان، سلاحهم ولباسهم ومعاملاتهم أحسن مما عند سكان موريطانيا الطنجية"⁽²⁾، نجده يستعمل مصطلحات جغرافية للعهد القديم للمغرب، وينعت تلمسان بموريطانيا القيصرية⁽³⁾ على لسان من سبقوه وهي ثالث ممالك بلاد البربر، ويقابلها موريطانيا الطنجية في الجهة المحاذية لبحر الظلمات.

¹ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 300.

² - نفسه، ص 292.

³ - نفسه، ص 291.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

ثم يواصل "مارمول" عادات هذا المجتمع في التعامل الاقتصادي إذ يقول: «وليست لهم عداوة كبيرة ضد المسيحيين لأنهم يتجرون معهم أكثر وليسوا عنيدين ولا حقودين بقدر ما هم عليه أهل مراکش»⁽¹⁾.

إنَّ النَّظرة التي ينطلق منها الرحالة الجغرافي "مارمول" نظرة ايجابية واقعية للمجتمع التلمساني في فتراته الأخيرة، إذ تحيل إلى صور التعايش الديني والإنساني الذي أتاحه هذا المجتمع لغيرهم المسيحيين بغية توثيق العلاقة التجارية، كما أنهم لا يكونون الأحقاد والضغائن وهذا ما افتقده أهل المغرب الأقصى في مراکش، لمثل هذه الشهادات التاريخية التي وردت على لسان كاربنجال يجرنا الحديث عن طبقة أهل الذمة داخل المجتمع التلمساني.

حيث وفرت السلطة الزيانية كُلَّ الظروف المطلوبة لهم وأصبحوا جزءاً من النسيج الاجتماعي بتلمسان، وشكّلوا بذلك نموذجاً للتسامح والتعايش، بل تقلدوا مناصب عليا كمهندسين وأطباء وقواد عسكريين، وكانوا من أرباب التجارة والمهن والصنائع، مما عزز مكانة تلمسان اقتصاديا وسياسيا على مستوى البحر المتوسط.

وحتى تتضح لنا مظاهر التسامح الاسلامي مع أهل الذمة، نستشهد بما أورده "كاربنجال" في سرده قائلا: «وإنَّ كان الأتراك والأهالي يعاملونهم أحسن مما يعامل الشريف يهود فاس، ويسمحون لهم بالاشتغال أكثر مما يسمح لهم به في فاس»⁽²⁾.

كذلك من القرائن المساعدة على انصهار كافة المكونات في بوتقة واحدة وتميزها بخصائص حضارية مشتركة، هم أهل تلمسان الذين أبرزوا انطبعا إيجابيا أكثر من غيرهم "على أنهم محترمون أكثر وحديثهم أمتع"⁽³⁾.

سار على هذا الدرب السواد الأعظم من المجتمع التلمساني، وتأكدت صفاته وقيمه في رحلة "القلصادي" "والناس الفضلاء الأكياس المخصوصين بكرم الطباع والأنفاس ولا ينكر وجود الفاذ من جميع الأجناس، وادركت فيها كثيرا من العلماء والصلحاء والعباد

¹ - مارمول كاربنجال، المصدر السابق، ص 292.

² - نفسه، ص ص 298 - 299.

³ - نفسه، ص 300.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة وتجارة المتعلمين راجحة"⁽¹⁾، عرّج الرحالة الأندلسي على تجارة العلم وأخلاق أهل تلمسان في طريقة التعامل الحضاري مع غيرهم.

6. فئة العبيد وأسرى الحرب

لقد ساهمت الحروب والإغارات في إثراء الدولة الزيانية بأسرى وعبيد واستخدموا في الجيش كجنود، كما ادخرهم ملوك بني زيّان في خدمتهم بقصر المشور، فقد أفادتنا المصادر بأنهم خليط من العرب والبربر والزنوج وعلوج نصارى، شكلوا فرق مختلفة تعمل تحت الطاعة والولاء التام للسلطة الزيانية⁽²⁾؛ وهذه عادة مستحكمة في مختلف الدول لتعزيز جهازها الأمني .

تتضمن هذه الفئة كذلك الخُصيان⁽³⁾ والنساء السبايا والجواري اللواتي شكلن عنصرا هاما في الأمراء الزيّانين، وهم يتشكّلون من المسحيين والخُصيان الذين أغلبهم من الترك أو الصقالبة⁽⁴⁾، وظيفتهم خدمة الملك داخل القصر ويسهرون على الحريم⁽⁵⁾، رغم أنّ هذه الوظيفة تقلدها المزوار، وذكر "بن الصّبّاح" الأندلسي أنه التقى بعلي بلغاري اسمه أعجمي من علوج "أبي تاشفين الأول" وحدثه عن مملكة مولاه "أبي تاشفين"⁽⁶⁾، قال "بن الصّبّاح" في وصف هذا العليج: «وكان العليج المذكور مخصياً من مخاصي الجواري التي كانت إلى أبي تاشفين، واحداً بعد واحد بأسمائهم»⁽⁷⁾.

استخدم بنو زيّان الأعلاج والخُصيان داخل قصر المشور لغرض الخدمة والسهر على شؤون القصر، وعادة ما كانوا مخلصين من أجل جعلهم أكثر أماناً من موظفي الديوان الملكي، فضلا على أنهم أثروا بشكل كبير في حياة القصر لاسيما حرم الملك، وكانوا يتولون

¹ - أبو الحسن القلصادي، رحلة القلصادي، تحقيق: محمد أبو الأجنان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م، ص 95.

² - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 237.

³ - الخصي: وخصيٌّ مَجْبُوبٌ بَيْنَ الْجَبَابِ. وَالْمَجْبُوبُ: الْخَصِيُّ الَّذِي قَدْ اسْتَوْصَلَ ذَكَرَهُ وَخَصِيَاهُ وَقَدْ جُبَّ جَبًّا. ابن منظور، المصدر السابق، م 1، ص 173.

⁴ - الصقالبة: يعملون في جناح الحريم، وهي لغة الشعوب السلافية Slaves

⁵ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 22.

⁶ - ابن الصّبّاح الأندلسي، المصدر السابق، ص 55.

⁷ - نفسه، ص 55.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

مهام منزلية كحمل الأمتعة إلى الغرفة الملكية وتوضيب سرير السلطان، ونقل الرسائل الشفهية، وغالبا ما كان الأمراء الزبانيون يخصصون فئة من الأعلاج المخلصين والأوفياء، للاهتمام بأولادهم في تربيتهم ومرافقتهم والاعتناء بهم.

يذكر "ابن خلدون" في العبر أن السلطان "أبي حمو موسى الأول" كان "دفع إلى ابنه عبد الرحمان أبا تاشفين أترابا له من المعلوجين، يقومون بخدمته في مرباه ومنشئه، كان منهم: هلال المعروف بالقطلاني⁽¹⁾، ومسامح المسمى بالصغير، وفرج بن عبد الله وظافر ومهدي وعلي بن تاكرت وفرج الملقب شقورة، وكان ألصقهم وأعلقهم بنفسه تلاد له منهم يسمى هلالاً"⁽²⁾.

ثانيا: العادات الغذائية وآداب الأكل

1. أماكن الأكل وآداب المائدة

أ- المتنزّهات وأماكن الأكل:

اعتاد التلمسانيون اختيار أماكن فسيحة ومتنزّهات جميلة للترفيه النفسي والأكل فضلا عن المطبخ، وهذا ينم عن السلوكيات والتصرفات الثقافية لديهم، كذلك ينم عن الآداب والذوق العام، عند تناول الطعام والشراب بشكل حضاري، يرسخ بقوة طبيعة المعاش وانتقاله من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر الانساني⁽³⁾.

¹ ذكر ابن خلدون في العبر عن هلال بأن أصله من سبي النصارى القطلونيين، أهداه السلطان بن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن، وصار إلى السلطان أبي حمو فأعطاه إلى ولده أبي تاشفين فيما أعطاه من الموالي المعلوجين، ونشأ عنده وتربى، وكان مختصا عنده بالراحلة والدالة، وكان من الأعلاج البارزين داخل القصر الملكي الزباني. ينظر إلى: العبر، م7، ص 118.

² عبد الرحمان ابن خلدون، نفسه، ص 109.

³ يتجلى مفهوم الحضارة بمعنى شامل بأنها كل ما يميز مجتمع عن آخر من حيث العادات والتقاليد وأسلوب المعيشة والملابس والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية، ولا يمكن أن نجد هذه العادات التطبيقية إلا في مجتمع خرج من شطف العيش (البداوة) إلى الرّفه وسعة الحال (الحضارة)، وهذا التحول في منظومة القيم والعادات برز في المجتمع التلمساني وهو ما يؤكده ابن خلدون في مقدمته قائلا: «والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس، والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فلكل واحد منها صنائع في استجداته والتألق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا، وتتكرر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد، فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة، لضرورة تبعية الرّفه للملك». ينظر إلى المقدمة، ص 136.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

وهنا يظهر البعد السيكولوجي للأماكن التي يفر إليها هؤلاء بحثاً عن السعادة وراحة البال والطمأنينة، والتخلص من ضغط العمل أو المرض وصخب الحياة، إذ تترك الأماكن الطبيعية الخلابة معنى الراحة والاسترخاء، ولا يكتمل هذا الشعور إلا إذا حضر الطعام بمختلف مكوناته الغذائية من مشروبات وفواكه وطبخ.. إلخ، وعادة ما كان توجد حول هذه الأماكن ينابيع الماء، الأمر الذي سهل وشجع سكانها على استغلالها للترويح عن النفس والاستجمام⁽¹⁾.

من الأماكن المألوفة والمفضلة لدى التلمسانيين غالباً ما توجد خارج تلمسان أي في نواحيها، ومن القرائن التي تدل على ذلك ما ورد عند "الحسن الوزان" في قوله: «وفي خارج تلمسان ممتلكات هائلة فيها دور جميلة للغاية ينعم بها المدنيون بسكانها في الصيف، حيث الكروم المعروشة الممتازة تنتج أعناباً من كل لون»⁽²⁾.

ومما لا شك فيه أن ساكنة تلمسان كانت تستمتع بأوقاتها خارج تلمسان في أيام السلم، وهذا ما يشير إليه "مارمول" في وصفه: «وتحيط بالمدينة بساتين جميلة ومنتزهات يتوجه إليها أيام السلم، الميسورون من السكان ليقيموا فيها صيفاً، لأنها فضلاً عن كونها أماكن شيقة تضم عيوناً جارية بمياه باردة، أضف إلى هذا مناطق كبيرة من الحدائق وأشجار الزيتون»⁽³⁾، ومما جاء في وصف هذا المسارح الفسيحة لتلمسان في نفع الطيب ما يلي:

وَمَشَّ فِي جَنَاتِهَا وَرِيَاضِهَا وَاجْتَحَّ إِلَى ذَاكَ الْجَنَاحِ الْمُخْضَلِ
تُسَلِّيكَ فِي دَوَحَاتِهَا وَتِلَاعِهَا نَعْمُ الْبَلَابِلِ وَأَطْرَادُ الْجُدُولِ
وَبِرَبْوَةِ الْعُشَّاقِ سِلْوَةَ عَاشِقٍ فُتِنْتَ وَالْحَاظَ الْعَزْلِ الْأَكْحَلِ
وَأَعْمَدُ إِلَى الصَّفْصِيفِ يَوْمًا ثَانِيًا وَيهِ تُسَلِّ وَعَنْهُ ذُأْبًا فَاسْأَلِ
وَأَقْصِدْ يَوْمَ تَالِثِ فَوَارَةَ وَيَعَذِّبُ مَنْهَلَهَا الْمُبَارِكِ فَانْهَلِ

¹ - سيدي محمد نقادي، الخطة العمرانية، المرجع السابق، ص 182.

² - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 20.

³ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 299.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

تَجْرِي عَلَى دُرٍّ لُجَيْنًا سَائِلًا أَحْلَى وَأَعْدَبَ مِنْ رَحِيقِ سَلْسَلٍ⁽¹⁾

تميزت قلعة المشور بميزات عديدة؛ فإذا كانت سكنى للسلطان ومقر حكمه، حيث يجتمع بالوزراء ومشيوخ القبائل قصد التشاور، ويستقبل فيه الوفود كذلك، فضلا على أنه كان سجنا للرهائن، فإنه تميز كذلك بروضة خضراء لنزهة عائلة السلطان والحاشية المقربة⁽²⁾، وأفادتنا الخطة العمرانية⁽³⁾؛ في التعرف على مختلف الأماكن ومعانيها المعتادة لدى الساكنة بتلمسان في أوقات فرجتها، وهي كآآتي:

الأماكن القريبة	الأماكن البعيدة التي قد يطول السير إليها
- ماخوخ (يقال أن الكلمة مأخوذة من لفظ "مخوخ" وهو اسم شخص باللهجة الزناتية، وليس تحريفا لعبارة "ماء الخوخ").	- فج الرياح
- غرس الباي	- تزاريفت
- عين الرزقاء	- عين الفوارة
- كدية العشاق	- ساقية النصراني
- الحرطون	- البعل
- زواغة	- الوريط
	- تاحيمت

ويصف "كاربخال" كذلك بطحاء تلمسان ما بين البحر والمدينة بأنها أرض شاسعة مَحَلَّة غنية بالقمح والمراعي تنتج فواكه كثيرة⁽⁴⁾، بمعنى أنها كانت ملاذا للراحة والاستجمام، وهي "لذيذة الهواء عذبة الماء كريمة المنبت"⁽⁵⁾، ويقول "بن الصَّبَّاح": «فيها الماء البارد والهواء المعتدل، كُلُّما تصف من أوصافها قليل»⁽⁶⁾، الغالب على الظن أن الماء البارد⁽⁷⁾ والهواء

¹ - المقرئ، نفع الطيب، م9، المصدر السابق، ص 347.

² - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 40.

³ - نفسه، ص 182.

⁴ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 291.

⁵ - المقرئ، نفسه، ص 354.

⁶ - ابن الصَّبَّاح الأندلسي، المصدر السابق، ص 57.

⁷ - كان بتلمسان عين ماء من أعذب المياه وأخفها، وكانت جارية بالقصور السلطانية، أطلق عليها لقب (حبيبة أم يحيى)، وكانت من بين العيون الرقاقة التي اعتادها الزبانيون في بعض اجتماعاتهم للاستمتاع بأجوائها العليلة، ذكرها لسان الدين بن الخطيب في مدح تلمسان قائلا:

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

المعتدل، هو دليل على توفر أماكن راحة نفسية يجنح إليها التلمسانيون في أوقات الفراغ، للترويح والاستمتاع، وهو ما يصفه "بن الحاج النميري" في قوله عن المخدر الماء: «والمخدر إلى جنات الصنصيف التي هي بهجة القلوب ونزهة العيون»⁽¹⁾، أوصاف تدل على طقوس الفرجة والتعبير على الفرح والمتعة.

يبدو أن تلمسان كانت تحتوي على مرافق أخرى لم تصفها لنا المصادر، مثل الصّهرج التلمساني؛ الذي كانت تحيط به الأراضي المزروعة، وكان بمثابة زينة للمدينة الملكية ومكانا للنزهة والتسلية بالرياضة المائية⁽²⁾، وكان يستقطب الأثرياء في تنزهاتهم وكذلك الطبقة البسيطة⁽³⁾ من المجتمع، شيده "أبو تاشفين الأول" وجعله متنزها للمذاته الدنيوية⁽⁴⁾، وإن وجدت به مراكب فهي للألعاب وللفسحة فوق الماء⁽⁵⁾.

كذلك من الأماكن التي كان يكثر فيها اجتماع الناس المصليات والمساجد، وكانوا يحضرون الطعام ليأكله الفقراء والمساكين بنية الصدقة، شريطة أن لا يتأذى أهل المسجد ولا يتلوث، ويروي "يحيى بن خلدون" قصته مع أحد الصالحين في خروجه إلى المصلى وتناولهما الطعام⁽⁶⁾، في آداب وتواضع وفق ما تقتضيه الشريعة الإسلامية في ذلك.

ب - آداب المائدة:

اعتاد أهل تلمسان على آداب معينة قبل بدئ عملية الأكل وهي متعلقة بالمائدة، منها غسل اليدين وتنظيفهما من كل أنواع الجراثيم العالقة بهما، ثم التسمية قبل الطعام والحمد والشكر على نعمة الطعام بعد الأكل، كما كان معتادا الجلوس على الأرض لتناول

وَرَدَ النَّسِيمُ لَهَا بِنَشْرِ حَدِيقَةٍ قَدْ أَزْهَرَتْ أَفْنَانُهَا بِفَنُونٍ
وَإِذَا حَبِيبَةٌ أُمُّ يَحْيَى أَنْجَبَتْ فَلَهَا الشَّفُوفُ عَلَى عَيْونِ الْعَيْنِ. ينظر إلى المقرئ، المصدر السابق، ص 350.

¹ - ابن الحاج النميري، فيض العباب وإضافة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد، محمد بن شقرون، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2015م، ص 546.

² - عطاء الله دهينة، المرجع السابق، ص 372.

³ - نفسه، ص 372.

⁴ - التنسي، المصدر السابق، ص 140.

⁵ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 185.

⁶ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 166.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

وجبات الأكل بصفة مرتبة ومنظمة، ثم يباشر المجتمعون على المائدة الطعام باليد اليمنى كما ورد في العرف الاسلامي والسنة النبوية.

بينما كان من عادة العامة وخاصة الزهاد منهم، نهش اللحم، ولعق الدهن من الأصابع، أو الإكثار من الملح، أو شرب الحساء عن طريق رفع الإناء إلى الفم، لم تكن الشوكة قد عُرِفَتْ بعدُ، إلا أنّ استخدام الملاعق كان مُحِبِّياً لدى الخاصة وكانت الملاعق والأواني تصنع من الخشب والنحاس والزجاج، كما كانت باقي تصنع من نفس المعادن تصنع أحياناً من الذهب أو الفضة، إذ بقي المجتمع إلى ما بعد الدخول الفرنسي يستعمل ملاعق من خشب الطاقة أو العرعار، وبذلك يكون محافظاً على عاداته الممتدة من عهد بني زيّان.

2. المشاركة في الطعام

تُعد المشاركة في الطعام عادة متوارثة في المجتمع التلمساني الزيّاني، فقد ساهمت هذه العادة في التطور الاجتماعي وترابط أفراد الأسرة الواحدة بمجرد الاجتماع على الطعام؛ وتتجلى مظاهر المشاركة في التبسط والابتعاد عن الجو الرسمي الذي ساد في الكثير من جلسات الآباء مع أبنائهم، ولا ريب أن العائلة في تلمسان كانت تجتمع على مائدة واحدة وكان الأب هو من يتولى توزيع اللحم على أفراد عائلته وهو متبسط على سجيته وطبيعته.

فمن العيب أن يمد الولد الصغير يده إلى اللحم، كذلك من مظاهر المشاركة في الطعام أن يكتشف الآباء شخصية أبنائهم، فالطعام فرصة لتبادل الأولاد والبنات الحديث مع آبائهم وتلقي التعليمات والنصائح منهم والذين يعتبرونهم قدوة ومثلاً راقياً لهم، ومن كثرة الممارسة والتعود على الاجتماع يتم تأديب النشء على سلوكيات ذات أبعاد دينية محضّة، كالأكل باليمين والسكوت أثناء الأكل، والأكل من المكان الذي يليهم.

فكان الحرص على إحياء السنة النبوية وتطبيقها وحث الجميع عليها حتى ينالون البركة من المشاركة في الطعام، ومن السنة ما يوثق ما ذكرنا آنفاً فعن "عمر بن أبي سلمة"

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

يقول: كنت غلاما في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصَّحْفَةَ⁽¹⁾ فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك، فما زالت تلك طعمتي بعد»⁽²⁾.

يفيدنا هذا الحديث على آداب الأكل والمشاركة في الطعام، لاسيما تربية النشء عليها إلى أن أصبحت عادة مقتبسة من السنة يثاب من فعلها، وورد كذلك عن النبي ﷺ أنه قال: «فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه»⁽³⁾، ويدلنا هذا الحديث على مدى بركة الاجتماع على الطعام وذكر اسم الله.

وهذا ما اعتاده المجتمع التلمساني كغيره من المجتمعات الاسلامية في الامتثال لأحاديث النبي ﷺ، لما فيها من عادات تضبط سلوك الأفراد في الأكل وغير ذلك، ويذكر "بن مرزوق" كذلك عن جده في المناقب "أنَّ العادة جارية في اخراج زكاة الزرع كل موسم حصاد للضعفاء والمحتاجين الذين يحضرون، حتى إذا فرغ من اعطائهم وصرف الناس يأمر بحمل ما بقي لداره فيأكل منه عياله"⁽⁴⁾.

ومما أفادتنا به كتب المناقب في هذا الصدد؛ ما ورد في ديباجة الافتخار "للمازوني" حينما يتكلم عن عادة المشاركة في الطعام للفقراء والمساكين، فضلا عن مواساتهم ومشاطرتهم الأكل، وأرشدت "السنة في هذا الأكل معهم وتأنيسهم بالحديث وتقريب الطعام إليهم بنفسه، وهو أقرب للتواضع، أو يتقدم له إن جاءهم به ولده أو خديمه، ويبدأ بالأكل إن كان هو رب المنزل أو ممن يقتدى به في ديانة أو علم"⁽⁵⁾.

كما يشير من موضع آخر استنادا لما ذكره بعض الأئمة في قوله: «ومن آداب المجتمعين للطعام أن لا يتدئ أحد بوضع يديه في القصعة وهنالك من هو أكبر منه أو أصلح أو أعلم،

¹ - الصَّحْفَةَ: هي قصعة كبيرة وجوفية يقدم فيها الطعام.

² - أبو عبد الله محمد ابن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ط1، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، 2002م، ص 1370.

³ - أبو داود سليمان ابن الأشعث، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قربللي، ج5، دار الرسالة العالمية، دمشق، سوريا، 2009م، ص 588.

⁴ - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 160.

⁵ - أبو عمران موسى بن عيسى المازوني، ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، تحقيق: عبد القادر بوباية، ط1، الرشد للطباعة والنشر، سيدي بلعباس، الجزائر، 2017م، ص ص 238-239.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

وأن لا يسكتوا على الطعام.. وآداب الأكل كثيرة جدا فلتؤخذ من الأمهات»⁽¹⁾ وليس من السنة التكلّف للضيف، لكن من مكارم الأخلاق أن ينزل الناس منازلهم⁽²⁾.

تكمّن البركة في الطعام؛ في مدى تحسين العلاقات الاجتماعية سواء كانت أسرية أو أخوية ونحوهما، فضلا عن ظهور أثرها في الجسد، بالإضافة إلى ما يترتب عن ذلك من تقابل الجميع على الطعام؛ وإكرام للضيوف والتبسط للفقراء والمحتاجين أثناء الأكل، وعلى هذا الدرب سار أهل تلمسان بمختلف طبقاتهم.

3. أنواع الطعام

تنوعت المنظومة الغذائية⁽³⁾ في تلمسان الزيانية على حسب العادات والتقاليد السائدة فيها، وكذا البيئة المنتجة للمواد المستهلكة من خضر وفواكه ومطابخ، وبعض المواد المستوردة لاسيما من الأندلس، وفي اعتقادنا أن هذه المنظومة تميزت بالبساطة وعدم التعقيد، وتلمسان احتوت على فواكه جمّة، "وشجر الجوز كثير بها، وفيها المشمش المقارب لحسنه مشمش دمشق"⁽⁴⁾.

أ- أخباز ولحوم: كان أهل تلمسان يتأدّمون باللّحوم بمختلف أنواعها مع مزجها بشيء من الخبز، يقول "بن مرزوق" في المناقب عن أبيه: «كان رحمه الله يصوم كثيرا ويفطر في النادر، وكان أكثر أكله ثريدا من الخبز الخمير بإيدام خفيف من سمن أو شحم، ويتأدم باللّحم أحيانا.. وكان يأكل الخضر ويأكل من اليابسة التمر والزبيب والتين، والسّمّن الذي يأكله إمّا من بقراتٍ عنده أو من عند رجل صالح.. وكذلك اللّحم والأضحية»⁽⁵⁾.

¹ - أبو عمران المازوني، المصدر السابق، ص 239.

² - نفسه، ص 240.

³ - يقصد بالنظام الغذائي جنس الأطعمة والأشربة، والمؤسسات والعلائق والتراتب الاجتماعي، والسلوك والممارسات، والعوائد والأعراف والتصورات، والمواقف والقيم والرموز، والتدبير الزمني والجغرافي والكمي والنوعي للموائد والأطباق. ينظر إلى سعيد بنحمادة، الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط مدخل لدراسة العوائد والقيم منشورات الزمن، الرباط، المغرب، 2016م، ص 1.

⁴ - ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص 195.

⁵ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 222-223.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

يعطينا صورة صادقة عن عادات غذائية وأنواع الطعام المتوفر والمفضل لديهم بتلمسان، حيث يكون الفطور خليطا من أنواع اللحوم والأخباز، من ذلك السمن والشحم واللحم سواء كان من الأضحية أو من غيرها مما أجاز الشرع أكلها كالأبقار والغنم والضأن والأسماك، كما "كان قوته الشعير واللحم ويتصدق بالباقي"¹؛ وفي العادة كان الشعير يُدرس في مهراس كبير، من عود أو من حجر حتى يزول عنه قشره ويغربل ويطحن جشيشا، ثم يغربل الجشيش وتستخرج نخالته ودقيقه² ليتأدم به مع اللحم على شكل خبز معجون في الفرن.

يشكل الخبز مادة غذائية رئيسية لا محيد عنها عند أهل تلمسان، فمنه ما يكون مختمرا أو معجونا ويصنع من الشعير والذرة⁽³⁾، وكان أهل تلمسان من الطبقة المتوسطة فما دونها من المتصوفة والفقراء يجزونه فطيرا رقيقا ويتناولونه في سفرهم، ويجعلونه في العادة غداء يتأدمون به الثريد وغيره، كما جاء في المناقب عن والد "بن مرزوق": «كان رحمه الله تعالى كما قدمناه كثيرا ما يؤثر الثريد من الخبز المختمر، وكانت تجعل له قصعة قدر ما يكفي الواحد الأكل، فرأيت غير مرة الأربعة والخمسة يجتمعون عليها فتكفيهم، فإذا رأني تتأمل هذا يقول: يا بني! أما علمت أن الثريد معلوم البركة»⁽⁴⁾.

لا شك أن الطعام له أثر ديني على حياة الإنسان، ويظهر ذلك في الالتزام بهدي السنة في الاجتماع على الطعام وآداب الأكل، التي تفضي إلى البركة طبقا لقوله ﷺ في قوله: «طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية»⁽⁵⁾.

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 185.

² - ابن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طبقات الطعام والألوان، تحقيق: محمد بن شقرون، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1984م، ص ص 61-62.

³ - ابراهيم الحيسن، الأطعمة والأشربة في الصحراء - أنثروبولوجيا الطبخ وآداب المائدة عند البيضان -، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2014م، ص 137.

⁴ - ابن مرزوق، نفسه، ص 236.

⁵ - صحيح مسلم، المصدر السابق، ص 990. الحديث رقم 2059.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

كما أفادنا به "ابن مرزوق" في المناقب؛ أنه أسهب اسهابا كبيرا في ذكر مناقب جده وأبيه ورحلاته هو إلى مختلف البقاع الاسلامية، وتخلل هذا الاسهاب ذكر العادات الغذائية وأنواع الطعام الذي كان الفقراء يجعلونه قوتا يوميا، إلا في النادر يتناولون الثريد واللحم كلما سنحت الفرصة، ولا أدل على ذلك ما ورد في مؤلفه عن جده: «أخبرني والدي رحمه الله أن غالب فطره؛ كان على قشرة خبزٍ وثلاث بيضاتٍ مدفئات على النار، يجعل فيها يسير ملح، ويتأدم بها.. وربما جعل له بعض أحيان بالقشرة التي كان يأكلها ثريد يسير، وكان يأكل اللحم أحيانا»⁽¹⁾.

وفي نفس السياق يشير صاحب ديباجة الافتخار اشارة واضحة لأنواع الطعام عند الفقراء، لكنه يستنكر بعض العادات السيئة التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، إذ يقول: «وبعد هذه المعاتبات التفت الشيخ رضي الله عنه لأخيه يحيى، وأشار إليه بالإيماء أن يأتيهم بطعام، فأشار إليه أنهم مشغولون به، فما كان إلا قليلا وإذا به قرب لهم طعاما كثيرا بلحم سمين، فرمق الشيخ عند ذلك أخاه وتأوه ثم قال: هكذا يا يحيى يأتيني بالأمس الفقراء لزيارتي من شقة بعيدة وتطعمهم خبز الشعير والتين»⁽²⁾.

تجدر الاشارة في هذه القصة إلى معاتبه الشيخ "سيدي واضح" لأخيه "يحيى"، عندما تكلف على نفسه وقدم فاره الطعام للسلطان "يغمراسن بن زيّان" أثناء زيارته للشيخ، بينما يُقدّم للفقراء خُبز الشعير والطعام، وبالتالي نفهم من ذلك شيئين رئيسيين:

• أنواع الطعام المقدمة للسلطان والفقراء؛ أما الأولى كما ورد "طعاماً كثيراً بلحم سمين"، ومن المحتمل أن يكون هذا الطعام يحتوي على مختلف ألوانه من أخباز طرية ولينة وثريد مطبوخ، بالاضافة إلى اللحوم المشوية أو المقلية أو المدقوقة ونحو ذلك مما يليق بمقام السلطان؛ بينما طعام الفقراء هو خبز من شعير والتين، فنوعيته تحتوي على مادتين لا أكثر مقارنة بطعام الملوك.

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 159.

² - أبو عمران المازوني، المصدر السابق، ص 140.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

• ثانيهما: عدم الرضا من طرف الشيخ على أخيه الذي ميز بين الطبقتين، وهذه عادة منبوذة بالنسبة للشيخ، لأن نفسيته لها بعد روحي تصوفي؛ إذ لا فضل ولا محابة لأحد على الآخر، وإنما فعل أخيه هذا السلوك من أجل قضاء حاجته عند السلطان بدليل ما قاله الشيخ له: «لكنك معذور تحتاج لما بيد يغمراسن»⁽¹⁾.

والملاحظ في أنواع الأطعمة التي يتناولها المتصوفة والزهاد والصالحين تتميز بالبساطة وعدم التعقيد، وهذا أسلوب حياة آثرته هذه الفئة من المجتمع الزياني، إذ لا غرابة أنهم يعتمدون على فكرة الزهد في التعفف والتدريب الصارم في التربية الروحية، وأحيانا تحمل النفس على الجوع ولا تصيب من الطعام إلا ما يتبلغ به، وهذا شأن الولي الصالح المذكور أنفا "سيدي واضح"⁽²⁾.

فقد كان "يقتات ببقول الفحوص ومباحات الأرض"⁽³⁾، أي يتقوت من مختلف ألوان الطعام الذي تنتجه الأرض المباحة من خضروات ونباتات، فضلا عن اقتنائها من صاحب البقول، وانتهت حال هذا الشيخ الزاهد مرة إلى أنه كان لا يفطر إلا على رأس أربعين يوما بشيء من الخُبْيز⁽⁴⁾ وحب الجودر، وهاذان اللونان من الطعام من النبات الذي ينشأ في البراري أو في البادية، كما أنه رفض أن يطعم من المألوفات كاللحوم وغيرها مما اعتاده الناس، وانتقل لأكل الحلزون⁽⁵⁾.

ب- فواكه وبقوليات: احتوت مائدة المجتمع التلمساني على ألوان شتى من البقوليات والفاكهة التي كانت متوفرة بكثرة عندهم، وذلك أن مدينة تلمسان أرض شاسعة محلة.. غنية

¹ - أبو عمران المازوني، المصدر السابق، ص 140.

² - الشيخ سيدي واضح: هو أبو البيان واضح بن عاصم المكناسي، كان حيا أواسط المائة السابعة للهجرة، دفين خنق واد ارهيو، من الأولياء المعروفين بالزهد والإيثار، حيث كان أمراء الوقت وجباة الأموال يهابونه ويحترمون أصحابه ويخشون تغير خاطره عليهم، أشار على يغمراسن بن زيان بنقل ولاية العهد من ابنه عمر وإسنادها إلى ابنه عثمان، وامثل ذلك. ينظر إلى: المازوني في ديباجة الافتخار، المصدر السابق، ص 101. وفي المناقب لابن مرزوق، ص 288.

³ - أبو عمران المازوني، نفسه، ص 102.

⁴ - الخُبْيز: هو نوع من الأكلات النباتية الصحية المنتشرة في بلاد المغرب الأوسط.

⁵ - أبو عمران المازوني، نفسه، ص 105.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

بالقمح والمراعي تنتج فواكه كثيرة⁽¹⁾، ولحومها شحيمة⁽²⁾، أضف إلى هذا؛ مناطق كبيرة من الحدائق وأشجار الزيتون، تستخرج منها كميات من الزيت واللوز وجميع أنواع الفواكه، مثل هو الحال في أوروبا، وكروم كبيرة تحمل عنباً حلواً لذيد الطعم جداً، يجفف في الشمس ويحفظ السنة كلها، وتوجد على بعد فرسخ من المدينة عدة طاحونات للحبوب على ضفة النهر⁽³⁾.

تعد الفاكهة من الأطعمة المتكاملة صحياً؛ وتتميز بمذاق حلو أو حامض الطعم ومكتنزة بالمياه، إذ عرفت تلمسان تنوع مختلف للفواكه الموسمية التي إذا حضر وقت قطافها استمتع بها أهلها على العادة، لكثرة حلاوتها ثم أنها غنية بالمواد الصحية للجسم، من بينها التفاح والإجاصة وهي الكمثري⁽⁴⁾، والرمان والسفرجل والبأكور والتين وشجرة العناب التي هي معروفة بالعباد، وهي مشتهرة بالزفيفة⁽⁵⁾.

اشتهرت تلمسان بتحف بخارجها الخمائل الألفاف والأدواح الأشبة والحدائق الغلب، بما تشتهيه الأنفوس وتلذ الأعين من الفواكه والرمان والتين والزيتون⁽⁶⁾، هذا الوصف يدلنا على مدى التنوع النباتي حتى أصبح من المعالم الرئيسية لزوار المدينة والوافدين عليها من كل حذبٍ وصوبٍ.

ويتجلى ذلك في شهادة موثقة عند "الحسن الوزان" قائلاً: «حيث الكروم المعروشة الممتازة تنتج أعناباً من كل لون، طيبة المذاق جداً وأنواع الكرز التي لم أرى لها مثيلاً في جهة

¹ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 291.

² - المقريري، جنى الأزهار من الروض المعطار، تحقيق: محمد زينهم، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر، 2006م، ص 63.

³ - نفسه، ص 299.

⁴ - يحدد لنا العقباني في مؤلفه أن هذه الثمرة كانت حاضرة في موائد التلمسانيين لاسيما أنهم كانوا يحضرونها للمريض عندما يعودونه في المشفى أو في بيته، وكان ذلك من عاداتهم وواجباتهم الدينية والانسانية، بالإضافة إلى أنه يقطع الشك في المعنى الاصطلاحي لثمرة الكمثري الذي جاء في سياق حديثه مع جده وهو يزوره في مرضه، حين قال: "أنه مرض مرضاً ثقيلاً فأشرت عليه بأكل الكمثري، الذي هو في اصطلاحنا الاجاص وليس هو في اصطلاح الفقهاء مع الأطباء؛ وإنما اصطلاحهم في الاجاص (العَبْقَرُ) الذي نسميه في عرفنا بالبرقوق". ينظر إلى: العقباني، المصدر السابق، ص 91.

⁵ - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 167.

⁶ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 122.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

أخرى، والتين الشديد الحلاوة، وهو أسود غليظ طويل جدا يجفف ليؤكل في الشتاء، والخوخ والجوز واللوز والبطيخ والخيار وغيرها من الفواكه المختلفة، وعلى بعد نحو ثلاثة أميال شرق المدينة ترى عدة أرحية لطحن القمح على نهر يدعى سفسف⁽¹⁾، وترى أخرى قرب المدينة على منحدرات رأس القلعة إلى جهة الجنوب⁽²⁾.

وكانت تلمسان مدينة مثمرة بكل أنواع الفاكهة طيبة المذاق والطعم، ومن كثرة إنتاجها هذا بالغ المؤرخون في وصفها لما احتوته من "تحف بخارجها الحمائل الألفاف والأدواح الأشبة والحداق الغلب، بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من الفواكه والرمان والتين والزيتون"⁽³⁾.

ج- أطباق تقليدية: ورد في المضان التاريخية وجبات تقليدية تلمسانية تحتوي على مكونات غذائية مختلفة، ذات طابع نباتي وحيواني ولها ذوق مميز، ومن كثرة استعمالها في حياتهم اليومية أصبحت ملاذا تقليديا يصطحبونه حتى في سفرهم لاسيما الحج. ومن هنا يمكننا القول بأن الأطباق التقليدية التلمسانية ساهمت بشكل أو بآخر بنشر ثقافة المطبخ وعادات الغذاء في البلاد الشرقية، ومن بين هذه الأطباق نذكر ما يلي:

➤ **البركوكش:** (الكسكسي) وهو طعام مصنوع من السميد المطبوخ بالبُخار والمستقي فيما بعد بالحليب أو المرق⁽⁴⁾، ذكره "بن مرزوق" عن جده فقال: «وربما يجعل له، في أيام فطره، يسيرا من الطعام الذي يعرف بالبركوكش وهو المعروف بالفتلة عند المشاركة، بيسير زبد أو سمن فيأخذ منه ثلاث لقم»⁽⁵⁾، ولقد ورد صنعة هذا الطعام في فضالة الخوان أنه: «يؤخذ السميد الرطب فيوضع في المعجنة ويرش بماء قد حل فيه قليل ملح ويحرك بأطراف الأصابع

¹ - سفسف: نهر صغير بشمال شرق تلمسان، يصب في نهر سكاك يعرف الآن بـ : الصنصيف وأصل اللفظ زناتي اسطيفيسف (النهر الأسود).

² - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 20.

³ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 122.

⁴ - روبر بارونشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ج2، ترجمة: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1988م، ص 283.

⁵ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 159.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

حتى يلتئم بعضه ببعض، ثم يحك بين الكفين برفق حتى يصير مثل رؤوس النمل، ثم ينفض بغيربال خفيف حتى يذهب عنه ما بقي من الدقيق ويترك مروحا مغطى»⁽¹⁾.

وتأتي أكلة الكُسْكُسي في مقدمة المأكولات؛ لأنها من الوجبات الرئيسية والمعروفة التي لا تغيب عن المائدة، فالطبقة الفقيرة كانت تستعمل هذا النوع يوميا كوجبة للغذاء والعشاء، وفي بعض الحالات يكون مصنوع من الشعير مثل الخبز⁽²⁾، وهو ما اعتاد عليه الشيخ "سيدي أحمد بن محمد بن عثمان بن يعقوب الورنيدي"، الذي قال عنه "بن مريم": «كان يأكل خبز الشعير بالإيدام»⁽³⁾.

يشير "الحسن الوزان" إلى أن هذه العادة في الطعام كانت مرغوب فيها أكثر في الشتاء، حيث يطبخ اللحم مع طعام الكُسْكُسي، ويصنع هذا الطعام "من دقيق مبلل يُحوّل إلى حبيبات في حجم حبات الكزبرة، تنضج في قدر ذات ثقوب"⁽⁴⁾ تسمح بطلوع البخار من قدر أخرى، ثم يخلط هذا الدقيق المتبخر بعد نضجه بالسمن ثم يسقى بالمرق"⁽⁵⁾.

➤ الفداوش: أو(الدّويدة) أو(الأطرية) يختلف المصطلح كلما من بلد إلى آخر كما ورد في المناقب عند "بن مرزوق": «كنا قد عزمنا إلى التوجه للحج من تلمسان سنة ثلاث وثلاثين، فاستعدنا ما جرت العادة لنا باستعداده للسفر، وكان من جملة ما استعد طعام يسميه أهل المغرب: الفداوش وبعض أهل إفريقية: الدوادذ وهو على شكله وأهل الديار المصرية: الأطرية، وحملنا منه شيء كثير لكونه صالح للسفر خفيف المؤونة»⁽⁶⁾.

وأفادنا "ابن رزين" في طريقة طبخ هذه الوجبة، أنها "تعجن مقدار ربع رطل من السميد بماء وملح عجنا قويا ويعرك عركا محكما، ثم يوضع في إناء مغطى ويفتل بين الأصابع قليلا قليلا في طول حبة القمح، وتكون كل حبة منه رقيقة الجسم وطرفاها أرق من وسطها،

¹ - ابن رزين، المصدر السابق، ص 87.

² - مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، ج3، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م، ص 113.

³ - ابن مريم، المصدر السابق، ص 16.

⁴ - يعرف بالكسكاس.

⁵ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 253.

⁶ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 198.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

ويوضع كل ما يفتل منه في طبق بين اليد فإذا فرغ العجين بالعمل يُيسر للشمس وعجن عجين آخر وصنع به مثل ذاك حتى يكمل منه القدر الذي يحتاج، فإذا احتيج إلى طبخه أخذ من أطايب اللحم الغنمي السمين مثل الصدر والأجانب والأذنان وغيرها، وقطع قطعاً وسطاً ونظف ووضع في قدر كبيرة بماء كثير وملح وزيت وفلفل وكزبرة وقليل من بصل مقطوع وتحمل القدر على النار، فإذا نضج اللحم يخرج من القدر ويوضع مغطى في مبرد وتصفى المرقعة وينظف القدر وتعاد المرقعة فيها، فإن كفت تطبخ الفداوش وإلا زيد فيها الماء، فإذا غلت وضع فيها الفداوش برفق ووضع على نار معتدلة حتى يستوفي حقه من الطبخ، وتوضع في أثناء ذلك قديرة صغيرة على فم القدر مملوءة بالماء الساخن على بجاتها، فإن جف ماء الفداوش زيد فيه من ماء القديرة يسير، فإذا نضج الفداوش يوضع فيه وهو في قدره زبد طري أو سمن ويترك ليغلي فيه ساعة ويحرك بذبب المغرفة احتياطاً عليه من الفساد، ويقلى في أثناء ذلك اللحم في طاجن بزبد أو بسمن حتى يحمر، فإذا انتهى الفداوش من الطبخ فرغ في مبرد وسوى عليه اللحم وذرى عليه قرقة وزنجبيل ويؤكل⁽¹⁾.

كما يحيل مصطلح الدّويدة إلى شكل العجائن الشبيهة بالدود الصغير، إنّها إذن صغيرة مستطيلة رقيقة تصنع من عجينة فطير⁽²⁾؛ والدّويدة هذه لون من ألوان الفداوش الذي أورده برونشفيك في كتابه: "وهو طعام مصنوع من فتائل العجين ولحم الدجاج كان يتناولها الناس يوم عاشوراء"⁽³⁾، أما الأطرية فتطبخ على نحو ما تقدّم بما يقع عليه الاختيار من أنواع اللحم ويزداد فيها الشحم⁽⁴⁾، وكانت هذه الأكلة رائجة ببلاد الغرب الإسلامي لاسيما لاسيما في تلمسان.

➤ **المحمصة:** هي من الوجبات التقليدية السريعة التي كانت حاضرة في موائل التلمسانيين وتصحبهم في أسفارهم، يقول "بن مرزوق" في المناقب: «وجعل في غرارتين من نوع آخر

¹ - ابن رزين التجيبي، المصدر السابق، ص 90.

² - سهام الدبابي الميساوي، مائدة لإريقية دراسة في ألوان الطعام، ط1، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، تونس 2017م، ص 167.

³ - روبر بارونشفيك، المرجع السابق، ص 284.

⁴ - ابن رزين، نفسه، ص 91.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

يسمى الحمصة⁽¹⁾، إذ يعطينا "بن رزين" المقادير لإعدادها وهي صنعته: "يعجن السميد على نحو ما عجن الفداوش ويفتل بالأصابع مدورا على مثل حب الفلفل ويجفف للشمس، ويطبخ مثل طبخ الفداوش سواء باللحم البقري أو الغنمي أو الدجاج ويستعمل، وقد يفتل جملة في المعجنة"⁽²⁾.

➤ المشهدة: وهي من الفطائر المشهورة في تلمسان الزيانية، أشار إليها "يحيى بن خلدون" في ترجمة سيدي الحلوي أن أمه صنعت له مشهدة في عيد الفطر، ودعا إليها الشيخ ليفطر معه فيها وهي من آداب الأكل وحسن الضيافة، فيقول: «فلما جاء الفطر ابتعت سميدا وعسلا وقلت لعمتي: اصنعي لي مشهدة يطرها عندي رجل من الصالحين. ففعلت والتمسته في الناس بعد صلاة العيد فلم أجده، فحوقلت وقلت في نفسي: اللهم بحقه اجمع بيني وبينه في هذه الساعة فاذا هو عن يميني فانظم إلي وقال: صنعت عمتك المشهدة؟ فقلت: نعم. فقال: قم بنا إلى ناحية نأكل هذه المشهدة الحاضرة، وحينئذ نمشي إلى دار عمك، فقامت معه إلى خارج الشريعة - المصلى - فأخرج من تحته صحيفة مغطاة بمنديل نظيف وكشطة فإذا مشهدة لم ير مثلها الراؤون إحكام طبخ وجودة صنعة وكثرة إدام، فأكلنا وتوجهنا إلى الدار فأحضرت عمتي مشهدتها فلم تشبه الأولى في شيء فأكلنا منها شيئا⁽³⁾، يبدو أن هذه الحلوى صنعة تلمسانية محضة لم تكن منتشرة في بلاد المغرب.

➤ المجبنة: هي من المأكولات الأندلسية الداخلة على المجتمع المغربي بصفة عامة والمجتمع التلمساني بصفة خاصة، وهذا الطبق كان حكرا على الملوك والسلاطين وأضرابهم كما ورد في رحلة "بن خليل"⁽⁴⁾.

لاسيما وأن هذا الطبق التقليدي من صنعة أهل الأندلس الوافدون إلى بلاد المغرب، يقول "ابن خليل": «ثم هياؤا من جملة هذه الضيافة مأكولا يقال له المجبنة من مأكيل الأندلس

¹ - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 198.

² - ابن رزين، نفسه، ص 91.

³ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 166.

⁴ - عبد الباسط ابن خليل، المصدر السابق، ص 21.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

وصفته جبن، طري يُدَعَك بالأيدي حتى يصير كالعجين ثم يعجن السميد عجنا محكما مملوكا جيدا حتى يصير في قوام عجين الزلابية بهذه البلاد أو أغلظ قواما منه بيسير، ثم يؤخذ من قطعة تبسط بالكف بلطافة وشباقة، ثم يجعل عليها قطعة من الجبن المدعوك ويجمع حتى يصير يصير الجبن حشوا لها، ثم يبسط قليلا ثم يلقي في الطاجن وهو على النار بالدهن ثم يقلى ثم يرفع ويرش عليه السكر المدقوق ناعما ومعه اليسير من الكمون⁽¹⁾.

ثالثا: تقاليد اللباس

1. لباس القادة والملوك

تكمن أهمية اللباس في كونه واحد من أبرز التعابير الثقافية أو الحضارية، فهو مقوم من مقومات شخصية الفرد ورمز من رموز انتمائه وهويته الجماعية⁽²⁾؛ ودراسة الملابس من ناحيتي الزمان والمكان تمثل مصدرا أثريا أصيلا يميظ اللثام عن جوانب اجتماعية وثقافية مفيدة، من بينها على سبيل المثال لا الحصر: تطور الذوق الاجتماعي، والأصناف والميول الفردية، وكذا الفروق الاجتماعية والمادية في المجتمع في جده وهزله، في فترات ازدهاره وذبوله واضمحلاله، هذا فضلا على أن الملابس نفسها ترتبط ارتباطا وثيقا بالعادات والتقاليد، التي تحدد لنا طريقة ارتدائها وتنوع ألوانها واختلافها⁽³⁾.

حيث جرى العرف في لباس القادة والملوك وكبار القوم الأبهة والتأنق في اللباس، والتطيب والتجمل بالحسن من الثياب، فإن ذلك مما يزيد مهابة وجمالا في أعين الناس⁽⁴⁾، وهذا ما يميز طبقات المجتمع عن بعضها، إذ تلبس هذه الفئة أكثر من لباس؛ فهناك لباس الملك والبلاط ولباس الحرب وغيرها، وهو لباس فضفاض يتلائم مع الظروف المناخية

¹ - عبد الباسط ابن خليل، المصدر السابق، ص 21.

² - صابر سويسبي، رمزية اللباس في التجربة الصوفية، مؤمنون بلا حدود مؤسسة دراسات وأبحاث، الرباط، المغرب، 2013م، ص 01.

³ - صالح يوسف بن قربة، مقدمة لدراسة الملابس المغربية - الأندلسية في العصر الإسلامي من خلال المصادر التاريخية والأثرية، مجلة تاريخ المغرب العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، العدد 14، الرباط، المغرب، 2000م، ص 02.

⁴ - أبو هو موسى، المصدر السابق، ص 77.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

والبيئة المتقلبة بتلمسان، "ولباس التلمسانيين أكثر أناقة مما هو عليه الحال بفاس، وهو من نسيج الصوف والكتان والحرير"⁽¹⁾.

يفاضل "مارمول" بين المجتمع التلمساني والفاسي في طريقة اللباس وجودة النسيج؛ لكن الباحث في هذا المجال يقف حائرا أمام لباس مختلف الطبقات في المجتمع الزياني، والسبب في ذلك ندرة الاشارات في المصادر التي من شأنها رسم صورة واضحة عن ارتداء الزي بمختلف أشكاله، لذلك سنعتمد على بعض التنف الواردة هنا وهناك.

كان الملك الزياني يرتدي لباسا جميل لائق⁽²⁾، متميز عن لباس الرعية فهو يرتدي إشارة الملك⁽³⁾ والسلطان ومذاهب الدول التي يجب "أن تُرسمَ أسماءُهم أو علاماتُ تُختصُّ بهم في طرازِ أثوابهم المعدَّة للباسهم، من الحريرِ أو الديداجِ أو الإبريسم⁽⁴⁾، تعتبر كتابة خطها في نسيج الثوب ألحاما وأسداء بجيظ الذهب، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب، على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ووضعه في صناعة نسجهم، فتصير الثياب الملوكة معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلباسها من السلطان فمن دونه، أو التونويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته"⁽⁵⁾

بالإضافة إلى العِمَامَة⁽⁶⁾ على رأسه التي تميزه عن باقي الرعية⁽⁷⁾، حيث قال "يحيى بن بن خلدون" في مدح "أبي تاشفين الثاني": «مولانا المعظم، علّم الكمال المنصور.. ومظهر

¹ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ج2، ص 300.

² - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 22.

³ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 220.

⁴ - الإبريسم: هو الثياب المتخذة من الحرير، ويكون جوهر الحرير شديد الليونة، شديد القبول للإنشاء والانعطاف، وهو مع كل حال عسر الإنقطاع.

⁵ - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 208.

⁶ - العِمَامَة: جمع عَمَامَاتٍ أو عَمَائِمٍ، ونقول كذلك العَمَّة وهي لباس الرأس تطوى على الجبين ومقدمة الرأس، ويخى طرفها على الظهر ويسدل، وهي كذلك تحمل معنى (الْقَلَنْسُوَّة) جمعها (قَلَانِس) أي ما يلاصق على الرأس تكويرا، ولها أنواع وأشكال تختلف من مجتمع إلى آخر. ينظر إلى: أبو الحسن بن سيده، المخصص، السفر الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 81 وما بعدها.

⁷ - عبد الرزاق شقدان، المرجع السابق، ص 157.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

العلاء والجلالة، والعمامة لِدَة التاج⁽¹⁾، والمقصود هنا بقوله (لدة التاج) أي هي لباس يرمز إلى التتويج بالملك فضلا على أنها لباس العز والفخر والوقار⁽²⁾ وتصدر المجالس، وهي عادة قديمة لدى العرب انتشرت في ربوع الأرض.

وكان الزيانيون ممن اهتموا بها في كل أوقاتهم، "لكن في وقت الحرب عندما يزحف ضد العدو فانه يجمع الأعراب والفلاحين من مختلف القبائل ويؤجرهم على العمليات العسكرية، وإنما يلبس ويقيم كمجرد قائد"⁽³⁾، يبدو أن لباس ملوك وسلاطين بني زيّان كان ملائما وفق ما تدعو إليه الحاجة، فإذا جلس في بلاطه تأتق وتجميل وإذا خرج للحرب لبس الدرع والعمامة، عادة ما تكون حمراء أو بيضاء تدل على الحضور الرسمي للقائد في ساحة الوغى، وتحمس النفوس إذا هي الوطيس.

كما وردت إشارة واضحة عند "ابن قنفذ" في أنس الفقير؛ توضح لنا لباس البرنوس الذي كان من العادات القائمة لدى سلاطين بني زيّان، وجاءت في سياق الحديث عن الولي الصالح "أبي محمد عبد السلام" التونسي حينما "قصده والي تلمسان للتبرك، فنزل عن فرسه ففرش له فتاه برنوسه يجلس عليه"⁽⁴⁾، وعلى الأرجح أنه السلطان "أبو سعيد عبد الرحمان" الذي تولى الحكم ما بين (749-353هـ/1348-1352م)، لأن هذا الولي الصالح التونسي قضى آخر حياته في عبّاد تلمسان، وتوفي بها سنة (749هـ/1348م).

والبرنوس أو البرنس: هو كل ثوب رأسه منه مُتّصل سواء أكان دُرَاعَةً أو مِمَطْرًا أو جُبَّةً⁵، يطرح على الكتفين ويوضع طرفاه للوقاية من البرد، ويبقى غطاء الرأس منسدلا على

¹ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 256.

² - أوصى أبو هو موسى الثاني ابنه أبو تاشفين بأن يلبس "ثياب العفة ويترد رداء الوقار ويتوج بتاج الحياء ويتزين بزي السكينة ويتختم بخاتم الهيبة". واسطة السلوك، المصدر السابق، ص 50.

³ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 22.

⁴ - أبو العباس ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسي وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، 1965م، ص 106.

⁵ - أبو الحسن ابن سيده، المصدر السابق، ص 81.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

على الظهر، ويستعمل في حالة الإمطار والبرودة الشديدة⁽¹⁾، واستعمله أهل المغرب القديم والإسلامي ثوبا خارجيا⁽²⁾، ويصنع من الصوف أو الوبر، كما تكمن أهميته في أنه من أبرز الأزياء الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي⁽³⁾، ولازال باقيا أثره إلى الآن.

أما قادة الجند فلاشك أنهم يرتدون ألبسة وثياب تليق بمقامهم وبمناصبهم المقلدة لديهم، إلا أن "الحسن الوزان" يرصد لنا نظرة مقرفة للباس الجند؛ فيعتقد أن "أسوأ هو الذي يتخذه الجنود، إذ يضعون على ظهرهم قميصا واسعا عريض الكمين يغطونه بكساء كبير جدا من قماش القطن يلتفون فيه شتاء وصيفا، حقا أنهم يرتدون في الشتاء سترة من الجلد مصنوعة على نمط ذلك القميص من الكتان غير محشوة.

ويضع العسكريون الأرقى درجة فوق القميص كساء آخر من الجوخ⁽⁴⁾، وفوقه معطف على نمط المعاطف التي كانت تستعمل قديما في إيطاليا للأسفار يغطون به رأسهم عند نزول المطر"⁽⁵⁾، إلا أن لباس الأتراك كان رمزا للافتخار لبعض الفئات العسكرية داخل الجيش الزياني عدا العرب الذين ينفرون منه⁽⁶⁾.

من الصعب على الباحث أن يأخذ بما أورده "الحسن الوزان" حول سوء لباس الجند، لأن "كارنجال" يورد لنا العكس طالما يذكر أن التلمسانيين أكثر أناقة من أهل فاس، بالإضافة إلى أن المدينة بلغت درجة عالية من الجودة والإتقان، مع العلم أنها كانت تصدر المنسوجات الرفيعة إلى سلاطين المغرب وتونس بشهادة "بن مرزوق" في قوله: "وملوك افريقية والمغرب

¹ - نبيلة عبد الشكور، إسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن السادس إلى نهاية التاسع الهجري/ الثاني عشر الخامس عشر ميلاديين، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2007-2008م، ص 474.

² - صالح يوسف بن قربة، المرجع السابق، ص 06.

³ - نفسه، ص 06.

⁴ - الجوخ: وهو ثوب قصير الكمين والبدن ويصنع بشكل رئيسي من الصوف، وهو من جملة ثياب الأكابر التي لا تلبس إلا في يوم المطر. رينهارت دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، 2012م، ص 115.

⁵ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 21.

⁶ - مارمول كارنجال، المصدر السابق، ص 300.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

أما يلبسون حينئذ ما كان يعمل بتلمسان من رفيع الصوف فإنها اختصت بذلك⁽¹⁾، فضلا عن الهدايا التقليدية التي كانت محل تبادل بين ملوك وأمراء تلمسان ونظرائهم في تونس.

وهي في العادة تشتمل على ثياب رفيعة، لاسيما التي أرسلت إلى صاحب تلمسان من طرف سلطانين تونس الأميران المستنصر⁽²⁾ وأبو حفص⁽³⁾، كذلك وصل من جملة الهدايا لباس إحرام ثماني العمل مكتوب عليه عنوان الرسالة، قال "بن مرزوق": «نظر الإحرام فوجده في أكمل عمل، لا يمكن أن يصنع أحسن منه»، والمقصود بهذه الهدية هو أبو زيد عبد الرحمان الزياتي بن أبي زكريا يحيى بن يغمراسن بين زيان؛ إذ لبس أحسن ما يصنع في الديار التونسية من الكتان⁽⁴⁾.

ومن القرائن الدالة على ذلك أنّ السلطان المريني "أبو الحسن" كان يتخير أجود ثياب الصوف التلمسانية الخالصة ويعطيها لمجالسيه ويتخير لنفسه أدناها⁽⁵⁾، وكانت ملابس الطبقة الخاصة فاخرة من الحرير والديباج والقطن والصوف الرفيع، وتخضع في لونها وخفتها وخشونتها إلى فصول السنة⁽⁶⁾، حيث يذكر "بن مرزوق" في المناقب عن أحد أقربائه: «وكان يحترف بإقامة عمل الحاكة من الصوف الرفيع التي كانت تلمسان تختص به، وملوك افريقية والمغرب إنما يلبسون حينئذ ما كان يعمل بتلمسان من رفيع الصوف فإنها اختصت بذلك وكان هو قد أنماها في ذلك»⁽⁷⁾.

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 189.

² - يقصد السلطان أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا يحيى بن الشيخ أبي محمد بن عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص الذي بويع بسلطان تونس في (3 رجب سنة 647هـ) خلفا لوالده السلطان أبي زكريا الحفصي. الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 69 وما بعدها (منقول من التمش).

³ - هو الأمير أبو حفص عمر بن أبي زكريا الأول، بويع بتونس (24 ربيع الثاني 683هـ/10 جويلية 1284م). الزركشي، تاريخ الدولتين، 104 - 105.

⁴ - ابن مرزوق، نفسه، ص 189.

⁵ - نفسه، المسند، المصدر السابق، ص 129.

⁶ - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 267.

⁷ - ابن مرزوق، المناقب، نفسه، ص ص 188 - 189.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

وكانت صناعة الدبّاعة وخصف النّعال والأحذية والصّيّاعة؛ من الحرف والمهن اليدوية التي امتازت بها تلمسان، واختصت بها ما بين البلاد⁽¹⁾، لاسيما الاتقان في النسيج والقزازة؛ فإنّ ملابسها ومنسوجاتها الصفيقة من حرير أو صوف اعتبار وتقدير يفوقان منسوجات غيرها من البلاد، لا من حيث الاحكام في الصناعة والنسج فحسب، بل وحتى في جودة النوع والشكل مع الدقة واللطافة والخفة⁽²⁾، قال صاحب البغية في أهل تلمسان أنّ: "غالب تكسبهم من الفلاحة وحوك الصوف، يتعأيون في عمل أثوابه أثوابه الرقاق، فتلقى الكساء أو البرنس عندهم من ثمانية أواق، والأحرام من خمس، بذلك عرفوا في القديم والحديث"⁽³⁾.

استنادا إلى ذلك كان أهل تلمسان يلبسون أثوابا مستوردة من الأندلس وإفريقية، لأنّ تجار هذه الأخيرة كانوا يصدرون الكتان التونسي إلى تلمسان، ويأخذون منها أحمالا من الصوف الرفيع⁽⁴⁾، على حد ما ذكر صاحب المناقب عن عمه: "حدثني عمي رحمه الله تعالى وقد ذكر اتساع حاله، أن قافلة وردت تلمسان من تونس وكانوا يجلبون ثياب الكتان⁽⁵⁾ ويحملون ثياب الصوف، قال: فباعوا واشترو وأكثروا الشراء من عنده وخرجوا مسافرين لتونس، فلقبهم بظاهر البلد تاجر ورد بمال يبلغ قدر ألف دينار من الذهب، برسم الرفيع من ثياب الصوف"⁽⁶⁾.

¹ - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع لسابق، ص 245.

² - نفسه، ص 246.

³ - يحيى ابن خلدون، ج 1، المصدر السابق، ص 130.

⁴ - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 266.

⁵ - كانت مدينة تونس في القرن الرابع عشر تصنع أقمشة جيدة تعرف باسم الأقمشة (الافريقية)، وهي مصنوعة من القطن والكتان أو من الكتان لا غير وتستعمل لصنع الملابس، كما كانت تنسج لصنع ملابس كبار رجال الدولة، قماشاً من الحرير والقطن أو من الحرير والصوف مختم وغير مختم. للإطلاع أكثر ينظر إلى روبرار برونشفيك، المرجع السابق، ص 241.

⁶ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 190.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

حيث كانت أغلب هذه الصناعات النسيجية على مختلف أنواعها تصدر من موضع ايلان، "وهو اليوم داخل الربض، كان يطلع منه كل يوم حمل للبضع من عمل الصوف وهذا الموضع من آحاد المواضع"⁽¹⁾.

وهناك إشارة بالغة الأهمية وردت عن "ابن فضل الله العمري" في مؤلفه (مسالك الأبصار)، يستعرض مدى اهتمام ملوك افريقية باللباس التلمساني المحكم الصنعة من الصوف الرفيع والقماش التلمساني الخالص، إذ يقول: «وأما زي صاحب افريقية القائم الآن في لبسه فهو عمامة ليست بمفرطة في الكبر بجنك وعذبة صغيرة وجبات، ولا يلبس ولا عامة أشياخه خفا إلا في السفر، وغالب لبسه ولبس أكابر أشياخه من قماش يسمى السفساري⁽²⁾ يعمل عندهم من حرير وقطن أو حرير وصوف إما أبيض أو أحمر أو أخضر، وقماش يعرف بالحريري وهو صوف رفيع جدا، وقماش يعرف بالتلمساني مما يعرف بتلمسان، وهو نوعان مختم وغير مختم، منها صوف خالص ومنها صوف وحرير»⁽³⁾.

تحدث "ابن خلدون" في مقدمته عن علامات الملك وشاراته "اتخاذ الأخبية والفساطيط والغازات من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن، فيباهي بها في الأسفار وتتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار، وإنما يكون الأمر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك"⁽⁴⁾.

فلاشك أن الزيانيون كانوا يستعملون هذه الأقمشة والملابس في مراحلهم المختلفة، خاصة عندما يضطرون إلى التزوح خارج المدينة أو في أسفارهم لغزواتهم، وجرت عاداتهم أن يستعملوا "ثياب الكتان منها يئوتا مختلفة الأشكال مقدرة الأمثال من القوراء والمستطيلة

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 190.

² - السفساري: بكسر السين وسكون الفاء، وهي كلمة فارسية معربة، وأصلها في الفارسية: (پسا) وهي بلد فارس منبه الثياب الفساسرية، وأهل الأندلس يقولون (كساء سفساري)، ينظر إلى: رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 2002م، ص 236.

³ - ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص 159.

⁴ - عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 209.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

والمربعة ويحتفلون فيها بأبلغ مذهب الاحتفال والزينة، ويدير الأمير القائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجاً من الكتان يسمى في المغرب بلسان البربر الذي هو لسان أهله (أفراك)، ويختص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره"⁽¹⁾.

كان للأطفال والصبيان في تلمسان الزيانية ألبسة خاصة بهم، يرتدون فيها في المناسبات والاحتفالات الرسمية كما جرت عليه العادة، ويتميزون بها على سائر الألبسة الأخرى، وهذا ما أكد عليه "التنسي"؛ عندما وصف احتفالية المولد النبوي بأن الولدان كانوا يطوفون على أعيان الحضرة، "قد لبسوا أقبية الخبز الملون"⁽²⁾.

2. لباس التجار والحرفيون

يرتدي التجار الحضريون لباساً جميلاً يكون أحسن أحياناً من لباس أهل فاس، لأنهم حقاً أكثر أناقة وسخاء⁽³⁾، ويفضلون لبس الثياب البيضاء وشاشية حسنة على تودة بقباب في الرجلين⁽⁴⁾، وهم أناس منصفون مخلصون جداً وأمناء في تجارتهم، يحرصون على أن تكون مدينتهم مزودة بالمؤن على أحسن وجه⁽⁵⁾.

أما الصناع فكانوا يرتدون لباساً قصيراً والقليل منهم يتعمم، ويكتفون بوضع قلنسوة بدون ثنایا على رأسهم، ويتعلون نعالا حتى نصف الساق⁽⁶⁾، كما اشتهروا بصنع الأغطية المزركشة والألبسة والفضلات الكبيرة من القماش⁽⁷⁾.

3. لباس العلماء والمتصوفة

يرتدي العلماء والمتصوفة داخل المجتمع التلمساني لباساً يختص بهم، لعوامل مختلفة منها إضفاء هالة من القداسة عليهم، فيكون لهم نصيب من الجاه والتميز في الوسط

¹ - عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 209.

² - التنسي، المصدر السابق، ص 162.

³ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 21.

⁴ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 173.

⁵ - الحسن الوزان، نفسه، ص 21.

⁶ - نفسه، ص 21.

⁷ - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 267.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

الاجتماعي والسياسي، ولم يكونوا سواء في ذلك؛ بل منهم من فضل لبس الجبة والخرقة والمرقعة، ومنهم من أثار اللباس الرفيع من الصوف، ويمكن أن نحصر هذه الأشكال في سياق اتجاهين اثنين:

- أولهما التزم الخشن والفقر والقلة مبدأ.
- والثاني انتهج سبيل العادة وتزيا بزّي العامة المتوفر، أو لبس على قدر طاقته وحسب وقته وحاجته دون أن يجعل من ذلك هما أو شرطا⁽¹⁾، وسنذكر عادات اللباس لدى هذه الفئة على التوالي:

أ - الجبة: لغة تعني: "والجبة هي ضرب من مقطّعات الثياب تُلبس، وجمعها جُبٌّ وجِبَابٌ"⁽²⁾، وهي لباس خارجي مفصل له كمين وفتحة عند الرقبة، يغطي كامل الجسم ما عدا الذراعين والساقين، وهو في العادة يصنع من الصوف أو الحرير، تلبس فوق القفطان وتتخذ من الصوف الأسمر أو البني، مفتوحة الأمام ضيقة الأكمال.

وقد انتقلت جبة العربية إلى اللغات اللاتينية فيقال في الاسبانية (Aljuba)، وفي الايطالية (guppa)، وفي الفرنسية (jupe) أو (jupon)⁽³⁾، جعل منه العلماء والمشائخ في تلمسان لباسا رسميا تقليديا حاضرا في كل المناسبات الدينية وغيرها، ويذكر ابن مرزوق في المناقب عن أحد الأولياء والمتعبدين الملازمين لجده: «وكانت له جبة من صوف أقامت عنده سنين»⁽⁴⁾، يعني أنه كان متعففا زاهدا ومتصوفا مما جعله يرتدي الجبة ويحافظ عليها لسنين طوال.

ولم تعد المسألة متوقفة على البحث عن مسوّغات شرعية لتحديد هيئة اللباس ومادته، إنّما تجاوزت ذلك إلى استقراء دلالاته ومقاصده وإدراجها ضمن أهداف سلوك

¹ - صابر سويسي، المرجع السابق، ص 02.

² - ابن منظور، المصدر السابق، م 1، ص 174.

³ - رجب عبد الجواد ابراهيم، المرجع السابق، ص 106.

⁴ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 185.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

الأنبياء والصالحين امتدادا لمجهود أوائل الصوفية⁽¹⁾، أمثال "الجنيد" الذي أقرن لبس الصوف بالنبي موسى عليه السلام "لأن ملابسه كلها كانت صوفا"⁽²⁾، وهم في الغالب مُخْتَصُّون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف⁽³⁾.

ب - الخِرْقَةُ: لغة تعني: "الْقِطْعَةُ من خِرَقِ الثَّوْبِ، والخِرْقَةُ المِزْقَةُ منه، وخِرَقَتِ الثَّوْبَ إِذَا شَقَّقْتَهُ"⁽⁴⁾، وتشير هذه الكلمة كذلك إلى الثوب أو إلى الرداء الغليظ الذي يلبسه الفقراء ولاسيما المتصوفة منهم⁽⁵⁾، وصارت رمزا لكل من انتسب إلى التصوف أو أصبح من المريدين لدى شيخ الطريقة، كما أنها لها دلالة روحية على أن الشيخ أصبح من العارفين بالله وبلغ مرتبة الأولياء والتي تعني القريب من الله⁽⁶⁾.

نلاحظ كذلك أن الخِرْقَةَ جعلت لستر العورة، كما أن سلوك تخريق الثياب عند الصوفية قد يكون مقترنا بمناسبة الذكر والسماع (المجامع الكبرى)، وقد يكون دأبا ساروا عليه رفضا للجديد والتمين الدنيوي وتمردا عليه⁽⁷⁾، ولا أدل على مما أورده "بن الجوزي" في سياق حديثه عن هذا السلوك في الفكر الصوفي، إذ قال: «كان مذهب أبي علي الروزباري تخريق أكمامه وتفريق قميصه، فكان يخرق الثوب المثلثن فيرتدي بنصفه ويتأزر بنصفه»⁽⁸⁾.

ذكر ياسر بنهيمه في شأن لباس الخِرْقَةَ الصوفية نقلا عن محمد العدلوني أنها

نوعان⁽⁹⁾:

¹ - صابر سوسي، المرجع السابق، ص 12.

² - الهجويري، المصدر السابق، ص 235.

³ - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 381.

⁴ - ابن منظور، المصدر السابق، ص 310.

⁵ - رينهارت دوزي، المرجع السابق، ص 135.

⁶ - ايدموند دوتبي، المرجع السابق، ص 55.

⁷ - صابر سويسي، نفسه، ص 05.

⁸ - جمال الدين ابن الفرج ابن الجوزي، تبليس ابليس، ط1، دار الفكر، لبنان، 2001م، ص 182.

⁹ - أورد السهروردي الفرق بقوله: واعلم أن الخِرْقَةَ خرقتان: خِرْقَةُ الإِرَادَةِ وخِرْقَةُ التَّبَرُّكِ، والأصل الذي قصده المشايخ للمريدين خِرْقَةُ الإِرَادَةِ وخِرْقَةُ التَّبَرُّكِ تشبه بخِرْقَةِ الإِرَادَةِ، فخرقة الإرادة للمريد الحقيقي وخِرْقَةُ التَّبَرُّكِ للمتشبه، ومن تشبه يقوم فهو منهم. ينظر إلى عبد القاهر السهروردي، عوارف المعارف، م1، تحقيق: أحمد عبد الحلیم السايح توفيق علي وهبة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2006م، ص ص 112 - 113.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

➤ خرقة التبرك أو التَّشْبَه: وهي اللباس الذي يُلبَّسُهُ المشايخ للسَّالِكِ في أول خطوة حتى ينجو ببركته من المعاصي.

➤ الخرقَة: وهو اللباس الذي يُلبَّسُونُهُ لِلسَّالِكِ بعد اتمامه تربيته الصوفية⁽¹⁾.

ويعد لباس الخرقَة طقساً من طقوس العبور الواسعة الانتشار في الممارسة الصوفية⁽²⁾، الصوفية⁽²⁾، غير أنها فقدت معناها الطقسي المباشر مع مرور الوقت فأصبحت ترمز إلى الولاية الصوفية تحديداً⁽³⁾، وقد جعل السهروردي لبس الخرقَة هي ارتباط بين الشيخ وبين المرید، والتحكيم سائغ في الشرع لمصالح دنيوية⁽⁴⁾.

ويصف لنا حال المرید الذي يمثّل لأوامر شيخه حتى ينال بركة هذا اللباس، " فيسلم نفسه إليه ويستسلم لرأيه، ويعمل به في جميع تصاريفه فيلبسه الخرقَة إظهاراً للتصرف فيه، فيكون لبس الخرقَة علامة التفويض والتسليم، ودخوله في حكم الشيخ دخول في حكم الله وحكم رسوله"⁽⁵⁾، وعندئذ يُلبَّسُ الشيخ مریده خرقَة التصوف وحكمة ذلك عند "بن عربي" عربي " هو " لنزع الأخلاق الرديّة مع الخرقَة التي تُلبَّسُها به، فمن أعطاه الله ما ذكرناه فلْيُلبَّسُ الخرقَة لغيره وإلا فليلزم الأدب مع الأشياخ"⁽⁶⁾.

بناءً على ما تقدم نرى أن لبس الخرقَة على يد أقطاب التصوف أو ممن تُتلمذَ على أيديهم، وأخذ منهم التربية الصوفية الروحية والأخلاق المنوطة بهم، كان تقليداً وعادة سائدة عند المتصوفة التلمسانيين، لاسيما في رحلاتهم المشرقية والحجّية أينما يتواجد أكبر الزهاد والشيوخ، الذين يكون لبس الخرقَة منهم هو بمثابة إشارة رمزية روحية لها دلالتها الصوفية في البركة والالتزام بأدابهم وأخلاقهم، ومن القرائن الدالة على ذلك في هذا الصدد ما ذكره ابن

¹ - ياسر بنهيمه، لباس المتصوفة في المغرب الوسيط من خلال المصادر المناقبية، ترجمة: راجي رضوان، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب، 2018م، ص 05

² - نفسه، ص 05.

³ - نفسه ص 05.

⁴ - السهروردي، المصدر السابق، ص 108.

⁵ - نفسه، ص 108.

⁶ - الحسيني الحسيني معدي، موسوعة الصوفية - نشأة وتطور التصوف وإشكالية تعريفه وموقف القرآن والسنة منه -، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2013م، ص 418.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

مرزوق في المناقب حيث قال: «وإذا بالشيخ الصالح الولي شهاب الدين أحمد بن شيخ الشيوخ عماد الدين عبد الرحيم السمرقاني خديم الشيخ "السهروردي"⁽¹⁾ وهو ممن لبس منه والذي ولبست منه الخرقة»⁽²⁾.

ويعتبر هذا السلوك مبدأ الزامي في الفكر الصوفي، ويتأكد هذا السلوك مع والد "بن مرزوق" كما يذكر في المناقب: «وكان والذي قد لبس خرقة التصوف في صغره، من الشيخ الصالح بلال الحبشي⁽³⁾ مولى سيدي أبي مدين رضي الله عنه»⁽⁴⁾.

كما أن للخرقة صورتين؛ الأولى تقوم على تحميل اللباس دلالات باطنة مجردة؛ والثانية تتمثل في توجيه السلوك الصوفي وتصحيحه، بالتنبيه إلى ما يمكن أن يعترضه من مزالق⁽⁵⁾، ومن الأمثلة ما يدل على ذلك في قول ما ورد في طبقات الصوفية للسلمي عن "منصور بن عمار": «أحسن لباس العبد التواضع والانكسار، وأحسن لباس العارفين التقوى»⁽⁶⁾، وفي هذا هذا تحول لدلالة اللباس وخروجه عن صورته الحسية إلى صورة مجازية ومعنوية⁽⁷⁾.

¹ - السُّهْرَوْرْدِيُّ: الشيخ الامام العالم القدوة الزاهد العارف المحدث شيخ الاسلام أُوحد الصوفية شهاب الدين أبو حفص بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن السهروردي الصوفي البغدادي، ولد في رجب سنة 539هـ/1145م، نشأ في بيئة علمية دينية صوفية وكان يصحب منذ صغره كبار الشيوخ والعلماء، ترجم له الاخباريون بأنه كان شيخ وقته في علم الحقيقة، كان كثير الاجتهاد في العبادة والرياضة وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة الخلوة، كان يتكلم بكلام مفيد من غير تزويق ويحضر عنده خلق عظيم، وصار أصحابه كالنجوم، وأضحى يلبس الخرقة لمن هو أهل لها من مريديه والوافدون عليه من كل حذب وصوب، وهو صاحب كتاب (عوارف المعارف)، توفي في مستهل محرم سنة 632هـ/1234م ببغداد. ينظر إلى: شمس الدين محمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، تحقيق: بشار عواد معروف ومحبي هلال السرحان، ط11، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1996م، ص ص 373-377. وينظر إلى: ابن خلكان، المصدر السابق، م3، ص 446.

² - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 234.

³ - بلال الحبشي: هو الشيخ العالم القطب المدرس المحقق رضي الله عنه قبره مزار بالعباد مجاب الدعوة، ولد سنة 559هـ/1164م، وهو خديم الولي الصالح القطب سيدي أبي مدين شعيب نحوا من خمسة عشر عاما إلى أن توفي في عام تسعين وخمسمائة ثم عاش بعده أكثر من مائة سنة. ينظر إلى: ابن مريم، المصدر السابق، ص 71، والمقري، نفح الطيب، ج7، ص 229.

⁴ - ابن مرزوق، نفسه، ص 207.

⁵ - صابر سوسي، المرجع السابق، ص 12.

⁶ - أبو عبد الرحمان السلمي، الطبقات الصوفية، تحقيق: أحمد الشرباصي، ط2، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، مصر، 1998م، ص 44.

⁷ - صابر سوسي، نفسه، ص 12.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

وعلى ذلك فإن للخرقة دلالة رمزية لدى أصحاب الطريق الصوفي، فهي ترمز إلى دخول المرید في الطاعة والولاء بشيخه، وهي علامة التفويض والتسليم للحق تعالى، والصدق وعمق الايمان والإخلاص التام، فليس المرید للخرقة من قبل شيخه دلالة على رضاء الشيخ التام، وحبّه لمريده الذي يُلبسه خرقة، وليس الأمر في ذلك بالهين⁽¹⁾، يتعين عليه أن يكون حاذقا لئلا يهلك المرید.

فينبغي شدة الاعتناء بلبس الخرقة وإلباسها لتتأكد الصحبة وتقوى عروة القربة وتتكامل نصح التوبة وتخلع ملابس الاثم والحبوة، وتحصل تمام الطهارة المطلوبة والاتصاف بمحاسن الأخلاق المحبوبة بعد التنزه عن رذائل الأخلاق المشئومة، فقد رغب المشايخ في لبس الخرقة وحرصوا على ذلك كثيرا وحثوا عليها حثا شهيرا⁽²⁾.

وتؤكد الروايات المناقبية انتشار هذه الممارسة بين المتصوفة، فقد كان "الشيخ الخطيب الصالح الصوفي المحقق سيدي أبو عثمان سعيد⁽³⁾ أحد أصحاب والد ابن مرزوق الخطيب من كبار المتصوفة، رحل وراء الأكابر وتربى وجلس على سجادة الإرشاد ولبس الخرقة من طريق أبي العباس الرفاعي ومن طريق سيدي أبي مدين وكان شيخ الفقراء"⁽⁴⁾، قال "بن مرزوق الخطيب": «أدرسته ولبست من يده، وكان كبير الشأن»⁽⁵⁾.

تعتبر لبس الخرقة في الثقافة الصوفية بمثابة ارتباط وثيق بين الشيخ والمرید، وصلة وصل بينهما تفضي في النهاية إلى المبايعة وعتبة الدخول في الصحبة والملازمة الروحية، وجاء في أخبار الصوفية بتلمسان أن "بن قنفذ" القسنطيني تقلد لباس الخرقة التي تم وصلها بالشيخ "بلال" خديم الشيخ "أبي مدين" قطب العارفين بعباد تلمسان، حيث قال: «وبه يتصل سندي

¹ - الحسيني الحسيني معدي، المرجع السابق، ص 419.

² - علي ابن أبي بكر السقاف العلوي، البرقة المشيقة في ذكر لباس الخرقة الأنيقة، مطبعة مصر، 1928م، ص 13.

³ - أبو عثمان سعيد بن ابراهيم بن علي الخياط من كبار العلماء المتصوفة بالمغرب الاسلامي توفي سنة 729هـ/1329م. ينظر إلى: المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج5، تحقيق: سعيد أعراب وعبد السلام المهراس، مطبعة فضالة المحمدية، الرباط، المغرب، 1980م، ص 57.

⁴ - ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 178.

⁵ - نفسه، ص 178.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

في لبس الخرقة فإنني رويتها حين ألبسها، ألبسني إياها بيده مباركة الشيخ الصالح "أبو موسى القروي": ألبسني بيده الخطيب المحدث أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح المرحوم أبي العباس أحمد بن مرزوق التلمساني، وقد أدركته وسمعت عليه بعض البخاري إلا أنني لم آخذ عليه لبس الخرقة»⁽¹⁾.

فيكون بذلك لبس الخرقة على كبار المتصوفة والأولياء؛ علامة للتفويض والتعليم وتحصيل شرف الانتساب، ودخوله كدخوله في حكم الله وحكم رسوله ﷺ، وإحياء سنة المبايعه مع رسول الله ﷺ استنادا لما ذكره صاحب عوارف المعارف⁽²⁾.

يؤكد "ابن قنفذ" وصله وانتسابه بذلك في قوله: «ألبسني والدي بمكة، قال ألبسني بلال خادم الشيخ أبي مدين، قال: ألبسني أبو مدين، قال: ألبسني أبو الحسن بن حرزهم، قال: ألبسني القاضي بكر بن العربي، قال: ألبسني أبو حامد الغزالي، قال: ألبسني امام الحرمين أبو المعالي، قال: ألبسني أبو طالب المكي، قال: ألبسني الجنيد، قال: ألبسني سري السقطي، قال: ألبسني معروف الكرخي، قال: ألبسني داوود الطائي، قال: ألبسني حبيب العجمي، قال: ألبسني الحسن البصري، قال: ألبسني علي بن أبي طالب، قال: ألبسني رسول الله ﷺ، وهكذا حضرت لجلي للأمام يوسف بن يعقوب يذكر هذا السند حين يكسي الخرقة لمن يرغب، ذلك منه إلا أن بينه وبين أبي مدين رجلين والد وبين عوف»⁽³⁾.

نرى هنا أن السند في الخرقة يكون متصلا بالشيخ وكلما ارتفع وعلا زاد مقام لايسها، وهي تمثل الاجازة العلمية من الشيخ للمريد، وعهد من الشيخ لمريد بالسمع والطاعة والالتزام بأخلاق التصوف المتوارثة تواترا، وكان لبعض المشايخ أكثر من طريق في لبسها لينتهي الطريق في الإسناد دائما إلى "علي" رضي الله عنه ثم النبي ﷺ.

¹ - ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 93.

² - السهروردي، المصدر السابق، ص 111.

³ - ابن قنفذ، نفسه، ص ص 93 - 94.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

ج - المرقعة: لغة هي: رَقَعَ الثوبَ والأديمَ بالرقاعِ يُرَقِّعُهُ رَقْعاً وَرَقَعَهُ أَي أَلْحَمَ خِرْقَةً وَأَصْلَحَهُ⁽¹⁾، وقد اتَّخَذَ الصُّوفِيَّةُ من لبسِ الصُّوفِ والخرقِ والمرقعاتِ شعاراً لهم، حيث قال الجوهري في هذا الباب: «اعلم أن لبس المرقعة شعار المتصوف ولبس المرقعات سنة»⁽²⁾.
تكون المرقعة إما بخياطة ما تمزق من الثوب وشُدَّ أجزائه بعضها إلى بعض، أو بإضافة رقعة في الموضع الذي وقع فيه الخلل أو حتى بتمزيق ثوبين أو أكثر⁽³⁾، ويذكر "بن مرزوق" في لباس جده "ابراهيم بن يخلف" في المناقب: «كان رحمه الله مقتصدا في لباسه، مقتصرا على أقل ما يمكنه، كان يلبس المرقعة من ثيابه وأدركتها من جبة صوف سوداء مبطنة بخرقة سوداء محشوة بالقطن مرقعة، ويلبس فوقها بدنا أخضر أو أسود وغفارة»⁽⁴⁾ خضراء وكانت له أخرى زبيبية، ويتعمم عمامة فقهاء أهل إفريقية الآن وهي كانت عمائم أهل تلمسان في القديم، هذا كان لباسه»⁽⁵⁾.

نرى أن لبس المرقعة لدى جد "ابن مرزوق" كانت لباسا محتشما وثيابا من صوف وقطن، لا يكتمل شكله إلا إذا لبس الغفارة ثم العمامة فوقه، والعمامة بصفة عامة هي غطاء الرأس، يتكون من طربوش من الصوف مصبوغ باللون الأحمر ويوضع تحته طاقة رقيقة تسمى القلنسوة (الغفارة)، لكي تحمي الطربوش من العرق⁽⁶⁾، والميزة التي تميزت بها العمامة

¹ - ابن منظور، المصدر السابق، م4، ص 431.

² - أبو الحسن علي الهجويري، كشف المحجوب، ج1، ترجمة وتعليق: إسعاد عبد الهادي قنديل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2007م، ص 241.

³ - صابر سوسي، المرجع السابق، ص 03.

⁴ - الغفارة: الغفائر جمع غفارة وهي خرقة تكون على رأس المرأة توقي بها الخمار من الدهن، وقد تكون اسما للمقنعة التي تغطي بها الرأس، ولكن هذه الكلمة تشير في الغرب الاسلامي كذلك إلى طاقة يلبسها الرجال، وهي مرادفة لكلمة البرنوس على حد قول "بن مرزوق"، كذلك تعني (الطيلسان) أي: كساء أخضر يضعه بعض العلماء والمشايخ على الكتف، وهي مصنوعة من الصوف تلبس عادة بدون عمامة. ينظر إلى: رينهارت دوزي، المرجع السابق، ص 279 وما بعدها. ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 276.

⁵ - ابن مرزوق، نفسه، ص 280.

⁶ - رجب عبد الجواد ابراهيم، المرجع السابق، ص 335.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

عن باقي الأغطية الأخرى التي تلبس على الرأس هي مقتصرة على العلماء ورجال السلطة، فإنها قد تستعمل أيضا من قبل ولي من الأولياء⁽¹⁾.

وتكمن أهمية المرقعة عند الصوفية بكونها لباس زينة وعلامة الطهر والنقاء الداخلي، وقد أورد "الهجويري" في كشف المحجوب بأن مشايخ الطرق كانوا "يأمرون المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها"⁽²⁾، لأنها "قميص الوفاء لأهل الصفاء، وسربال السرور لأهل الغرور، ليتجرد أهل الصفاء بلبسها من الكونين، وينقطعوا بها عن المألوفات، ويحجب بها أهل الغرور عن الحق وينقطعوا بها عن الصلاح"⁽³⁾، وقد نفهم من ذلك بأن التصوف لم يعتن بالباطن فحسب، وإنما أولى اهتمامه أيضا للمظهر، لقيمته في تحديد خصوصية الفرد وتأثيره في نوع علاقته بالآخر وتركيز انتمائه لفئة أو مجموعة معينة⁽⁴⁾.

وتظهر بركة المرقعة عند شيوخ تلمسان في أنهم تقلدوها من عند الشيخ "أبي مدين شعيب" بعد وفاته، ويقول "بن قنفذ" في هذا الصدد: «ولقي جدي أبا العباس بن مرزوق تلميذ بلال وعاشره في داره مده، وكان عند أبي العباس بن مرزوق عكاز الشيخ أبي مدين وأتحف جدي منه بجزء؛ ورأى له بركة عظيمة، ويغلب على ظني أنه كانت عند أبي العباس بن مرزوق المرقعة التي نزعت عن الشيخ بعد وفاته»⁽⁵⁾، ثم يذكر أبيات شعرية في ذلك قائلا:

لِلصَّالِحِينَ مَنَاقِبٌ مَأْثُورَةٌ يَجْلُؤُا مَآثِرَهَا الطَّرِيقُ الْأَوْفَقُ
شَاعَتْ بِالسِّنَةِ الثَّقَاتِ وَكُلُّهُمْ مُتَحَقِّقٌ فِيمَا رَوَاهُ مُتَحَقِّقٌ⁽⁶⁾

د - الرِّفِيعُ مِنَ الصُّوفِ: أمَّا لبس الثياب الرِّفِيعَةِ مِنَ الصُّوفِ وَغَيْرِهَا عِنْدَ الصُّوفِيَةِ وَالْعُلَمَاءِ وَالطَّلَبَةِ بِتَلْمَسَانِ، فَذَلِكَ مِنْ جُودَةِ مَا كَانَتْ تَتَّجِهُ أَسْوَاقُ الْحَيَاكَةِ وَالنَّسِيجِ بِهَا، وَالتَّزِمَ طَلَبَةُ

¹ - ياسر بنهيمه، المرجع السابق، ص 10.

² - أبو الحسن الهجويري، المصدر السابق، ص 245.

³ - نفسه، ص 245.

⁴ - صابر سوسي، المرجع السابق، ص 04.

⁵ - ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 94.

⁶ - نفسه، ص 94.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

العلم بلباس تقليدي يتلائم وطبيعة اثنياتهم وطبقاتهم وموطن سكناهم، "فالجبلي يلبس ثياب أهل الجبل، والأعرابي يلبس لباس الأعراب، أما الأساتذة والقضاة والأئمة وغيرهم من الموظفين فلباسهم أحسن"⁽¹⁾.

تظهر الفروقات الاجتماعية جليا في طبيعة اللباس الذي يرتديه أهل تلمسان من خلال ما رأينا؛ وهذا راجع لتأثير البيئة على اللباس علما أن تلمسان موضع جمع بين الحضر والبادية، وعموما كان اللباس حسنا يعكس صورة عادات وتقاليد أهل المنطقة، بصورة لائقة للوافدين عليهم من مختلف البلاد.

ولئن كان اللباس الذي تحاول بعض المؤلفات تصويره، على أنه لباس محصور على فئة العلماء والمتصوفة عرفا عاما في العصر الوسيط، فهو ليس عرفا يلزم كل من يشار إليه بالعلم والتصوف؛ لأن الأمر يقتضي أسلوب المناداة بنوع من الوسطية والاعتدال في اختيار اللباس، فلم يشترطوا الصوف ولا المرقعة ولا الخرقية، إنما أباحوا جميع أنواعه ما لم تكن معطلة لمقصد المرید أو مكروهة أو محرمة شرعا⁽²⁾، وفي هذا الصدد يذكر "بن مرزوق" عن جده: «كان رضي الله عنه ووالده وأولاده، يتجاملون ويلبسون أحسن الثياب في أيام المصيف البياض والملاحف التونسية والأحارم»⁽³⁾.

كانت تونس في ذلك الوقت مشهورة بجودة أقمشتها وملابسها مرغوبا فيها في الخارج⁽⁴⁾، حيث نرى أنه لا حرج في الاهتمام بالمظهر والتجمل في اللباس في أسرة المرازقة التي يذكر صاحب المناقب أنه والده "محمد بن مرزوق" كان متجملا في ملابسه⁽⁵⁾.

وفي ضوء المعطيات السابقة يمكن القول بأن لبس الصوف والظهور بمظهر لائق كان من عادات الأسرة المرزوقية في تلمسان، فضلا على أنهم كانوا يجعلون من الأحارم والعمائم لباسا رسميا لهم بحيث يعكس مكانتهم العلمية والاجتماعية.

¹ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 21.

² - صابر سوسي، المرجع السابق، ص 09.

³ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 158.

⁴ - برونشفيك، المرجع السابق، ص 241.

⁵ - ابن مرزوق، نفسه، ص 159.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

فقد روى "ابن مرزوق" في المناقب عن أبيه ما يثبت ويدل على ذلك في قوله: «لباسه كلباس والده رحمة الله عليهما، وكان يتجمل في لباسه، فلباسه الجربي والمثني الرفيع التلمساني، وأكثر ألوان لباسه الأخضر المسني والزرعي والهندي، وكان يعتم مقلة⁽¹⁾ ويلبس الحازر الإسكندرانية والإحارم التونسية نفع الله به، وبقي في البلاد الحجازية والمصرية على عادته من اللباس في بلاد المغرب»⁽²⁾، بالإضافة إلى ذلك كان العالم السالك العارف الشهير "أبو عبد الله محمد بن عيسى"⁽³⁾ من أهل تلمسان القدماء أحد العارفين المتصرفين المنظرين يلبس أفخر الثياب مما يحاكي بلبسه الملوك⁽⁴⁾.

سردت لنا كتب المناقب الكثيرة من الروايات المناقبية عن لباس أهل العلم والمتصوفة في تلمسان الزيانية، وهي بمثابة متون الأكثر تعبيراً عن حال هذه الفئة اجتماعياً وروحياً، وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى معرفة العلاقة القوية بين الشيخ "أبو عبد الله الشريف" التلمساني وبين الأشياخ أولاد الإمام صحبة وصدقة.

وكان يقوم بدوره اتجاه طلبة العلم الملازمين لأولاده، حيث تولى كفالتهم وأحسن إليهم إحساناً لم يعهد مثله إلا من العلماء العاملين، قال صاحب مناقب التلمسانيين: «فلقد كنت أرى ولده عبد الرحمن مع أولاد أبي عبد الله وإنه لأكرمهم عليهم وأرفعهم مجلساً وأحسنهم ملبساً، كان رحمه الله يكسيه الكساء الرفيعة التي تليق بأبناء الملوك»⁽⁵⁾.

يظهر لنا أنّ لبس الثياب الرفيعة لم تكن حكراً على أبناء الملوك والسلاطين؛ بل كانت من اهتمامات فئة العلماء والزهاد، بغرض الظهور بهيئة لائقة، وفي ذلك دلالات رمزية توحى إلى أنّ اختيار هذا النوع من الملابس بوجود عادات وتقاليد معينة في اللباس لدى

¹ - المُقْلَةُ: بضم الميم وسكون القاف وهي كلمة عامية شاعت في بلاد المشرق، وهي نوع من العائم، وهي تحريف لكلمة (مُكَلًّا)؛ ومُكَلًّا صيغة عربية مشتقة من الكلمة الفارسية (كلاه) ومعناها: القلنسوة، أو هي من المقلة العربية التي معناها الشمس، كالشمسية التي تقي من الشمس، وكان العلماء ورجال الدين والأدب يلبسون العمام الواسعة ويسمون بها (مُقْلَةً).

ينظر إلى: رجب عبد الجواد ابراهيم، المرجع السابق، ص 475.

² - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 224.

³ - سنتطرق إلى ترجمته في الفصل الموالي.

⁴ - ابن مرزوق، نفسه، ص 177.

⁵ - عبد الله الثغري التلمساني، المصدر السابق، ص 250.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

النخبة العالمة، الذي ظل شكله على قدر كبير من الأهمية عندهم، وجاء في مناقب التلمسانيين كذلك على أن "ابو محمد الشريف التلمساني أنه كان رفيع الملبس"⁽¹⁾.

اختيار لبس الناعم والرفيع من الثياب عند العلماء نابع من قناعتهم الراسخة بأن ذلك فضائل الدين، والمسلم لا ينبغي له أن يكون رث الملبس قبيح المنظر، ويؤكد "السهروردي" في (عوارف المعارف) ذلك قائلاً: «وأما الناعم فلا يصلح إلا لعالم بحاله، بصير بصفات نفسه، متفقد، خفي شهوات النفس يلقي الله تعالى بحسن النية في ذلك، فلحسن النية في ذلك وجوه متعدد يطول شرحها»⁽²⁾.

وردت نازلة عند "المازوني" تنظر في مختلف أشكال اللباس المعتمدة لدى هذه الفئة المتصوفة، وحدد لها ضوابط تجنبها شبهة البدعة والرياء والشهرة، كما وضع لها مقاصد تبرر اختيارها وتشجع لإقبالهم عليها⁽³⁾، حيث قال: «وقد سئلت عن بعض لباس هؤلاء المتهمين للخز والمسموح والصوف الخشن الأسود فأنكرت ذلك. وسئل مالك عن اللباس الخشن من الصوف فقال: لا خير في الشهوة وينبغي أن يخفي الإنسان من عمله. وسئل في موضع آخر عن لباس الصوف وهو قادر على الثياب البيض فقال: لا أحبه لما فيه من الشهوة، وينبغي أن يخفي الإنسان من عمله، فقليل له إنما يقصد بهذا التواضع. قال قد يجد بثمنه من غليظ القطن ما يقوم مقامه، فأنت تراه كيف أنكر هذه فكيف به لو سئل عن لباس المسموح والثياب السود من الصوف»⁽⁴⁾.

ويستدل بذلك فيما ورد عن النبي ﷺ في قوله: «اليسوا البياض وكفنوا فيه موتاكم فإنه من أفضل لباسكم»⁽⁵⁾، فلباس البياض هو رمز للتواضع وسنة الاقتداء بالنبي ﷺ، لما فيه من من أفضلية على غيره من الصوف الخشن السود والخز.

¹ - عبد الله الثغري التلمساني، المصدر السابق، ص 280.

² - السهروردي، المصدر السابق، ص 162.

³ - صابر سوسي، المرجع السابق، ص 14.

⁴ - أبو زكريا المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج5، تحقيق: مختار حساني، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009م، ص ص 352.

⁵ - سنن أبي داود، المصدر السابق، ص 168.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

كذلك نجده يعترض على ذلك بدعوى التشبه برهبان النصارى ومخالفة المرجعية الفقهية المالكية، إذ يقول: «فهذه الصفة مخالفة الحديث ولما روي عن "مالك"، وقد رأيت من الأئمة الذين أخذت عنهم في هذه إلا التشبه برهبان النصارى، فقد اشتهروا بهذا الزي حتى قال فيهم الشاعر:

أَصْوَاتُ رُهْبَانٍ دِيرٌ صَلَاتِهِمْ سُوْدُ الْمَدَارِعِ مُعَارِينَ فِي السَّحْرِ

وقد ختم القاضي "ابن الطيب" كتاب الهداية له بكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذكر من بعض فصول الأمر التشبه بزي لا يجوز التشبه به، "وهذه الخيالات يستمال بها قلوب العوام ويريهم الإنسان أن سواد قلبه عن الحزن كسواد لباسه وهو مساخر وملاعب..وقيل في رجل أظهر من الخشوع والمسكنة فوق ما هو عليه، أترى هذا أخشع من عمر الذي كان ينزو على الفرس من الأرض، وهؤلاء الخلفاء الراشدون لم ينقل عنهم أن هذا المقدار هو كان لباسهم وزيهم، فان ظن أخرج أن يفعل في اللباس وغيره ما هو أولى عند الله وأنه اجتهد فيما فرطوا فيه أو عرف ما لم يعرفه فقد خلع ربقة العقل والمسكنة في هذا الدين من ربقتة، وهذا الإفراط في التقشف قد نهى عنه ﷺ وأنكر على قوم من أصحابه ما أرادوه من التبتل، وأخيرهم أنه أخشاهم لله لما طلبوا منه التبتل، فأعلمهم أن التقرب إنما هو بين رؤوسهم والوقوف عند ما به حكم. فقال: لا رهبانية في الإسلام، فينبغي أن يشنع على من ما به جهل بما ذكرناه ولم يتعلمه أن ينفر العامة منه"⁽¹⁾، وإذا كانت الملابس لا تصنع الصوفي بالضرورة، فإنها علامة على المكانة الاجتماعية والدينية المستحقة⁽²⁾.

هـ - لباس الفقراء: يترجم "القلصادي" في رحلته أحد شيوخه الذي أخذ عنهم بتلمسان وهو "يوسف الزيدوري"، إذ يقول: «ومنهم شيخنا الفقيه المتفنن في المعقول، وكانت له همة عالية بحيث لا يلتفت إلى أحد من أبناء الدنيا، فعزت نفسه عن دنى الكسب، ورغب بها عما

¹ - أبو زكريا المازوني، المصدر السابق، ص ص 352 - 353.

² - ياسر بنهيمة، المرجع السابق، ص 13.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

يهين الطالب، وحقن ماء وجهه عن التعرض لما يحمد تاركه شرعا، ويذم فاعله عادة وطبعاً، فكان لباسه كساء صوف لا غير»⁽¹⁾.

يشير إلى عادة علماء وزهاد تلمسان في التعفف عن الدنيا وزهرتها، والكف إلى ما في أيدي الناس وكان لباسهم دائماً الصوف، ويستشهد في ذلك ما ذكره "الشافعي" من أبيات تصور لنا حالة العلماء في اللباس يقول:

عَلَيَّ ثِيَابٌ لَوْ يُبَاعُ جَمِيعُهَا بِفِلْسٍ لَكَانَ الْفِلْسُ مِنْهَا أَكْثَرَ
وَفِيهِنَّ نَفْسٌ لَوْ يُقَاسُ بَعْضُهَا جَمِيعَ الْوَرَى كَانَتْ أَعَزَّ وَأَخْطَرًا
وَمَا ضَرَّ نَصْلُ السَّيْفِ تَمْزِيقُ غِمْدِهِ إِذَا كَانَ عَضْبًا حَيْثُ وَجَّهَتْهُ إِبْرًا⁽²⁾

وفي هذا الصدد يذكر "ابن مرزوق" عن الشيخ "أبو عبد الله ابن البلد"⁽³⁾ "أنه كان يكتسي من عند جد "بن مرزوق" في كل سنة فضلة من قطن وإحراماً خشناً"⁽⁴⁾، ففي كل سنة يقول: «انظروا لي أخشن من هذه»⁽⁵⁾، ولبس الخشن من الثياب هو الأحب والأولى والأسلم للعبد، والأبعد عن الآفات⁽⁶⁾، فضلاً على أن الفقراء كانوا "يلبسون المرقع وربما كانوا يأخذون الخرق من المزابل ويرقعون بها ثوبهم"⁽⁷⁾.

وقيل لبعض الصوفية "ثوبك ممزق قال: ولكنه من وجه حلال، وقيل له وهو وسخ قال: ولكنه طاهر"⁽⁸⁾، تظهر ملامح التقشف والتوبة من خلال ما ارتضاه هؤلاء الصوفية في لباس الفقر ولا يمكن استبدالها بملابس أخرى مهما اقتضت الظروف، وهذا الصنف من

¹ - القلصادي، المصدر السابق، ص ص 100 - 101.

² - نفسه ص 101.

³ - هو الفقيه الصالح العاكف أبو عبد الله ابن البلد، من كبار الأولياء المتقشفين، كان يفضل اللباس الخشن ويأكل الشعير، ويتعيش بنسخ يده، وقبره بمسجد صالح من العباد، ينظر إلى: يحيى ابن خلدون، ج 1، ص 156.

⁴ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 185.

⁵ - نفسه، ص 185.

⁶ - السهروردي، المصدر السابق، ص 164.

⁷ - نفسه، ص 161.

⁸ - نفسه، ص 160.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

اللباس هو الأكثر حضوراً في أخبار الصوفية، إذ اعتمده عدد غير هين منهم للدلالة على قطعه مع علائق الدنيا والانتساب إلى التصوف⁽¹⁾.

ولباس الفقر هاهنا يقترن بفئة المتصوفة الذين آثروا حياة الزهد؛ فمنهم من كان ميسور الحال وفضّل هذا الأسلوب، ومنهم من كان ولياً صالحاً فقيراً فتأقلم مع تردي الأوضاع المعيشية "وهكذا الصادقون إن لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم في ذلك فلا يعترض عليهم، غير أن لبس الخشن والمرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقلل من الدنيا وزهرتها وبهجتها، وقد ورد: من ترك ثوب جمال - وهو قادر على لبسه - ألبسه الله تعالى من حلل الجنة"⁽²⁾.

4. لباس أهل الذمة : أمّا أهل الذمة من اليهود والنصارى؛ فقد كان لهم لباسهم الخاص بهم يميزهم عن بقية المسلمين بالمدينة⁽³⁾، تشير المصادر الجغرافية إلى أنّ اليهود كان لهم "حارة" حارة تضم حوالي خمسمائة دار لليهود كلهم تقريباً أغنياء، يضعون على رأسهم عمامات صفراء، لكنهم لم يبقوا أغنياء إلا لفترة من الزمان، إذ نهبت أموالهم بعد موت الملك أبي عبد الله عام (923هـ/1517م)، فأصبحوا اليوم يكادون يتكفون الناس"⁽⁴⁾.

ولبس العمام الصّفرَاء كانت من الألبسة المشهورة لدى اليهود في تلمسان، وعرفوا في التاريخ باسم (مرتدي العمام)، والقادمين الجدد باسم (مرتدي قلنسوة) مربعة الشكل (biretta)⁽⁵⁾، كما اضطرّوا رسمياً إلى ارتداء زي خاص مثل: شاشيا، قماشة من قماش ذو اللون الداكن واللون الرمادي، وأحذية بدون كعب⁽⁶⁾، ونستشف من كلام "المقري" في نفتح

¹ - صابر سوسي، المرجع السابق، ص 02.

² - السهروردي، المصدر السابق، ص 162.

³ - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 269.

⁴ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 20.

⁵ - للمزيد من الاطلاع أكثر ينظر إلى ما كتبه وليام مارسيه في الموسوعة اليهودية ما بين 1901-1906، ص 07. في الموقع

الالكتروني: <http://www.jewishencyclopedia.com>

⁶ - نفسه، ص 07.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

الطيب أنَّ الغالب على اليهود في لباسهم هو (الغفائر) المنسوجة من الصوف، كثيرا ما يلبسونها حمرا وخضرا وصفرا، ولا سبيل ليهودي أن يتعمم البتة⁽¹⁾.

ذكر "العقباني" في تحفة الناظر اعتبر تظاهر أهل الدِّمة بمشاكله المسلمين في زي الملبس والمركوب؛ الذي يميزهم عن المسلمين من العادات المنكرة، التي يجب تأديبهم على فعلها وينكلون على صنيع ذلك، والحكم الشرعي في ذلك على حد قوله:

• استحباب الدِّلة لهم والصغار⁽²⁾، مستشهدا بقوله تعالى: ﴿قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾⁽³⁾.

• أن يُعرفوا بذلك عن المسلمين، حتى لا يبدووا بالسلام لنهي النبي ﷺ عن ذلك، على ما جاء عنه عليه السلام قال: «إن راكبون غدا إلى يهود ان شاء الله فلا تبدووهم بالسلام، وإذا سلموا عليكم قولوا وعليكم»⁽⁴⁾، وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تبدووا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقتها»⁽⁵⁾.

تُعدُّ الزنابير من الألبسة التقليدية لدى اليهود، بحيث يجب أن تكون "زنابيرهم عريضة في وجه الثوب ليعرف بها، فمن ركب النهي عنها ضرب عشرين سوطا مجردا ثم صير للحبس، فإن عاد ضرب ضربا موجعا وبولغ وأطيل حبسه"⁽⁶⁾، بالإضافة إلى لباس آخر فضفاض يدعى بـ: (الشُّكْلَةُ الصَّفْرَاءُ)، قال العقباني: «وعلامه الذكور من اليهود الشُّكْلَةُ

¹ - المقري، المصدر السابق، ج1، ص ص 212 - 213.

² - العقباني، المصدر السابق، ص 168.

³ - سورة التوبة، الآية رقم 29.

⁴ - العقباني، نفسه، ص 168.

⁵ - نفسه، ص 168.

⁶ - الونشريسي، ج2، المصدر السابق، ص 137.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

الصَّفْرَاءُ فوق الإحرام لا تحته، لأنه قد يُشكَلُ إذا أعطى بظهره»⁽¹⁾، ويرجع أصل منشأ هذا اللباس من البلد نفسه، أي من تلمسان وفق ما ذكر العقباني⁽²⁾.

من علامات تغير حال اليهود بما يظهرون به عن المسلمين كما أفتى في ذلك "العقباني"، أنهم كانوا "يكلفون تغيير أطرافهم واتخاذ علم يتميزون به، فهذا مما فعل قديما وحديثا في الأمصار الكبار، فظاهر هذا أنه عام في الذكور والإناث، والصواب إن كانت تكثر مخالطتهن لنساء المسلمين ويكثر خروجهن أن يُلْزَمَنَّ وإلا فلا، والعادة عندنا في تونس أن نساء النَّصَارَى يستترن كالمسلمات غالبا من غير علامة ومنهن من يلتزم زي النَّصَارَى"⁽³⁾.

ومن عادات النساء اليهوديات في اللباس، بأنهن كنَّ يمشين بالقرق أو حافية، كذلك الكِسَاءُ الفِيلالي، قال "العقباني": «وزي النساء - في تلمسان - منهم الالتحاف في الكِسَاءِ الفِيلالي دون نقاب من كتاب ولا غيره، وإنما يستترن وجوههن بطرف من الكساء نفسه بأيديهن»⁽⁴⁾، وكان عندهم لباسا آخر يسمى بـ: (لباس الكبُّوس) "ومن كان أصله وأصل سلفه من أرض النصارى فكبُّوسٌ مِنْ مَلْفٍ له ذُوَابَةٌ من وراء القفا، وزُنَّارٌ من مَلْفٍ أيضا في الغالب"⁽⁵⁾.

كما كانت العَمَائِمُ السُّودِ والحُمْرِ من الألبسة التقليدية عند النصارى، "فلهم زي على رؤوسهم يلزمونه، وقد كان بعضهم تزي على رأسه بزي المسلمين فألزمهم السلطان زواله ويَتَزَيُّ بِزِيِّهِمْ، وَزَيُّ النَّبْطِ في البلاد المشرقية لبس العمام السُّودِ الزَّرْقِ والسَّامِرِيَّةِ لبس العمام الحمر"⁽⁶⁾.

وأصدر "الونشريسي" في ذلك فتوى تحدد لهم شروط لبس العمام بما يليق وفق الشريعة الاسلامية، حيث قال: «فعلى هذا إذن يجوز لهم لبس العمامة على شروط منها أن

¹ - العقباني، المصدر السابق، ص 169.

² - نفسه، ص 170.

³ - نفسه، ص 169.

⁴ - نفسه، ص 170.

⁵ - نفسه، ص 170.

⁶ - نفسه، ص 169.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

تكون لطيفة قريبة الثمن، لا تكون رفيعة غالية من رقيق الكتان ولا من الشروب، لأنَّ في ذلك التباهي على المسلمين، وأن لا يعظموا أكوار عمائمهم، وأن لا يرسلوا لها ذوائب بين أكتافهم وأن لا يجعلوا لها أحناكا وهو العثون تحت الذقن، فإنَّ ذلك من زي العرب وزي رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، وفي ذلك وقار الاسلام فوجب منعهم من ذلك لهذه المعاني، فان في ركوبهم السروج ولباسهم الغالي من الثياب التباهي على الاسلام، والعمائم تيجان العرب وبهاء الاسلام، فمنعوا من التباهي في ذلك إلا ما صغر منها ولطف قدرها مما لا تباهي فيه، وهي أيضا من معتمدات شريعة الاسلام لقوله ﷺ اعتموا تزدادوا حلما⁽¹⁾، جعل للباس أهل الذمة أعراف تحدد لهم طريقة اللباس وفق ما يقتضيه المرجعية الدينية الاسلامية.

لبس أهل الذمة الخاتم ما صغر منه ورق، وفي ذلك يجوز "الونشريسي" بقوله: «وكذلك يجوز لهم من لباس الخاتم ما صغر ورق ولطف قضيبه، ويكون فصحه زجاجا مما لا مباحة فيه على الاسلام، ولا يمكنون من النقش على خواتيمهم بالعربية»⁽²⁾ كما "لا يباح لهم لباس الأصفر من الألوان لأنه من لباس الصحابة والخلفاء والأشراف"⁽³⁾.

كذلك من الأعراف الملزمة لأهل الذمة في اللباس والغيار، بغية تمييزهم عن المسلمين والتي أوردها "الونشريسي" في المدونة النوازلية قوله: «فالواجب على حاكم المسلمين أن يلزمهم التميز عن المسلمين في اللباس وأن يمنعهم من فاخر الثياب، ومن لون الأصفر ويلزمهم الغيار ويقلدهم دنانير النحاس أو الرصاص أو القزدير في رقابهم ويدخلون بها الحمام، وإن لبسوا قلانس تكون لطافا مقاربة، ويكون في وسطها أو أعلاها رقاع من لبود حمر أو خرق حمر تخالف ألوان القلانس ليعرفوا بها، ويشدون الزنانير على أوساطهم، ويكون أحد خفي نسائهم أسود والآخر أبيض أو أحمر، وقد رأيت ذلك وشاهدته ورأيتته بدار

¹ - الونشريسي، ج2، المصدر السابق، ص 255.

² - نفسه، ص 255.

³ - نفسه، ص 255.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

الاسلام وحضرة الخلافة ببغداد، ويكون غيارهم الزنار فقط على أوسطهم، وأن لا يكلفوا غيار الجرس في رقابهم ولا الرقاع المصبوغة على ثيابهم»⁽¹⁾.

بما أن تقاليد اللباس تقتضي الامتثال للمنظور الديني الاسلامي، فكان لزاماً على اليهود بأن يعملون بأعراف اللباس المحددة لهم من طرف السلطة الزبانية، "فليلهودي رقعة مخيطة على قميصه أو برنسه أو جيبته من نحو الشبر من طوقه إلى آخر الكتفين، ورقعة أخرى من قدها على الصدر مصبوغتان بالزعفران، وعلى النصراني مثل ذلك غير أن صبغهم بالأخضر من العفصا والزجاج، وطرف عمامة كل واحد من الفريقين خاتم شبه دينار من نحاس أو قزدير معلق على صدره، وعلى وسط كل واحد منهما زنار مبسوط في عرض الأصبع من حرير أو قطن، هذه صفة غيار آل الذمة بحضرة الخلافة دار الاسلام حرسها الله".⁽²⁾

5. لباس المرأة: لاشك أن لباس المرأة التلمسانية كان لباسا نابعا من الواقع التقليدي الخاص بالمنطقة وثقافة أهلها؛ إذ كان له الطابع المميز حيث غلب عليه الأناقة والنفاسة والذوق التقليدي كما جرت عليه العادة عندهم، وهذا ما وصله عبد الرحمان بن خلدون في مقدمته بالعمران الحضري الذي يهتم بتفصيل الملابس "قطعا مناسبة للأعضاء البدنية، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلوا أو حبكا أو تنبينا أو تفتيحا على حسب نوع الصناعة"⁽³⁾.

ويذكر "مارمول كاربخال" أن: "لباس التلمسانيين أكثر أناقة مما هو عليه الحال بفاس، وهو من نسيج الصوف والكتان والحرير، النساء جميلات وزيهن كزي نساء مراکش"⁽⁴⁾. وبما أن الأزياء والملابس التي كانت ترتديها نساء أهل تلمسان أكثر أناقة وتشبه إلى حد كبير الأزياء الفاسية والمراكشية؛ فإن العادة في ذلك اقتضت أن تكون الألبسة متكيفة والبيئة

¹ - الونشريسي، المصدر السابق، ص 256.

² - نفسه، ص 257.

³ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 324.

⁴ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 300.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

الحاضنة والمؤثرة في طريقة ونوعية اللباس، حيث "لا يرتدين في أيام الحر سوى قميص يجزمنه بنطاق لا يخلو من قبح، ويلبسن في الشتاء لباسا عريض الأكمام ونخيفة من أمام كتياب الرجال"⁽¹⁾.

أ - السروال: أصل الكلمة من (شلوار) الفارسية، وكان يستعمل للرجال والنساء⁽²⁾، وكان النسوة يلبسن السراويل عندما يخرجن من المنزل، إذ يقول الحسن الوزان: «وعندما يخرجن يلبسن سراويل طويلة تستر كل سيقانهن»⁽³⁾، حيث يكون شكله أحيانا ضيقا يصل إلى الكعيبين وأحيانا أخرى واسعا على العادة المنتشرة والمعروفة في الوسط الاجتماعي الحضري. عادة ما كن يرتدين في فصل الشتاء أقمصاة عريضة الأكمام من القماش الناعم⁽⁴⁾ مع سراويل طويلة تسترهن، وكانت النسوة الميسورات خاصة الحرائر داخل البلاط الزياني؛ يلبسن ألبسة مطرزة بالذهب ومزينة بفضيرة ذهبية، ثم يرفعن من فوقها قفطان من القماش مغطى بالتطريز وبأكمام قصيرة، حزام ذهبي (حازم) مرتان حول الخصر، يستخدم لتثبيت وإخفاء مفاتها، وهي قطعة من الحرير المطرز، ذات لون ناصع يصل إلى نصف الساق للخروج⁽⁵⁾.

ب - الخمار: وهو الذي تلبسه المرأة لتختفي به عن أعين الناس من غير المحارم⁽⁶⁾، وهو أقرب إلى الحجاب الذي يستر عورة المرأة ومحاسنها عن أعين الأجانب والغرباء الذي كان متوفر كذلك عند المرأة الزيانية، كما يصف الوزان قائلا: «وخمارا.. يغطي الرأس وسائر الجسم»⁽⁷⁾.

¹ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 251.

² - Dozy (R), Dictionnaire détaillé des noms, des vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1845, p p 204- 297.

³ - الحسن الوزان، نفسه، ص 252.

⁴ - Paul Eudel, Op cit, p 431.

⁵ - Ibid, p 431.

⁶ - نبيلة عبد الشكور، المرجع السابق، ص 479.

⁷ - الحسن الوزان، نفسه، ص 252.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

وانفرد الحموي في ترجمته لمدينة تلمسان بذكر لباس أختص به نسائها فقال: «وتتخذ النساء بها من الصوف أنواعا من الكنايش لا توجد في غيرها»⁽¹⁾، والكنبوش كما قال دوزي هو "صنف من الخمار تلبسه نساء المغرب والأندلس"⁽²⁾، وهذا المصطلح مرادف للكلمة الإسبانية (Cambux) التي تشير إلى قناع أو خمار أو نقاب يغطي الوجه⁽³⁾.

ج- الشاشية: وترتدي النسوة ثيابا وألبسة مختلفة الأنواع والألوان، سواء من صنع وحياسة اليد التلمسانية، أو من الثياب المستوردة من العالم الإسلامي مغربا ومشرقا وأندلسا⁽⁴⁾، منها الشاشية المجلوبة من الأندلس⁽⁵⁾، والتي كانت المرأة تضعها على رأسها حتى عند خروجها، وهي تلك القبعة القماشية المخروطية الشكل، تغطي الرأس وتتميز بجملة جميلة على الذوق التلمساني.

تمثل الشاشية لباسا تقليديا يغطي رأس المرأة والرجل على حد سواء، وهو لباس على هيئة العمامة يُلْفُ عليه الشاش⁽⁶⁾، وقد تطلق الشاشية على غطاء من أغطية الرأس يُتَّخَذُ من الذهب⁽⁷⁾، كما هو متعارف عليه في بالشاشية السلطانية المطرزة بخيوط الذهب في تلمسان⁽⁸⁾، كانت النسوة من علية القوم يرتدينها، لأنها تضيء مكانة كبيرة وهيبة موقرة.

د- الحايك: كن النسوة بتلمسان يُلْفُفنَ أنفسهن بالحايك، وهو عبارة قطعة كبيرة من الصوف الأبيض تغطيهن بالكامل، ويتم ثنيها لإخفاء وجههم⁽⁹⁾، تاركين عينا واحدة فقط مرئية تسمى (عوينة)، وللسير تثبت بإحكام المرأة طرفي الحايك تحت إبطيها ويديها تصنع فتحة لعين واحدة، إنه يختلف عما كان يرتديه الرجال، وبما أنه من الصوف فهو إذا ثقيل أبيض،

¹ - ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 44.

² - دوزي، المرجع السابق، ص 345.

³ - نفسه، ص 345.

⁴ - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 269.

⁵ - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 173.

⁶ - دوزي، نفسه، ص 253.

⁷ - نفسه، ص 253.

⁸ - عبد العزيز فيلاي، نفسه، ص 269.

⁹ - Paul Eudel, Op cit, p 431.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

ويبدو أنّها عادة غرناطية أندلسية انتقلت إلى تلمسان وبقيت إلى غاية العقود الأخيرة من القرن 14هـ/ 20م على الأقل⁽¹⁾.

وهي طريقة تصعب بها حركة المرأة إذ تنشغل بالحفاظ على جسدها مستورة، وهي في واقع الأمر مثبطة للمرأة، لا تخرج إلا عند الضرورة، وهو أمر مقصود من الفقهاء. هو لباس للحرائر أمّا حجاب الأمة فهو قطعة من كتان تغطي بها الرأس إلى الحزام، لكن "الحسن الوزان" في كتابه جعل لباس (الحجاب والخمار) شيئاً واحداً، واعتبر هذا الرداء الذي تستر به المرأة وجهها وسائر جسمها عادة شامية، فقال: «وخمارا على عادة نساء الشام يغطي الرأس وسائر الجسم، ويحجب الوجه كذلك بقطعة من قماش لا تظهر منهن إلا عيونهن»⁽²⁾.

هـ - الجُبَّة: وبما أن (الجُبَّة) لباس يرمز للتصوف والزهد والأخلاق؛ فإنه لم يكن حكراً على الرجال فقط؛ بل كان لباساً يرتديه النسوة المتصوفات الزاهدات العابدات من أهل تلمسان، وبالتالي هو ثوب مشترك بين الجنسين.

وتجدر الإشارة هنا إلى الولية الصالحة (مؤمنة التلمسانية) التي ترجم لها "بن قنفذ" في أنس الفقير بأنها امرأة زاهدة عابدة برز مقامها في مجال التصوف والروحانيات، ورآها مرة: "عليها جُبَّة صوف وعلى رأسها طرف من تليس معقود تحت ذقنها وشيب رأسها ظاهر على جُبَّتِها"⁽³⁾.

وتفيدنا بعض الدراسات في طريقة نسج الجبة بأن "ينتهي غطاء الرأس بصفائر من خيوط النسيج المفتولة، تفصل بينها شبه لوزات صغيرة وتزين جهة الظهر بأحزمة أفقية من الصوف الرقيق أو الحرير بألوان مختلفة، وأشكالها هندسية مشكلة قطعة واحدة تتوسط ظهر البرنس"⁽⁴⁾.

¹ - فوزي سعد الله، الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم، ج2، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016م، ص 205.

² - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 252.

³ - للمزيد من الاطلاع أكثر حول (مؤمنة التلمسانية) ينظر ترجمتها في كتاب أنس الفقير لابن قنفذ، المصدر السابق، ص ص 80 - 81.

⁴ - نبيلة عبد الشكور، المرجع السابق، ص 434.

الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل

جرت العادة أن تتزين المرأة التلمسانية في مناسبات احتفالية كالأعراس والأعياد والأفراح، بمواد التجميل والحلي بمختلف أنواعه؛ خاصة بالأقراط والخواتم والمجوهرات الرائعة، المصنوعة من النحاس والذهب والفضة يظهر فيها تأثير الفن الأندلسي⁽¹⁾، وتتمثل مواد التجميل في الحناء المنقوشة لتخضيب اليدين والرجلين، والسواك والكحل⁽²⁾، ويتم تعطير بعض أجزاء الجسم كالوجه والعنق والرأس واليدين بزيت المسك والياسمين والعنبر والرياحين وغيرها ذات الأصل النباتي والحيواني⁽³⁾.

بينما تحسنت بعضهن بتقاليد مختلفة منها الوشم، الذي اعتبره أحد المستشرقين بأنه من العادات المتبعة عند البربر والمتوارثة فيهم منذ العصور التاريخية القديمة⁽⁴⁾، والوشم هو رسم أشكال ورموز على جلد المرأة بواسطة إبرة، في معصمها أو على ظهر يديها أو على كعب القدم، قصد التزيين لفترة دائمة⁽⁵⁾ وتجميل مظهرهن، وعلى ما يبدو أنّ عملية التجميل بالوشم لم يقتصر على النساء المتزوجات بل استخدمته الفتيات أيضا، لغرض الشفاء من الأمراض أو إبعاد عين الحساد وما شابه ذلك من معتقدات فاسدة سنتطرق لها في حينها.

ويضعن في آذانهن أقراطا كبيرة من ذهب مرصع بججارة كريمة بديعة، وفي معاصمهن أساور من ذهب كذلك، سوار في كل ساعد قد تبلغ زنته مائة مثقال، وتحلى نساء غير الأعيان بأساور من فضة⁽⁶⁾، ويضعن خلاخل مثلها في أرجلهن⁽⁷⁾، مع الأحذية المصنوعة من الجلد الناعم والمطرز بمختلف الألوان، كالصنادل والأخفاف والجوارب.

¹ - Paul Eudel, Op cit, p 422.

² - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 269.

³ - محمد بوسلام، اللباس التقليدي في المغرب - الجذور والإنتاج والأصناف والتطور -، ط1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2014م، ص ص 165 - 166.

⁴ - Stéphane Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique de Nord, Tome 6, Les royaumes indigènes vie matérielle, intellectuelle et morale, Paris, 1927, p 12.

⁵ - نبيلة عبد الشكور، المرجع السابق، ص 499.

⁶ - Paul Eudel, Ibid, p 428.

⁷ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 252.

الفصل الثالث: عوائد الزيايين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات

الشائعة

أولاً: عاداتهم في التصنيع والمهنية

1. الجودة في الدقة والتصنيع
2. العمران ورمزية الاشارة
3. الانتظام في الاسواق
4. عوائد منبوذة داخل المجتمع أنكرتها المدونة النووازية والكتب الفقهية - العقباني (تحفة الناظر أنموذجا) -

ثانياً: عادات شائعة في المعتقدات والطقوس

1. المراسيم الجنائزية وطقوس الممارسة
2. المزارات والقبور والتبرك
3. الرثاء
4. عادات تقبيل اليد
5. معتقدات أخرى

ثالثاً: ما جرى عليه العرف في الأسماء والألقاب

1. لقب الامارة
2. لقب المدينة
3. الشرف (جدلية النسب والانتماء)
4. الأوصاف العلمية والأخلاقية للنخبة العاملة بتلمسان (العادات الاخلاقية)
5. تقاليد طلب العلم وطرق تحصيله عند النخب التلمسانية الواردة في رحلة القلصادي

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

أولاً: عاداتهم في التصنيع والمهنية

يَرْمُزُ مُصْطَلِحُ الْجُودَةِ فِي مَجَالِ التَّصْنِيعِ وَالْمِهْنِيَّةِ؛ إِلَى الدَّقَّةِ فِي اتِّقَانِ الْعَمَلِ وَالْإِبْدَاعِ فِيهِ وَتَطْوِيرِهِ، بِحَيْثُ يَكُونُ خَالِياً مِنَ التَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ وَالتَّبَايُنَاتِ الْكَبِيرَةِ، وَهُوَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ مِقْيَاسٌ لِلتَّمْيِزِ وَالتَّفُوقِ لِلنَّاتِجِ الْمَحْلِيِّ، حَيْثُ يُلَبِّي حَاجَاتِ الْمُجْتَمَعِ عَلَى مَخْتَلَفِ الْمَسْتَوِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالْاِقْتِسَادِيَّةِ.

وَنَكَادُ نَجْزِمُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ الزِّيَانِيُونَ؛ كَانُوا عَلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْكِفَاءَةِ الْعَمَلِيَّةِ، الَّتِي أَهْلَتْهُمْ إِلَى تَصْنِيعِ آلَاتٍ مَخْتَلِفَةٍ مُتَقَنَةٍ وَمُتَطَوَّرَةٍ فِي عَصْرِهِمْ، وَصَنَفَتْهَا الْاِسْطُوغْرَافِيَا التَّارِيخِيَّةُ أحياناً (بِالْعَجَبِيَّةِ) وَأُخْرَى (بِالدَّقِيقَةِ) وَأُخْرَى (بِالْفَائِيقَةِ)، فَالْحَاجَةُ وَلَيْدَةُ الْاِخْتِرَاعِ فِي تِلْمَسَانَ الزِّيَانِيَّةِ، كَمَا هُوَ الْحَالُ عَلَيْهِ عَلَى عَهْدِ "أَبِي حُمُو الثَّانِي" سَنَةَ (767هـ/1366م) الَّذِي اعْتَنَى بِالصَّنَاعَةِ أَيْمًا اعْتِنَاءً، وَيُقَدِّرُ أَصْحَابَهَا وَيُشَجِّعُهُمْ عَلَى اخْتِرَافِهَا، بَلْ وَضَعَهُمْ فِي فِئَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ ثَلَاثِيَّةٍ مَرْتَبَةً الْأَشْرَافِ وَالْفُقَهَاءِ مُبَاشَرَةً⁽¹⁾.

ظَهَرَ فِي تِلْمَسَانَ أَيَّامَ الدَّوَلَةِ الزِّيَانِيَّةِ مَنطِقَةٌ صِنَاعِيَّةٌ خَاصَّةٌ تَجَمَّعَتْ فِيهَا مَخْتَلَفُ الصَّنَاعَاتِ دَاخِلَ الْمَدِينَةِ، وَهِيَ بِمَثَابَةِ الْمَدُنِ الصَّنَاعِيَّةِ الَّتِي نَعْرِفُهَا الْيَوْمَ⁽²⁾، عَرَفَتْ هَذِهِ الْمَنطِقَةَ بِاسْمِ (دَارِ الصَّنَعَةِ)، وَكَانَتْ وَاضِحَةً لِلْمُؤَرِّخِينَ دَاخِلَ الدَّوَلَةِ الزِّيَانِيَّةِ، فَوَصَفَهَا "يَحْيَى بْنُ خَلْدُونَ" قَائِلاً: «سَوَى أَنَّ دَارَ الصَّنَعَةِ السَّعِيدَةَ تَمُوجُ بِالْفِعْلَةِ، عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ وَتَبَايُنِ لِعَاثِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ، فَمَنْ دَرَّاقَ وَرَمَّاحَ وَدَرَّاعَ وَلَجَّامَ وَوَشَّاءَ وَسَرَّاجَ وَخَبَّاءَ وَنَجَّارَ وَحَدَّادَ وَصَائِغَ وَدَبَّاجَ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَتَسْتَكُّ لِأَصْوَاتِهِمْ وَأَلَاتِهِمْ الْأَسْمَاعَ، وَتَحَارُّ فِي إِحْكَامِ صِنَائِعِهِمْ الْأَذْهَانَ، وَتَقِفُ دُونَ بَحْرِهِمْ الْهَائِلِ الْأَبْصَارَ، ثُمَّ تَعْرِضُ قَوْمَتَهُمْ أَصِلَانَ كُلِّ يَوْمٍ مَصْنُوعَاتِهِمْ فِيهِ بَيْنَ يَدَيْ الْخَلِيفَةِ أَيَّدَهُ اللَّهُ، وَيُخْزَنُ كُلُّ بَحْجَارِ صَنْفِهِ الْمُعَدِّ لَهُ، وَيُنْصَفُ الْجَاعِلُونَ مِنْ أَرْزَاقِهِمْ عَدْلًا»⁽³⁾.

¹ - عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص 221.

² - شقدان عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 190.

³ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 155.

الفصل الثالث: عوائد الزبانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

امتلكت تلمسان الزبانية كل مقومات التفوق الصناعي في مختلف المجالات، استناداً لما أتت عليه المصادر من وصف لمصانعها، فعلى غرار صاحب بغية الرواد؛ هاهو "بن الحاج النميري" يقول عنها: «ومصانع يعجز عن وصفها كل لسان»⁽¹⁾، ويؤكد على ذلك "المقري" في قوله: «وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة»⁽²⁾، وبذلك تكون تلمسان اشتهرت بأسمك مصانعها⁽³⁾ في مواد كثيرة، كصناعة السفن والنسيج واستخراج المعادن ومواد البناء⁽⁴⁾ وغير ذلك.

ووصى "أبو هو موسى الثاني" ابنه في أن يتخذ من كل يوم جمعة وقتاً معيناً لزيارة دار الصناعة، ولتتفقد أحوال مملكته⁽⁵⁾، ولتكن عاداته جارية في الفضل على أهل الحرف والعاملون بها، باعتبارهم مكون رئيسي في ابراز الحضارة الزبانية وقوة اقتصادية مهمة، وقد بين ذلك في وصيته لابنه قائلاً: «مثل أهل التجارات وأهل الحرف والصناعات، فتنزل كل جماعة منزلتها وترتبتها في طبقتها، ولتكن عوائدك جارية بالفضل عليهم وأياديك منبسطة إليهم، فرما تدعوك الضرورة إلى الاثتفاع بهم في الشدائد، فيقفون معك الموقف المرضي في المصادر والموارد، وذلك لحسن مدافعتك عنهم، وتوثقك بالاحسان عنهم، ولتكن معاملتك معهم بما يليق من إكرامهم وحفظهم واحترامهم»⁽⁶⁾.

1. الجودة في الدقة والتصنيع (المنجاة، الدجاجة العجيبة، الشجرة العجيبة، ثرية المسجد)

ستتطرق في هذا الفصل إلى عرض مفصل حول ما تم تصنيعه في تلمسان من ساعة (المنجاة والدجاجة العجيبة والشجرة العجيبة وثرية المسجد)؛ بناءً على ما ورد ذكره في كتب التاريخ والرحالة الجغرافيين، التي ائفقت على مدى التطور الحضاري للمجتمع التلمساني في ذلك، فضلاً على اكتساب مدينة تلمسان شهرة واسعة في التصنيع كما قال

¹ - ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 546.

² - المقري، نفع الطيب، المصدر السابق، م 9، ص 354.

³ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 133.

⁴ - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 223.

⁵ - أبو هو موسى، المصدر السابق، ص 151.

⁶ - نفسه، ص 152.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

"يحيى بن خلدون" في البغية: «مدينة عريقة في التمدن.. بها للملك قُصور زَاهِرَات، اشتمَلت على المصانع الفَائِقة والصُّرُوح الشَاهِقة، والبساتين الرَّائِقة مما زَحْرَفَتْ عُروشه ونمقت عُروسه وتوسبت أطواله وعُروضه فأزرى بالخورتق»⁽¹⁾.

أ- ساعة المنجاة: تعريفها: منقاة أو منجاة أو منكلة (mangana) وهي آلة-ساعة- تُعرفُ بها الأوقات اللَّيلية، ذاتُ شكلٍ هِنْدَسِيٍّ غَرِيبٍ، وُجِدَتْ بِمَشُورِ تِلْمَسَانَ اسْتَعْمَلَهَا "أبو هو الثاني" كَرَمَزَ احْتِفَالَ بَلِيلَةَ المَوْلِدِ النَّبَوِيِّ⁽²⁾، سَمَّاها "علي باشا مبارك" (بالساعة الدِّقَاقَةِ)⁽³⁾، وَقَدْ انْفَرَدَ "القلقشندي" في صُبْحِ الأَعْشَى بِتَسْمِيَّتِهَا بِالـ«الْبَجَّانَةِ»⁽⁴⁾، وَهِيَ مِنْ المَظَاهِرِ الطَّقُوسِيَّةِ المَوْسِمِيَّةِ الَّتِي تُمَارَسُ بِانْتِظَامٍ فِي البِلَاطِ الزِيَانِيِّ مُنْذُ سَنَةِ (760هـ/1359م)، ثُمَّ بَقِيَتْ هَذِهِ العَادَةُ حَاضِرَةً فِي خِيَلَةِ بَنِي زِيَانَ مُتَوَارِثَةً بِشَكْلِ رَسْمِيٍّ.

➤ وظيفتها الاجتماعية: تُعدُّ آلةُ المنجاة الاحتفالية شكلاً من أشكال النشاط الفكري والإنساني، والهدفُ منها الفُرْجةُ والمُتعةُ وإرضاءُ الدَّاتِ فِي حَضْرَةِ السُلْطَانِ الزِيَانِيِّ، وَهِيَ دَلَالَةٌ نَفْسِيَّةٌ مِنْ خِلَالِ الوَحْدَةِ النَّعْمِيَّةِ الَّتِي تُصَدِّرُهَا، وَهِيَ الاسْتِمْتَاعُ بِالتَّعْمَاتِ وَالحَرَكَاتِ الصَّادِرَةِ مِنْهَا، وَالَّتِي تَبْعَثُ رِسَائِلَ رُوحِيَّةً بِتَوْظِيْفِهَا كَسَمَاعَاتٍ رَمَزِيَّةٍ تُدَقُّ كُلَّمَا مَرَّتْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ، حَيْثُ كَانَتْ تُؤَدِّي حَرَكَاتٍ عَجِيبَةً عِنْدَ مُضِيِّ كُلِّ سَاعَةٍ مِنْ لَيْلَةِ الاحْتِفَالِ.

وَكَانَ سَلَاطِينُ بَنِي زِيَانَ يَسْتَمْتِعُونَ بِهَا وَصَارَتْ تُشَكِّلُ عَادَةً مُسْتَحَبَّةً فِي قَصْرِ المَشُورِ، وَهَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى تَطَوُّرِ صِنَاعَةِ الآلَاتِ المِيكَانِيَّةِ، بِأَشْكَالٍ هِنْدَسِيَّةٍ مُثِيرَةٍ لِلإِعْجَابِ فِي تِلْمَسَانَ، وَيَبْدُو أَنَّ حَدَثَ المُنْجَاةِ هَذَا الَّذِي زَيْنُ قَصْرِ الزِيَانِيِّينَ؛ كَانَ مِنْ صُنْعِ عَالِمِ البِلَاطِ

¹ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 122.

² - منقاة أو منجاة أو منكلة (mangana) وهي آلة-ساعة- تُعرفُ بها الأوقات اللَّيلية، ذاتُ شكلٍ هِنْدَسِيٍّ غَرِيبٍ، وَجِدَتْ بِمَشُورِ تِلْمَسَانَ اسْتَعْمَلَهَا "أبوحمو موسى الثاني" كَرَمَزَ احْتِفَالَ بَلِيلَةَ المَوْلِدِ النَّبَوِيِّ ينظر إلى: Dozy (R), supplément aux dictionnaires Arabes, Tome 2, Leyde, E.J.Brill,1881, p617.

³ - علي باشا مبارك، المصدر السابق، ص 133.

⁴ - القلقشندي، صبح الأعشى، المصدر السابق، ج5، ص 162.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

"أبي الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الفحام"⁽¹⁾، كما نجد أثر هذه الساعة العربية في اهتمامات "بن الخطيب لسان الدين" عندما يصفها مبرزاً خصوصيتها قائلاً:

تأمل الرَّمْلَ فِي الْمِنْجَانِ مُنْقَطِعًا يَجْرِي وَقَدْ رَدَّ عُمْرًا مِنْكَ مُنْتَهِيًا
وَاللَّهِ لَوْ كَانَ وَاِدِي الرَّمْلِ يُنْجِدُهُ مَا طَالَ كَامِلُهُ إِلَّا وَقَدْ ذَهَبَا⁽²⁾

يتفق كلاً المؤرخان "التنسي" و"يحيى ابن خلدون" في وصف وظيفة هذه الساعة في قياس الزمن وشكلها الهندسي المحكم الصنعة، وهي من المظاهر الطقوسية الموسمية التي تمارس بانتظام في البلاط الزياني منذ سنة (760هـ/1359م)، ثم بقيت هذه العادة حاضرة في نخيلة بني زيان متوارثة بشكل رسمي.

إذ يقول "يحيى ابن خلدون" في هذا الصدد: «وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه، بأعلاها أيككة⁽³⁾ تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه، ويخاطله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الأيككة صعداً، وبصدرها أبواب موحفة عدد ساعات الليل الزمانية، ودوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج، فينقض من البابين الكبيرين عقابان، في كل واحد منهما صنجة⁽⁴⁾ صفر يلقبها إلى طست⁽⁵⁾ من الصفر مجوف، بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرن، وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه، فهناك يفتح باب الساعة الراهنة

¹ - ذكر ترجمته يحيى بن خلدون في البغية أنه "كان أعرف أهل زماننا بفنون التعاليم، سبط سلف صالح، ظهر على يديه من الأعمال الهندسية المنجانة المشهورة بالمغرب فأثابه عنها ملوكه بألف من الذهب مقسطة على عمال بلادهم في كل سنة"، ج1، 156.

² - المقري، المصدر السابق، ص 218.

³ - الأيككة: الشجر الكثير الملتف، وهي الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر. ابن منظور، لسان العرب، م5، ط1، دار بن الجوزي، القاهرة، مصر، 2015م، ص544. يظهر من دلالة هذا المصطلح أن المنجانة كانت مصنوعة من الخشب الكبير تخرج إلى ساحة المشور.

⁴ - الصنجة: العربي هو الذي يكون في الدفوف وغيره، فأما الصنجة ذو الأوتار فدخيل معرب تختص به العجم وقد تكلمت به العرب، ابن منظور، نفسه، م1، ص786.

⁵ - الطست: من آنية الصفر، أنثى تُذكر، وهي دخيلة في كلام العرب لان التاء والطاء لا يجتمعان في كلمة عربية. ينظر إلى: محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج5، تحقيق: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1969م، ص5.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء، يمينها إذ بارة فيها اسم ساعتها منظوما، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لأمر المسلمين أيده الله تعالى، حيل أحكمت يد الهندسة ووضعتها وراض تدبير الخلافة أعلى الله مقامه شماسها»⁽¹⁾.

يظهر مما تقدم من نظم ساعة "أبي حمو الثاني"؛ أن القوم كانوا يستعملون في ضبط الزمن الساعات الغروبية، أي تقدير مبدأ الزمن بساعات الغروب لا بالزوال، وهي طريقة المشاركة ومبدأها من غروب الشمس، فالزمن عند الغروب يعتبر صفرا ثم يأخذ في التزايد إلى هلم جرا⁽²⁾، "ارتفاعها في الهواء خمسون ذراعا، ينزل عند انقضاء كل ساعة صنجة وزنها مائة درهم، يتحرك بنزولها أجراس يسمع وقعها من بعد وتسمى عندهم المنجاة"⁽³⁾.

كما يصف هذه الساعة العجيبة المستعملة في ميقات الليل بن عبد المنان⁽⁴⁾ في قوله:

وَأَلَّةٌ لِلْمَوَاقِتِ اسْتَقَلَّ بِهَا صُنْعُ تَفْوَتِ النَّهْيِ لُطْفًا صَنَائِعُهُ
أَبْيَاطُهَا عَدُّ أَبْرَاجِ السَّمَاءِ وَلَا قُطْبٌ وَلَا فَلَكٌ تُدْرَى مَوَاضِعُهُ
يَجْرِي الْهَلَالُ عَلَيْهَا جَرِيًّا أَبَدًا عَلَى الْمَنَازِلِ صُنْعٌ فَاقَ بَارِعُهُ
وَفِي الْبُيُوتِ جَوَارِكُلٌّ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ خُصَّتْ بِمِيقَاتِ تَطَالِعُهُ⁽⁵⁾

ب - الشجرة العجيبة: ولا ينبغي أن يفوتنا هنا ونحن نورخ للساعات والفنون في تلمسان الزيانية؛ أن نترك الإشارة إلى ما كان بقصر السلطان "أبي تاشفين الأول" الذي تولى

¹ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص39. وينظر كذلك إلى: التنسي، المصدر السابق، ص ص 162-163.

² - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 250.

³ - ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ص 197-198.

⁴ - هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان الخزرجي الانصاري توفي سنة (792هـ/1390م)، كان أديبا وشاعرا بارزا وناظما رائقا، استكتبه السلطان المريني أبي عنان فارس في حضرته السلطانية وله فيه أمداح عجيبة، كما يعرف من أحد حذاق الشعر المولدي. ينظر ترجمته في ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1973م، ص125. و أبو الوليد اسماعيل ابن الأهر، نثر الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، سوريا، 1987م، ص314 وما بعدها.

⁵ - ابن الأهر، نثر الجمان، نفسه، ص324. وللمزيد من التعرف أكثر على وظيفتها في التوقيت ينظر إلى: لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، ج3، تحقيق: السعدية فاغية، مطبعة الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1989م، ص 280.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

الحكم ما بين (718-737هـ/1318م-1337م)، من تلك الشجرة العجيبة، المصنوعة من الفضة والمرصعة بالجواهر⁽¹⁾، الواقعة على أغصانها تماثيل طيور مختلفة الأشكال والألوان تحاكي أشباهها من الطيور الطبيعية⁽²⁾.

وكلها مصنوعة بحيل ميكانيكية لطيفة يعلوها صقر، فإذا نفخ في أصل الشجرة صوتت تلك الطيور كلها بأصوات على غرر نظرائها من الطيور، فإذا وصل الريح موضع الصقر صوت فانقطع صوت تلك الطيور كلها⁽³⁾، كما نقل ذلك الامام "القرافي" عمن شاهد هذه الشجرة⁽⁴⁾ بنفسه وسمع تغريد طيورها بحضرة السلطان بتلمسان، فتراها شبيهة بما أحضره الخليفة "المقتدر" العباسي بدار الشجرة ببغداد يوم اقتباله سفير قيصر الروم (305هـ/917م)⁽⁵⁾.

انفرد "التنسي" بذكر عجائب هذه الشجرة التي كانت بمثابة معلم حضاري تعز به مدينة تلمسان، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على مدى المهارات الصناعية، التي اكتسبها الصناع والحرفيون وأصحاب العقول الكبيرة في المجال الصناعي؛ ليدعوا في ذلك وتصبح منتوجاتهم عادات مهنية ذات أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسية، إلا أن المصادر الاخبارية أغفلت هذا الجانب بالذكر والتعريف به لدى التاريخ.

ج - الدّجاجة العجيبة: من بين الصناعات المهارية التي شكلت تقليدا صناعيا متفوقا في تلمسان الزينانية (الدّجاجة العجيبة)، والتي لم نقف لها على معلومات وإشارات واضحة في المصادر التاريخية، حتى نبي على أساسها تصورات وسرد لأحداثها، إلا ما ورد عن المؤرخ "عبد الرحمان الجليلي" في مؤلفه (تاريخ الجزائر العام)، حيث ذكر: "وكان من هذا القبيل أيضا ما تقدم ذكره من الهدايا النفيسة التي أهداها السلطان الثابتي إلى ملك الاسبان، ومنها ما وصفناه من تلك الدجاجة العجيبة الصنعة المتبوعة بست وثلاثين نقفا من نوعها، فذلك أيضا

¹ - ابن الصّبّاح الأندلسي، المصدر السابق، ص 55.

² - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 250.

³ - التنسي، المصدر السابق، ص 141.

⁴ - عبد الرحمان الجليلي، نفسه، ص 250.

⁵ - نفسه، ص 251.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

هو مما لا يستهان به في الاستدلال على تقدم العلوم والفنون ونهضة الصناعات عهدئذ بالجزائر⁽¹⁾.

د - الساعة المائية: عرف العالم الإسلامي سلسلة من الساعات المائية في العصر الوسيط، ونشير بالخصوص لساعة جامع الكتبية بمدينة مراكش، وساعة دمشق، وساعة مدرسة المستنصرية ببغداد، وساعة جامعة القرويين التي صنعها "بن الحباك" (685هـ/1286م)⁽²⁾، وإذا كانت هذه الصنعة منتشرة في حواضر العالم الإسلامي؛ فإنها لا بد بأن تكون حاضرة في تلمسان، رغم أنها كانت مجرد كتابة أبيات شعرية على مربع الحوض المائي داخل صحن المدرسة التاشفينية، وُصفت هذه (الدائرة المائية) في نوح الطيب عند المقرئ وهو يقول: «قد تذكرت هنا والشيء بالشيء يذكر، ما رأيته على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الزياني، وهي من بدائع الدنيا»⁽³⁾

أَنْظُرْ بَعَيْنَكَ بِهَجَّتِي وَسَنَائِي وَبَدِيعِ إِثْقَانِي وَحُسْنِ بِنَائِي
وَبَدِيعِ شَكْلِي وَإِعْتَبِرْ فِيمَا تَرَى مِنْ نَشَائِي بَلْ مِنْ تَدْفُقِ مَائِي
جِسْمٌ لَطِيفٌ ذَائِبٌ سَيْلَانُهُ صَافٍ كَدَوْبِ الْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ
قَدْ حَفَّ بِي أَزْهَارٌ وَشَيْءٌ نَمَقَتْ فَعَدَّتْ كَمِثْلِ الرُّوضِ غِبَّ سَمَاءِ⁽⁴⁾

هـ - ثرية المسجد: حتى نعرف سبب انشاء الثرية فلا بد من إلقاء نظرة وجيزة عن المسجد الأعظم بتلمسان، وهو أحد المعالم الرئيسية التي كانت منارة للعلم والعلماء؛ فضلا على أنه صرح معماري كبير يضفي قيمة جمالية وروحية على المدينة، قال "بن مرزوق في المسند"

¹ - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 251. ربما ما تفرد بذكره الجيلالي حول هذه الآلة الماهرة قد يكون واردا وصحيحا، لما عرفته تلمسان من تطور صناعيا ملحوظا، في ظل غرض الطرف عنها من طرف المضان التاريخية الزيانية، وبالتالي ارتأينا أن نوردها هنا على سبيل سد الثغرة.

² - عبد الهادي التازي، التنافس بين مملكة فاس ومملكة تلمسان في المجالات الصناعية الاجتماعية والعلمية، ضمن كتاب جماعي حول مآثر تلمسان ماضيا وحاضرا، إعداد: نخبة من الأساتذة والمؤرخين، جمع وتعليق: محمد بوزواوي، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص 94.

³ - المقرئ، المصدر السابق، م 8، ص ص 182 - 183.

⁴ - نفسه، ص 183.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

:«وأما الجامع الكبير فقد اتفق المتجولون أنهم لم يروا له ثانيا»⁽¹⁾، وقد تم تشييده من طرف المرابطين ثم أكمله الزيانيين بعد ذلك.

تم تجديد المسجد الجامع من طرف السلطان الزياني "يغمراسن ابن زيان" سنة (633هـ/1236م)، حيث وسع قاعة الصلاة وأضاف فناء آخر وبنى القبة الثانية والمئذنة⁽²⁾، وقد شملت أعماله كذلك موضع الحصن القديم حيث أضاف إليه سبع بلاطات جديدة ذات ثلاث أساكيب عمقا⁽³⁾، وغيرها من التصاميم الهندسية التي أضفت عليه مساحة فنية جميلة جدا، في عاداتها متأثرة إلى حد كبير بالجامع الأموي بقرطبة⁽⁴⁾، وأراد "يغمراسن" توسيع قاعة الصلاة بتقليص مساحة الصحن، لكنه لما قام بتنفيذ عمله؛ ظهر له أنّ قاعة الصلاة صارت مظلمة سيما في المساء بعد العصر، فقرر وضع الثريا لإضاءة قاعة الصلاة.

وهي ثرية ضخمة عالقة في وسط المسجد، تحتوي على مصابيح يشع نورها داخل فناء الجامع، ومن المرجح أنها مصنوعة من مادة الزجاج والنحاس، وهي تحفة فنية من أجمل وأبداع الزخارف الدينية التي تميز التلمسانيون في صنعها، ولا أدل على ذلك مما ذكره "العقباني" في تحفة الناظر: «وفي جامعنا الأعظم بتلمسان الذي به ثرية لم تشاهد أبصارنا مثلها، في عظم الهيئة وشرف القيمة في الكثير من الأمصار المشرقية، ولم نسمع بمثلها هنالك ولا بالمغرب»⁽⁵⁾.

¹ - ابن مرزوق، المسند، المصدر السابق، ص 402.

² - Marçais (Georges), L'Architecture musulmane d'Occident (Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile), Paris, 1951, p197.

³ - عبد العزيز لعرج، تلمسان عمرانها وعمارته الدينية، مجلة الوعي، مجلة فكرية ثقافية تصدر عن دار الوعي، العدد 3-4، ماي 2011م، تلمسان، الجزائر، ص 33.

⁴ - نفسه، المساجد الزيانية بتلمسان عمارتها وخصائصها، ص 103.

⁵ - العقباني، المصدر السابق، ص 41.

2. العمران ورمزية الاشارة

أ- رمزية الاشارة

يتشكل النسيج العمراني في مدينة تلمسان؛ من وحدات منتظمة لها نفس الشكل والأسلوب، لكنها تختلف في رمزية الاشارة التي ستصبح عادة في الحياة اليومية لدى الناس، وهذه الوحدات تتمثل في المناطق الصغرى أو الدروب التي توجه المارة من الناس إلى الوجهة التي يقصدونها.

والحديث هنا يتعلق بالدرجة الأولى على القيسارية والقصبة اللتان تحتويان على أكثر السكان، وغالبا ما كان نمط البناء مستمد من الواقع التراثي لديهم بحيث يراعون في ذلك شروط الحسبة: كاختيار مكان الإقامة، وطريقة فتح الكورة والباب والنافذة، ومجري المياه، وتنظيم حركة النشاط الحرفي والتجاري... إلخ، وهي جملة من الالتزامات النمطية في طريقة التشييد والبناء لها تأثير في رسم الفضاء الخارجي والداخلي

بالإضافة إلى مؤثرات أخرى غالبا ما يكون استعمالها متوارث عند الأفراد والجماعة، وهي مؤثرات اجتماعية تتعلق بعادات وتقاليد وممارسات، تساهم بشكل أو بآخر في تصور ومعالجة الفضاء الخارجي، مثل: السوق والفندق والجامع والمكان المفتوح وبطحاء الحي، والفضاء الداخلي مثل: المكان المستور، فناء الدار... إلخ.

شكلت الرسومات الهندسية الموجودة على الجدران أو في أقواس الدروب، علامات انتباه أو تحذير أو ايجاز للمارة من سكان القصبة أو غيرهم من الغرباء، فالغريب عن الدرب وقتما لفت انتباهه إلى إشارة معينة لابد عليه أن يمتثل لها؛ فإذا كانت تسمح له بالمرور جاز له ذلك وإذا كانت تحذره بخلاف ذلك فعليه أن يواصل مسيره وإلا يجد نفسه في حرمة أهل الدرب، وعلى هذا الأساس نستنتج من هذا التفسير لرمزية الاشارة أنها أصبحت عادة عمرانية توجه كل واحد إلى أين يريد، كما تتم على احترام هذا المجتمع التقليدي في حرمة واحترام الجار وعدم تجاوز عادات الجماعة مما يساعد على قوة الشعور بالانتماء إلى الدار فالدار فالدرب فالحي فالمدينة.

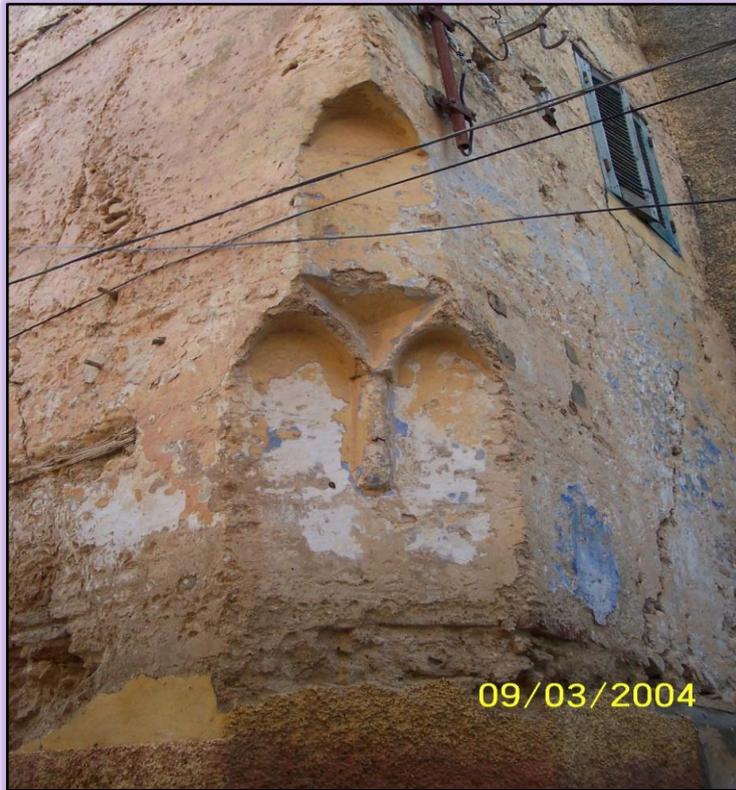
الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة



ومن الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها في هذا الصدد ما يلي:

ترمز هذه الاشارة إلى تحذير الأجنبي من أنه يقترب من منطقة الساكنة، وبالتالي عليه أن يتجنبها فإذا تعذر عليه الأمر فيجب أن يفعل ذلك برفقة شخص يعيش في المنطقة المذكورة،

وترمز كذلك إلى منطقة إقامة السكان وهي علامة إختراق نحو وسط المدينة⁽¹⁾.

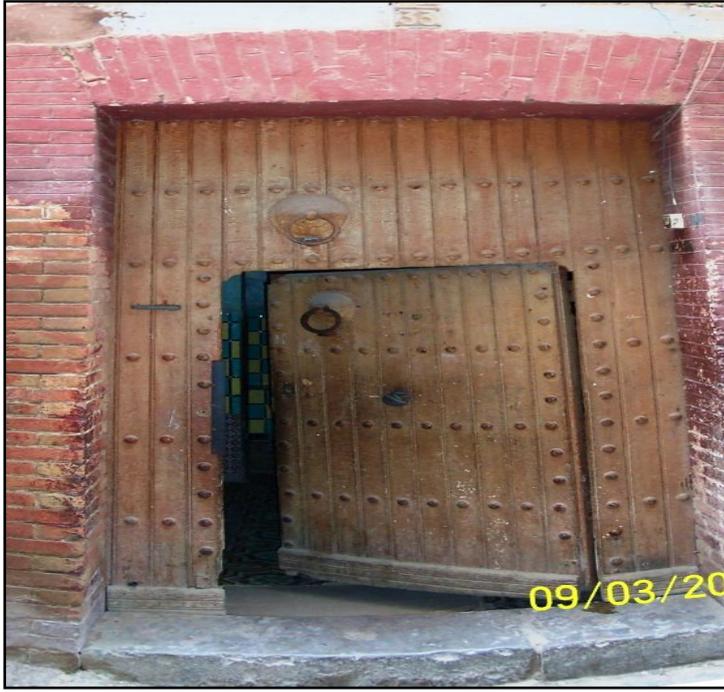


تشير هذه العلامات الثلاثة إلى معنى واحد وهو: إنارة الشوارع وأمن الموقع، والأشخاص المسؤولون عن هذه المهام يتبعون المحتسب من أجل تحمل مسؤولية المجتمع في الفترة الليلية بالاضافة إلى قمع الاحتيال والنصب⁽²⁾

¹ -SM. Negadi, Architecture & Urbanisation a Tlemcen - la cite medievale, 2006, p10.

² -Ibid, p 16. □

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة



يدل هذا التصميم الهندسي للباب على (عادة مطرقة الباب) المحوري للنساء والأطفال؛ ومطرقة الاطار الثابت للأجانب (الأقارب البعيدين)، ويبقى الباب الأمامي مفتوحا دائما للتأكد من تسلل أي شخص غريب، إذ يختلف صوت الطارق في الداخل⁽¹⁾.

تقتضي العادة عدم تجاوز الحدود التي وضعتها الاشارة العمرانية مع مراعاة حقوق الجار، ووظيفة هذه العادة الاجتماعية هي الحفاظ على الأمن العام وسلامة الساكنة من كل مكروه، بالاضافة إلى طلب الاذن من سكان الدرب للزيارة مثلا أو ايداع مستلزمات منزلية قد يكون تم الطلب عليها، ويصور لنا هذا المشهد "بن مرزوق" في كتابه قائلا: «كان هذا الموضع المعروف بمرسى الطلبة دربا واحدا ويقال أنه كان يجتمع في مسجده نحو من أربعين بين مدرس وصاحب فائدة وشهرة فائدة، كانوا كأنهم إخوة من غاب عن شهود الصلاة وصلوا إلى منزله ليعرفوا حاله والضعيف منهم يواسيه القوي، وكان يسكن معهم بالدرب مياسير من أهل الخير كأبي عبد الله المرخس وغيره، وكان من مشاهير الأولياء، وكان لا يدخل أحد من باب الدرب إلا من هو من سكانه ومن جاء زائرا يستأذن عليه من رجل وامرأة، وإن جاء حطب أو فحم يوضع بباب الدرب ويخرج أصحابه لإدخاله»⁽²⁾.

بناء على ما تقدم هناك إشارة واضحة أوردها "ابن مرزوق" كذلك، يوضح فيها عمل المحتسب والقاضي في الحفاظ على هذه العادات والقوانين الملزمة للغرباء وغيرهم من

¹ - SM. Negadi, Op cit, p 25.□

² - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 182.

الفصل الثالث: عوائد الزبانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

الوافدين على الحياء والدروب التلمسانية، فجلس يوما القاضي وحده فرأى رجلين حديثي السنين دخلا ثم خرجا، فدعا بالبواب وقال له: لمن دخل هذان؟ فقال: لا علم لي. فعاتبته ودعا بهما فسألهما فاختلف أمرهما لاختلافهما، فقال لهما: أصدقاني إنما جئتما قاصدين لهذا المكتب قصد سوء، فاعترفا وتابا ومنعهما ألا يخرج صغير من الدرب إلا مع أبيه أو من يقوم مقامه، هذه حكاية عرضت تدل على ما كانت عليه الأحوال⁽¹⁾، يظهر في هذا النص اختراق لقوانين الدرب مما جعل القاضي يحقق في ذلك ويعاتب البواب المسؤول عن الممر.

ب - عادة النظافة في المدينة

مما يدل على السلوك الحضاري في المنظومة القيمية للمجتمع التلمساني هو النظافة والمحافظة على البيئة، والتي تعتبر من بين المظاهر الأكثر أهمية في الوسط الاجتماعي؛ وإذا تمعنا في المصادر الجغرافية التي تناولت مدينة تلمسان، نجدتها تصفها بعفوية عن الحدائق الموجودة داخل وخارج المدينة، كذلك نظام الغرس الذي اعتاد عليه تقريبا كل بين ومنزل بها، مع تنظيف الاحياء والمسالك والممرات داخل الأسواق ومن أمام البيوت والدروب، حتى يأخذ الجغرافي أو غيره من الوافدين على المدينة والمعجبين بها؛ انطبعا ايجابيا ووصفا دقيقا، يدل على مدى ثقافة المجتمع وسلوكه الحضاري، الذي ما لبث وأن أصبح عادة راسخة بقوة في معتقدات وأذهان الساكنة التلمسانية.

وعلى هذا الأساس وحسب ما أورده لي أستاذي المشرف من معلومات غير واردة في الاسطوغرافيا التاريخية، بحكم تخصصه ثم إنه شاهد عيان على هذه العادة المستحكمة؛ التي كانت تقوم على أساس رمي كل المواد مثل الهيدورة، النجارة، القرون في الفرناق، وهو مكان في الحمام يستعمل للتسخين، أما المواد الاخرى مثل حشيش الخضر وما شابهه يرمى للأنعام تاكله، وهذا ما يفسر لنا عدم وجود مزابل في المدينة أو الزبالين أو أماكن الزبالة.

وبالتالي كل ما يصلح للاستعمال مرة ثانية كالحشيش وغيره من المواد الخضرية لا يكدر ولا يترك للتعفن أمام البيوت والأسواق، وأما المواد الأخرى المذكورة آنفا فمكانها في

¹ - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 183.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

فرناق الحمام كذلك يستفاد منها كوقود، وكل آليات النظافة كانت موجودة منذ عهد الزيانيين وبقيت متوارثي لدى الأجيال إلى وقت قريب.

عرفت تلمسان منشآت عمرانية اهتمت بالنظافة والغسل والتطهر على غرار باقي المنشآت الأخرى، والتي كان لها دور اجتماعي بقي سائدا إلى ما بعد الفترة الزيانية ألا وهي الحمامات، ومن الأرجح أنها كانت مكانا يجتمع فيه الناس في المناسبات الاحتفالية وغيرها لتبادل الآراء السياسية أو عقد الصفقات التجارية سواء داخل بيت الغسل أو في قاعة الاستقبال، فضلا على اجتماع النساء اللاتي كن يستغلن الفرصة لقضاء أوقات ممتعة وما يصطحبها من أخبار حول الأشغال اليومية لهن في كل المجالات.

وهذا ما نعتبره عادة اجتماعية استقرت في حياة التلمسانيين، والتي نفتقد لكل هذه التفاصيل المهمة نتيجة اهمال المصادر لها وعدم توثيقها، واكتفت بالاشارة الشكلية لها كالتى أوردها "العبدري" في رحلته إذ يروي عن العباد الذي "به حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور، قل أن يرى له نظير"⁽¹⁾، وإنّ عدد الحمامات وتواجدها ما هو إلا دليل على مدى التطور الاجتماعي والاقتصادي للمدينة، حيث ساهمت بشكل أو بآخر باستقبال الأجانب على غرار أهل المدينة التي كان: "وبها كذلك عدة حمامات متفاوتة القيمة، لكنها ناقصة الماء بالنسبة لحمامات فاس"⁽²⁾.

أخفق "الحسن الوزان" في نقل حقيقة تدفق المياه إلى الحمامات بتلمسان؛ بحيث صرح بأنها ناقصة الماء مقارنة بحمامات فاس، فاذا نظرنا إلى ما جاء عند "يحيى بن خلدون" نجد العكس؛ ونحن نؤيده لعدة اعتبارات منها:

- أن تلمسان كانت مدينة ذات منابع مائية كثيرة.
- أن "الحسن الوزان" احتمال لم يكن مطلعاً، أو لم يشاهد مدى تسرب المياه بشكل متواصل إلى الحمامات، مما جعله يسقط في الوهم في تصويره وسرده، وما نستدل به في هذا

¹ - محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية، تقديم: سعد بوفلاقة، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، 2007م، ص 28.

² - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ص 19-20.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

المقام ما يذكره "يحيى بن خلدون" واصفا معالم المدينة وسقاياتها، قائلا: «وتنصب إليها من عل أنهار من ماء غير آسن، تتجاذبه أيدي المذانب والأسراب المكفورة خلالها، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات، فالقصور وعلية الدور والحمامات، فيفعم الصهاريج ويفهق الحياض، ويسقي ريعه خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب، فهي التي سحرت الألباب رواء»⁽¹⁾.

3. الانتظام في الأسواق

عرفت مدينة تلمسان نشاطا كثيفا في المجال الحرفي والمهني التقليدي وذلك بفعل فتح أسواق وتنظيمها تنظيما محكما، من أجل بيع المنتجات الحيوانية والزراعية التي كانت تقام في أرباض المدينة، مثل سوق البقر وسوق الغنم وسوق السمن والتين وغيرها من ثروات البلاد، ومن جهة أخرى يبدو أن أحكام التعامل التجاري القائمة على مبدأ الاستيراد أو المقايضة وحتى التصدير كانت عملية مضبوطة تحكمها أعراف وقوانين في الاقتصاد وتصريف المال. فكانت تستوجب على التجار أن يعرضوا منتجاتهم في أسواق منتظمة وأمكنة مخصصة لذلك النشاط بما في ذلك أصحاب الحرف والمهن، ويعتبر حي القيصارية سوق يومي يتجمع فيه التجار بالتسلسل الهرمي ويعرضون سلعتهم وكل المواد اللازمة لأهل تلمسان، كالملابس والصناعات الحضرية⁽²⁾ والريفية كالزيت والصابون والزبدة والعسل وضروريات أخرى للاحتياجات اليومية⁽³⁾.

كما يشترط كذلك توفر الحماية والأمن وناظر السوق أو المحتسب لضمان عملية التسوق بشكل سليم، حيث "اشتهرت أسواق الجزائر يومئذ بانتظامها حسب أنواع السلع والبضائع فانك لا تجد اختلاطا بين البزازين والصاغة مثلا ولا بين الحدادين والنجارين فلكل نوع منهما سوقة قائمة بنفسها وبذلك نعلم أنه كان للجزائر شأن عظيم في عالم

¹ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 122.

² - Richard. Lawless, Tlemcen, capital du Maghreb central, Analyse des fonctions d'une ville islamique médiévale, in Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N° 20, 1975, p 57.

³ - Ibid, p47.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

الاقتصاد كما أنها لا تزال كذلك إلى اليوم"⁽¹⁾، وسار هذا الانتظام على سبيل المؤلف والعادات الإقتصادية، فضلا على أن عملة تلمسان كانت تعكس قوتها الاقتصادية على الصعيد الداخلي والخارجي، ونقل لنا المستشرق الفرنسي "بول أوديل" أن العملة الأكثر استعمالا في الأسواق الزيانية في مراحل قوتها؛ كانت مصنوعة من الذهب والفضة، تحمل اسم الملك الذي ضربها، معتبرة الوزن⁽²⁾.

جرت العادة في تلمسان بأن يتخذ أهلها من الدروب أسواقا يمتنون فيها صنائعهم ويسوقونها في ذات الموضع (موضع القيسارية) و(موضع فندق الرمانة)⁽³⁾، وكانت الوفود التجارية تتردد عليها من أجل الحصول على أجود ما فيها من المواد المصنعة من عمل الحياكة والصياغة⁽⁴⁾ والتصنيف وغيرها.

وفي هذا الصدد يذكر "ابن مرزوق" في المناقب عن أحد أقربائه "وكان يحترف بإقامة عمل الحاكة من الصوف الرفيع التي كانت تلمسان تختص به واختص هو بذلك، فكانت له تربيعات بموضعه من درب شاكر، وكان أكثر هذا الدرب له ولعماله وخدامه.. وكان مقصودا من البلد ترده التجارة من كل بلاد، وملوك افريقية والمغرب إنما يلبسون حينئذ ما كان يعمل بتلمسان من رفيع الصوف فإنها اختصت بذلك وكان هو قد أمماها في ذلك"⁽⁵⁾.

يواصل "ابن مرزوق" سرده حول الجودة في التصنيع والمهنية، في احتراف صناعة المصاحف بتلمسان وتنافس التجار في اقتنائها لاسيما الأندلسيين، فيقول عن أحد أجداده أنه: «وأما ولده أبو عبد الله الأكبر - ابن مرزوق الجد - وغلب عليه علوم القرآن وكان مصحفيا، يكتب المصاحف التي كان الناس يتنافسون فيها على طريقة أهل الاندلس،

¹ - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 250.

² - Paul Eudel, Op cit, p 420.

³ - Bargés, Tlemcen ancienne capital du royaume de ce nom - souvenirs d'un voyage, Tlemcen capital de la culture Islamique, 2011, p 84.

⁴ - Paul Eudel, Ibid, p 419.

⁵ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص ص 188-189.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

وأدركت منها ربعة أربعة أرباع غاية في الحسن، خطأ وضبطا لا تبعد من خط العُطُوسيات⁽¹⁾ قد كتب فيها اسمه، ضاعت في دخلة تلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة⁽²⁾، وكان مع ذلك تاجرا وبها يتمعش، وكانت له في حدائته حانوت بالقيسارية ينسخ فيها القرآن ويبيع السلع⁽³⁾.

من المؤكد أنَّ الاشتغال بعلوم القرآن بما فيها عمل المصاحف كانت من اختصاص علماء تلمسان، واتخذوا ذلك معاشا لهم على المستوى التجاري في قيسارية تلمسان، ونحن نجزم أنَّ ذلك كان من بين العادات المحمودة لديهم.

تنوع الحرف اليدوية بشكل كبير وتختلف أهميتها باختلاف السلع التي تنتجها فان أهمها يومئذ بتلمسان الزينانية يرجع إلى صناعة الدباغة وخصف النعال والأحذية والصياغة والعدانة والخزافة والنجارة والحداة وفن البناء والتعمير⁽⁴⁾.

¹ - العُطُوسيات: هو خط أندلسي مشهور في أسرة ابن غطوس، واستعمل هذا الخط في كتابة المصاحف الخاصة والتي عرفت تطورا وازدهارا بفضل ابن غطوس، الذي كان منقطعا إلى كتابة المصاحف متقدما في براعة خطها، امام في جودة ضبطها..وتنافس الناس على طبقاتهم: الملوك فمن دونهم فيما يوجد من خطه، وخلف في ذلك أباه وأخاه، وكانوا كلهم آية من آيات الله في اتقان هذه الصنعة المباركة، توفي في حدود 610هـ، قال الصفدي: "أنه كان له بيت فيه آلة النسخ والرقوق وغير ذلك لا يدخله أحد من أهله..وكان يضع المسك في الدواة وكان مصحفه لا يهديه إلا بمائتي دينار..وقد رأيت أنا بخطه مصحفا أو أكثر وهو شيء غريب من حسن الوضع ورعاية المرسوم، ولكل ضبط لون من الألوان لا يخل به فاللازورد للشدات والجزمات واللك للضمات والفتحات والكسرات، والأخضر للهمزات المكسورة والأصفر للهمزات المفتوحة"، فهذا معمل قائم الذات تام الأدوات. للمزيد من الاطلاع أكثر ينظر إلى: صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2000م، ص ص 280-281. وابن عبد الملك الأنصاري، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: محمد بنشريف وإحسان عباس، ط1، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1973م، ص 315. وكتاب المخطوط العربي وعلم المخطوطات، لمجموعة من المؤلفين على رأسهم أحمد شوقي بنين، مطبعة فضالة- المحمدية، الرباط، ط1، 1994م، ص 82.

² - هي السنة التي تم اقتحام مدينة تلمسان من طرف السلطان المريني أبي الحسن، ومع هذا الاقتحام استولى بني مرين على كل النفائس والذخائر الزينانية من بينها مصحف عثمان رضي الله عنه، وذلك يوم (28 رمضان 737هـ/1337م)، ينظر إلى: بغية الرواد، ج1، ص 244.

³ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 148.

⁴ - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 245.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

وكان مما امتازت به تلمسان واختصت به ما بين البلاد: الاتقان في النسج والقزاة⁽¹⁾، فان لملابسها ومنسوجاتها الصفيقة من حرير أو صوف اعتبار وتقدير يفوقان منسوجات غيرها من البلاد، لا من حيث الأحكام والصناعة في النسج فحسب، بل وحتى في جودة النوع والشكل مع الدقة واللطافة والخفة، فانك تجد البرنس أو الكساء الجيد من الحرير لا يتجاوزونه الثماني أواق، والاحرام لا يتعدى خمسة أواق، وذكروا أنهم كانوا يجتبرون الكسية والملابس الرقيقة الجيدة بادخالها واخراجها من حلقة خاتم⁽²⁾.

يذكر "ابن مرزوق" اشارات حول عادة كانت سائدة في العباد وهي أن التجار كانوا يردون بالسلع ويودعونها هنالك وتأخذ منهم الضرائب والجباية وكانت الجنات أو الجنان المجاورة لضريح الشيخ أبي مدين نحو خمسة أو ستة، هذه العادة القديمة التي كانت سائدة على ما يبدو.

إلا أنها تغيرت وسببت مشاكل حيث يقول: «كان بتلمسان رجل يعرف بيحيى بن إبراهيم بن علي العطار وكان عاملا جريئا ظلوما تجاوز الله عنه، وكان قد رفع للسلطان أبي تاشفين رحمه الله أن الموضع المعروف بالعباد، حيث ضريح سيدي أبي مدين رضي الله عنه، ترد عليه سلع ويودعها التجار هنالك، حتى يتحيلوا على دخولها من غير ضريبة، وأن المجابي قد ضاعت بسبب ذلك، وأن الجنات⁽³⁾ المجاورة لضريح الشيخ كان في القديم نحو خمسة أو ستة، وهي الآن تبلغ عددا كثيرا، وإنما لقوم لا يستحقون الاحترام ورفع الخراج، وكان الواجب أن يقتصر على العادة القديمة»⁽⁴⁾.

ومن العادات المتعلقة بالاتقان في العمل مع الابداع فيه هي المنشآت العلمية التي كانت محل اهتمام كبير من طرف سلاطين بني زيان، وتعتبر المدرسة التاشفينية⁽⁵⁾ واحدة من بينها التي تشهد عليها الأبيات التي دونت على دائرة مجرى الماء، والتي رواها "المقري" وقال

¹ - القزاة: هي صناعة الحرير والمنتجات الحريرية الرفيعة مثل الحواشي والأحزمة وخيوط الحرير الرفيعة.

² - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص ص 245 - 246.

³ - المقصود بها: الحديقة أو الضيعة.

⁴ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 288.

⁵ - بناها أمير المسلمين أبو تاشفين الأول.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

عنها: «وهي من بدائع الدنيا»⁽¹⁾، قال "بن الصباح": «مدرسة القاضي الفاضل والحاكم العادل سيدي سعيد العقباني..وهي مدرسة جنة في الأرض، ذات بنية مشيدة وسقوف مقربسة والأبواب المرصعة بالزينة، والمصنع⁽²⁾ في وسط المدرسة من الماء العذب ترى فيه وجهك من شدة الصفاء»⁽³⁾.

كانت معظم المنشآت العمرانية بتلمسان متميزة ببديع صنعتها وجمال شكلها كما وثقت المصادر ذلك، وكلها أدت وظائف اجتماعية في التعليم والتدريس والاجتماع والانتظام، مما جعلها تفرز لنا عادات وتقاليد معظمها بقيت راسخة في أذهان أفرادها نتيجة الممارسة المكثفة لها.

4. عوائد منبوذة داخل المجتمع أنكرتها المدونة النوازلية والكتب الفقهية - العقباني "تحفة

الناظر أنموذجا" -

أ - عادات منكرة في المساجد:

• **أكل الطعام في المساجد في رمضان:** يقصد به هنا النهي عن أكل الطعام في المساجد، كما تأكل في المنازل لأنها أماكن مقدسة للعبادة، وتقتضي حرمتها بتجنب كل العادات السيئة المنهي عنها واحترام حرمتها، كما خفت الفتيا للضيء بالأكل مثل التمر وشبهه من خفيف الطعام كالتسويق ونحوه، على حسب ما جاء في أجوبة الفقيه التلمساني "العقباني" في تحفة الناظر⁽⁴⁾.

ب - عادات منكرة في الأسواق:

• **إلقاء الأزبال بالأفنية والطرق:** قال "العقباني" في تحفة الناظر، انطلاقاً من نظريته للواقع الذي يعيش فيه: «ومن ذلك إلقاء الأزبال بالأفنية والطرق، فتتأذى المارة إما بالتضييق أو اللوث أو التنجيس، فما كان به بلل ورمي ذلك على ملقيه إن علم وإلا فعلى المجاورين

¹ - المقرئ، فح الطيب، المصدر السابق، ص 183.

² - يقصد به الصهرج أو الجابية يُجمع فيهما الماء.

³ - ابن الصبّاح الأندلسي، المصدر السابق، ص 56.

⁴ - العقباني، المصدر السابق، ص ص 42-43.

الفصل الثالث: عوائد الزيانين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

للمكان كنسه ورميه، ومن ذلك ما يجمع بالطرق من تكديس الرأحضات وطين المطر ونحوه، قال في تنبيه الحكام لا يتخذ بعض الناس مما يؤدي إلى أذى المسلمين والتضييق في الشوارع عليهم، كتكديس الراحضات المستخرجة من سروب المحلة وقنوات تلك الحارة وتركها، كذلك في المواضع الضيقة بحيث يتنجس المار وقد يقع فيها الصبيان والماشى ليلا وربما كان المطر، وسال بعض ذلك مع الماء وخالط كثيرا من طرقات المسلمين فَعَظُمَتِ المَضْرَةُ به واشتدَّت المصيبة»⁽¹⁾.

• الميازيب⁽²⁾ التي تقطر بالنجاسة واتخاذ مرابط الدواب على الطرق: يقول العقباني: «ومن ذلك قال في تنبيه الحكام ما يكون من قطر الميازيب التي تجري بالغسالة، والنجاسة في موضع لا يكاد المار يسلم من لوثها، وكذلك اتخاذ مرابط الدواب على الطرق بحيث ينال المارين من ضيق الموضع بها وتعذر الجواز بروح كثير من الناس، مضرة ظاهرة وربما أدركهم شيء من تلويث ثيابهم وتنجيسها بما يكون من أرواثها وأوبالها، قلت ظاهر قصره هذا الحكم بالمنع على ما يقطر من الميازيب بالغسالة والنجاسة، أن ما كان بالماء الطاهر فلا يمنع، والحد أنه على أصل المنع كما قدمناه لحصول الضرر العام للمارة لا سيما بما يحدث عنها من رطوبة التراب وبلته فتؤدي لزلق المار وسقوطه»⁽³⁾.

يؤكد ذلك بأن في تلمسان كانت هذه العادة المنبوذة سائدة؛ ولو أن النية المقصودة من وراءها هي عملية دبغ الجلود بأقدام المارة، ليحول جلد الحيوان المسلوخ إلى منتج مفيد من صناعة الأحذية والأحزمة والقفازات والقمصان إلى غير ذلك، حيث يقول: «ومن أشد ما قامت به مَطَنَةُ التزليق والعتار ما يفعله الحرازون عندنا من بسط جلود البقر بمحجَّة الطريق، لتناولها أقدام المارة فتحصل فيها ذلك، قريب مما يحصل في بالدبغ»⁽⁴⁾.

¹ - العقباني، المصدر السابق، ص 65.

² - الميازيب: قناة أو ماسورة عمودية يجري فيها الماء منصرفا في أسطح الدور.

³ - العقباني، نفسه، ص ص 66 - 67.

⁴ - نفسه، ص 67.

الفصل الثالث: عوائد الزبانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

• **إيقاف الدّواب:** اعتبره "العقباني" من العادات المنكرة والممنوعة في الشوارع في قوله: «ومن ذلك إيقاف الدّواب بالحشب والحطب بحيث يقع التضييق بذلك على المارة، وكذلك إحتيازها بالشوك لما يؤدي إليه من تمزيق الثياب، وكذلك ذبح الجُزُور بالطريق كل ذلك من منكرات الشوارع الممنوعة»⁽¹⁾، كما نجده ينبه أن أمن الأذى وخف كما لو بحيث يتم كل ذلك باحتراز ودقة متناهيتين مراعين في ذلك سلامة المارة والناس في الشوارع: " فكل ذلك على هذه الصفة مباح، لأنّ بالناس ضرورة إلى ذلك، فلا يصح منعه على الإطلاق إلا بشرط وجود الأذى وغلبة وقوعه بعرف العادة"⁽²⁾، نرى "العقباني" يؤكد على العادة واردة بقوة عند العامة من الناس، الذين اتّخذوا من الشوارع والأماكن الضيقة مرافئ لحبس دوابهم وأمتعتهم فيها، دون مراعاة أمن المارة.

• **منع الجزارين من الخلط:** جرت العادة عند الجزارين بتلمسان؛ بيع اللّحوم وادخال عليها شيئا من أطراف اللّحوم الأخرى، حتى يستوي الوزن والثمن، وهذا ما العادات المنكرة التي رآها العقباني، ونها عنها في قوله: «وكذلك تقررت العادة ببلدنا تلمسان أنّ ما يبيعه الجزار من اللحم يدخل في وزنه شيئا من الكرش والمصران على قدر شدة الثمن، وقلته إلا أن ذلك لا ينضب تساويه بين جميع الناس على نسبة محفوظة من كل ثمن ومثمون، وإنما يختلف بحسب اختلاف من يتقى بأسه من المستضعف الذي لا ناصر له إلا الله»⁽³⁾.

• **منع الثّجار خلط السّلع:** من العادات المنكرة خلط السّلع الجيد بالرديء ثم تسويقه وبيعه، وبذلك يتسنى للتاجر جني الارباح متجاهلا إثم فعله، الذي نبه إليه "العقباني" في قوله: «وأما ما يبيعونه من السلع وفيها الجيد والرديء والمتوسط، فإن كان يختلف اختلافا بينا

¹ - العقباني، المصدر السابق، ص ص 67 - 68.

² - نفسه، ص 68.

³ - نفسه، ص 114.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

فقد تقدم أنه لا يجوز وان كان اختلافه متوسطا، وجرت العادة بيعه جملة مثل اللد⁽¹⁾ بالبلاد الشرقية⁽²⁾.

من العادات السيئة والمنكرة التي ذكرها "ابن مرزوق" في مسنده، وهي دخيلة على المجتمع التلمساني، انتحال صفات وطرق وأساليب لاكل أموال الناس بالباطل، حيث قال: «فكانت طائفة تدعى الغرباء وهم العيون والجواسيس وخدام الطرق، يستعملون أشياء جرت بها عوائدهم واختلفت فيها طرقهم، فينتحلونها قصدا لأكل أموال الناس بالباطل، ثم لحق بهم فيها غيرهم، فيقامرون ويسخرون بالناس، في جزع لا يساوي دانقا يجلونها بفضة أو ذهب ويدعون فيها منافع، يخدعون ضعفاء العقول بها»⁽³⁾ أصبحت عادة مكتسبة عندهم.

ج - عادات خروج المرأة في المجتمع التلمساني

• إعلان النساء بالنوح ولطم الخدود: عادة لطم الخدود عند النساء منبوذة ومنهي عنها في الاسلام، وانتشرت بكثرة في البلاد الاسلامية⁽⁴⁾، "ومن ذلك ما كثرت المجاهرة به بإعلان النساء بالنوح ولطم الخدود وشق الجيوب والدعاء بالويل والثبور، واجتماعهن لذلك قد يكون في مقر قد يستأذن بعضهن بعضا إليه يسمينه بالزحف، وربما ضربن عليه بالدف والمزمر ويخرجن في الأزقة عاليات الأصوات باديات الجوه فذلك أعظم المنكر"⁽⁵⁾، قال ﷺ: «النائحة إذا لم تتب من قبل موتها، تقدم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»⁽⁶⁾ وقال ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»⁽⁷⁾.

¹ - اللد: الجوالق: العدل من الصوف أو الشعر

² - العقباني، المصدر السابق، ص 115.

³ - ابن مرزوق، المسند، المصدر السابق، ص 286.

⁴ - بقيت ظاهرة عويل ونواح النسوة في تلمسان؛ عنوانا لقوة الصلة والمحبة بين الفقيد والأقارب، وما كان معمول به داخل المدينة: عند دخول المرأة ترفع صوتها بالعويل لتردّ عليها النسوة من الداخل بعول كبير ومطول.

⁵ - العقباني، نفسه، ص 71.

⁶ - صحيح مسلم، ص 415.

⁷ - صحيح البخاري، ص 312.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

استنكر "العقباني" بشدة هذه العادة المنبوذة، مستشهدا في ذلك بأقوال العلماء والفقهاء، ومصرحا بأن "لا يجوز اجتماع النساء للبكاء بالصراخ العالي والنوح فيه قائم، سواء ذلك عند الموت أو بعده وقبل الدفن أو بعده بقرب أو بعد، وأما بكار ليس فيه صراخ فظيع فلا ينهاه عنه ولا للاجتماع له، وربما اجتمع إليهم الرجال للتعرض بالنظر وما فوق النظر، فواجب مهما عثر عليه القبض وإبلاغ العقوبة فيه، إلا أنه ينبغي من جميل الأخذ فيما اعتاد الناس من ذلك أن يتقدم الحاكم إلى الناس في مثله بالإعلان والإعلام بالبدار أو اشعار العقوبة ليتسامع النساء بذلك فيتجنبه ويكن على حذر، من الوقوع بهن فيفزعهن وازع الخوف"⁽¹⁾.

عقب "العقباني" عن ذلك مبديا رأيه؛ بأن الواجب في مثل هذه المنكرات وتداعياتها الاجتماعية، قائلا: «فمثل هذا واجب قبل القبض عليهن لأن الناس قد اعتادوا ترك القيام فيه، فإغفال الانكار داع إلى أخذ النساء على غرّة، وقد يكون في ذلك بعض الفتنة وصدمة الكثير من الأمثال والمستترات اللاتي لو تخيلن ذلك ما قدمن عليه، أو لمنعهن منه أولياؤهن، ولما تساهل فيه من عاداته التساهل بجرمات الله تعالى، ما لم يزعجه قهر السلطان فينبغي تفقد مثل هذه الأنواع في الشوارع والمحلات وحيثما يبدو أثر المجاهرة به تفقدا كافا لأهله، ورادعا عن مثله يعظم الله فيه الأجر ويدراً به علائق الشر»⁽²⁾.

• خروج النساء متزينات بأنواع الزينة: رغم أن الخلفية العقدية للشريعة الإسلامية واضحة في مثل هذه المسائل والعادات، التي وجب النهي عن بعضها وتحريم بعضها الآخر وكراهة قيام ببعض العادات الأخرى كما رأينا، إلا أن طبع النساء في غالب الأحيان، برز ك ممارسة فعلية خالفت هذه الخلفية الشرعية وتجاوزت النص في ظاهره ومضمونه، مما جعل

¹ - العقباني، المصدر السابق، ص 71.

² - نفسه، ص 72.

الفصل الثالث: عوائد الزياتيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

الفقهاء ينكرون على النسوة ذلك، مثل خروج المرأة متزينة من بيت زوجها، استنادا لقوله ﷺ: «أما امرأة استعطرت فمرت بقوم ليجدوا ريحها فهي زانية»⁽¹⁾.

وقال "العقباني" كذلك في هذا الباب: «ومثله اجتماعهن للملاهي والرقص الذي ليس من طور العقلاء، ومن ذلك تصرفهن بأنواع الزينة البادية، وأسباب التجميل الظاهرة على إختيالٍ في المشي وإعمال منتشر الطيب وإظهار ما يستدعي الفتنة، فمثل هؤلاء ينبغي منعهن من التصرف على هذه الحالة»⁽²⁾، وبالتالي خروج المرأة من البيت بدون سبب شرعي يعتبر تبرجا لأنها حريما، وقد كان خروجها عادة إلى ثلاث جهات: زيارة المقابر وأضرحة الأولياء والصالحين، والذهاب إلى الحمام، والتفصح في المتنزهات والأودية⁽³⁾.

• دخول النساء الحمام: إنَّ الطَّهارة الكُبرى التي لا يستغني عنها المسلم والتي لا يمكنه أداء صلاته بدونها، تجعل المحدث في حاجة ماسة إلى افاضة الماء على كل جسده⁽⁴⁾، والغرض من هذه العادة عند النساء هو الاغتسال من حيض أو نفاس أو جنابة أو مرض للاستشفاء؛ بشرط ستر العورة وعدم اثاره الفتنة فيه، ومن هنا يصير الغسل في الحمامات تقليدا مرغوبا فيه.

لكن كثرة التردد عليه من طرف النساء أخلَّ بالشَّرط؛ مما جعل هذه العادة منبوذة، ووصل الأمر إلى تحريمها كما بين "العقباني" في قوله: «وأما دخولهن الحمام فأصله الإباحة لأنه من نعمات الأبدان، غير أنه لا يقضى على الزوج به للزوجة إذا انتفعت موانع الدخول، لأنه ليس من الضروري كالثوب واللباس والسكنى فإن وقع الاضطرار إليه قضي عليه به، قلت يريد إذا أخلي بها أما حالة الاجتماع مع غيرها فلا.. لأن المرأة عورة ولا يحل لها أن تبدي محاسنها للنساء..وقد شاع في هذا الوقت وذاع أن النساء لا يستترن بحال إلا

¹ - محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير، م4، تحقيق وتخرّيج: بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1996م، ص 487.

² - العقباني، المصدر السابق، ص 73.

³ - مختار حساني، المرجع السابق، ج3، ص ص 198 - 199.

⁴ - عطاء الله دهينة، المرجع السابق، ص 364.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

القليل، وذلك القليل يرى عورة غيره فأراه اليوم مجمعا على تحريمه إلا أن يخلو لها الحمام، أو تكون مع من يجوز له الإطلاع عليها»⁽¹⁾.

من فوائد الاختلاف إلى الحمام تعهد الجسم بالتنظيف والتطهير لأداء العبادات على الوجه الأكمل، ولأجل ذلك التحق بناء الحمامات بسائر المؤسسات الدينية والاجتماعية بما فيها المساجد، وتعد الحمامات من مرافق الحياة الحضرية ومن محاسنها، وبما هو معروف ومشاهد حرص سكان الأرياف على غشيان الحمامات عند وجودهم بالمدينة لفرط حبهام لها والاستمتاع بالاعتسال فيها بالماء الحار، وتلعب الحمامات دورا اجتماعيا ودينيا بالغ الأهمية علاوة على المتعة التي توفرها للناس كافة، باعتبارها عادة مستحبة⁽²⁾، ويبدو أنهم كن أكثر إقبالا على الحمامات من مختلف الأعمار خصوصا في المناسبات، وقت الزواج، الولادة، وقبيل الأعياد

• **نظر النساء إلى الأجانب من الرجال لغير ضرورة:** كانت عادة النساء في تلمسان الاجتماع على قبر الميت، في ثاني يوم من إقباره في حضرة القراء العميان لتحصل مثوبة تلك القراءة لميتهم، لكن ذلك من دواعي الوقوع في المحذور والخروج عن جادة الصواب مما يحصل من اختلاط مصحوبا بالشهوة، فوجب المنع قطعا والانكار على مثل هذا السلوك من طرف الفقهاء.

إذ يروي "العقباني" قصته في هذا الصدد فيما يلي: «قلت ولذلك أفيتت حين ورودني من سجلماسة في ربيع الثاني عام ثمانية وخمسين وثمانين مائة/1454م بجواز ما استمر ببلدنا تلمسان قديما فعله؛ من اجتماع النساء صبيحة ثاني يوم من إقبار الميت على القراء العميان لتحصل مثوبة تلك القراءة لميتهم، عملا بقول من قال ذلك لما وجدت المنع قاطعا للعميان من ذلك في خلال غيبي فعادوا لما كانوا عليه، فباحثني بعض الفضلاء من الأصحاب في ذلك.. فقالا لي: إن منهم من يذكر بالفسق مع ما كف بصره وإنه يحضر مع المجان في

¹ - العقباني، المصدر السابق، ص 73.

² - عطاء الله دهيبة، المرجع السابق، ص 364.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

مجالسهم، فقلت له: إن كان ماجنا فلا يتهم بالسوء إلا في مواضع التهمة، أما محل اجتماع الكافة من النساء على تَحْزُنٍ وَتَفْجُحٍ عند حفرة من حفر الآخرة فمقطوع بسلامته من الرِّيب ولم يبق إلا مجرد نظر النساء إليه مع كونه لا ينظر إليهن لما قدم به من وصف العمى فقد تقررَت إباحته وصحة القول بها»⁽¹⁾.

• **خروج النساء إلى المقابر:** أضحى النسوة يزرن المقابر بحكم العادة المتوارثة عن الأجداد ويبدن الحزن عند قبر الميت، لكن "العقباني" يشير إلى مفاصد وفتن تنجر وراء خروجهن إلى المقابر، استناداً إلى الكتب الفقهية التي اعتمدها قائلها: «ومن ذلك اجتماعهن في الجبَّات»⁽²⁾ والمواضع التي يتخذ منها مجالس للتنزه على ما يمر منهن من شبان الرجال، وقد يعارضهن بتلك الحالة الكثير من الفساق، وربما جلبهم إلى المرور عليهن ما أُعتبر من اجتماعهن وعرف من أغراضهن، وقد يعمدن إلى نصب الأخبية على الجبَّات تباهاً وزعماً أن يستتر من يطيل الجلوس منهن، وهذا أدعى إلى الشهرة والشر وأشد لصراف أعين الفساق وقلوبهم إلى من فيها، مع ما يتوقع من جرأة من لا يتقي الله تعالى، على مَوَاقِعِ المعاصي بها لاستتار الكائن بها عن كثير من الاطلاع، فهذا كله من المناكر التي يجب الاشتداد عليها والمنع منها بحول الله»⁽³⁾.

• **جلوس النساء إلى الصُّناع:** تعتبر مجالسة النساء إلى الصُّناع من دواعي الفتنة، حيث اعتاد النسوة ذلك في الأسواق والحوانيت، مما أثار انتباه "العقباني" الذي نبذ هذه العادة وفقاً لقوله ﷺ: «باعدوا بين أنفاس الرِّجال والنِّساء»⁽⁴⁾.

والغرض من النهي؛ هو تنظيم العلاقات بين الرِّجال والنِّساء، وضبط قنوات التَّواصل بينهما ومن ذلك ما يتعلق بالخُلوة، حيث قال "العقباني": «ومن ذلك جلوسهن إلى الصُّناع

¹ - العقباني، المصدر السابق، ص 75.

² - الجبَّات: مقبرة تدفن فيها الجنائز.

³ - العقباني، نفسه، ص 78.

⁴ - هناك من العلماء من ضعف الحديث كالشيخ الألباني في (سلسلة الأحاديث الضعيفة) وهناك من علقه كابن حزم في (طوق الحمامة)، إلا أن هذا الحديث الذي استشهد به "العقباني" في مسألة الاختلاط يدل على اتقاء الفتنة وحفظ الشرف ووصون النفس من الوقوع في الزلل.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

يستصنعن عندهم شيئاً من المصنوعات، وكذلك الاطالة بالوقوف على حوانيت البيّاعين، وخصوصاً العطر وطيب الروائح، لأنّ ذلك كُله داعية إلى الفتنة التي تتقى.. فينبغي لاضطرارهن إلى ذلك أن يقدم إلى هنالك أمناء ويختار ثقات السّماسرة ومُسْنُوهم، ويمنع من كان متهماً من التصرف لهن ويعين للنساء موضع مستتر يحضرن للجلوس في قضاء ما يحتاجن إليه من ذلك بحيث لا يخالطنهن من يجتاز أو يتصرف من الرجال، فإن قلت إذا كان هذا الإقصاء والإبعاد فيما بينهن وبين السّماسرة والصّناع، إنّما حكمته استصناع ما يخشى من الفتنة»⁽¹⁾.

• **خروجُ الوَخْشِ⁽²⁾ من الإمامِ مُلتَحَفَاتٍ كَالْحَرَائِرِ:** هي عادة مألوفة في تلمسان وغيرها، نبذها أهل العلم لما في ذلك من المفاصد الأخلاقية، وما يترتب عن ذلك من الفواحش والزنا وتفشي الأمراض، حيث جاء في تحفة الناظر ما يثبت ذلك في ما يلي: «ومن ذلك خروج الإمامِ الوَخْشِ في الأزقة والطرقات ملتحفات كالحرائر أو مكشوفات بما لا يحل كشفه منهن كالظهر والبطن، لأن كلا الأمرين في حقهن محضورٌ، وكذلك خروج الرابعات في هذا الزمان منكشفات كالوخش فإن ذلك من دواعي الفتنة فلا يصح شيء منه، وسئل مالك أكره للجارية المملوكة أن تخرج مُتَجَرِّدَةً»⁽³⁾.

أجاب "العقباني" على لسان "ابن رشد" في هذه المسألة حيث قال: «يريد (مُتَجَرِّدَةً) مكشوفة الظهر والبطن، وأما خروجها مكشوفة الرأس فهو من سنّتها لئلاً تشبه الحرائر اللاتي أمرهن الله بالحجاب، وأن يدين عليهن جلابيبن.. قال العقباني: هذا كله في شكل ما يتزين به في أشخاصهن فيُغيّر عليهن ما خالف ذلك الشكل، وأما حلولهن بمواضع التهم والريبة فيجب تغيير المنكر عليهن فيه كما يجب على الحرائر سواء... كما هو مألوف التكرار في بلدنا من اجتماع الجسم الغفير والملاّ الكثير منهن، على السقايات والأفران لسقي المار أو لطبخ الخبز، فيطلق الوقوف هنالك لغير ما أتين لهن بل لاستدعاء الحديث مع فسقة العبيد،

¹ - العقباني، المصدر السابق، ص 78.

² - الوخش: هم رذال النَّاسِ وسُقَاطِهِمْ.

³ - العقباني، نفسه، ص 79.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

وبعض الأحرار على ما ظهرت آثاره في كثير من الدور بولادة الخدم فيهن أبناء الزنا، فيجب على من ولاه الله شيئاً من أمره هذه الأمة تفريق مجتمعهم وتشريدهن عن محال التهم بإنالة الأدب إن لم ينفع فيهن التقريع باللسان أو الزجر»⁽¹⁾.

ثانياً: عادات شائعة في المعتقدات والطقوس

1. المراسيم الجنائزية وطقوس الممارسة

تعتبر الجنائز ومراسيم الدفن الدينية في تلمسان وغيرها من الحواضر في بلاد المغرب الاسلامي ظاهر اجتماعية هامة، باعتبارها نهاية محتومة لروح الانسان والقطيعة النهائية بينه وبين أهله وأحبابه وأتباعه لاسيما وأن كان هذا الانسان ذو مكانة ووجاهة وصلاح وتقوى كما هو الحال عليه في مدينة الأولياء - تلمسان -، وعرفت هذه الظاهرة تطوراً ملحوظاً من حيث الممارسات التقليدية لدفن النعش ثم التمسح بقبره حزناً وتأسياً وتبركاً وما يصحب ذلك بعض الكرامات للصالحين.

مما يجعلنا نعتقد بأنها أثرت في معتقدات الناس بمختلف طبقاتهم، حتى أصبحوا يوصون أقربائهم بدفنهم إلى جانب قبور الأولياء والصالحين، ليصلح الله أحوالهم ويغفر خطاياهم ولا يعذبهم في قبورهم، وهذا دأب الكثير من سلاطين بني زيّان وغيرهم من الساكنة.

قبل أن تتم عملية الدفن؛ فإن العادة كانت جارية بتغسيل الميت وتطهيره من أي نجس يكون عالق به، ثم يكفن في ثوب أبيض اللون ويكون مبخراً ومطيباً ليستر به جسد الميت، وعند الانتهاء من التكفين يوضع على النعش ويقوم بحمله أربعة من الناس يتقدمون الموكب الجنائزي ثم يلي أقربائه، والمرحلة الأخيرة قبل الدفن هي صلاة الجنازة التي في العادة يصلى فيها على الميت في المسجد الجامع بتلمسان، ثم يحملون النعش متوجهون نحو المقبرة لتتم عملية الدفن، والغرض من ذلك هو أن يوارى الميت في حفرة تجب رائحته وتمنع الحيوانات

¹ - العقباني، المصدر السابق، ص 80.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

والطيور عنه، وهذا نظرا لحرمة وقداسته في السنة فيستوجب تعميق القبر قدر قامة، وهناك بعض العادات المتصلة بالجنائز والوفاة كشفت عنها نوازل "الونشريسي" وهي كالآتي:

أ - عادة الجهر بالتهليل أمام الجنازة: يشير "الونشريسي" في نازلة أوردها حول عادة الجهر بالتهليل والأذكار والترانيم أمام الجنازة⁽¹⁾، حيث يقوم الناس في جنائزهم بالجهر بالذكر على صوت واحد⁽²⁾، وهذا ما اعتبره الونشريسي من العادات المنكرة التي توقع فاعلها في البدع، والأصل في ذلك هو الصمت والتفكير في فتنة القبر وسؤاله وشدائده وأهواله⁽³⁾.

ب - عادة نعي الميت من منار الجامع: وهي إشاعة خبر الميت من منار الجامع الأعظم، حيث "يقرأ شيئا من القرآن ويذكر نحو ما يفعل المؤذن بالليل ثم يدور في المنار ويقول مات فلان وجنازته في كذا"⁽⁴⁾، والحكم الشرعي على هذه العادة المستحدثة "هو التقدم فيه بالنهاي عنه والمنع منه لقبحه بفعله في الصوامع التي لم يشرع فيها إلا الإعلان بالأوقات لإقامة شرائع الصلوات"⁽⁵⁾.

ج - عادة القراءة في أجزاء القرآن في صباح القبر: جرت عادة الناس قراءة ختمة ذات أجزاء من القرآن الكريم على قبر الميت فور دفنه عند القرويين⁽⁶⁾، ولا شك أن هذه العادة كان معمولا بها في تلمسان نظرا لطبيعة المجتمعين وتقاربهما في مثل هذه التقاليد الجنائزية، هذه المسألة وقع فيها اختلاف الانكار والجواز لما يتخللها من بدع وتجاوزات، غير أن الميت يتنفع بالقرآن والأجرة عليه جائزة⁽⁷⁾.

¹ - الونشريسي، ج1، المصدر السابق، ص 314.

² - نفسه، ص ص 314 - 315.

³ - نفسه، ص 315.

⁴ - نفسه، ص 317.

⁵ - نفسه، ص 317.

⁶ - نفسه، ص 335.

⁷ - المازوني، المصدر السابق، ج5، ص 68.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

د - عادة عشاء القبر (سابع الميت): وذلك مما يقوم به أهل المتوفى بعد دفن الميت في اليوم السابع خصيصا، حيث يصنعون طعاما للقراء والفقراء والأقارب للترحم على الميت وصلة الأرحام ويسمى هذا الطعام بعشاء القبر⁽¹⁾، فاذا كان القصد من وراء ذلك "استجلاب النفوس واستنهاض القلوب بالدعاء له والترحم عليه فلا حرج"⁽²⁾، وإلا فهي بدعة مذمومة لا أصل لها في الدين عندما تخالف المقاصد المحمودة.

يذكر "القلصادي" في ترجمه العالم "محمد ابن مرزوق": «ثم توفي رضي الله عنه يوم الخميس عند العصر رابع عشر من شعبان عام اثنين وأربعين وثمانمئة هجرية/ 30 جانفي 1439م، وصلي عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة ودفن بالروضة⁽³⁾ المعروفة هناك بغربي المسجد، وكانت له جنازة عظيمة حضرها السلطان فمن دونه لم أرى مثلها فيما قبل»⁽⁴⁾.

يشير إلى عادة الجنائز عند التلمسانيين؛ وهي أنهم يصلون على الميت في المسجد الأعظم وتكون بعد صلاة الظهر أو الجمعة ولا زالت هذه العادة إلى اليوم، ثم يذكر موكب الجنازة، حيث كانوا يمشون على الأقدام من المسجد إلى المقبرة امثالاً لحديث النبي ﷺ: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا، فمن تبعها فلا يقعد حتى توضع»⁽⁵⁾، وهذا الموكب كان يحضره ملوك وسلاطين بني زيّان فمن دونهم بغرض أداء الواجب الديني ثم تعظيما وتوقيرا للعلماء لاسيما التبرك بهم وهذا دأب التلمسانيين بصفة عامة.

يمثل الجامع الأعظم بتلمسان المعلم الديني الذي تتم فيه معظم العادات الدينية بما فيها صلاة الجنازة، ومن ثم إلى المقبرة الواقعة في طريق العباد أين يدفن النعش وسط جمع غفير

¹ - كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الاسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المغرب للنشرسي، مركز الاسكندرية للكتاب، مصر، 1996م، ص 42.

² - الونشريسي، المصدر السابق، ص 217.

³ - هذه الروضة مدفون العالم الصالح أحمد بن الحسن الغماري (ت874هـ/1470م)، وقد حولت زاويته أخيرا الى مديرية لوزارة الشؤون الدينية الجزائرية، أما ضريحه فما زال قائما الى اليوم.

⁴ - القلصادي، المصدر السابق، ص 95.

⁵ - صحيح البخاري، ص 316.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

من المعزين، كما هو الحال للشيخ الرباني "بن زاغو" حيث "توفي رضي الله عنه يوم الخميس عند وقت العصر الرابع عشر من ربيع الأول عام خمسة وأربعين وثمانمائة/ 2 أوت 1441م في زمن الوباء، وصلي عليه من الغد بعد صلاة الجمعة بالجامع الأعظم ودفن بخارج المدينة بطريق العباد في موضع بالقرب من عين ونزوته وكانت له جنازة عظيمة حضرها الخاص والعام وأسف الناس لفقده.. وكان عمره ثلاثا وستين سنة"⁽¹⁾.

وكانت عادة سلاطين بني زيّان الحضور وتشجيع الجنائز لكبار العلماء والصلحاء، كما هو الشأن عن العالم الكبير "قاسم العقباني" الذي "توفي رضي الله عنه في شهر ذي القعدة من عام أربعة وخمسين وثمانمائة/ جانفي 1451م، وصلي عليه بالجامع الأعظم ودفن بغربية بالروضة هناك.. وكانت له جنازة عظيمة حضرها السلطان فمن دونه"⁽²⁾، ولما توفي الشيخ "الحسن أبركان"⁽³⁾ كانت "جنازته من الأيام المعدودة والمحاضر المشهودة، آخذة في نهاية الاحتفال حضرها الخليفة رحمه الله، وامتألت السكك والشوارع بمن حضرها من النساء والرجال.. شاهدت يومئذ على الخليفة المعتصم بالله رحمه الله دبليزا رصاصيا وقبلا راسماويا إظهارا للكآبة والحزن، وتزاحم الناس على نعشه متبركين به، باكين لفقده واتبعوا ثناء حسنا وذكرا جميلا"⁽⁴⁾.

ذكرت الروايات الاخبارية كرامات متصلة بعبادات الدفن لصلحاء عاشوا في تلمسان؛ من بينها رواية "بن مرزوق" في المناقب عندما ترجم للإمام "أبي عبد الله محمد بن عيسى"⁽⁵⁾، الذي رأى "خلائق ما شاهده جميع من حضر جنازته، وكانت جنازة حافلة لم

¹ - القلصادي، المصدر السابق، ص 107. قدر مولده ابن مريم في البستان فيكون مولد على هذا في حدود سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة، ص 43.

² - نفسه، ص 107.

³ - نشأ على طريقة أسلافه في الموضع المعروف بالجمعة وهي القرية الكائنة على واد يسر إلى أن توفي والده مخلوف، فارتحل للبلاد المشرقية وأخذ بها على أعلام الصوفية، وأقام هنالك مدة طويلة وجاور بالحرم الشريف خمسة أعوام، ثم قدم من المشرق وسكن مع أمه تلمسان. ينظر ترجمته في روضة النسرين لابن سعد، المصدر السابق، ص 116.

⁴ - ابن سعد، المصدر السابق، ص 136.

⁵ - خلط بين ترجمتين من قبل "بن مرزوق" بين "أبي عبد الله محمد بن عيسى" الذي قبره خارج باب العقبة، ترجم له: يحيى بن خلدون، ج1، ص 149. وبين "محمد بن عيسى" الذي يوجد قبره بمغارة تحت أرضية بالدار رقم 6 من درب سلسلة،

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

يتخلف عن حضورها أحد وأنه لما وضع على شفير قبره تساقط الطير عليه كما تساقط الذباب على الطعام، وأكثره الخطاطيف، ثم لما أدخل في قبره تساقطوا عليه في القبر حتى منع الحافرين من أن يهيلوا عليه التراب إلا بعد مدة، قال لي غير واحد ممن حضر: رأيت الحفارين يرفعون المسحاة دون أن يصيبوا الطير والطيور مع ذلك تتوافى بين أقدام الناس، وله أحوال عظيمة نفع الله به.. وأراني بركة التوسل بهؤلاء الأولياء إليه في أن يشفع في خلاصي دنيا وأخرى" (1).

وكان هذا الصالح من أهل أجادير وله مكاشفات آتاه أمير المسلمين "أبو يحيى يغمراسن" إلى محله التماسا لدعائه، وعناية جبل عليها بالصالحين أمثاله، وقبره رحمه الله خارج باب العقبة (2)، ومن الأشياخ الذين تركوا إرثا أخلاقيا كبيرا في نفوس أهل تلمسان أحمد بن الحسن الغماري (3)، فجنازته كانت محفلا عظيما على العادة الجارية عندهم "ولو رأيت يوم دفنه تزامم الناس على نعشه يمسخونه بأثوابهم ويلمسونه بأكفهم لغبطة حال أولياء الله" (4).

اهتم سلاطين بني زيان بالعلماء والصلحاء إلى درجة الحزن والبكاء عليهم في جنازتهم، هذا الدأب الذي ساروا عليه، وكان من بين المؤشرات الحضارية التي خلفت إرثا ثقافيا وتعليميا وعمرانيا كبيرا، أشادت به الكتب والمؤلفات، ومن القرائن التي تدل على

ونتيجة لدفنه بمغارة خرجت الحفافش في النهار لإزعاجها من الناس الذين دخلوا المغارة لدفنه. لا زالت الدار تسمى بدار سيدي بن عيسى. وترجم له: ابن مريم في البستان، ص 225. والمقصود بالذكر هنا من رواية بن مرزوق، هو الثاني "محمد بن عيسى".

¹ - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 177.

² - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 149. باب العقبة يقع في شرق المدينة وهو الباب القديم الذي ظل قائما منذ تأسيس مدينة أكادير الاسم القديم لتلمسان، بني بأحجار من بقايا الرومان وقد انهارت بقايا باب العقبة واندرت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. كذلك ينظر إلى: Wet G Marçais, les monuments arabes de Tlemcen, Paris, 1903, p14 et 123-124.

³ - أحمد بن الحسن بن عبد الرحمان بن يحيى الرياحي أبو العباس سيدي أحمد بن الغماري، نزيل تلمسان من بلاد غمارة وبطوية ينتسب إلى عرب رياح، المتوفى في (13 شوال 874هـ/ 15 أبريل 1470م)، ينظر ترجمته في روضة النسرين لابن سعد، المصدر السابق، ص 232.

⁴ - نفسه، ص 232.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

ذلك إشارة "عبد الله الثغري" في كتابه مناقب التلمسانيين إلى تأسف السلطان "أبي حمو الثاني" لوفاة الشيخ الفذ والعلامة الجهاد "أبي عبد الله الشريف" في قوله: «ولما بلغ السلطان أعزه الله موته عظم عليه ذلك وتأسف.. ثم أمر بدفنه مع أبيه في قبة المدرسة وحضر جنازته وأظهر فيها من الحزن والبكاء كثيرا، وعزى ابنه وصبرهم وأحسن إليهم»⁽¹⁾.

والشعور بالحزن عادة مألوفة "لأبي حمو الثاني"؛ كان لا يمتلك نفسه عندما يصله خبر فقد أحد الصالحين فضلا عن الأقرباء، وهو فجعه عندما بلغه وفاة أباه المولى "أبا يعقوب" حيث "طوى أحشائه على نار فقدانه طيًّا"⁽²⁾.

وصفت كتب المناقب صور حول تمثيلات الموت مرتبطة بعبادات الناس في التأسى بأشياخهم وصالحيتهم، كما هو الحال في كتاب التشوف للتادلي الذي أورد في ترجمة "أبي علي عمر بن العباس الصنهاجي" العروف "بالحباك" يذكر: «قال علي بن أحمد حدثني عمر الحباك بابتداء أمره فقال: لما توفي أبو مدين حضرت جنازته بالعباد خارج تلمسان، فما رأيت أعز من الفقراء في ذلك ولا أذل من الأغنياء فقلت في نفسي: إذا كان هذا في الدنيا فكيف بهم في الآخرة، فدفعت أثوابي لفقير وأخذت منه مرقعة وحلقت رأسي ودخلت على امرأتي فصاحت يا ويلها! فقلت لها: إن لم توافقيني على هذه الحالة فعديني ميتا»⁽³⁾.

2. المزارات والقبور⁽⁴⁾ والتبرك

أ - العباد قبلة للمزارات والتبرك: تعتبر قرية العباد مكانا مقدسا في ذهنية المجتمع التلمساني وغيره من مجتمعات المغرب الاسلامي، لأنه احتوى على ضريح الولي الصالح "أبي مدين

¹ - عبد الله الثغري، المصدر السابق، ص 264.

² - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 224.

³ - ابن الزياد التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق: علي عمر، ط2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2015م، ص375.

⁴ - جاء في نوازل المازوني أن "زيارة القبور مأمور بها للاعتبار والتذكر فيرجى فيها قبول الدعوة وقد جرب ذلك في كثير منهم"، ج5، ص 68.

الفصل الثالث: عوائد الزيايين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

شعيب"⁽¹⁾ صاحب الكرامات والفضائل، ويأتيه الزائرون من كل حدب وصوب التماسا لبركة الشيخ كلما سنحت الفرصة لهم وهذه عادة راسخة في معتقداتهم، فمنهم من زار قبره فتيسرت أحواله وانبسط أمره، ومنهم من زار ضريحه فزال عليه عقبات ومعاناة الرحلة، ومنهم من يزوره لأغراض اجتماعية أخرى.

ومن هنا يظهر تأثير هذا الولي الصالح على مختلف طبقات الناس في مزاراتهم له، كبنية رمزية ذات فاعلية اجتماعية وروحية كبرى، تعكس جزءا مهما من علاقة التواصل بين الأحياء وماضيهم، وهذه العلاقة الثنائية بين ضريح الشيخ والعباد؛ جعلت الاسطوغرافيا التاريخية حافلة بسرد كل تقاليد ظاهرة زيارة القبور وما يتبعها، من حلول بركة الجوار والطمأنينة لدى الوافدين على العباد، حتى قال في ذلك "المقري":

وَلْتَعُدْ لِلْعِبَادِ مِنْهَا غَدْوَةً تُصْبِحُ هُمُومُ النَّفْسِ عَنكَ بِمَعَزَلِ
وَضَرِيحُ تَاجِ الْعَارِفِينَ شُعَيْبُهَا زُرُهُ هُنَاكَ فَحَبَبًا ذَاكَ الْوَلِيِّ
فَمَزَارُهُ لِلدُّنْيَا مَعَا تُمَحَى ذُنُوبُكَ أَوْ كُرُوبُكَ تَنْجَلِي⁽²⁾

أطلق الرَّحالة الجغرافيين على تلمسان بأنها مدينة مشهورة مبرورة بالصالحين مثل "سيدي أبي مدين" وغيره⁽³⁾، وبالتالي اكتسبت شهرة واسعة بأنها محفوفة بالأولياء والصالحين، وقبلة للزوار وطلبة العلم من كل حدب وصوب، بما فيها العباد والتي وصفها بعض الرَّحالة بأنها "مدينة صغيرة شبه ربض..وبها دفن ولي كبير ذو صيت شهير، يوجد

¹ - هو الشيخ العارف المحقق الواحد القطب أبا مدين، هو شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي، أصله من حصن قطنية من عمل إشبيلية، ثم نزل ببجاية وأقام بها إلى أن أمر باشخاصه إلى حضرة مراکش، فمات وهو متوجه إليها بموضع يسر عام أربعة وتسعين وخمسمائة وقيل عام ثمانية وثمانين ودفن بالعباد خارج تلمسان..كان زاهدا فاضلا عارفا بالله تعالى، قد خاض من الأحوال مجارا ونال من المعارف أسرارها وخصوصا مقام التوكل لا يشق فيه غبار ولا تجهل آثاره، وكان مبسوطا بالعلم مقبوضا بالمراقبة كثير الالتفات بقلبه إلى الله حتى ختم الله له بذلك، وقبر الشيخ أبي مدين رضي الله عنه بالعباد معهود مشهور وحوض للزائرين، رأيت من قبور الأولياء كثيرا..قال ابن قنفذ: "فما رأيت أنور من قبره ولا أشرق ولا أظهر من سره وليس الخبر كالعيان، والدعاء عنده مستجاب، قاله الأعيان، وقد وقفت على ذلك غير ما مرة وأخبرني به من جريه، واختبرته، زرت مرارا ورأيت له أسراراً". ينظر إلى ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 104. وابن الزيات، نفسه، ص 259.

² - المقري، نفع الطيب، م 9، المصدر السابق، ص 347.

³ - ابن الصباح الأندلسي، المصدر السابق، ص 52.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

ضريحه في مسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلم من عدة درجات، ويعظم أهل تلمسان والبلاد المجاورة لها هذا الولي كثيرا ويستغثون به ويتصدقون عنده كثيرا لوجه الله ويسمى سيدي بومدين⁽¹⁾ قبره بالمسجد الأعظم والنزول إليه بدرجات⁽²⁾.

يذكر مؤلف المناقب عن جده الأقرب العارف بالله "أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق"⁽³⁾، أنه "كان يزور المقابر في أيام مخصوصة ويزور إخوانه في الله بعد صلاة الجمعة، فإنه كان لا يركب يوم الجمعة بل يشتغل من أول النهار بوظائف الجمعة، فإذا صلى تفقد إخوانه وكانت غالب صلواته يوم الجمعة تلمسان العليا، وإذا صلى بالجامع الأعظم صلى في الجانب الغربي في الزاوية العليا، وفيها كان يصلي والذي رحمه الله، وجدي للأمام العالم أبو اسحاق التنسي وأهل الورع والتحري، فإنهم يذكرون أن ذلك الجانب الشرقي من الجانب في اغتصاب وأن العلماء كانوا ينحرفون عنه وفيه أدركت أهل الخير يصلون أعني في الجانب الغربي"⁽⁴⁾، فيه إشارة واضحة إلى زيارات القبور⁽⁵⁾ وزيارة الإخوان التي تدخل في صلة الرحم، وكانت من بين العادات عنده، وفيه إشارة إلى تقليد متوارث أبا عن جد في الصلاة بزاوية الجامع الأعظم، وهو من المعتقدات الراسخة لدى البيت المرزوقي في تلمسان. ترك موضع العباد أثرا تعبديا وروحيا كبيرا في نفسية "يغمراسن ابن زيّان"، حيث روت لنا المصادر الإخبارية؛ بأنه حمل صفات الشفقة والرحمة وامثال رمزية بركة العباد حتى مع خصومه المناوئين له، ولا أدل على ذلك مما ذكر "بن أبي زرع" في الأنيس المطرب، عندما هَزَمَ "يغمراسن" الخليفة الموحد "أبو الحسن السعيد" في موقعة تامزديكت سنة (646هـ/

¹ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 24.

² - كاربخال، المصدر السابق، ص 323.

³ - يعرف بمحمد الثاني (ت 681هـ/1282م). ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 149.

⁴ - ابن مرزوق، نفسه، ص 155.

⁵ - زيارة القبور عادة روحية أخلاقية تربوية للنفس والقلب، حيث "أجمع المتصوفة وأرباب القلوب أنه ليس شيء أنفع لقلب بن آدم من زيارته للقبور وذكر هادم اللذات المفرق للجماعات، فان الزائر للمقابر إذا دخلها بنية التفكير والاعتبار والتذكر لأحوال من مات قبله من الملوك، الذين سبقوه لجمع الأموال وتنافسوا في بلوغ الآمال كيف انقطعت بهم آمالهم ولم تغن عنهم أموالهم؛ قاده نيته وتفكره إلى الزهد في دنياه والاقبال على طاعة مولاه". ينظر إلى: ابن سعد، المصدر السابق، ص ص 201-202.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

1248م⁽¹⁾؛ وأمر به "فَعُسِّلَ وَكُفِّنَ وَحُمِلَ فِدْفَنَ بِالْعَبَاد"⁽²⁾، فأراد "يغمراسن" بذلك تكريم ذكرى خصمه بدفنه بالقرب من ضريح "أبي مدين شعيب" الصوفي العظيم⁽³⁾، ومن جانب آخر كان "يغمراسن" يميل في ولاءه أكثر للموحدين على حساب أعدائه المرينيين حتى ولو حاربوه.

➤ أبو مدين شعيب رمز البركة: حضرته المنية في عام أربعة وتسعين وخمسمائة/1098م، وكان في ذلك اليوم محفل عظيم ومشهد جسيم⁽⁴⁾، وكان ذلك في العباد الذي استحسنته الشيخ "أبي مدين" وارتضاه مرقدًا آمنًا للنوم فيه⁽⁵⁾، وهنا إشارة إلى إحدى كراماته كراماته في اختيار موضع دفنه الذي اعتبره موضعًا يعج بالعباد والصالحين ولا يصلح لأحد غير العارفين بالله، رغم أن أجله انقضى بوادي يسر القريب من مدينة تلمسان؛ ليحمل نعشه إلى العباد ويدفن فيها حسب ما أورده "بن قنفذ"⁽⁶⁾.

أسهب "ابن قنفذ" اسهابًا كبيرًا في ترجمه الشيخ "أبي مدين"، مما جعله يذكر أدق التفاصيل حول تقاليد البركة وعادات زيارة القبر ثم تجليات كراماته في العباد، حيث يقول: «وقبر الشيخ أبي مدين رضي الله عنه بالعباد معهود مشهور وحوض للزائرين»⁽⁷⁾، كلمة حوض فيها دلالة واضحة على ضخامة العدد للإتيان إلى ضريح الشيخ بنية التبرك في الاعتقاد، وقال كذلك: "زرته مرارا ورأيت له أسراراً"⁽⁸⁾، ففيم تكمن هذه الأسرار التي

¹ - ستعرض لهذه الموقعة بالتفصيل في الفصل الرابع.

² - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص 257.

³ - ألفريد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987م، ص ص 312-313.

⁴ - ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 104.

⁵ - نفسه، ص 103.

⁶ - نفسه، ص 103.

⁷ - نفسه، ص 104. قال ابن قنفذ عن أبي مدين شعيب: «وأما كراماته وأحواله الصادقة والخبر الصادق فكثيرة، وبلغ رحمه الله من الورع مقامًا عليًا ونال من الزهد والتحقيق منالًا سنيا، تبعه فيه المتقون واقتدى به المحققون ولازمه المصدقون وله أشياخ مشاهير واخوان جماهير وأصحاب جواهر، وأنا أشير إلى بعضهم قصد التبرك به وبهم» ص ص 19-20.

⁸ - نفسه، ص 105.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

أوجدت عادة الزيارة؟ فلماذا كل هذه الوفود؟ ولماذا قبر الشيخ "أبي مدين" دون غيره من قبور الأولياء والصالحين في تلمسان عموماً؟.

تكمّن الإجابة في جانب روحي عقائدي آمن به الكثير من المتصوفة والمريدين وغيرهم؛ وهو أنّ "الدعاء عنده مستجاب، قاله الأعيان"⁽¹⁾، ورأى "بن قنفذ" ذلك بنفسه ما لم يره من قبور الأولياء في العديد من المدن كتونس والمغرب وآسفي⁽²⁾.

أما الرحالة "العبدري" فكان أول ما تطأ قدمه تلمسان يزور قبر الشيخ بالعباد لذات الغرض، حيث يصف ذلك في قوله: «العباد وهو مدفن الصالحين وأهل الخير وبه مزارات كثيرة، ومن أعظمها وأشهرها قبر الصالح القدوة فرد زمانه أبي مدين رحمه الله ورضي عنه ورزقنا بركته»⁽³⁾.

ومن آثار هذه الزيارة كذلك الاستعانة بكرامة الشيخ في قضاء الحوائج ودفع المصائب والضرر، وهو ما تم لابن قنفذ في قصة طويلة عندما قفل راجعاً إلى بلده قسنطينة سنة (767هـ/1366م)، ونزل بتلمسان أينما حلت به الشقاوة والشدة وقلّة الحيلة وذات اليد، فمنعه وزيرها من الخروج منها وتبرأ منه، الأمر الذي دفع إلى اللجوء إلى قبر "أبي مدين" وطلب الاستغاثة ورفع عليه الحجر، إذ قال: «يا سيدي أبا مدين نحن أضيافك وقد نزلنا بجوارك ولنا معك وسيلة عهد سند متصل قريب غير منفصل والغرض تيسير الانتقال والحفظ في كل الأحوال»⁽⁴⁾، حيث كانت النتيجة بعد التهليل والتسبيح وقراءة القرآن عند ضريح الشيخ والتوسل إلى الله بجاه الأنبياء والصالحين وبركة الشيخ "أبي مدين"، هي تجليات إحدى أسرار كرامات الشيخ في الفرج وتيسير الارتحال وقضاء الحاجة.

اعتاد زوار القبر التنقل داخل البيت وهو مكان مصلى فضلاً على أن تتم به طقوس التبرك فرضها العرف والعادة الجارية، فإذا امتثل الزائر أمام القبر "فيسلم على الشيخ من غير

¹ - ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 104.

² - نفسه، ص 104.

³ - العبدري، المصدر السابق، ص ص 27 - 28.

⁴ - ابن قنفذ، نفسه، ص 105.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

تقبيل ويقول: جزاك الله خيرا على اجتهادك في نفسك ومن تعلق بك من تلامذتك، ورحمك ونفعك بعلمك وطاعتك ونفع بك، ثم يقرأ ما تيسر ويذكر ما تيسر ثم يدعوا بما شاء، وإن تيسرت له صدقة للضعفاء والمساكين الملازمين للباب فيدفعها، فان كان أحدا يريد الزيارة فيخفف وإلا فيجلس ما شاء إلى أي وقت، ومن الفقراء من يبيت هنالك، وتحت هذا البيت وجواره قبور كثيرة، متزاحمة لالتماس بركة الشيخ أبي مدين رضي الله عنه⁽¹⁾.

جرت عادة الناس في العباد ايداع أوقاف لصالح الزاوية والمدرسة والمسجد لغرض الانتفاع بها وكذا الاعتناء بطلبة العلم والمنقطعين للعبادة بها⁽²⁾، ومن بين الصالحين الذين استقر بهم الحال داخل مصر الشيخ "أبي مدين" هو الولي "أبو محمد عبد السلام" التونسي. حيث كان أهل تلمسان بما فيهم السلطان يترددون عليه ويقصدونه للتبرك وبيالغون في ذلك، كما ذكر "بن قنفذ" في قوله: «فقصده والي تلمسان للتبرك فنزل عن فرسه ففرش له فتاه برنوسه يجلس عليه، فقال له عبد السلام: ما هذه الأخلاق؟ أين تجد غدا برنوسا تجلس عليه؟ فاستحيا وقام وجلس على الأرض، وكانت لعبد السلام أحوال عجيبة وبلغ الغاية في الزهد والتقشف وكان إذا صلى الجمعة بتلمسان حبسه الناس عند الخروج للدعاء زمانا طويلا واحدا بعد واحد ورابطته بالعباد معروفة»⁽³⁾.

ومما يستتج من هذا المشهد أنّ العلاقة الثنائية بين ضريح الشيخ "أبي مدين" و"العباد"؛ كانا قبلة واحدة للصالحين والزاهدين وحكام وعامة الناس من أجل التماس البركة، كما أعتبر العباد مكانا للفرار واللجوء للتكفير عن الذنوب والخطايا والتماس البركة في قهر العدو، كما أورد "التنسي" عن السلطان الزياني "المتوكل" عندما نهض سنة (866هـ/1441م)، على عادة سابقه في تأديب القبائل والمدن المتمردة على ملك بني زيان متوجها صوب المغرب والنصر أمامه، ليقوم بزيارة العباد قبل اتمام عملية تمديد دولته في يوم الاثنين أول يوم من جمادى الاولى من السنة المذكورة، قال "التنسي": «ففر الأمير أحمد إلى

¹ - ابن قنفذ، المصدر السابق، ص ص 105 - 106.

² - نفسه، ص 106.

³ - نفسه، ص ص 106 - 108.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

العباد واستجار بقبر الولي القطب الغوث شيخ الشيوخ السيد أبي مدين شعيب، بن الحسين الأنصاري أفاض الله عليها من أنواه»⁽¹⁾.

ومن بركات موضع العباد الذي يحمل جثمان الشيخ الصالح الزاهد "أبي مدين شعيب"؛ أنه لا يتعرض أحد لتخريبه إلا وقد هلك لاسيما وأن كانت بجواره بستان "بن مرزوق الجد"، فيذكر "بن مرزوق الخطيب" في هذا الصدد عن أبيه أنه كان مستجاب الدعوة. فدعا على عامل السلطان "أبي تاشفين" وهو "عبد الرحمان بن موسى بن عثمان" فهلك، بسبب إقدام هذا العامل على تخريب روضة العباد التي فيها ضريح "أبي مدين" وبجوارها جنان "بن مرزوق الجد"، فيقول: «فجاء إلى والدي رحمه الله فقال: أريد أن أتكلم معك. فقال له: فيم؟ قال له: فيما جئت بسببه. فقال له والدي: وما جئت؟ قال له: لأن أخرج هذا الموضع وأبدأ بهذه الروضة يشير والعياذ بالله إلى مدفن سيدي أبي مدين. فقال له والدي: كذلك يا يحيى يملكك الله ميتة يتحدث بها في المشارق والمغرب. اللهم اعمل به كذا، قال: فسقط ما في يده وأيقن بإجابة الدعاء»⁽²⁾، ويذكر بأنه رمي في المنجنيق بطلب منه كإختبار في حرب "أبو الحسن المريني" وأبو تاشفين، فتحدث الناس بهذه الميتة الشنعاء شرقا وغربا⁽³⁾.

يعتبر العباد روضة مباركة للدفن؛ وهو ما تمناه أحد الأولياء وطلب بأن يوارى نعشه التراب بها، وفي هذا الشأن يروي "بن مرزوق" في المناقب قصة حدثه بها "بن القطان" مفادها؛ أن شيخا من الصالحين أمره بأن يشتري له موضعا في العباد يعده مدفنا له، لأنه رأى في منامه النبي ﷺ يلح عليه بذلك، مكان موضع القرافة التي هي مقبرة أهل القاهرة ومصر، التي أرادها مدفنا بعدما اشتد به المرض بها، قال "بن القطان": «فاشترت له الروضة التي فيها قبره الآن وقبور أهله»⁽⁴⁾، والمشائخ الذين استقر جثمانهم بالعباد وكانت قبورهم مزارات

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 254.

² - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 229.

³ - نفسه، ص 229.

⁴ - نفسه، ص 283.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

للتبرك الشيخ أبو اسحاق بن ابراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي فقد كان "كان واحد عصره علما ودينا، له كرامات عديدة.. وقبره بالعباد مزارة يتبرك به"⁽¹⁾.

ومن أسرار موضع العباد كذلك كما يذكر "ابن مرزوق" عن أبيه، أنه كان مستجاب الدعوة على الظالمين وكل من يدنس العباد أو يشق على أهله، كما فعل "علي بن منصور" أحد العمال، فدعا عليه والد "بن مرزوق الخطيب": "اللهم اجعل حنفة علي يد نفسه، فلم يمض إلا أياما فأخذ وطولب، فقال: واشتد عليه بالطلب وعرض عليه العذاب فاستعجل الموت فضرب تحت خاصرته بموسى فخرجت أمعاؤه، ولم يزل كذلك حتى مات فتحدث الناس بها زمنا"⁽²⁾.

استنادا إلى ذلك وما يتعلق بجرمة العباد وقداسته كموضع للصالحين إذ يعاقب كل من يتعدى عليه، لاسيما وأن هذا الموضوع اهتمت به أسرة المرازقة كما يذكر "بن مرزوق" عن جده دائما في المناقب: «وحدثني ملك المغرب السلطان أبو الحسن قال لي: اجتزت يوما بجنانكم بالعباد السفلي⁽³⁾ وكان من غرس الشيخ، قال: وأنا يومئذ صغير، فأخذت باكورة فأعجبني فأكلتها فأصابني معص شديد أشرفت منه، فقيل لي: إنه لابن رجل صالح فبعثت لعمك بالعباد، فحلله لنا فشفيت ومن يومئذ أعرف بركات بيتكم»⁽⁴⁾.

ب - التبرك بالأولياء:

➤ التماس البركة من الأولياء في حياتهم⁽⁵⁾: شكل الأولياء والصالحون في المجتمع التلمساني، شريحة معتبرة في الزهد والعمل الدؤوب على فعل الخيرات والنهي عن المنكرات وتقديم مساعدات ضمنية للناس، مما جعلهم أكثر شرائح المجتمع إقبالا عليهم لالتماس بركتهم في حياتهم لاسيما ملوك بني زيّان، وهذا ما عرف به "يغمراسن بن زيّان" عندما كان

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 126.

² - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 229.

³ - هناك موضعين عرفا بالعباد وهما العباد الفوقي أعلى المدينة والعباد السفلي وهو باب الجياد.

⁴ - ابن مرزوق، نفسه، ص 164.

⁵ - التماس البركة عقيدة راسخة في أذهان المجتمع التلمساني، إذ يبدو لنا أن في ذلك سلوك ديني يلزم كل الناس في التشدد بصلحتهم وزهادهم كما قال بن قنفذ: «ويجب أن تلتمس بركاتهم وتغتنم دعواتهم»، المصدر السابق، ص 02.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

يتوجه إلى الشيخ "أبي يحيى الشهير بأبي البيان واضح" لزيارته والتبرك برؤيته⁽¹⁾ والدعاء له ولعقبه، في موضعه بجبل آفرشان⁽²⁾ أواسط القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، وتذكر النصوص الاخبارية أن "أبا يعقوب والد السلطان "أبا محم الثاني" كان "رجلا صالحا متبركاً بالفقراء والصالحين"⁽³⁾.

ومن القرائن الدالة على عادة السلاطين في التماس بركة الأولياء، ما يذكره "ابن مرزوق" في المناقب عن "أبي تاشفين" قائلاً: «ورأيت يوماً السلطان المرحوم أبا تاشفين رحمه الله بالعباد، وقد قصد زيارة ضريح الشيخ سيدي أبي مدين رضي الله عنه، فلقي عمي فسأل عن والدي فقال له: هو هنا في الجامع. فلما دخل الجامع لقيه والدي رحمه الله فصافحه وقال له: سألتك بالله لأي شيء تمنعنا من رؤيتك والتبرك بك؟ لا تجيئنا ولا تزورنا وإن أذنت لنا أن نزورك زرنالك، فشكر له وقال له: رؤيتي لك بظهر الغيب، فلا تحملني على ما لا قدرة لي عليه ولا أصلح له. فقال له: المقصود أن أكون في خاطرك ورغبتني أن أدفن في هذا الموضع الذي أعدته للدفن إلى جانبك، كما دفن جدي مع أبيك»⁽⁴⁾.

لم تنحصر التماس البركة من العلماء والمشائخ الأحياء على ملوك بني زيّان فقط، وإنما عرف بها كذلك طلبة العلم في تلمسان، وهذا ما أورده "القلصادي" في رحلته حول عادة التبرك بالعلماء والصلحاء في حياتهم، قائلاً في ترجمة العالم "أحمد بن زاغو": «وأنا مذ رأيت نجاح دعواته، وصلاح حالي بالتماس بركاته، لازمته وترددت اليه، فكنت أجد في مجالسه فوائد تنسي الأوطان، وأرد من بحر فيضه ما يحيى به الضمآن، فسرت الى خدمته مسرعاً، والى مبرته مبادراً، الى أن صيرني كبعض أولاده وأنزلي منزلة أحد أصدقائه وأخذانه..وأما أنا فوجدت لفراقه ما يجده المبعد من مرامه، أو المرضع من فطامه»⁽⁵⁾.

¹ - أبو عمران المازوني، المصدر السابق، ص 134.

² - التنسي، المصدر السابق، ص 126.

³ - زهر البستان، المصدر السابق، ص 70.

⁴ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 239.

⁵ - القلصادي، المصدر السابق، ص 103 - 106. وترجمة لسبعة من علماء تلمسان وهم شيوخه، وتردد على لسانه - كما جرت به عادة المؤلفات - في كل ترجمة ألقاب لا يبلغ مرتبتها الى الجهابذة من أهل العلم وصفات التبرك مثل (الشيخ

الفصل الثالث: عوائد الزيايين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

وهو الأمر نفسه يذكره "ابن مرزوق" عن الشيخ الصالح "أبي العباس أحمد أخو الخطيب أبي عثمان سعيد الخياط"⁽¹⁾ "وكان من الصلحاء الخيار ومن العارفين بكتاب الله..وله كرامات ظاهرة..يمر بالصغير والخدام فيدعو ويمسح على الرؤوس ودعاؤه مرجو الإجابة..رأيته وتبركت به..وبركاته معروفة"⁽²⁾. ويذكر في ترجمة والدهما "والدهما الشيخ الصالح التقي المتخلق المتبرك به أبو إسحاق إبراهيم بن علي الخياط، كان جدي رحمه الله يعتقدده ويجتاز به ويجلس إليه، وكان من كبار الصالحين المعظمين بتلمسان"⁽³⁾.

كشف "القلصادي" في رحلته الحجية أن علماء تلمسان؛ كانوا بلغوا من الورع والزهد والعلم والصلاح إلى درجة اكتساب قلوب الناس وجعلهم يتبركون بهم، حيث يقول: «فأحرمتنا بعمرة منها ودخلنا المدينة..ووقع إلينا بالشيخ المتبرك به الولي الصالح سيدي قاسم بن الحسين التلمساني رضي الله عنه..وخصني بيته من رباط الموفق⁽⁴⁾، فتمتعت بمؤانسته وتمتعت الا عن مجالسته، وتعاطينا أحاديث كأنها رضاب، وفوائد لها بيننا اقتضاء واقتضاب»⁽⁵⁾، وكثيرا ما كان الناس يعتقدون في الأولياء البركة والسلامة في تلمسان حينما تعصف بها المخاطر، لأن خروج الصالحين منها هلاك بالنسبة لمن سواهم في المدينة بما كسبت أيدي الناس من الفساد وكثرة المنكرات⁽⁶⁾.

➤ التماس البركة من الأولياء في قبورهم: يعتقد الناس أن الله ينزل البركة والفضل واستجابة الدعاء عند قبور الأولياء والصالحين في تلمسان، وبالتالي تظهر جملة من الطقوس

الفقيه العلامة الكبير الشهير، الصدر العلم الحسيب الأصيل، المتفنن في المعقول، شيخنا الفقيه الامام العلامة المتفنن، المفتي المصنف المدرس المؤلف، قال عن القاسم العقباني انفراد بالمعقول والمنقول، شيخنا وبركتنا).

¹ - هو الشيخ الخطيب أبو عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط، عرف بان سبعين (وليس هو ابن سبعين الأندلسي دفين المدينة المنورة)، متصوف تربى ورأى ورجس على سجادة الارشاد، وألبس الخرقه على طريق أبي العباس الرفاعي، وطريق السيد أبي مدين، وهو مستجاب الدعوة. ينظر إلى يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 155.

² - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص ص 179 - 180.

³ - نفسه، ص 180.

⁴ - رباط الموفق بأسفل مكة.

⁵ - القلصادي، المصدر السابق، ص 134.

⁶ - ابن مرزوق، نفسه، ص 174.

الفصل الثالث: عوائد الزيايين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

كتعظيم القبور والتبرك بها ولمسها وتقيلها، وتقيل أعتاب مشاهدها والتمسح بها يعرفها العام والخاص، وبحكم كثرة الزيارة أضحت العادة ملزمة ومستحكمة، كما أضحي شيوخ تلمسان مشهورين وبارزين للزيارة والتبرك عند قبورهم، ومن الأمثلة الدالة على ذلك: "العالم المبارك الخاشع أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد المجاصي"⁽¹⁾، كان عظيم القدر والدعاء عند قبره مرجو الإجابة وقبره بالموضع المعروف بباب وهب⁽²⁾ مشهور ظاهر متبرك به"⁽³⁾، وله بركات ودعوات مجابة وقبره معروف مقصود للزيارة على طريق العباد⁽⁴⁾.

فالعباد والزهاد في مدينة تلمسان ممن يهرع إليهم الناس على عادتهم في التبرك كثير، قال "يحيى بن خلدون": «تشهد بذلك المزارات المشهودة من الأقطار النائية خارج بلدهم، فالأخبار متواترة على لسان الخاص والعام، وها أنا أذكر هنا ما أنجبتة على الإطلاق، وإن اشتهر وارتقى الرتب العلية ومات بها أو غيرها، ثم من أكرمها الله به فنزلها ومات بها على نسق، وإن كانوا لا يحصون عدا، تبركا بأسمائهم حسب الوسع وتشريفا لهذا التأليف بأخبارهم»⁽⁵⁾.

يذكر "ابن مرزوق" في المناقب عن أحد شيوخ تلمسان، وهو "الفقيه الإمام الولي الصالح" أبي يوسف يعقوب بن علي الصنهاجي" وكان رجلا قانتا ورعا زاهدا صاحب كرامات.. وكان مبرزا في القراءة والتعليم قرأ عليه أكثر أهل تلمسان، وما قرأ عليه أحد إلا

¹ - هو أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن ابراهيم بن الناصر المجاصي المعروف بالبكاء من أهل الحديث والدين والورع، لا يرفع طرفه الى السماء خشية من الله، ذو مواظب حسنة وتدريس للعلم وعبادة ومكاشفات، أخذ عنه الخطيب ابن مرزوق الجد ونقل عنه في مواضع من كتبه، توفي في شهر ربيع الأول سنة (641هـ/1243م). ينظر إلى: نفع الطيب، ج 7/ 221. ونيل الإبتهاج/ 218. وبغية الرواد، ج 1/ 141. والمسند/ 390.

² - احدى أبواب الناحية الجنوبية لتلمسان قال يحيى بن خلدون قبره بعين وانزوتة بالعباد يعني باب الجياد قرب العباد السفلى.

³ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص ص 186 - 187.

⁴ - نفسه، ص 203.

⁵ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص ص 130 - 131.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

ونفعه الله به، وكان مجاب الدعوة سمعت هذا تواترا من مشايخ أهل تلمسان، وقبره بالمرج ما بين الأسوار خارج باب الجياد وبمقربة من الحفير بقصد التبرك به والدعاء عنده"⁽¹⁾.

نرى هذا التقليد في التبرك بقبور الصالحين وارد بشكل مستمر في ذهنيات المجتمع الزيناني، إذ كان "يغمراسن" رائدا في هذا المجال، كثير التردد على قبور الصالحين والزهاد والمتصوفة في المغرب الأوسط عامة وتلمسان خاصة؛ وكلما اشتد به الحال أو انفرج في العواصف الهيجاء كالحصارات أو الحروب، فلا بد وأن يزور قبر "أبي مدين" بالعباد، ابتغاء التبرك واستحضار سلوك الروحانيات والزهد كعادته؛ وكأنه يتوب من ذنب قد ارتكبه أو خطيئة اقترفها.

هذه الصورة التاريخية رصدتها "ابن خلدون عبد الرحمان" في العبر، وهو يسرد أحداث ووقائع انتصار "يغمراسن" على خصمه "أبو الحسن السعيد"، في معركة جبل تمزيكت في ضواحي مدينة وجدة في عام (646هـ/1248م)، فقال: «ولما سكنت النفرة وركد عاصف تلك الهيعة نظر يغمراسن في شأن موارد الخليفة، فجهز ورفع على الأعداء إلى مدفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين عفا الله عنه، ثم نظر في شأن حرمه وأخته تاعزونت بعد أن جاءها واعتذر مما وقع»⁽²⁾

والأكثر من ذلك اقتضت البركة اختراق العادة المعروفة لدى الناس، عندما لفظت الأرض من جوفها جثمان "يغمراسن" "إلى أن دفن بايزاء قبر الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي، قبلته الأرض وواراه التراب، فعلم أن ذلك ببركة جوار هذا الصالح"⁽³⁾، وتلك وصية يغمراسن لبنيه في دفنه بمحاذاة الشيخ بن مرزوق، متى قُدرَ بوفاته⁴.

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 199.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، م7، ص 87.

³ - ابن الأحرر، تاريخ الدولة الزينانية بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 2001م، ص ص 60-61.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، رحلته، المصدر السابق، ص 60.

➤ عادة سلاطين بني زيّان في ترك الوصية بالدفن بجوار الصالحين: استحبّ ملوك تلمسان من بني زيّان دفن نعشهم بجوار الصالحين لما في ذلك من فضيلة ومباركة الموضع، يذكر "بن مرزوق" دائما في المناقب نصا صريحا نستدل به، فيقول: «كان السلطان المعظم المرحوم أبو يحيى يغمراسن بن زيّان من خيار الملوك بصفاء نية وسلامة طوية وحسن اعتقاده، ولما حضرته الوفاة أوصى بنيه السلطان أبا سعيد وإخوته وقال لهم ليس لي اليكم حاجة إلا أن سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق إذا مات تدفنوه إلى جانبي لعل الله أن يرحمي بجواره.. فكنتم السلطان وإخوته ذلك، فلما توفي الشيخ رضي الله عنه وخرجوا يحفرون له موضعا في العباد فإذا بالسلطان أبي سعيد قد ركب وجاء إلى الدار فأخبرهم الخبر واحتملوه فوجدوا القبر محفورا بالدويرة التي بالجامع الأعظم التي هي مدفن ملوك بني عبد الوادي، رحمه الله عز وجل، وقبره الآن معروف متبرك به نفع الله به»⁽¹⁾.

وفي وصية أخرى من "يغمراسن" لبنيه، بأن يدفن إلى جانبه من الجهة الأخرى " لأوّل صالح يموت.. لعل الرحمة تكتفني، فكان الصالح أبو الحسن⁽²⁾ أوّل من مات بعده من أصحابه، وكان من كبار الأولياء والصلحاء"⁽³⁾.

تبدو عادة تبرك سلاطين بني زيّان بقبور العلماء، والتوصية بدفنهم بجوارهم قصد التبرك، كانت جارية عندهم ومتوارثة إذ جاء في البغية، أن الشيخ "أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسيني أحد رجال الكمال علما ودينا، لا يعزب عن علمه فن عقلي ولا نقلي إلا وقد أحاط به.. توفي في ذي الحجة من سنة إحدى وسبعين وسبعمئة/1370م، فأمر مولانا أمير المسلمين أبو حمو أيده الله، بدفنه عند قبر والده المولى أبي يعقوب تبركا له بجواره"⁽⁴⁾.

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 167.

² - هو ابن النجارية من أصحاب المقامات وأرباب الأحوال وكان يعلم القرآن وظهرت له كرامات معروفة عند أهل بلده، وكان من أهل الزهادة في الدنيا والإقبال على الآخرة، قبره إزاء قبر أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيّان، قصد التبرك له بجواره. ينظر إلى: يحيى بن خلدون/ج 1 ص 160، والمناقب/ ص 170.

³ - ابن مرزوق، نفسه، ص 170.

⁴ - يحيى ابن خلدون، نفسه، ص 158.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

ج - التبرك بالمساجد: وردت نازلة عند "المازوني"؛ تفيد بتعظيم المسجد وزيارته والتبرك به، وما يلحق بذلك من سقاية له بأباريق وأواني وصوانج وطعام وفاكهة، "وهل يؤكل ذلك الطعام وتلك الفاكهة التي لا قيمة لها كالبيض والخبز وشيء قليل من التين لا قيمة له وجميع من ذلك الأباريق كثير نحو العشرة فاكثراً، فهل يباع منها شيء ويبقى من لابد منه وينصرف ثمنها في منافع المسجد المذكور مما لابد منه من زيت أو غيره أم لا؟. فأجاب: الحمد لله أما الطعام فيؤكل منه يعطيه من فقير خاصة أو غني أو لابس أن يمنع ما ذكر على اختلاف"⁽¹⁾، كما يكون التبرك في ذلك يحمل معاني أخرى كالاعتكاف به وقراءة القرآن.. إلخ.

د - التبرك بالمصاحف وكتب الحديث: عادة التبرك بالأولياء والمصاحف وكل شيء ذات أهمية كبرى في الدين كانت محل اهتمام بني زيان، ومن غير المستبعد أن يكونوا يتبركوا بالمصحف الشريف ويحملونه في أسفارهم على العادة الجارية في ذلك الوقت، بعدما حصل عليه يغمراسن في حادثة قلعة (تامرزدكت) جنوب وجدة وعلى مقربة منها يوم (الثلاثاء 10 صفر 646هـ/ 04 جوان 1248م)، وسرُّ التبرُّك بهذا المصحف الشريف؛ هو أنه أحد المصاحف الأربعة التي نسخت في عهد "عثمان بن عفان" رضي الله عنه⁽²⁾، وبعث بها إلى الأمصار ولم يثبت أنه كتب بخط يده⁽³⁾، وكان بنوا زيان يحضرونه في مجالسهم في ليالي رمضان، يباشرون القراءة فيه، ويستصحبونه في حركاتهم متبركين به⁽⁴⁾.

¹ - المازوني، المصدر السابق، ج4، ص ص 266 - 267.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، م7، ص ص 86 - 87.

³ - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 127.

⁴ - التنسي، المصدر السابق، ص 123. ضاع هذا المصحف في الحرب التي دارت رحاها بين يغمراسن والمرينيين "فوجده رجل ودخل به تلمسان وهو غير عالم بمقداره وعرضه للبيع، فكان السمسار ينادي عليه بسوق يبيع الكتب بسبعة عشر درهم، فرآه بعض من يعرفه فأسرع الى أمير المسلمين يغمراسن وعرفه به فبادر بالأمر بأخذه وأمر بصونه والاحتياط عليه والقيام بحقه".

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

جرت عادة الزيانيون وغيرهم في بلاد المغرب الاسلامي حمل مصحف عثمان⁽¹⁾ في حروبهم ومواجهاتهم، للاستنصار به والتبرك وتثييط النفوس على الاقدام، وهذا المصحف الوحيد من جملة الذخائر التي أتي بها الأمويون من بلاد المشرق إلى الأندلس متبركين به، ثم أصبح مغنما في الحروب بعد ذلك حيث "كان المرتضى متولي مراكش بعد السعيد والمستنصر صاحب تونس وابن الأحمر صاحب الأندلس يطيلون البحث عليه، ويكثرون في الحرص على تحصيله حتى ماتوا كلهم متأسفين عليه، وبقي بعدهم في يد من اختاره الله لهم، اذا هم أهل البيت - بني زيان - الذي أنزل عليهم فكانوا يتوارثونه، قلت فلم نجد له في وقتنا هذا خبرا، والغالب على أن سبب ذهابه استيلاء بني مرين على تلمسان والله أعلم"⁽²⁾.

وبالتالي كانت المغام والذخائر مكسبا حربيا تقليديا، يعتز به الزيانيون ويفتخرون به كانتصار واثبات قوتهم على المستوى الإقليمي، استنادا لما ورد عند "أبي حمو الثاني" في وصيته لابنه قائلا: «اعلم يا بني أنه ينبغي لك ألا تفارق ذخيرة من الذخائر تجدها في زمن المناكر، والمناكر مما على ثمنها وخف حملها كاليواقيت والجواهر الثمينة العظيمة التي لها نفاسة وخطر وقيمة، لأنه ربما اعتراك أمر من أمور دنياك فتجد تلك الذخيرة تدافع بها ما أهمك واعترك، وتصادم بها أعدائك وتقيم بها أودك وتصلح بها أمرك فإن اقتناء الذخائر معونة على الشدائد والضرائر»⁽³⁾.

وكانت عادة أهل تلمسان تزويق المصاحف بالخواتم ومنها التصلية على النبي ﷺ بعد البسلة في الرسل والألواح⁽⁴⁾، كما كانوا يتبركون به؛ بفعل طقوس دأبوا عليها مثل تقبيله

¹ - كانت عادة أهل المغرب الاسلامي ينمقون المصحف الشريف ويكتبونه بخطهم ثم يرسلونه كهدية ووقف لأهل الأمصار لاسيما بلاد الحرمين كقربة إلى الله وإبتغاء المثوبة، ومما أفادنا عبد الرحمان بن خلدون في هذا الشأن ما أجمعه أبو الحسن المريني " على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف...فانتسخها وجمع الوراقين لمعانة تذهيبها وتنميقها، والقراء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأنها، وصنع لها وعاء مؤلف من خشب الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب ونظم بالجواهر والياقوت واتخذ له أصونة الجلد المحكمة الصنعة، المرقوم أديمها بخطوط الذهب من فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتان". المصدر السابق، م7، ص 275.

² - التنسي، المصدر السابق، ص 124.

³ - أبو حمو موسى، المصدر السابق، ص 171.

⁴ - المازوني، المصدر السابق، ج5، ص 11.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

والتمسح به والتوجه بالدعاء إلى الله عز وجل، ليرحمهم به ويعززهم في الآخرة كما عززهم به في الدنيا⁽¹⁾، ومن بركات المصحف الظاهرة الاستشفاء به في المرض والتعبد لله في قرائته والشفاة لصاحبه يوم تشخص الأبصار.

أخبرنا "ابن مرزوق" في المناقب عن بركة قراءة كتاب البخاري في الحديث، حيث جعل الله فيه الوقار والشفاء من الأمراض التي تصيب الانسان بما يتضمنه من كلام سيد الخلق ﷺ، حيث قال: «فعرضت لي نزلة اشتد علي بها الزكام والسعال، فلم أقدر على القراءة.. فاجتمع الناس ينعتون أدوية وربما جاء كثير منهم بأدوية قد صنعوها فلم يظهر لذلك كثير نفع.. وقال لي أحد الصالحين : هذا ببركة قراءتك للبخاري⁽²⁾»، يواصل "بن مرزوق" حديثه عن بركة الثواب الدينية؛ على أنها فضل من الله على عباده الصالحين، إذ يقول: «الانقطاع لخدمة الكتاب والسنة وكثير من العلوم الشرعية والله جل ثناؤه المنة، ولاشك أن بركة هاذين الأمرين اللذين هما من فضل الله علي كان الخلاص»⁽³⁾.

هـ - بركة المأكولات والمشروبات: تظهر بركات الأكل والمشروبات والسوائل التي يتتفع بها الانسان في حياته اليومية؛ كدليل واضح عن صدق النية، ثم هي صادر من ولي صالح بتلمسان، والأمثلة عن ذلك سنحاول أن نذكر منها الأكثر أهمية، حيث كان والد "بن مرزوق الخطيب" من الأولياء الذين ظهرت كراماتهم في إحدى القصص التي جاءت في كتاب المناقب، إذ يروي ابنه قائلاً: «حدثني الحاجة المباركة ست الملوك بنت يعقوب الهواري زوجة عمي رحمه الله، قالت لي: طلبت من والدك زيتا وقد كان اشترى منه وعاء كبيرا فأمرني فملأت منه آنية كبيرة، وقال لي: احتفظي بها، فقالت له: يا سيدي عسى تنزل فيه البركة هذا نصفها، فقال لها: ويكون كذلك إن شاء الله، قالت: فأقمت قريب العام وأنا أوقد

¹ - عبد الله الثغري التلمساني، المصدر السابق، ص 259.

² - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 234.

³ - نفسه، ص 140.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

منه ولا يفرغ.. فتعجبت . قالت: فقلتها للناس، فلما جاء عرفته فقال لي: ولأي شيء كشفت السر؟ هلا تركت الحال على حاله ودعوت بالبركة؟ قالت: ففني من يومئذ⁽¹⁾.

ارتبطت بركة المأكولات بولي صالح وموضع العباد، ومن ثم تظهر تلك القدسية الروحية التي خص حباها الله تعالى لأهل تلمسان وخصهم بها، وذكرت الأخبار عن الشيخ "أبي العباس ابن منصور" أنه "كان يجلس بإزاء داره فلا يأتيه ضعيف ولا ذو حاجة، إلا وأتاه وقضى حاجته، وأن المرضى كانوا يقصدونه فلا ينصرفون عنه إلا وقد ظهرت له دلائل النجح، وكان يعطي من فواكه جنانه أكثر أهل البلد، ويعم مع ذلك عائلته وأهله، وقد رأيت غير مرة وظهرت لي آثار بركاتهما، وكان بإزاء داره حجر أزرق يجلس عليه إذا جاء من الجامع فرأيت ذلك الحجر والناس يقصدونه للاستشفاء والتبرك"⁽²⁾.

و - التبرك بالبئر: يذكر "ابن مرزوق" في المناقب الافطار على ماء البئر الذي أوصاه به والده، الموجود في بيت جده تبركا، لأن الأولياء أفطروا منه، كذلك فيه اشارة واضحة إلى أن سلطان تلمسان وإخوته كانوا يفطرون أثناء حصار "أبو يعقوب المريني" تيمنا بالانفراج، حيث قال: «أوصاني على البئر فقال لي: هذا البئر كان بفطر على مائه الأولياء، وحدثني خالة والدي لما كانت حضرت السنين المعروفة حين حصرها السلطان أبو يعقوب المريني كان سلطان تلمسان وإخوته لا يخرجون حتى يفطرون على مائه، ويزعمون أنهم يوم يفوتهم الفطر عليه يجدون أثر ذلك، رحمة الله على الجميع»⁽³⁾.

ح - التبرك بتراب المقابر: أورد "الونشريسي" نازلة حول عادة الناس في التبرك بتراب القبور بجوازها، إذ قال: «هو جائز، مازال الناس يتبركون بقبور العلماء والشهداء والصالحين،

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 236.

² - نفسه، ص 176.

³ - نفسه، ص 188.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

ويكون باستعمال ما كانوا عليه من الأوصاف الدينية واستعمال الأمور الشرعية⁽¹⁾، والغرض من ذلك "الاستشفاء من الأمراض والقروح المعظلة"⁽²⁾.

3. الرثاء: جرى التقليد لدى المجتمع الزيناني رثاء الميت وتعداد خصاله، مع التفجع عليه والتأسي والتعزي بما كان يتصف به من صفات حسنة، كحسن الخلق والكرم والشجاعة والعفة والعدل، إذ يبقى أثر الفقد أحد الأسباب المؤدية بالرائي إلى الكشف عن جانب من الحقيقة للمرثي ظل خفياً عن الأنظار.

وجاء هذا التقليد؛ على شكل صوتيات بكاء مترجمة شعرا في غالب الأحيان على غرار صياغته نثراً، ومما أوردته المؤلفات في هذا الصدد رثاء "الفقيه الرئيس الحاجب الكاتب صاحب القلم الأعلى محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي يكنى أبا عبد الله"⁽³⁾، وهو أحد أعيان مدينة تلمسان كان ملازماً للسلطان المريني "المتوكل على الله أبي عنان" فوجد لفقده فاجعة كبيرة لأن رثاءه بقوله:

أَلَا بَكِيًّا غَيْثَ الْمَوَاهِبِ وَالْجَدَا وَكَيْثَ الشَّرَى نَجْلُ السَّرَاةِ الْأَطَايِبِ
فِيَا رَجُلَ الدُّنْيَا وَوَاوَا حِدَهَا الَّذِي تَحُثُّ لِمَعْنَاهُ مَطِيُّ الرِّكَائِبِ
لَقَدْ كُنْتُ لِي أُنْسًا وَخَيْلًا وَصَاحِبًا فَبِئْتِ وَلَمْ تُثْنِ الْعِنَانَ لِصَاحِبِ⁽⁴⁾

ورثاه كذلك الفقيه الكاتب "أبو عبد الله محمد ابن محمد بن جزي الكلبي" بقوله:

لِعَمْرٍ الْمَعَالِي مَا وَفَى بِحُقُوقِهَا مِنْ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَرِثْ لِابْنِ أَبِي عَمْرٍ
فَتَى جَمَعَتْ فِيهِ الْمَحَاسِنَ كُلَّهَا وَلَا بُدَّ مِنْ نَقْصٍ فَكَانَ مِنَ الْعَمْرِ⁽⁵⁾

¹ - الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص 330.

² - نفسه، ص 330.

³ - قال عنه ابن الأحرر في نثر الجمان: «أدركته ورأيت، وهو من أهل تلمسان، وأصل سلفه من الأندلس من بيت أصالة وتعيين، ومحمد والده كان من أهل العلم التام، درس العلوم بتلمسان وأفتى بها وكان من عباد الله الصالحين ومن الأولياء المخلصين، وحسبه من ورعه أنه ولي القضاء بتلمسان سنين طائلة، فلما توفي فلم يوجد له غير قطيفة ووسادة صوف نفع الله به.. توفي سنة ست وخمسين وسبعمائة/1355م ودفن بتلمسان». ص 226.

⁴ - ابن الأحرر، نفسه، ص 229.

⁵ - نفسه، ص ص 231 - 232.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

وفي رثائه الفقيه الكاتب "أبو العباس أحمد ابن محمد بن محمد بن عبد المنان" الأنصاري الخزرجي لنفسه:

مَنْ كَانَ يَبْكِي مَسَاجِدًا فَلْيَسْجُدْ بِالْمَدْمَعِ السَّكْبِ عَلَى الْحَاجِبِ
تَيْمٌ وَجْهَ الْمَجْدِ فَاغْتَالَهُ صِرْفُ الرَّدَى لَمْ يَخْشَ مِنْ حَاجِبِ
عَيْنٌ أَصَابَتْهُ وَيَا قُرْبَهَا فِي الْوَجْهِ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْحَاجِبِ⁽¹⁾

رأينا في ما سبق عادات حسنة لملوك تلمسان في إكرام العلماء والاحسان إليهم؛ بل تشييد العمران العلمي تخليدا لمآثرهم ومناقبهم، وهاهنا نكتشف عادة لها تربية روحية وأخلاقية في ملوك تلمسان؛ وهي الجلوس على قبور العلماء والأولياء والصالحين ورثائهم مع الدعاء للقائهم في الجنة، حيث جاء عن رثاء "ابراهيم بن يخلف التنسي"، كما ذكر "بن مرزوق" في المناقب قائلا: «وحدثني أبي وعمي رحمهما الله قالا: رأينا السلطان في اليوم الذي توفي فيه التنسي⁽²⁾ وقد جاء إلى قبره، ولم يحفظ له قط أنه شاهد جنازة، أو وقف على مقبرة، فجلس على شفير القبر وبسط له برنسا ليجلس عليه، فرمى به فلما وقال: لقد كنت نعم الصاحب، لقد كنت نعم الحبيب، جمع الله بيني وبينك في الجنة، ولقد كنت نعم الولي نفع الله بك⁽³⁾»، على الأرجح يكون السلطان "يغمراسن بن زيان" هو المعني بذلك لأنَّ الشيخ توفي في فترة حكمه.

4. عادات تقبيل اليد

كانت عادة تقبيل اليد من بين علامات الحب والوفاء والاحترام والاكبار لدى في المجتمع التلمساني الزياني، لكن البعض يراها رمزية الرضوخ والاذلال والعبودية الفردية التي لا داعي لها، بينما يظهر تفسير آخر لها وهو تملقا اجتماعيا لاطهار مكانة البعض، فما هو رأي المجتمع في ذلك؟ وما هي الدلالة الرمزية لكثرة تكرار هذه العادة في مجتمع تلمسان؟

¹ - ابن الأحرر، المصدر السابق، ص 232.

² - هو "أبو اسحاق بن يخلف بن عبد السلام التنسي"، من العلماء الصالحين الأولياء كبير القدر حيا وميتا، زاهدا ورع، ذكرايات شهيرة ومكانة عند الملوك عظيمة، ألف في العلم كثيرا وحج وعاد إلى تلمسان، فتوفي في حدود الثمانين وستمئة/ 1281م، قبره رحمه الله بالعباد. ينظر إلى: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 151.

³ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 296.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

تكمن الاجابة على هذه الأسئلة في عرض صور اجتماعية من الواقع الذي كان يعيشه أهل تلمسان، بحيث يغلب على الظن أن الفرضية الراجحة في ذلك لعادة ممارسة تقبيل الأيدي والأرجل والرؤوس؛ ما هو إلا دليل على البر والطاعة والتبجيل والتقدير للأفراد المقربين كالآب والأم والجد والجددة، والأكثر أهمية من ذلك هو التماس البركة والصلاح من الشيوخ والمرابطين والعلماء.

وهذا ما انتشر بكثرة على العهد الزياني لاسيما من طرف الملوك والسلاطين، إذن موضوع (البركة) حاضر تقريبا في عادات ومعتقدات أهل تلمسان، ومن القرائن أن البيت المرزوقي كان محل ثقة كبيرة وصلاح لدى الخاص والعام في تلمسان، مما جعل الناس يعتقدون أن التماس البركة متوارثة في هذا البيت، حتى بلغ بالشيخ المعظم "أبي عبد الله محمد بن السلطان يغمراسن بن زيان" وهو المعروف "بابن شانشة"، بالاسراع إلى تقبيل يد "بن مرزوق الخطيب"، وكان حينها صغيرا جدا من نحو ستة أعوام او سبعة، ويقول له: «أدع لي ويركبي أحيانا بين يديه ويتمشى بي في الزقاق»⁽¹⁾.

وفي ذات السياق يذكر "عبد الباسط ابن خليل" في رحلته، أنه شاهد صورة حية تثبت عادة تقبيل اليد والخضوع التام للسلطان الزياني "أبي ثابت محمد المتوكل" على الله (866-873هـ/1462-1468م) لأحد الأولياء الصالحين بتلمسان، إذ ترجل السلطان عن موكبه أمام باب المسجد الأعظم، أين كان الشيخ سيدي "أحمد بن الحسن" متواجدا، حيث طرق السلطان الباب بلطف "فقال الشيخ من داخل المكان: من؟. فقال له: عبدك بن أبي ثابت. ففتح له الباب فساعة وقوع بصر السلطان عليه أهوى لتقبيل يده"⁽²⁾.

غلبت بركة بيت آل مرزوق على سلطان وقوة "يغمراسن" مما جعله يرضخ لذلك ويطلب تقبيل يد الشيخ تبركا ومناجاة من سجن أحد أفراد البادية، وهي قصة رواه "بن

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 165.

² - عبد الباسط ابن خليل، المصدر السابق، ص 45.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

مرزوق" صاحب المناقب عن جده تثبت لجوء السلطان إلى عادة تقبيل يد الصالحين والتجرد من لباس السلطان والتواضع أمام هيئة الوقار الذي اتصف به المرازقة.

حيث طلبت امرأة من الشيخ "ابن مرزوق الجد" بالتوسط لها عند "يغمراسن" لاختلاء سبيل ولدها الذي سجن ظلما وعدوانا، وكان والد هذا المسجون يتردد كثيرا على الشيخ ويخدمه، "فدعا لها، لكنها رفضت ذلك وقالت له: ما أريد منك دعاء، وإنما أريد منك أن تكلم السلطان؛ فقال لها مالي وللسلطان ومن أين أعرفه أو يعرفني؟ فلم يرضها ذلك، وكن ذلك آخر النهار فباتت عنده في الدار، فلما انتصف الليل سمعوا ضجة بباب الدار وقارعا يقرع الباب وينادي: أين سيدنا أبو عبد الله؟ فخرج فوجد الوزراء وحجاب السلطان وكبراء أهل دولته ومعهم ولد المرأة فقالوا له: السلطان يقبل بيدك ويسلم عليك ويقول لك ادع لي، وإن أذنت لنا في الوصول اليك وصلت إليك"⁽¹⁾.

وكانت هذه القصة سبب في تقرب السلطان من هذا الولي الصالح وجعله يعمر به المجالس تبركا به؛ كما قبل "يغمراسن" يد الشيخ الصالح "سيدي واضح" الآنف الذكر في شلف⁽²⁾، تيمنا وتبركا به وكان "يغمراسن" من عاداته كثير الجلوس إلى الصالحين والتبرك بهم والأخذ بنصيحتهم في تفقد أحوال المساكين والرفق بالرعية⁽³⁾.

أخذت بركة المرازقة في تلمسان أبعاد روحية كبيرة لا سيما مع سلاطين بني مرين أثناء محاصرتهم لتلمسان، إذ يذكر "بن مرزوق الخطيب" عن أبيه حينما كان يبعث إليه بالميرة والأكل من خارج تلمسان، وهي محاصرة من طرف السلطان المريني "أبي يعقوب" وكان قد شدد على أن لا يدخلها أحد، فلما علم أن ولد "بن مرزوق الخطيب" فعل ذلك وأراد السلطان أن يستدعيه ويشدد عليه، نصحه بعض مجالسيه الذين يعرفون مدى وجاهة وصلاح "بن مرزوق" الجد وابنه وقالوا: احذر الشتم. فرضخ للنصيحة، قال والد "بن مرزوق

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص ص 151 - 152.

² - أبو عمران المازوني، المصدر السابق، ص 141.

³ - نفسه، ص 141.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

الخطيب": «فقبل رأسي وقال: أحسنت يا بن الصالحين معاذ الله أن يهلك أحد على يدك.. وقال: ادع لنا وانصرف»⁽¹⁾.

ويذكر كذلك "ابن مرزوق" في المناقب عن أبيه عندما ذهب هو وعمه والشيخ "أبو العباس بن القطان" ليزوروا الشيخ "أبي اسحاق التنسي" - وهو جده لأمه - في مرض، فرحب به الشيخ وقبل رأسه⁽²⁾، إذن عادة تقبيل الرأس كانت واردة وارتبطت بوجاهة وبركة الصلحاء من آل مرزوق، حيث كانوا ممن حاباهم الله بفضلهم وكتب لهم القبول في بيئتهم وبين أهليهم، ومن ذلك أن مر موكب السلطان "أبا هو الأول" فإذا بأحد الرجال يدعون ابن مرزوق ويسأله من والده؟ فأجابه بأنه بن مرزوق أحمد قال: «فضمني وقبل رأسي وهو يقول للسلطان: يا مولاي بيت البركة»⁽³⁾.

اختلفت هذه العادة من حيث رمزياتها وطريقة ممارستها بين أفراد المجتمع، حيث دأب الخاصة في بلاط الزيانيين فمن دونهم مبايعة السلطان فور تقلده منصب الحكم بتقبيل يده، وكان ذلك تقليدا رسميا داخل قصر المشور؛ إلا أن بعض العلماء كانوا يأنفون من فعل ذلك ولا أحد من الحضور يحرك ساكنا، وهذا ما يدلنا على أن السلاطين كانوا يخشون غضب العلماء فلا يقدمون على أي عمل يخدش كرامتهم⁽⁴⁾.

وبالتالي تعطل العادة عند فئة العلماء وتصبح غير مجدية في ذلك، والأمر يتعلق هنا بالشيخ "الشريف التلمساني"، عندما رفض تقبيل يد السلطان "أبي هو الثاني" واكتفى بالتسليم عليه والانصراف، "فغضب السلطان لذلك غضبا شديدا؛ وقال: ما بال هذا لم يبايع

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص ص 195 - 196.

² - نفسه، ص 196.

³ - نفسه، ص 241.

⁴ - يروي أبو عمران المازوني في ديباجة الافتخار قصة تؤكد ذلك، حيث وقع بين السلطان "أبا هو موسى بن عثمان" وبين "أبي عبد الله محمد بن يحيى" (أحد المرابطين الصالحين) كلام كثير، غضب منه السلطان وضاق به صدره حتى عمد لمرفقة كان يتكئ عليها فضربه بها؛ فاتقاه "أبي عبد الله" برفاسه، ثم عمد إليها وضرب بها أيضا هو السلطان وانصرف مغضبا، فأخذ السلطان إثر خروجه وجع شديد كاد يموت منه، فقال لهم: تلافوا المرابط محمد فما بي سواه قبل أن أهلك، فرد فاستعطفه واسترضاه وسأله أن يمسح بيده على موضع الوجع ففعل فشفاه الله من وقته بفضل الله وتهلل وجه المرابط وقال: يا رب هذا الذي تعودنا منك فلك الحمد والشكر. ص 141.

الفصل الثالث: عوائد الزيايين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

ولم يخاطبني أمير المؤمنين وهم فيه بشر، فقال له أبو عبد الله: إن هذه عادته مع من تقدم من الملوك وأنه من أهل الله وظل الله عليه، فسكن غضب السلطان ورجع إلى إكرام المرابط وتوقيره⁽¹⁾، فالعادة هنا عكسية؛ تحولت من عادة جماعية مألوفة بين حاشية البلاط إلى عادة فردية مضادة، وهي أن الشيخ له عادة تفرد بها، ونفت العادة الأولى الجماعية بحكم علمه وهيبته، ثم أن سلاطين بني زيان كانوا يقدرون مشاعر علمائهم ويتجاوزون عنها بحيث لو فعلها غيرهم يلقي مصير آخر.

كانت هذه العادة حاضرة وبقوة مع "ابن مرزوق الخطيب" وأبيه في الرحلة الحجية لديهم، ومن الأخبار الواردة في مناقبهم كما ذكر صاحب الكتاب عن أحد الشيوخ الصلحاء الملازمين لوالده في الحج وهو سعادة الجوابي⁽²⁾ قال: «ما لقيته قط إلا تبسم في وجهي ويعطيني يده حتى أقبلها ويفرح بي.. وكان رد ولد لأمه بعدما فقدته دهرا طويلا فقبل هذا الولد يده ورجله.. فدعاني ليلة في الحج وقد قبلت يده.. وفي موضع آخر فقبلت أقدامه وانصرفت إلى والدي»⁽³⁾.

يبدو أن والد "ابن مرزوق الخطيب" كان من الأولياء الذين يرجى دعائهم وصحبتهم وملازمتهم والتبرك بهم كما رأينا، ويضيف الخطيب في أخبار أبيه أنه حكى له وهو مريض قال له: «رأيت رسول الله ﷺ وقد دخل على هذا البيت قال: فقبلت يديه، فقال لي: يا أحمد لا تخف، لا بأس عليك ستعود إن شاء الله عيشا وتموت عندنا (أي في الحرم المدني).. وكان خادمه يكثر من تقبيل يديه وقدميه وهو رحمه الله يحلف عليه وينهاه»⁽⁴⁾.

¹ - عبد الله الثغري، المصدر السابق، ص 172.

² - كان من الأولياء وكانت له كرامات كثيرة يشار إليه، ذكره بن بطوطة في رحلته: الشيخ الصالح الطيار سعادة الجرائني، ودخل بيته يوما بعد صلاة العصر فوجد ساجدا مستقبلا الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به. ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان، ج1، ط1، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، 1987م، ص 153.

³ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص ص 218 - 219.

⁴ - نفسه، ص ص 226 - 227.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

لم تتوقف هذه العادة على تقبيل اليد أو الرأس فقط بل تجاوز ذلك إلى تقبيل الأقدام احتراماً وتقديراً وتوقيراً للشيخ، وكان ذلك مما تعوده المريدين مع شيوخهم لاسيما الأبناء مع أوليائهم كما فعل بن الشيخ معه حيث قال: «في مكة عندما فطرت قدماه على المشي ومرض تكلف به خادمه تبركا به»⁽¹⁾، وعندما قفل راجعا مخلصا أباه في الحرم المكي فعل نفس الشيء حتى يطمئن على نفسه وينال رضا أبيه "فقبلت قدميه فقال لي: كان الله معك"⁽²⁾، وكانت هذه العادة محل اهتمام كبير من طرف المجتمعات الأخرى مع "بن مرزوق" الخطيب نفسه وهو صغير في السن، إذ ظهرت للناس نجابته وفصاحته وحسن أخلاقه وغزارة علمه لما كان يرافق والده في رحلاته الحجية، مارين عبر البلاد المصرية وتحديدًا في مدينة القاهرة.

ويذكر أنه ولي الخطابة لأول مرة؛ وانبهر الناس لفصاحته وجزالة أسلوبه " فازدحم الناس علي، بين مقبل رجلي ومقبل يدي ورأسي وجاء إلي أبي وقبلني بين عيني"⁽³⁾، وعلى ذكر علاقة المريدين بشيوخهم تجلت عادة التقبيل في "عبد الله" نجل "الشريف التلمساني" عندما يخلد الثغري مناقبه فيقول: «وكان أبو العباس⁽⁴⁾ هذا يحبه ويثني عليه ثناء عظيمًا، ويذكر أنه لم يجد شفاء علقته وروي تعطشه في العلم إلا عنده، وكان إذا وادعه لسفر يقبل يده ورجله ويكثر الدعاء له»⁽⁵⁾.

يذكر كذلك "ابن مرزوق الخطيب" عن جده دائما أن كانت له كرامات كثيرا ما كان ينبثق منها تقبيل اليد كما رأينا في القصة الفاتية، وها هو هنا يكلف رجلا بشراء له أضحية عيد كبشا بربع دينار وهذه الثمن قليل جدا بالنسبة للأضحية، وقال الرجل: «وعوايده

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 227.

² - نفسه، ص 252.

³ - نفسه، ص 259.

⁴ - أبو العباس أحمد بن ادريس البجائي، كان ورعا زاهدا جليلا إماما علامة بارعا، عاصر زمن الشريف التلمساني وأولاده، أخذ عنه أبو زيد عبد الرحمان الوغليسي وأضرابه، شرح بن الحاجب ونقل عنه الكثير من العلماء، توفي بعد سنة 760هـ / 1358م. ينظر إلى: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 99 وما بعدها.

⁵ - الثغري، المصدر السابق، ص 278.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

يعطيني من غير تعين»⁽¹⁾ - أي من غير تقدير الثمن وكأنه يشير إلى بركة الشيخ - فلم يمكنني مراجعته، ثم يسرد لنا الرجل قصته في ذهابه إلى عمله وليغتنم الفرصة لشراء كبش للشيخ وهو في بلاد الشاوية يقول: «فمر بي رجل بقطعة غنم يقدمها كبش لم أر مثله فنظرت إليه، وقلت: مثل هذا ينبغي أن أشتري للشيخ قال: فقال الرجل: يا حسين! هات الربع دينار واحمل الكبش للشيخ، وأبلغه السلام قال: فدهشت فأعاد علي الكلام ثانية، فأخذت الكبش وقبلت يده وانصرفت»⁽²⁾.

5. معتقدات أخرى:

أفاد صاحب زهر البستان قصة خيالية عن ملك بني زيّان، تدل على توفقات ومعتقدات تُعلم بأحداث مستقبلية قاطعة، وهي رجوع دولة بني زيّان الأيية بعد اختفاء طويل، ونقل صاحب الكتاب رواية سيقت له؛ مفادها أن السلطان "أبا هو موسى الثاني" بُشّر من طرف علماء الحدّثان والجُفّر⁽³⁾؛ عندما كان مُتواجداً بتونس، بأنّه يكون "ملكاً رئيساً" في قومه بالمعرب⁽⁴⁾.

وشاع الخبرُ وصدّقه الناس كالعادة، وشبّه هؤلاء الحدّثانيون والجُفّرانيون شخصيّة "أبو هو الثاني" في غربته ومحتته، ثمّ تتهيأ له الأسباب في قيام دولته "بعبد الرحمان بن معاوية"⁽⁵⁾ - صقر قريش -، الذي فرّ من بطش بني العباس، وتجمّس عناء الرحلة إلى الأندلس ليقيم بها خلافة أجداده المسلوبة منه في دمشق، وبالفعل شاءت الأقدار بأن تصدق أخبار

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 163.

² - نفسه، ص ص 163-164.

³ - أشار ابن خلدون في مقدمته إلى علم (الحدّثان)، وأكثر ما يهتم به هم الملوك والسلاطين ويتطلعون في أماد دولتهم، ويستندون في ذلك إلى كاهن أو منجم أو ولي، في مثل ذلك من ملك يترقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها، وما يحدث لهم من الحرب والملاحم، ومدة بقاء الدولة، وعدد الملوك فيها، والتعرض لأسمائهم، ويسمى ذلك (الحدّثان)، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا استند رواد هذا العلم بكتب الجفر، وما يكتنفه من طريق الآثار والنجوم، فضلا عن الكرامة والكشف. لكن السلطان أبو هو الثاني لم يكلف نفسه مشقة ذلك؛ بل بتأه بذلك الحدّثانيين بمجرد تفرسهم فيه وكشف علامات ملك قبيله في وجهه. للتعرف أكثر على علم الحدّثان، ينظر إلى: المقدمة، المصدر السابق، ص ص 259-262.

⁴ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص ص 16-17.

⁵ - نفسه، ص 17.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

مُلْك دولة بني زيَّان على يدِ فارسِها "أبي حمو الثاني" سنة (760هـ/ 1359م)، وبالتالي تظهرُ مدى مصداقية مثل هذه المعتقداتِ الشائعة لدى عامة الناس، فضلاً عن كُبرائهم وأعيانهم.

جرت العادة في تلمسان بأن تتجمع القبور حول ضريح كبير لشخصية بارزة، ويتمتع ضيف هذه القبور بالمكانة المرموقة اللائقة بهم، وكان الناس يعتقدون أن المدفون أمام كل مدخل من مداخل المدينة أصبح كحارس عليها⁽¹⁾.

ومن الأساطير التي أتى بها "ابن مريم" في البستان؛ أسطورة توضح هذا الاعتقاد الديني⁽²⁾، مفادها أن سلطان تونس عزم أمره على حصار تلمسان، واجتمع بوزرائه يسألهم: من أين يتأتى له الدخول للمدينة؟. فعددوا له الأبواب، فقال لهم: باب الجياد من عليه من الأولياء؟ قالوا: سيدي "أبو مدين". وباب العقبة؟ قالوا: سيدي "أحمد الداودي". وباب الزاوية من عليه؟ قالوا: "سيدي الحلوي". وباب القرمادين من يحميه؟ قالوا: ما عليه من أحد. فقال لهم: من ذلك الباب ندخل⁽³⁾، وتضيف هذه الأسطورة بأن "سيدي عبد الله بن منصور"⁽⁴⁾ كان حياً، وأراد بأن يتولى حراسة باب القرمادين، حتى يصد سقوط المدينة في أيدي الأعداء.

كذلك من المعتقدات الشائعة وأصبحت من التقاليد المنتشرة وهي الطب الشعبي وإخلاص النية، يذكر "بن مرزوق الخطيب" عن نفسه حيث داواه أبوه يقول: «كنت في صغري كثير الأمراض وأكثرها الدماميل والأورام العظيمة، فإذا اشتد عليّ الألم قصدته، فيتفل عليه ويرقيه ويدعو لي، فيتدارك الله بالشفاء العاجل من غير أذى»⁽⁵⁾، وعلى إثر ذلك ذلك كان التداوي بالأعشاب والنباتات هو الأساس بتلمسان⁽⁶⁾ جريا على العادة، فهي

¹ - عطاء الله دهينة، المرجع السابق، ص 372.

² - نفسه، ص 372.

³ - ابن مريم، المصدر السابق، ص 136.

⁴ - نفسه، ص 136.

⁵ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 231.

⁶ - إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني، تقييد في ماهية بعض الأعشاب ومنافعها، مخطوط، المكتبة الوطنية المغربية، رقم 1705، ورقة رقم 130.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

تساعد على إزالة الأمراض والأسقام، لما تحتويه من مواد طبية قادرة على علاج مرض معين أو تخفيفاً للآلام، أو التي تحتوي على المواد الأولية المستخدمة في تحضير المواد الطبية، فمنها النباتات العشبية التي تنمو في الأراضي الجافة والمنحدرات والنباتات الموسمية وغيرها.

يعطينا "عبد الوهاب بن منصور" في كتابه قبائل المغرب معتقدات شائعة في بلاد المغرب لها ارتباط وثيق بالتنجيم والتكهن والتنبؤ، لها جذورها التاريخية البربرية؛ وبقيت آثارها وانتشرت ونفشت في المجتمعات رغم تحريمها في الإسلام والانكار عليها من طرف العلماء والفقهاء.

ولاشك أنها شملت مدينة تلمسان وكانت من بين العوامل التي ساعدت على ممارستها كعادة عالقة في أذهان المجتمع، حيث يقول: «واعتاد البربر القدماء أن يجعلوا لمساكنهم آلهة وأخرى للدواوير والقرى تحميها من كل شر يحتمل أن يطرأ عليها، وكانت لهم اعتقادات وشعارات من هذا القبيل مازالت بقاياها موجودة إلى الآن بالبلاد المغربية، من ذلك تعليق قدر مقلوب مسود اللون من أثر دخان الطبخ على الجدار وقاية للمنزل من العين والأرواح الشريرة، وتعليق الشقوف وجماجم الدواب والكف المبسوطة (الخميسة) على الأشجار والجدران لنفس الغاية، وقد يحمي الدار والقرية الشجرة بباحتها أو القط أو الأفاعي أو أطلال الجدران، فيحترمها السكان، ويستأمنونها قبل السكن ويحتفلون بها في مواسم معلومة فيوقدون بقربها الشمع والفتائل، ويشتون الزنجلان ويهرقون عليها الحليب ويطلونها بالحناء، وتلتجئ إليها العجائز لتحقيق بعض الرغبات كتزويج عانس وإرجاع غائب وحل ثقاف وتحيب زوج في زوجته، وجمع حبيب بحبيته، وللقرى أيضاً حماتها من مسنمات الصخور وكبار شجر الزيتون الوحشي»⁽¹⁾.

ونتيجة لتسربات هذه المعتقدات من الحضارات القديمة وأثرها في ذهنيات المجتمع التلمساني، أضحت فئة كبيرة منه تؤمن بهذه الظاهرة المنتشرة على نطاق واسع، على غرار

¹ - عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1968م، ص 283.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

طقوس سحرية وقائية، مثل الاعتقاد في الخامسة والحلقة لإبعاد عين الحسود⁽¹⁾ والوشم؛ الذي ترسمه أغلبية النساء على أجسادهن، اعتقاداً منهن على اكتمال النضج الجنسي لديها، وأنه علامة العافية الخصوبة، وتصبح بذلك الفتاة قادرة على تحمل أعباء الحياة ومؤهلة للزواج، فضلاً على اعتقادهن بأنه مظهرها جمالياً⁽²⁾ تسعى من خلاله المرأة لإبراز أنوثتها ومفاتها.

ثالثاً: ما جرى عليه العرف في الأسماء والألقاب

1. لقب الامارة

تعتبر الامارة صورة سياسية لنظام حكم وراثي في العادة كالنظام الملكي والألقاب السلطانية، وعرفها "المغيلي" في كتابه بأنها "سياسة في ثوب رئاسة"⁽³⁾، واعتبرها "أبو حمو الثاني" (أمانة)، وشروطها قائمة على "العدل في الأحكام والتجنب عن الحرام والصبر في الشدائد، والجري على أحسن العوائد، فإنَّ صلاح الدولة بقواعدها"⁽⁴⁾ وفسادها بخرق عوائدها"⁽⁵⁾.

فهي مرتبطة بفن السياسة وحسن إدارة شؤون البلاد، فضلاً على المحافظة على أحسن العوائد والتقاليد المتعارف عليها، بحيث تفقد قيمتها حينما تُخرق هذه العادات، وبما أنَّ الامارة لها عوائد وأعراف تسري عليها وعلى المجتمع والعلاقات الخارجية لها، فإنَّ الزيانيين بتلمسان، جعلوا لأنفسهم "رتب الألقاب ومهد الأرجاء وأمن السبل"⁽⁶⁾، واتخذ

¹ - نقادي سيدي محمد، الخطة العمرانية، المرجع السابق، ص 50.

² - Stéphane Gsell, Op cit, p p 12-15.

³ - عبد الكريم المغيلي، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط1، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 1994م، ص 26.

⁴ - يعطينا مارمول كاربخال صورة لنمط العادات في نظام البلاط والتسيير الدولة في كتابه افريقيا: «تساس هذه المدينة مثلما تساس مدينة فاس، فهناك قضاة وشرطة وعدول ومحامون ووكلاء بالنسبة للقضايا المدنية والجناحية التي يقضى فيها حسب قانون فاس، كما أن هناك عدة أساتذة في مختلف المدارس يقومون بالتدريس كل يوم ويؤجرون من أوقاف هذه المؤسسات»، ص 300.

⁵ - أبو حمو موسى، المصدر السابق، ص 50.

⁶ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 287.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

ملوك تلمسان لقب (بني زيان) كعنوانا رسميا للامارة بدلا عن (بني عبد الواد)، وأصبح عرفا سياسيا متداول في بلاد المغرب الاسلامي، حينما "ثار يغمراسن بن زيان عند الخلال امبراطورية الموحدين فأورث المملكة أعقابه باسم بني زيان، واتخذ هذا اللقب جميع خلفائه من بعده تاركين نسبة بني عبد الواد"⁽¹⁾.

تفيدنا الدراسات بأن السلطان "أبو حمو موسى الأول" بويح يوم (الأحد 21 شوال 706هـ/ 26 أبريل 1307م)، وكان أول من أحدث في هذه الدولة مراسيم الملك، ومصطلحات تنظيمات القصر وتشريفاته (Protocol) وسك النقود باسمه⁽²⁾، وجاء ذلك بعد مرحلة من الصراعات المحترمة، والتوترات الحادة والتنافس الكبير بين الزيانيين ومناوئهم من بني مرين وبني حفص، حيث استطاع "أبي حمو" فرض منطق الدولة الاقليمية وسن قوانين الحكم وعزز لخزينة دولته المالية من الجباية والمكوس والمغانم والأجلا، وللدولة عملتها المضروبة بتلمسان وعليها اسم ملوكها⁽³⁾، والنفوذ الاداري فيها يعود إلى السلطان الملقب بأمر المسلمين، وهو دائما من بيت آل زيان⁽⁴⁾.

بالغت مصادر البلاط الزياني في إطلاق الأوصاف والألقاب على سلاطين الدولة، مما يجعلنا نجزم بأنها تملقت لذات السلطان، وتلاعبت بشرعية الحكم على المستوى الاسلامي، فلقب (الخليفة) ولقب (أمير المؤمنين)؛ يطلق في العادة على الحاكم العام للمسلمين قاطبة، تحت نظام الخلافة الاسلامية كما كان عليه الأمويون أو العباسيون مثلا، ويكتفي حكام الدويلات المنفصلة الأخرى بلقب (أمير المسلمين) تأدبا وتمييزا عن لقب الخليفة بالمشرق⁽⁵⁾.

وهو لقب أول من أطلقه في بلاد المغرب الاسلامي قائد المرابطين "يوشف ابن تاشفين"، فاتبعه في ذلك معظم الأمراء عرفانا بشرعية نظام الخلافة، إلا أن التدوين التاريخي

¹ - كاربخال، المصدر السابق، ص 333.

² - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 144.

³ - نفسه، ص 131.

⁴ - نفسه، ص 129.

⁵ - نفسه، ص 74.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

الخاص بتخليد مآثر الملوك ودولهم، أصبح يغلب عليه طابع الذاتية والانتصار للنفس على حساب انصاف الحقيقة التاريخية، يقول صاحب زهر البستان على لسان الشاعر "أبي القاسم بن ميمون السنوسي" في مدح "أبي يعقوب الزياني"، عندما قفل راجعا من فاس وتمكن السلطان لابنه:

أَنْتَ الْحَلِيفَةُ بَعْدَ اللَّهِ حُجَّتُهُ فِي الْأَرْضِ أَفْضَلَ مِنْ أُوْمِي لَهُ يَدٌ
فَعِشْ هَيْئًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَرَاتِبِ الْعِزِّ مَعْصُومًا مِنَ التَّكْدِ⁽¹⁾

وفي نفس السياق غضب السلطان "أبي حمو موسى الثاني" على "الشريف التلمساني" أثناء تقلده منصب الحكم، إذ اكتفى "الشريف" بالتسليم عليه والانصراف دون تقبيل يد السلطان، وعدم مخاطبته بأمر المؤمنين⁽²⁾، ومما وثقه "عبد الرحمان بن خلدون" في تاريخه، عن الرسالة التي تلقاها من "أبي حمو موسى" في (17 رجب الفرد من عام 769هـ/1368م)، أنه يدعوه فيها لتقلد منصب الحجابة والعلامة، وأن يكون قلما لخلافة بني زيّان⁽³⁾.

أصبح اللقب رمزاً للأبهة والسلطان والملك والقوة لدى بني زيّان باعتبار ذلك من شارات الملك، وهي تحمل دلالات رمزية عالية في الفكر السياسي والديني، حتى لقب "الأمين" كان واردا عندهم؛ وهو أحد الأجهزة الرئيسية في النظام السياسي الزياني كما بينه "بن مرزوق" في المناقب، عندما أشار إلى تقاليد الخطابة والمراسلة بين ولاية العهد في تونس وتلمسان، فقال: «بعثه الأمين فلان أمين تونس، للأمين أبي زيد عبد الرحمان بن النجارس»⁽⁴⁾.

من الألقاب كذلك التي وردت في العبر عند "ابن خلدون" لقب (القَهْرَمَان)، أطلقها على السلطان "أبي حمو موسى الأول"؛ ولفظة القَهْرَمَان كما عرفها بن منظور: «هو المسيطر

¹ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص ص 72 - 74.

² - عبد الله الثغري، المصدر السابق، ص 172.

³ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 440.

⁴ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 189.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

الحفيظ على من تحت يديه»⁽¹⁾، أي المدبر لشؤون بيته، حيث يقول "بن خلدون": «حدثنا شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي قال: سمعت من السلطان أبي هـو موسى بن عثمان، وكان قهرمانا بداره»⁽²⁾.

ولم يكن هذا اللقب تقليدا اجتماعيا حكرا على الرجال؛ بل أطلق كذلك على النساء في البيت الزياني، وكانت تدعى (بقهرمانة القصر) بمعنى: سيدة القصر أو مدبرة البيت ومتولية شؤونه⁽³⁾، وظفرت بهذا اللقب زوج "عثمان بن يغمراسن" كما قال "بن خلدون" في العبر: «وإذا بالخدام ددع قهرمانة القصر من وصائف بنت السلطان أبي إسحاق وحظية أبيهم»⁽⁴⁾.

يتضمن هذا اللقب (قهرمانة) داخل البلاط الزياني عدة معاني، ومنها (الحجاجة) أو الوظيفة الإدارية داخل القصر الملكي، ويراد بها حجب السلطان عن الناس، وعادة ما كان بنو زيان يكلفونها لأسر؛ تمتاز بالأمانة والصدق والوفاء مثل أسرة (بني الملاح)⁽⁵⁾، الذين تغلغوا داخل البلاط الزياني، أخبرنا "بن خلدون" في العبر عن استخدام "أبي هـو موسى الثاني" لهم: «وكان بنو الملاح هؤلاء قد استخصهم السلطان بحجابته سائر أيامه، وكان مسمى الحجاجة عندهم قهرمانة الدار والنظر في الدخل والخرج»⁽⁶⁾، وكان هذا تقليدا في الوظائف الرسمية للدولة، بما كانوا في تبعها وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم⁽⁷⁾.

¹ - ابن منظور، المصدر السابق، م6، ص 885.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 96.

³ - رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1997م، ص 403.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، م7، المصدر السابق، ص 101.

⁵ - أسرة أندلسية من قرطبة، كانوا يحترفون فيها بسكة الدنانير والدرهم، ونزلوا بتلمسان مع جالية من قرطبة واحترفوا فيها نفس المهنة في مطلع القرن الثامن الهجري/ الرابع ميلادي، وزادو عليها مهنة الفلاحة؛ مع مرور الوقت تقلدوا مناصب مرموقة في البلاط الزياني، ونالوا بذلك ثقة سلاطين بني زيان لكثرة حفظهم للأمانة، خاصة في عهد أبي هـو موسى الأول، الذي ولى على حجابته منهم لأول دولته محمد بن ميمون بن الملاح، ثم ابنه محمد الأشقر بعده، ثم ابنه إبراهيم بن محمد من بعدهما. ينظر إلى: ابن خلدون، نفسه، ص ص 109 - 110.

⁶ - نفسه، ص 109.

⁷ - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص 189.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

على غرار الألقاب السياسية هناك ألقاب اجتماعية أخرى لدى بني زيّان في حياتهم اليومية، وكانوا ينادون أجدادهم بلقب (دادا) كناية عن التعظيم والاحلاص والوفاء، وبما يوثق ذلك ما أورده "بن خلدون" في العبر حيث قال: «أوصى دادا يغمراسن لدادا عثمان ودادا حرف كناية عن غاية التعظيم بلغتهم»⁽¹⁾.

ويطلق لقب دادا في العادة على الجد والجدّة كما لاحظ ذلك المستشرق الفرنسي (دوتي)، الذي انتهت أبحاثه إلى استنتاج مفاده أنّ المرأة في شمال إفريقيا وتحديدًا في الجزائر لا تكون صالحة؛ إلاّ إذا كانت سيدة في قومها ويطلق عليها كلمة لالة، تعبيرًا عن مكانتها المرموقة في المجتمع، وعادة ما ترتبط صورة الولية الصالحة ببناء "السيدة" أو "للّاء" بالدارجة كإعتراف عليّ بسلطانها وعلويّة مقامها بين الناس⁽²⁾.

ونجد مقابلا لكلمة (لالّة) في كلمة (دادة)، وقد تطلق كلمة (دادة) على المرأة الصالحة وهذه الصيغة مستعملة بكثرة في تلمسان⁽³⁾ بمعنى (لالّة)⁽⁴⁾، وفي غالب الأحيان تطلق على المرأة المربية، وهي عادة امرأة محترمة وحكيمة في شؤون التربية ولها مكانة مرموقة في المجتمع.

1. لقب المدينة:

أطلق على مدينة تلمسان ألقابا كثيرة متفرقة، كما جرى على ذلك العرف في المؤلفات التاريخية والجغرافية، حيث أفرزت لنا هذه الألقاب معاني تدل على الحالة التي تعيشها المدينة، فتارة تدل على العمران والمدينة وبناء الصروح الجميلة، وتارة تفسر لنا بأنها مدينة الأولياء والصالحين فتعطيها رمزية الصلاح لكثرة ما يردها من الزهاد وغيرهم، وتارة أخرة

¹ - عبد الرحمان بن خلدون، م7، المصدر السابق، ص 96.

² - إيدموند دوتي، الصلحاء مدونات عن الإسلام المغاربي خلال القرن التاسع عشر، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق، المغرب، 2014م، ص 61.

³ - الألقاب داخل العائلة الكبيرة: يسمى الجد من الأب (باسيدي)، والجد من الأم (باخي)، وتسمى الجدّة: حنا ولالة وميما أو حبيبة. وتسمى زوجة الابن الأكبر (لالّة أخت)، وزوجها يسمى بسيدي خاي، والابن الثاني المتزوج بجبيبي، وإن كان غير متزوجا فيسمى خاي.

⁴ - إيدموند دوتي، نفسه، ص 62.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

تصفها بالجديدة نسبة إلى استحداث مدينة المنصورة، وأطلق عليها التنسي بتلمسان الحديثة نسبة إلى ما كانت عليه من قبل الزيانيين اشارة إلى أغادير وتاجرات⁽¹⁾.

جدول يمثل أهم ألقاب مدينة تلمسان

المدينة	اللقب	المصدر
تلمسان	تلمسان العتيقة	عقد الجمان، ص 432.
	تلمسان الجديدة (المنصورة)	عقد الجمان، ص 434.
	حضرة تلمسان	الذخيرة السنية، ص 116.
	تلمسان الجديدة	ابن مرزوق، المسند، ص 480.
	مملكة كبيرة وسلطنة جميلة	مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص 192.
	والمدينة المبرورة بالصالحين	نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار، ص 52.
أغادير وتاجرات	المخصوصة بأكمل الصفات	رحلة القلصادي، ص 95.
	هي تلمسان الحديثة	نظم الدر، ص 125.

¹ - هناك فرق بين (أقادير) و(تاجرات) وإنما جرت العادة في اقتران الاسمين معا للمجال الجغرافي الذي احتوى على المدينتين؛ فأقادير مدينة قديمة كانت تسمى (Pomaria) والذي يعني بستان الفواكه (Verger) وهي تقع في الجزء الشرقي من تلمسان، و(أقادير) لفظ مزيج بين اللهجة الزناتية والفينيقية ويعني القلعة المحصنة، واشتق من ذلك في اللهجة المحلية معنى (الحصن المنيع) أو (الجدار) مما جعل بعض المؤرخين يقعون في التباس مؤداه أن النبي موسى عليه السلام قد حل بها وأن جدار الخضر قد أقيم بها، (أما تاجرات) أو (تلمسان الحديثة) كما سماها التنسي، فهي المدينة التي أنشأها يوسف بن تاشفين المرابطي 472هـ/1070م بغرب أقادير، والتي تعني المحلة أو المعسكر الحصين بلسان صنهاجة، وأسس بها المسجد الجامع إلى جانب القصر، وسورا جديدا يحيط بالمدينة ويحميها. ينظر إلى: سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 16. والتنسي، المصدر السابق، ص 125. و Georges. M. les villes d'art célèbres : Tlemcen, Edition du Tell, Blida, 2003, p p18-20. Et O.Mac Carthy, Algeria Romains, recherches sur l'occupation et la colonisation de l'Algérie par les Romains, 1^{er} mmoire subdivision de Tlemcên, in Revue Africaine, vol 1, 1856, p94.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

اشتهرت تلمسان بألقاب مشهورة كما دلت على ذلك معظم المصادر والدراسات، فهي كالتالي: (جوهرة المغرب)، باب الغرب، غرناطة إفريقية، دمشق الصغيرة⁽¹⁾، وأخيرا عاصمة حب الملوك⁽²⁾، وإن لم يكن لهذه الألقاب منطلق تاريخي إلا أنها تفيد معاني الخاصة الطبوغرافية⁽³⁾ للموقع الخصب ذو المياه الوفيرة والبساتين الوفرة والأراضي الفسيحة، ومهما يكن من أمر وسواء أخذنا بالاسم اللاتيني أو بالأسماء الزناتية أو بالألقاب العربية فجعلها يوحى بالخضرة ووفرة المياه⁽⁴⁾.

حتى أن كل من زارها من الرحالة والجغرافيين بالغوا في وصف طبيعتها ومحاسنها جريا على العادة المعروفة عندهم، وصنفها "بن الصَّبَّاح" في رحلته ضمن أربع مدائن حسنا وبهاء ومنظرا بين غروب الشمس وأبطاحها⁽⁵⁾ ضمن بلاد المغرب الاسلامي، حيث قال: «وتلمسان بالمغرب مُثَلُّ في المياه والخضرة والمنظر فيما بين الغرب والشمال»⁽⁶⁾.

لابد هنا من الإشارة إلى الصورة القاتمة التي قدمها الجغرافي الأندلسي "العبدري" على مدينة تلمسان وأهلها، والذي يتمثل في اعتبار منطقة تلمسان موحشة وأهلها مقصرين في ايواء الوافدين عليها وينعتهم بقطاع الطريق، وبالتالي يعطي انطبعا سلبيا عن المدينة مما يجعلها بقعة منفرة لا يستطيب المقام بها، وإذا أردنا أن نعرف سبب تحامله ومقته لها، هو النزعة السياسية المغرضة التي انتمى إليها وجعلته يشوه صورة المدينة، ثم إنه استغل اضطرابات الأوضاع في المدينة والتي هي نتيجة الصراعات السياسية بين بني مرين وبني زيان كما جرت العادة بينهما.

وأخذ يجنى عليها بكل النعوت السيئة، حيث يقول: «وهي منطقة موحشة لا تخلو من قطاع الطريق البتة، وهم بها أشد خلق الله ضررا وأكثرهم جراءة وأقلهم حياء ومروءة،

¹ - ابن الصباح الأندلسي، المصدر السابق، ص 60.

² - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 17.

³ - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 93.

⁴ - سيدي محمد نقادي، نفسه، ص 17.

⁵ - ابن الصباح الأندلسي، نفسه، ص 53.

⁶ - نفسه، ص 53.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

لا يستقلون القليل ولا يعفون عن ابن السبيل، ليس في أصناف القطاع أحسن منهم همما ولا أوضع منهم نفوسا، ولا أكثر منهم اقدا ما على كل صالح وطالح، لا ينبغي لمسلم أن يغرر بلقائهم»⁽¹⁾، ويضيف قائلا: «تبكي عليها فتسكب الغمام الهمع، وترثي لها فتندب الحمام الوقع، أن نزل بها مستضيف قرته بؤسا أو حل فيها ضعيف كسته من رداء الردا لبوسا»⁽²⁾.

كما يشير كذلك إلى بخل ملك تلمسان على قافلة حجاج وقفوا ببابه فأعطاهم دينارا واحدا⁽³⁾، رغم كل ما ذكر من أوصاف تنفيها مصادر الرحلة الأخرى إلا أنه أشار إلى عادة الخروج مع القافلة المتجهة نحو مسقط رأسهم، فقال: «فلما وقفنا على باب تلمسان صادفنا العادة الكريمة من لطف المولى سبحانه فألفينا قافلة تخرج وهي كبيرة تزيد على الألف»⁽⁴⁾.

كثيرا ما نجد في بعض المصادر الجغرافية تحاملا صريحا على تلمسان وأعيانها، بل ينظرون بعين الازدراء والانتقاص إلى أصالة المدينة وعراقتها في التاريخ لا لشيء إلا الحاجة في نفس يعقوب، وهي التفوق الزيناني في مخلف المجالات خاصة في فترات القوة، وهذا ما يقلل من أهمية ومصداقية المادة الخبرية التي ينقلها هؤلاء للأجيال، يصف "الحسن الوزان" بأن الطلبة فقراء في المدارس التعليمية التلمسانية.

وهو ما لا يمكن أن يقبله العقل ولا يصدقه المنطق، لأن المدارس في العهد الزيناني كانت محل اهتمام متواصل من طرف سلاطين بني زيان في نفقتها والاعتناء بها، فضلا على الأوقاف التي كانت تودع فيها، وهذا ما يجعلنا نشك في ما جاء به "الحسن الوزان" إذ قال: «والطلبة أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بئيسة في مدارسهم، لكن عندما يرتقون إلى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم أستاذا أو عدلا أو إماما»⁽⁵⁾.

¹ - العبدري، المصدر السابق، ص 221.

² - نفسه، ص 28.

³ - نفسه، ص 27.

⁴ - نفسه، ص 221.

⁵ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 21.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

جرت العادة في الكتب الجغرافية المتأخرة لقب مدينة العباد⁽¹⁾ تمييزا لها عن تلمسان رغم أنها هذه العادة لم نراها في الكتب الجغرافية المتقدمة حيث يجعلون العباد جزء من تلمسان ويصورونها بالمدينة الروحية لأنها تحمل جثمان الولي الصالح أبي مدين شعيب رحمه الله، ومن بين العادات المتعلقة بأسرة المرازقة في مسجد العباد الذي شيده أبو الحسن المريني عندما احتل تلمسان في (27 رمضان 737هـ-1337م) هي عادة تولي الخطابة به، قال "بن خلدون" في العبر عن "بن مرزوق الخطيب": «وكان محمد بن مرزوق خطيبا به على عادتهم بالعباد»⁽²⁾.

وفي اعتقادنا اعتاد الرحالة الجغرافيين هذا التمييز تمجيذا لأثار المرينيين في تلمسان وما خلفوه فيها، وبالتالي هذا الطرح يعكس تحيزا للكاتب لانتمائه السياسية والمذهبية وهذا ما يذكره "الحسن الوزان" في وصف افريقيا: «والعباد مدينة صغيرة شبه ربض تقع في الجبل على بعد نحو ميل جنوب تلمسان.. أسسها بعض ملوك فاس من بني مرين»⁽³⁾، في حين قال عنها "كارنجال" بأنها "هذه المدينة بمثابة ربض لتلمسان، ولا تبعد عنها الا بنصف فرسخ من جهة الجنوب.. لا تختلف أحوال سكان العباد عن أحوال أهل تلمسان في عوائدهم ومعاشهم"⁽⁴⁾.

3. الشرف (جدلية النسب والانتماء)

تشكل قضية النسب والانتماء⁽⁵⁾ لدى بني زيان حيزا كبيرا من الاهتمام والنقاشات الحادة في الاسطوغرافيا التاريخية، حيث ألحقت بعضها نسب بني زيان إلى السلالة الشريفة

¹ - وهي مكان تعبد للمنقطعين إلى الله، فهي للصلاة وتلاوة القرآن، وأما المدرسة فلإلقاء الدروس، كما أنها مأوى عابري السبيل والطلبة، وهي ملحقة معماري مثير للاهتمام تابع للمدينة، تقع في المنحدر الشمالي لجبل المفروش (Mefrouûch). للمزيد من التعرف أكثر ينظر إلى: Wet G Marçais, les monuments arabes de Tlemcen, Parism, 1903, p. 274.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، رحلته، المصدر السابق، ص 61.

³ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 24.

⁴ - مارمول كارنجال، المصدر السابق، ص 323.

⁵ - هناك الانتماء الجغرافي كذلك الذي يساعدنا في فهم الانتماء القبلي لبربر زناتة من بني زيان، إذ كانوا " في الأصل من أمراء القبائل الرحل التي تجوب صحراء المغرب الأوسط، ثم أتاحت لها الظروف الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمئة سنة، وذلك أن بني زيان وأقاربهم من القبائل الأخرى كانوا في كل صيف يتركون الصحراء ويستقرون في سهول وهران". ينظر إلى: عطاء الله دهينة، المرجع السابق، ص 359.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

ودافعوا عنها بينما ذهبت أخرى إلى ارجاع نسبهم إلى الطبقة الثانية من بربر زناتة، ويبقى الجدل قائما في اثبات الهوية الأساسية من الدين والتاريخ والثقافة واللغة والعرق، وكيف نفسر قول "يغمراسن" عندما أنكر النسب الهاشمي وأعطى مفهوما جديدا للشرف، وهو منظومة متكاملة من القيم الأخلاقية والعملية كالدفاع عن الوطن ونشر الفضيلة بين الناس، وفي نفس الوقت يجدر بنا معرفة خلفيات الكتابة التاريخية، والأغراض السياسية لدى المؤرخين الملحقين سلالة بني زيان بالنسب الهاشمي الشريف؟

لابد أن نشير إلى عادة الخطاب التاريخي الممجد للملوك والسلاطين في تلمسان الزينانية، ومن بين ما تضمنه هذا الخطاب وبجكم العادة السيئة التي أنتجت لنا جدلية في اثبات نسب ملوك بني زيان؛ هي اخفاء الحقيقة التاريخية ومحاولة إقناع القارئ بالعكس، حيث أصبح الولاء والاطراء والمغالاة في المدح، والخضوع التام للسلطان وتمجيده وتخليد مآثره واسناد كل الخصال والمحاميد له وللأسلافه؛ ضرورة حتمية لإنشاء تحفة أدبية يتسلى بها فضلا عن رفع نسبه إلى أعلى عليين إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

والأمر يتعلق هنا "بيحيى بن خلدون" أول من سن هذه العادة في كتابه بغية الرواد، ويلييه صاحب "زهر البستان" ثم جاء "التنسي" ليدعم أقوال سابقيه في اثبات شرف النسب لبني زيان، وأثبت صاحب البغية هذا النسب في مدحه منشدا:

نَسَبٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورًا وَمِنْ فَلَقِ الصَّبَاحِ عَمُودًا⁽¹⁾

جعل "يحيى ابن خلدون" هذا النسب منقسم إلى فخذان أحدهما بنو عبد الواد؛ وبهذا الاسم عرف الجميع تغلبا وأصله عابد الوادي، رهبانية عرف بها جدهم من ولد سجيح بن واسين بن يصلتن بن مسري بن زكيا بن ورسيع بن مادغس الأبتري بن بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان⁽²⁾.

¹ - يحيى ابن خلدون، ج2، المصدر السابق، ص 15.

² - نفسه، ج1، ص 208.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

أما الفخذ الثاني الذي هو محل شك وتفنيده من طرف المؤرخين عدا الثلاثة المذكورين آنفاً، فوصله صاحب البغية "بالقاسم من ولد إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقيل: ابن محمد بن إدريس. وقيل: ابن القاسم بن إدريس، وقيل: ابن محمد بن عبد الله بن إدريس، وهو أحب إلي لاشتهاره وإجماع المشيخة عليه، وأنسبها عند اعتبار الزمان لانقراض دولة الأدارسة⁽¹⁾، وكلا الفخذين من عرب الصحراء، وأن لهم في زناة الفضل المتقدم والشرف المعروف رضي الله عنهم⁽²⁾.

توصل المؤرخ "محمود بوعياض"، إلى حقائق تاريخية تفند زعم "التنسي" في الحاق نسب بني زيان إلى الأشراف الأدارسة أثناء تحقيق مؤلفه نظم الدر، ويعتقد جازماً بأنه لا يقبل هذا الادعاء، كما لا يقتنع كذلك بما أورده "التنسي" من أخبار، وحثه في ذلك كيف يكون جميع بطون بني عبد الواد من زناة؛ إلا بطن واحد منهم وهو بنو القاسم؟⁽³⁾.

ثم أنه يرى أن "التنسي" وقع في دوامة التملق والافراط في المدح والتمجيد لخصال بني زيان، كما وقع في ذلك صاحب البغية وزهر البستان، وهذه عادة مستحكمة لدى مؤرخو البلاط؛ إذ تحتم عليهم ذلك نتيجة لوضعيتهم التي لا تسمح بالقول خلاف ما يهوى سلطانهم، بالإضافة إلى غض الطرف وإخفاء الحقيقة للهزائم التي تعرض اليها بنو زيان والاختيالات السياسية أو المرور عليها من السحاب كما يعتقد بوعياض، كل هذه القرائن كانت كافية لرد كلام "التنسي" وسابقه في قضية ادعاء الشرف وقتئذ؛ جعلت أخبار "عبد الرحمان بن خلدون" مرجحة وفاصلة في أن نسب بنو زيان من أصل بربري، لا صلة له بالزهراء رضي الله عنها، معتبراً أن الانتساب إلى "القاسم بن إدريس زعماً لا مستند له"⁽⁴⁾.

¹ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 211.

² - نفسه، ص 211.

³ - ينظر إلى تعليق المؤرخ محمود بوعياض على كتاب التنسي، نظم الدر في ص 68.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، ج7، المصدر السابق، ص 74.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

وقد وضع كلامه هذا حدا لمزاعم الاختصاصيين بالنسبة للذين كانوا يبالغون في المجاملة⁽¹⁾، ولا مستند لمن عزاهم لآل البيت؛ فان يغمراسن نفسه لما ذكر له ذلك ورفع نسبه إلى "ادريس بن عبد الله الكامل"⁽²⁾ قال برطانتهم ما معناه: «إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله، وأما الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا»⁽³⁾.

ومما يتضح من كلام "يغمراسن" أن سلاطين بني زيّان لم يهتموا كثيرا بقضية الانتماء الزياني للأدراسة في بداية دولتهم⁽⁴⁾، وإنما جاء اهتمامهم بهذه القضية في وقت متأخر من تاريخ الدولة الزيانية في المغرب الأوسط، ويعود ذلك إلى مرور الدولة ببعض الظروف الصعبة، مما اضطر سلاطين بني زيّان لاستخدام هذه الفكرة من أجل جمع الرعية حولهم⁽⁵⁾، واستخدامها في محاربة أعدائهم وقمع الثوار الخارجين عن سلطتهم.

ويعتبر تصريح "يغمراسن" حول النسب الشريف؛ اعتراف ضمني بالنفي، مما تظهر طائفة معتبر من المؤرخين يفتدون ما ذهب إليه "يحيى بن خلدون" و"التنسي" في اثبات النسب.

4. الأوصاف العلمية والأخلاقية للنخبة العاملة بتلمسان (العادات الاخلاقية).

اعتاد علماء تلمسان وزهادها على نظام اجتماعي معين في الزهد والتدين والتعليم، وتحول هذا النظام إلى عادات سلوكية ملزمة لهم سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، ولا يمكن أن يفعل هذه العادات إلا من سار على دربهم وسلك مسلكهم في نمط العيش المكلف والمجهد للنفس، يشوبه التركيز على التستر والابتعاد عن الغرور والمباهاة وإظهار الذات كما ما ورد كتب المناقب والتراجم لاسيما في المناقب المرزوقية، الذي يصور لنا كيف أصبح هذا النظام عادة انبرى له العلماء الفطاحل من البيت المرزوقي، ويذكر

¹ - عطاء الله دهيّنة، المرجع السابق، ص 361.

² - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 126.

³ - عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 106.

⁴ - شقدان عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 55.

⁵ - نفسه، ص 55.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

صاحبه عن جده لأمه "أبي اسحاق ابراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي"⁽¹⁾ يتبدأ نهاره "بملازمة العلماء ثم يرجع إلى منزله لمطالعة ونسخ، يصوم نهاره، ويحيي ليله، ويقطع بقية اليوم وطول ليله في عبادة فاشتهر فتخلى وانقطع"⁽²⁾.

كذلك مدرسة "سيدي الحلوي" التي كانت مضربا للمثل في عادات الاطعام الذي يوقف بها، حيث يقول "بن الصباح": «ومدرسة سيدي الحلوي جتة في الأرض، فيها الإطعام من الحلال الموقوف من أوقاف الصالحين»⁽³⁾.

يعطينا "ابن مرزوق" دائما في المناقب صورة صادقة عن مظاهر العادات الأخلاقية لدى النخبة العاملة بتلمسان، منها ما تتعلق بالفرد ومنها عادات أخلاقية جماعية، فالأولى تتعلق بجده الذي "كان ينام أول الليل نوما خفيفا وكان له خشوع وإذا زاد يسيرا على المعتاد من النوم"⁽⁴⁾.

تدل لفظة (المعتاد) على حركة عملية روحية ليلية تكررت لمدة طويلة، فأصبحت عادة أخلاقية مرتبطة بقيام الليل والتهجد والزهد في النوم بشكل تلقائي، أما الثانية فهي عادة يجتمع فيها صلحاء البلد وعلماء الوقت في ليلة الجمعة بحضرة "بن مرزوق الجد"، إذ يصف هذه العادة في قوله: «وكان كل ليلة جمعة يجتمع إخوانه في الله من أهل الإرادة وأرباب الحقائق والتصرفات.. أخبرني سيدي الشيخ أبو العباس ابن القطان وكان كثيرا ما يحضر قال: فيجتمع فيها صلحاء البلد وعلماء الوقت الظاهرين فيجتمعون؛ قال: فإذا حضروا وصلوا تذاكروا فتقع الأسئلة في الأحاديث والمسائل للعلماء وتقع المذاكرات بين المتصوفة والصلحاء

¹ - أبو اسحاق بن يخلف بن عبد السلام التنسي المطماطي، انتهت اليه رياضة التدريس والفتوى في قطر المغرب كله، وهو من العلماء الصالحين الأولياء كبير القدر حيا وميتا، زاهد ورع، ذو كرامات شهيرة، ومكانة عند الملوك عظيمة، كان السلطان يخطبه لسكنى تلمسان فيمتنع، وانما يردّها زائرا ثم ينصرف إلى تنس، ثم رحل إليها واستقر بها بعد اصرار الفقهاء عليه، كانت له كرامات كثيرة، ألف في العلم كثيرا وحج وعاد الى تلمسان فتوفي في حدود الثمانين وستمئة قبره رحمه الله بالعباد. ينظر إلى: بغية الرواد ص 151. كفاية المحتاج، ص 143.

² - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 151.

³ - ابن الصَّبَّاح الأندلسي، المصدر السابق، ص 56.

⁴ - نفسه، ص 156.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

في المقامات والأحوال بعد أن يصلوا ما تعودوه من النوافل، ويحضر من الطعام ما يعمهم، وينشد من حضر ممن يحسن الإنشاد ويعظ من يعظ، لا يزالون كذلك طول ليلهم⁽¹⁾.

يبين لنا صاحب المناقب مدى تمسك علماء وزهاد تلمسان بعادات أخلاقية سلوكية دينية دأبوا عليها طيلة حياتهم، حيث كانت ليلة الجمعة توقيت مناسب بما ورد فيها من فضائل وبركة للإجتماع على مسائل فقهية تتعلق بباب النوافل وغيرها يتذكرون بينهم، ولاشك أن هذه العادة موروثه عن أسلافهم؛ وهي منهج علمي دقيق يرسخ كل المعلومات السابقة في الذهن ويقوي الحفظ في كل العلوم، ثم تظهر عادة أخرى فو الانتهاء من المذاكرة جبل عليها المجتمعون وهي حضور الطعام مع الانشاد والوعظ في أجواء ايمانية وروحانية يسودها الخشوع والطمأنينة طول ليلهم.

كان بيت "أبو عبد الله الشريف" التلمساني "مجتمع العلماء والصلحاء في كثير من الأوقات"⁽²⁾، وهذا ما يؤكد كلام صاحب المناقب المرزوقية في انتشار هذه العادة المستحبة في باب المجالس العلمية والفقهية، واعتبر مجلس الشريف التلمساني "مجلس جد ونزاهة وتحقيق ودراية، لا يفرغ من مسألة حتى يرفع عنها اللبس ويوضحها مثل الشمس، ويأخذ كل واحد من الحاضرين منها على قدره ويشفي فيها غليل صدره"⁽³⁾.

تنبأ هذه العادة الجماعية على اشعاع علمي وثقافي كبير في حاضرة تلمسان الزيانية، التي كانت قبلة للطلبة الفاسيين الذين تتلمذوا ونهلوا من علم "الشريف التلمساني" عندما انتقل للجامع الأعظم فأقرأ فيه كتاب الأحكام الصغرى لعبد الحق، وابن الحاجب الفرعي بعده، فكان يحضره هنالك جماعة من طلبة الفاسيين، ومن شأنهم حفظ المسائل والنقل بالواو والفاء، حسبما علم من عاداتهم على خلاف عادة التلمسانيين، فكان يحضره الفريقان فيوفي

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 157.

² - عبد الله الثغري، المصدر السابق، ص 104.

³ - نفسه، ص ص 172 - 173.

الفصل الثالث: عوائد الزياتيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

لكل أحد مطلبه"⁽¹⁾، وكان "الشريف التلمساني" في انتصابه لعادة تدريس العلم وبثه؛ قد ملأ المغرب معارف وتلاميذ⁽²⁾.

بيد أن عادة اقرء العلوم والقرآن الكريم كانت من التقاليد السائدة بشكل متواصل لديهم، ورث الشيخ "أبو محمد عبد الله" نجل الشيخ "الشريف" ذلك وأصبح نجما بازغا في تبليغ العلم على طريقة أبيه، وفي إحدى الحلقات العلمية لما أخذ الملقون مجالسهم "أمر القارئ بفتح المصحف على العادة، وأمر الشيخ أبا محمد بالإقراء فتفجر عن عنصر من ينابيع العلم وانبعث كالجواد السابق كأنه يملي من كتاب محقق اللفظ وأفاد وزاد في إيضاح المعنى على القدر المعتاد"⁽³⁾، فضلا على أنه "كان شديد الأخذ بالسنة وكان من دأبه زيارة المرضى وحضور الجنائز وكان يضطجع ضجعة الفجر وينام طاهرا ويقراً حتى ينام"⁽⁴⁾.

كان علماء تلمسان منارة علمية كبيرة ساهمت بشكل كبير في التطور العلمي داخل مساجد تلمسان، إذ يروي "بن مرزوق" في المناقب عن "أبي زيد بن الإمام" أن مجلسه بإحدى مساجد المدينة الذي كان "يقراً فيه من مدرسته، غص بمن عوائده الحضور"⁽⁵⁾.

كانت مجالس العلم والوقار في مساجد تلمسان تعج باقرء العلوم وتبجل العلماء على العادة الجارية، ذكر "بن مرزوق" في المسند عن "أبي زيد بن الإمام" قائلا: «كنت يوما في مجلس الامام العلامة القدوة، أبي زيد بن الامام بتلمسان والمجلس بالمسجد الذي كان يقرأ فيه من مدرسته، فقد غص بمن عوائده الحضور، ونحن ننتظره وإذا به قد جاء على عادته»⁽⁶⁾.

تجلت صفات العلم والزهد والأخلاق؛ في النخب العلمية بمدينة تلمسان، وكانت تطلق عليهم ألقاب توصيفية تميزهم عن غيرهم بخصوصياتهم التي ألصقت بهم، مثلا لقب الكفيف أطلق على محمد بن مرزوق تمييزا له عن من سبقه في البيت المرزوقي، ولقب

¹ - عبد الله الثغري، المصدر السابق، ص 275.

² - عبد الرحمان بن خلدون، العبر، م7، المصدر السابق، ص 419.

³ - عبد الله الثغري، نفسه، ص 279.

⁴ - نفسه، ص 96.

⁵ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 390.

⁶ - نفسه، ص 390.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

(الخياط) الذي اشتهرت به أسرة أبو اسحاق ابراهيم بن علي الخياط، والذي كان يعيش "بالخيطة وكان له حانوت يجلس فيها للخياطة بموضعهم المعروف الآن بالقبايين من تلمسان"⁽¹⁾، وكان هذا من التقاليد المعروفة عندهم والتي خلدت مآثر العلماء والمتصوفة الزهاد.

ويذكر "ابن مرزوق" الخطيب كذلك معتقداً كان شائعا وأصبح من العادات المألوفة عند هذه الفئة من المجتمع التلمساني، وهي الخلوة والتبتل وملازمة القبور والمساجد بغية التبرك في سياق ترجمة لعالم كان من معاصري جده حيث يقول: «ومن معاصريه وهو في عدد مشايخه العالم الصالح الولي العارف أبو زكريا يحيى بن الصيقل⁽²⁾ إمام وقته زهدا وورعا، صاحب كرامات وأحوال، أخذ في أول عصره وفي شببية عمره ثم تخلى وتبتل، وكان أكثر ملازمته للمقابر والمساجد الخربة خارج البلد وكان محدثا، انتفع به كثير من صلحاء تلمسان وعلمائها»⁽³⁾.

5. تقاليد طلب العلم وطرق تحصيله عند النخب التلمسانية الواردة في رحلة القلصادي

لاشك أن النخبة العلمية التلمسانية كان لها أثر بالغ في تشكيل البنية المعرفية الواسعة المعالم، وتكوين أجيال من طلبة العلم الذين خلدوا لنا مآثرهم وتصنيفاتهم ومؤلفاتهم، ونقل أخبارهم في الزهد والتعبد دون أن تتشوف أعناقهم إلى ما في أيدي الناس؛ ومن بين هؤلاء الطلبة "القلصادي" الذي يستفيض في سرد كل هاته المناقب والآثار، وكان دأبهم مباشر التعليم بطرق منهجية تساعد المتلقي على التحصيل بأسلوب يتناسب وقدرات الطلبة في فهم مختلف العلوم.

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 180.

² - هو فقيه زاهد ورع متبتل في العبادة، لا يكاد يفرق القبور والمساجد توحشا من الخلق، وكان محدثا حافظا له كرامات كثيرة واطلاعات صوفية، قبره رحمه الله خارج باب العقبة. ينظر إلى يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 153.

³ - ابن مرزوق، نفسه، ص 173.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

وتمثلت هذه الطرق في إلقاء القرآن وإلقاء الدروس الفقهية وتلقين النظم والمتون وشرح المعاني مع تذييل الصعوبات⁽¹⁾، فضلا عن مجالس المنظرات وخزائن الكتب والاتصال العلمي مع بقية الحواضر الذي كانت سندا علميا وثقافيا قويا تولى مهمته والتشجيع عليه العلماء الفطاحل بتلمسان.

أدرك "القلصادي" بتلمسان ثلة من الصلحاء والعباد والزهاد الذين كان لهم الفضل الكبير في تكوينه العلمي، ويتبين لنا من خلال رحلته أن الحركة العلمية كانت في أوج عطائها فأخذ يشتغل بالعلم وهي البضاعة الرائجة والتجارة الراجحة وقتئذ بتلمسان إذ يذكر ذلك في قوله: «وأدركت فيها كثيرا من العلماء والصلحاء والعباد والزهاد، وسوق العلم حينئذ نافقة، وتجارة المتعلمين والمعلمين راجحة، والههم إلى تحصيله مشرفة.. فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان، المشهود لهم بالفصاحة والبيان»⁽²⁾.

وهؤلاء الثلة هم النخبة التي استنارت بها حاضرة تلمسان علميا ومعرفيا، حيث العادة السائدة عندهم في تلقين العلوم كانت دائما علوم القرآن والحديث كنقطة انطلاق³ وشرط ملزم لكل طالب يريد أن ينهل من هذه العلوم.

يصور لنا "القلصادي" حالة الزهد والتبتل والانصراف عن الدنيا وملذاتها، والاشتغال بالعلم والتدريس ونشر المعرفة على مستوى مدينة تلمسان لعلمائها وزهادها، فيقول في ترجمة "يوسف الزيدوري": «ومنهم شيخنا الفقيه المتفنن في المعقول.. وكانت له همة عالية بحيث لا يلتفت إلى أحد من أبناء الدنيا، فعزت نفسه عن دنى الكسب، ورغب بها عما

¹ - استعملت هذه الطرق التعليمية في حاضرة تلمسان وهي بمثابة المنهج الذي يلزم الطالب به في التحصيل والتلقي؛ لاسيما وأن علماء تلمسان وعلى رأسهم "أبي عبد الله الشريف التلمساني" كانوا يشددون على ذلك مع التقييد والتدوين ما ألقى وشرح في كتب وكراريس حتى لا يضيع العلم، وهذا ما نلتسمه في رحلة "القلصادي" إذ يشد انتباهنا في الكثير من المواطن على أن هذه الطرق كانت متداولة ومن القرائن الدالة على ذلك يذكر: (فقرأت عليه) و(عليك أن ترى من حسن إلقائه)، وبما أن أن "القلصادي" كان حاذقا في علوم الرياضيات يشير إلى أنه تلقى هذا العلم بطريقتي التصحيح والكسور من كتاب الحوفي وتلخيص ابن البناء. للمزيد من الاطلاع أكثر على ذلك ينظر إلى: مؤلفنا، طرق التعليم عند أبي عبد الله الشريف التلمساني، مجلة عصور الجديد، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، العدد 27، أكتوبر 2017م، ص ص 100-101.

² - القلصادي، المصدر السابق، ص 95.

³ - Fatima (Z.B.O), Tlemcen capitale musulmane le siecle d'or du Maghreb central, Edition Dalimen, Tlemcen, 2011, p235.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

يهين الطالب، وحقن ماء وجهه عن التعرض لما يحمده تاركه شرعا، ويذم فاعله عادة وطبعاً»⁽¹⁾.

فالعادة هنا مقتصرة على العلماء الذين كانت لهم قدم راسخة في التصوف والعبادة، وما أورده كذلك عن "أحمد بن زاغو" أنه كان نموذج يضرب به المثل ويقتدى به في عاداته الروحية والعلمية، فقال عنه: "كان يؤثر الخلوة ومجابه الدعوة.. ولازمته في الحضور مع الجمهور في المدرسة اليعقوبية"⁽²⁾ للتفسير والحديث والفقهاء في أزمنا الشتاء، والأصول والعربية والبيان والحساب والفرائض والهندسية في زمن الصيف، ويوم الخميس والجمعة لقراءة التصوف وتصحيح تأليفه"⁽³⁾.

يشير كذلك إلى عادة على الأرجح كانت سائدة في نظام التعليم وتلقين العلوم عند الزيانيين، وهي تخصيص أوقات معينة لمباشرة العلوم وتدريسها (أزمنا الشتاء وأزمنا الصيف ويوم الجمعة)، ما يؤكد هذا الكلام ما ورد في مناقب التلمسانيين عن "أبي محمد بن أبي عبد الله الشريف": «وفي زمن الصيف يقرئ العلوم العقلية من أصول الدين وأصول الفقه والبيان والعربية وسائر أنواع العلوم، يقطع جميع نهاره في ذلك، لا يفتر عن الإقراء غالبا إلا في أوقات الصلاة، يردون عليه طائفة بعد طائفة بحسب ترتيب أوقاتهم، وربما ضاق عليهم الوقت وتشاحوا فيه فاقسموا الزمان بالرمالية، حتى لم يكن بالمغرب أكثر اجتهادا منه في الإقراء وأعم انتفاعا للطلبة، ويرحلون له من الآفاق فيجدون بغيتهم، ويظفرون في سائر العلوم بران غلثهم»⁽⁴⁾.

¹ - القلصادي، المصدر السابق، ص ص 100 - 101.

² - المدرسة اليعقوبية: بنيت هذه المدرسة في حدود (763-765هـ/1361-1363م) على يد السلطان أبي حمو موسى الثاني وأطلق عليها اليعقوبية تخليدا لروح والده أبي يعقوب كما ذكر يحيى بن خلدون، وكان سلاطين بني زيان يولون المنشآت العلمية أهمية كبيرة في تلمسان ويحتفلون بتدشينها كالحجاز حضاري ومشروع علمي لا يكلف بالتعليم فيها إلا النخبة، وكان أبي عبد الله الشريف من بينهم في الاشراف عليها تدرسا وتوجيها وتعلما، اذ كانت تضاهي القرويين والزيتونة لكثرة وفود الطلبة عليها وأكابر العلماء. ينظر إلى: يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 133.

³ - القلصادي، نفسه، ص 104.

⁴ - الثغري التلمساني، المصدر السابق، ص 277.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

نلاحظ من خلال رحلة "القلصادي" بروز جملة الكتب المقررة في مراحل التعليم المختلفة، وبما أنها كانت محل إجماع عند علماء تلمسان أسهب "القلصادي" في سردها اسهاباً طويلاً وأخذ يرددها في كل ترجمة لعلم من العلماء، من بينها (مختصر خليل) في علوم الفقه، و(صحيح البخاري) في علوم الحديث، وكتاب (الحوفي مع تلخيص ابن البناء) في علم الفرائض والحساب، وكتاب "الحكم العطائية" في الزهد والتصوف وغير ذلك من العلوم ومصنفاتها، وهذا ما يعطينا صورة صادقة عن الدور العلمي والتثقيفي الذي لعبته النخبة العلمية التلمسانية على مستوى المغرب الإسلامي، وما "القلصادي" إلا ثمرة تلك الجهود والعمل الدؤوب المتواصل لنشر العلوم والمعارف، ويبدو أن علوم العربية والفقه والتصوف كانت أكثر تداولاً في البرامج التدريسية العلمية كما يظهر في الجدول الآتي:

جدول احصائي يمثل العلوم المتداولة عند النخبة العلمية التلمسانية مع أهم الكتب كما وردت في الرحلة.

المجموع	علم التفسير	علم التصوف والمنطق	علوم العربية والبيان	علم الفرائض والرياضيات	علم الفقه والأصول	علم الحديث	العلوم المتداولة
36	01	08	07	05	12	03	عدد الكتب
% 100	2.77	22.22	19.44	13.88	33.33	8.33	النسبة المئوية

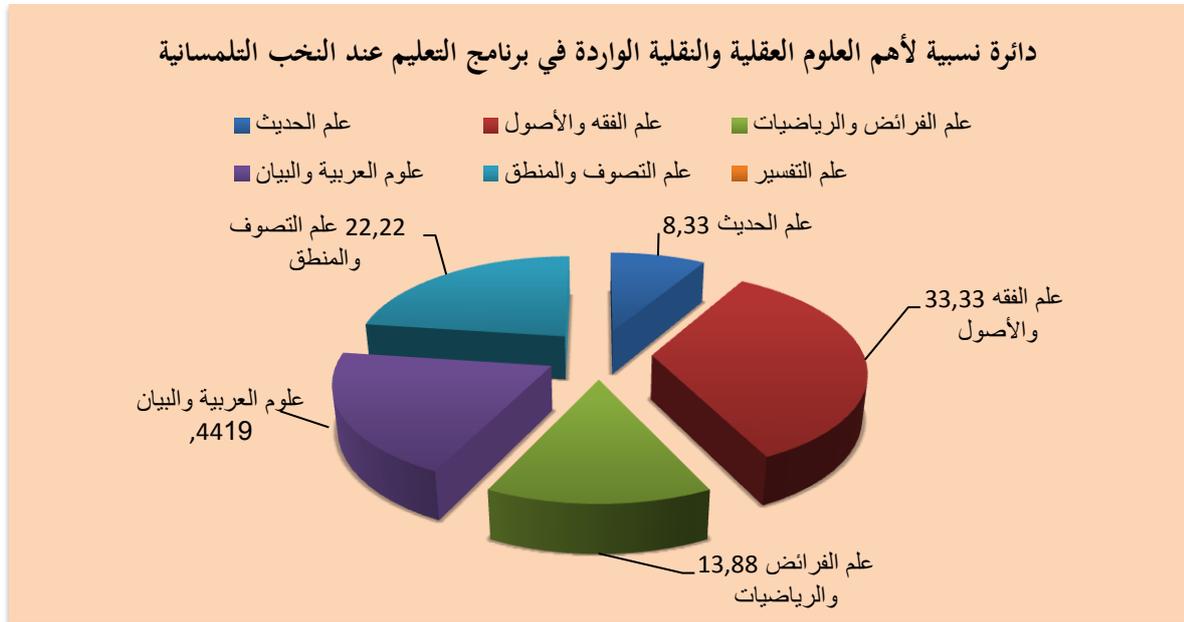
يظهر لنا من خلال هذه الرحلة أنّ علماء تلمسان كانت لهم قدم راسخة في العلم والأخلاق، متحلين بخصال الكرم والفضيلة وحسن الطبع، بقيت أسوة واقتداء لمن أتى بعدهم، فكثيراً ما يذكر "القلصادي" عبارات تدل على ذلك مثل: "الإمام الصدر العلم" و"الفقيه المتفنن في المعقول والمنقول" وغيرها من الأوصاف ذات الطابع النخبوي المتأصل في

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

العلم، غير أن معظمهم كان يعيش حياة الزهد والتعفف عن الدنيا وزهرتها لاسيما التماس بركتهم وملازمتهم والنهل من اجتهاداتهم في مختلف المسائل العلمية.

وكان هذا عرفا سائدا في تلمسان فعله "القلصادي" مع شيخه المذكور أنفا "ابن زاغو" في قوله: «وأنا مذ رأيت نجاح دعواته وصلاح حالي بالتماس بركاته لازمته وترددت عليه، فكنت أجد في مجالسه فوائد تنسي الأوطان وأرد من بحر فيضه ما يحيى به الضمآن، فسرت الى خدمته مسرعا والى مبرته مبادرا».⁽¹⁾

والجدير بالذكر أن معظم هؤلاء العلماء باشروا التدريس مدة طويلة من حياتهم، إلى جانب التأليف ووظائف أخرى كالقضاء والإفتاء، وتكوّن على يديهم عدد كبير من طلبة العلم الوافدين من مختلف الأنحاء، وأن كثيرا منهم رحلوا إلى بلدان أخرى، في المغرب الإسلامي أو المشرق أو بلاد السودان، فكان لهم فيها أثر محمود في نشر العلم وخدمة الثقافة العربية الإسلامية، مما جعل تلمسان في مرحلة ازدهارها الحضاري، تشكل أهم مركز إشعاع ثقافي بالجزائر.⁽²⁾



¹ - القلصادي، المصدر السابق، ص 103.

² - عبد الحميد حاجيات، مركز إشعاع ثقافي في المغرب الأوسط، مجلة الدراسات التاريخية، تصدر عن معهد التاريخ بجامعة الجزائر، العدد العاشر، 1997م، ص 189.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

يتضح من خلال هذه الدائرة النسبية؛ أنّ نسبة العلوم العقلية والنقلية الواردة في برنامج التعليم عند النخب التلمسانية لها دلالة خاصة، إذ أنّ نسبة علم الفقه والأصول مرتفعة مقارنة مع غيرها من العلوم، ومرد ذلك هو التركيز على معرفة الأحكام الشرعية وأصول الفقه ومختلف النوازل والقضايا التي يعيشها المجتمع التلمساني.

ومن المؤكد أنّ هذه الأحكام كانت تسيّر وفق المذهب المالكي الذي ترسخ بشكل كبير على العهد الزياني، وكانت العلوم الأخرى من المقررات التي تلزم طالب العلم في المدارس بأن يتضلع فيها ويطور قدراته الفكرية والعقلية، وبالتالي تجدر الإشارة إلى أن هذه العلوم ساهمت في تشكيل منظومة معرفية متكاملة ومتناسقة، أنتجت لنا العديد من النخب البارزة والمتفوقة في فنها التعليمي، وما صاحب الرحلة - القلصادي - إلا ثمرة هذه المنظومة التي أسسها علماء تلمسان.

أ- طبائع العلماء والأولياء وعاداتهم في المشروع الأخلاقي

اعتاد أهل تلمسان على تبجيل العلماء وأهل الفضل والاحسان؛ الذين كانوا يقضون حوائج الناس بالمعروف، ويتوسطون إليهم في فك كربهم والافراج عن عناتهم وردّ ظلماتهم بمختلف طبقاتهم، وبما أن هذه العادة ترسخت في ذهن المجتمع بصورة مألوفة ودائمة خلدت ذكرى احترام الأولياء الصالحين والعلماء بحب يفوق الذكرى الدنيوية للملوك البلاد⁽¹⁾، ففي العادات والتقاليد الشعبية نجد أن "يغمراسن" أو ما هو إلا مجرد اسم حاكم لا ترتبط به أي ذكرى، ولكن شخصية "سيدي مرزوق" لا تزال تتجدد ذكرها دوما حتى كل فرد يستطيع أن يرشدك إلى قبره.

وهذا ما ينطبق على سيدي "أحمد بلحسن الغماري" الذي اشتهر بتقوى يقتدى بها⁽²⁾، ويعتبر هذا الرجل التقي في التراث التاريخي رمزا للتدين الشعبي، وهو بمثابة مقدم في مكان كان كثيرا ما يشرفه بزياراته العديدة، وهذه المكان هو حمام الصياغين الموجود في الحي

¹ - عطاء الله دهيئة، المرجع السابق، ص 364.

² - نفسه، ص 364.

الفصل الثالث: عوائد الزينيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

الشمالي الشرقي للمدينة الذي يفتح بابه على نهج صغير يربط نهج خلدون بنهج معسكر، وكان "سيدي الغماري" يجب الذهاب إلى هذا الحي، وما زال الناس يذكرون المكان الذي كان يجلس فيه، وبدلاً من اسم حمام الصياغين يفضل التلمسانيون القدامى تسميته عادة باسم حمام "سيدي لحسن"⁽¹⁾، و"الشيخ الحسن أبركان" الولي العظيم الشأن كبير مشيخة الأولياء في وقته بتلمسان⁽²⁾.

أولت كتب التراجم والذاكرة الشعبية اهماما كبيرا لهؤلاء العلماء والأولياء الثلاثة المذكورين آنفا (سيدي مرزوق) وهو "بن مرزوق الحفيد" (766هـ/1364م - 842هـ/1439م) سادس أسرة المرازقة المحمديين، و(سيدي بلحسن) وهو "سيدي أحمد بن الحسن الغماري" نزيل تلمسان المتوفى في (13 شوال 874هـ/15 أبريل 1470م)⁽³⁾ والشيخ "الحسن بن مخلوف الراشدي سيدي الحسن أبركان"، المتوفى في أواخر شوال من سنة سبع وخمسين وثمانمائة/ماي 1454م⁽⁴⁾.

بحيث خلدت عاداتهم وتقاليدهم المرتبطة بالمجتمع أساسا، وهي في نفس الوقت تدل على صفات خلقية راقية، أضحت منهجا قيما وسلوكا تربويا مهذبا عالي المقام، مما جعلهم قدوة أهل تلمسان يقتفون أثرهم في ذلك، وهؤلاء الثلاثة كانت عاداتهم مشتركة ومعروفة ومنتشرة بين الناس⁽⁵⁾.

يشير "ابن مرزوق" في المناقب إلى عادات أخلاقية عن أبيه، التي تمثل في نظرنا مشروعا قيما يحتدى به وترفح بواسطته الانسان عن السلوكات الدنيئة والتصرفات السيئة اتجاه الآخرين، إذ يقول: «كان أشد الناس تواضعا وإذا مر بطريق ورأى فيه حجرا أزاله أو شوكا أماطه هذا دأبه دائما، وربما يجد الطبق من العجين على باب الدرب ولا يجدون من يحمله

¹ - عطاء الله دهينة، المرجع السابق، ص 364.

² - ابن سعد، المصدر السابق، ص 115.

³ - نفسه، ص 232.

⁴ - نفسه، ص ص 115 - 136.

⁵ - ينظر إلى الملحق رقم 11.

الفصل الثالث: عوائد الزيانيين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة

فيحمله إلى القرن.. وهكذا كان دأبه وبهذا أوصاني.. وما رأيته قط ضرب دابة ولا وصيفا ولا خادما»⁽¹⁾.

كما يحكي عن نفسه عن عادة المصارحة مع النفس حينما تحل بها النكبة بعد الشهرة والرفعة وألفة بلاط الملوك والسلطان، إذ يقول: «لقد ارتقيت خمسين منبرا من حواضر الإسلام على ما هو معلوم عند أهل العصر من الخاص والعام، ثم انتقلت إلى ما لا بد منه بحسب العادة المظهرة في صدق الخبر الصحيح من الاستفحال، بعد العلو والهبوط بعد الطلوع والبعد بعد الدنو فحلت النكبة.»⁽²⁾ شأنه في ذلك شأن "بن خميس التلمساني".

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص ص 245 - 248.

² - نفسه، ص 140.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان

الزيانية

أولاً/ الخوف واستعمال العنف على المجتمع التلمساني

1. الخوف وأثره على ذهنية بني زيان

2. أهم الحصارات

3. الأسلحة الحربية المستعملة على المجتمع التلمساني

ثانياً/ تقاليد الحرب عند بني زيان

1. عادة إخلاء المدينة

2. الاستراتيجية الحربية عند يغمراسن

3. عادة الجوار

4. عادة أخذ الرهائن

5. عادة الثأر عند بني زيان

ثالثاً/ التحصينات الدفاعية وعادة التسوير - قراءة في نظرية الصمود والتحدي -

1. موقع المدينة وأهميته

2. جراءة وشجاعة بني زيان في مواجهة المخاطر

3. عادة التسوير

4. أبو هو موسى الثاني وإعادة إحياء الدولة

رابعاً/ ظاهرة التكافل الاجتماعي وأثرها في بناء المجتمع التلمساني

1. علاج الأزمات في المجتمع التلمساني

2. ظاهرة الأحباس - تهافت الأهالي على تطبيق قاعدة التصدق بالمال الفائض

3. تجليات عادة التوزيع النسائية في الحياة الاجتماعية للمجتمع الزياني

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيرية

أولاً/ الخوف واستعمال العنف على المجتمع التلمساني

1. الخوف وأثره على ذهنية بني زيّان

سَاهَم الخُوفُ فِي تَشْحِيدِ الهِمَمِ وَتَقْوِيَةِ النُّفُوسِ وَتَثْبِيتِ العَزَائِمِ لِأَفْرَادِ المَجْتَمَعِ التِّلْمَسَانِيِّ؛ الَّذِي عَانِيَ وَيَلَاتُ الحِصَارَاتِ المِتَالِيَّةَ وَقِسَاوَةَ الطَّامِعِينَ فِي اغْتِصَابِ (جَوْهَرَةَ المَعْرَبِ الإِسْلَامِيِّ) مِنْ يَدِهِ، سِوَاءِ فِي المَرَحَلَةِ الأُولَى مِنْ تَأْسِيسِ دَوْلَةِ بَنِي زِيَّانِ أَوْ فِي مَرَحَلَةِ شَيْخُوخِيَّتِهَا، وَلِهَذَا بَاتَ مِنَ الضَّرُورِيِّ الدَّفَاعُ عَنِ المَدِينَةِ وَأَهْلِهَا، بِكُلِّ الطَّرِيقِ وَالمَوَسَائِلِ المُنَاحَةِ لِلتِّلْمَسَانِيِّينَ هُوَ شَرَفُ الدَّفَاعِ عَنِ النَفْسِ، انْطِلَاقاً مِنْ عَقِيدَةِ رَاسِخَةٍ فِي ذَهْنِيَّةِ هَذَا المَجْتَمَعِ؛ مَفَادُهَا أَنَّ عَصَبِيَّةَ بَنِي زِيَّانِ صَاحِبَةَ الشَّرْعِيَّةِ فِي الحُكْمِ بِالمَعْرَبِ الأَوْسَطِ، وَهِيَ أَوْلَى بِمَدِينَةِ تِلْمَسَانَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ العَصَبِيَّاتِ المُنَاوِئَةِ لَهَا.

يَنْقَسِمُ الخُوفُ بِشَكْلِ عَامٍ إِلَى خَارِجِي وَدَاخِلِي، أَمَّا الخَارِجِي فَبِدَوْرِهِ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ أُسَاسِيَيْنَ وَهُمَا: جَمَاعِي وَفَرْدِي، فَالخُوفُ الجَمَاعِي: يَتِمَثَّلُ فِي التَّحْدِيَّاتِ الخَارِجِيَّةِ المَهْدِدَةِ لِكَيَانَ الدَّوْلَةِ، فَضْلاً عَنِ الأَمْرَاضِ وَالجَوَائِحِ وَالأُوبئةِ الَّتِي تَجْتَاخُ المَجْتَمَعِ، إِضَافَةً إِلَى تَهْدِيدَاتِ البِيئَةِ كَالزَّلَازِلِ وَغَيْرِهَا، وَيُظْهَرُ جَلِيّاً هَذَا الخُوفُ الجَمَاعِي عَلَى مَدِينَةِ تِلْمَسَانَ وَأَهْلِهَا عَلَى العَهْدِ الزِيَّانِيِّ، إِذْ تَعَرَّضَتْ لِلحِصَارَاتِ المِتَالِيَّةِ وَالعَارَاتِ المَضْرُوبَةِ عَلَيْهَا، وَكَانَتْ نَتَائِجُهُ بِأَنَّ اخْتَفَتْ دَوْلَةُ بَنِي زِيَّانِ لِفْتْرَةٍ وَجِيْزَةٍ، ثُمَّ تَعُودُ لِتَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهَا وَتُثْبِتَ وَجُودَهَا مِنْ جَدِيدٍ، وَعَانَتْ تِلْمَسَانَ كَذَلِكَ مِنْ فتراتِ حَرَجَةٍ بِأَمْرَاضِ وَجَوَائِحِ أَضْرَتْ بِهَا، أَمَّا البِيئَةُ فَكَانَتْ عَامِلاً اِجْبَائِيّاً سَاعَدَهَا عَلَى الصُّمُودِ وَالتَّحْدِي.

أَمَّا الخُوفُ الفَرْدِي فَيُنشَأُ نَتِيجَةً لِأَسْبَابٍ ذَاتِيَّةٍ بِالدَّرَجَةِ الأُولَى ابْتِدَاءً بِعَدَمِ الثِّقَّةِ بِالأَخْرِينِ، وَالشُّعُورِ بِتَهْدِيدَاتٍ وَإِكْرَاهَاتٍ مِنْ أَطْرَافٍ مُتَحَكِّمَةٍ بِزِمَامِ السُّلْطَنَةِ أَوْ لَهَا القُوَّةَ عَلَى الوَضْعِ العَامِ، وَعَاشَ بَعْضُ أَهْلِ تِلْمَسَانَ ذَلِكَ كَمَا وَرَدَ فِي الاسْطَوْغْرَافِيَا التَّارِيخِيَّةِ، وَخَيْرُ دَلِيلٍ تُقَدِّمُهُ هُنَا مَا حَصَلَ لِلعَلَامَةِ التِّلْمَسَانِيِّ الشَّيْخِ "الأبلي"؛ عِنْدَمَا أُكْرِهَ عَلَى تَقْلُدِ

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

مَنْصِبِ الْحَاسِبَةِ فِي دَوْلَةِ بَنِي زِيَّانَ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا الْخُرُوجُ مِنْهَا وَالْفِرَارُ خَوْفًا مِنْ صَاحِبِهَا "أَبِي هُمُو مُوسَى بْنِ عُثْمَانَ"⁽¹⁾.

لَكِنْ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ لَمْ يَكُنِ الشَّيْخُ يَرْغَبُ فِي أَيِّ مَنْصِبٍ سِيَاسِيٍّ دَاخِلِ السُّلْطَةِ رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ قَهْرُمَانًا بِالْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ، بِالإِضَافَةِ إِلَى عَادَتِهِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّدْرِيسِ وَنَشْرِ الْمَعَارِفِ وَرِفْعَةِ مَقَامِهِ بَيْنَ أَقْرَانِهِ جَعَلْتُهُ يَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ مِنْ رَدَّةِ فِعْلِ السُّلْطَانِ، الَّتِي قَدْ تَضَعُ لَهُ حَدًّا أَمَامَ مَسَارِهِ الْعِلْمِيِّ وَالْمِهْنِيِّ الْمُعْتَادِ، بَيِّنًا أَنَّهُ رَحَلَ إِلَى الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى بِنِيَّةِ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ وَتَطْوِيرِ مَهَارَاتِهِ الْفِكْرِيَّةِ وَقُدْرَاتِهِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الرِّيَاضِيَّاتِ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ تَصَدَّرَ مَجْلِسَ الْإِقْرَاءِ وَالتَّدْرِيسِ عَلَى الْعَادَةِ الْجَارِيَّةِ وَالْمَأْلُوفَةِ عِنْدَهُ⁽²⁾.

لَوْ تَمَعْنَا فِي الْخَوْفِ كظَاهِرَةِ إِجَابِيَّةٍ كَامِنَةٍ فِي نَفْسِيَّةِ الْمُجْتَمَعِ التِّلْمَسَانِيِّ؛ لِأَدْرَكْنَا حَقِيقَةَ رَدَّةِ الْفِعْلِ وَالِاسْتِجَابَةِ الْفَوْرِيَّةِ لَهَا، بِحَيْثُ تَأْتِي هَذِهِ الْاسْتِجَابَةُ عَلَى عِدَّةِ أَشْكَالٍ، مِنْهَا:

- تَجَاوُبُهُمْ مَعَ فِكْرَةٍ سَلْبِيَّةٍ قَدْ تَقَوَّدَهُمْ لِرَدَّةِ فِعْلِ غَيْرِ مَنْطِقِيَّةٍ، وَبِالتَّالِيِ تَقْدِيرِ الْأَوْضَاعِ الْخَطِيرَةِ الْمُحَدِّقَةِ بِهِمْ ثُمَّ التَّهَيُّؤِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِمُوجَهَّتِهَا.
- انْسِجَامُهُمْ مَعَ الشُّعُورِ بِالْخَطَرِ حَتَّى يُصْبِحَ جُزْءًا مِنْ وَاقِعِ سَلْبِيٍّ، وَلِلتَّعَامُلِ مَعَ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ؛ فَلَا بُدَّ مِنَ الْاعْتِرَافِ بِوُجُودِهَا وَعَدَمِ انْكَارِهَا.
- التَّخَلُّصُ مِنَ الْمَشَاعِرِ الْمَثْبُوتَةِ لِلْهَمِّ وَالْأَفْكَارِ السَّلْبِيَّةِ عَنِ طَرِيقِ التَّخْطِيطِ لَهَا، فَذَلِكَ يَجْعَلُ تَأْثِيرَهَا أَقْلَ وَوَعِيَهُمْ بِهَا أَكْثَرَ، وَهَذَا مَا سَنَرَاهُ فِي هَذَا الْفَصْلِ.

أ - مضمون الصراع على مناطق النفوذ وموقف يغمراسن منه

• نشأة دولة بني زيان

تَشَجَّعَتْ قَبِيلَةُ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ عَلَى تَأْسِيسِ كَيَانِهَا السِّيَاسِيِّ بَعْدَ الْهَزِيمَةِ الْنُكْرَاءِ، الَّتِي تَلَقَّاهَا الْمُوَحِّدُونَ عَلَى يَدِ التَّكْتَلِ الْإِسْبَانِيِّ بِمَعْرَكَةِ حِصْنِ الْعُقَابِ، جَنُوبَ الْأَنْدَلُسِ سَنَةَ

¹ - ابن مرزوق المسند، المصدر السابق، ص 266.

² - نفسه، ص 266.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

(609هـ/1212م)⁽¹⁾، هذا ويكمن السبب العميق لتأسيس دولة المغرب الأوسط، في البسط التدريجي لقبيلة بني عبد الواد نفوذها على منطقة تلمسان، وذلك عندما أسندت السلطة الموحدية لمشايخ هذه القبيلة، حق القيام بالحماية بوطن بني عبد الواد، الذي كان يمتد من مدينة البطحاء شرقاً إلى واد ملوية غرباً.

سرعانما تحول هذا النفوذ إلى سلطان كامل على الرقعة وعلى وجه الخصوص على منطقة تلمسان (627هـ/1230م)، قال "بن خلدون" في العبر: «ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع، إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها داراً لملكهم، وكرسياً لسلطانهم، فاخبطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة، واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب»⁽²⁾.

وكان الخليفة الموحد "الرشيدي" هو الذي ولى "يغمراسن ابن زيان"⁽³⁾ على تلمسان، وحدث تعيينه على رأس الولاية برضا جميع فصائل بني عبد الواد، وهذا الدليل على أن هذا الأخير صار زعيم القبيلة بدون منازع⁽⁴⁾.

• وصية يغمراسن

¹ - معركة حصن العقاب: تعد هذه المعركة بداية النهاية للوحدة السياسية للغرب الإسلامي، جرت أحداثها في تاريخ (15 صفر 609هـ/17 جويلية 1212م)، وكانت الهزيمة قاسية على السلطان الناصر الموحد وجنوده في هذه الموقعة بالأندلس، حيث وقعت هذه المعركة بجوار حصن العقاب على ضفاف نهر (Las Navas de Tolosa)، حيث راح ضحيتها الآلاف من الجنود الشهداء المسلمين، مما أضعف عصبية الموحدين وأفقدتهم قوتهم وهيبتهم في محافظتهم على وحدة المغرب الإسلامي، نقلا عن أمبروزو هويثي ميراندا، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة: عبد الواحد أكميز، منشورات الزمن، الدار البيضاء، المغرب، 2004م، ص 418.

² - عبد الرحمان بن خلدون، العبر، م7، المصدر السابق، ص 81.

³ - يغمراسن بن زيان: كان يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد من أشد هذا الحي بأساً، وأعظمهم في النفوس مهابة، إجلالاً وأعزفهم بمصالح قبيله، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطباعاً بالتدبير والرئاسة، فارس زمانه البطل الشجاع المحارب، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده، وكان مرموقاً بعين التجارة مؤملاً للأمر عند المشيخة وتعممه من أمره عند الخاصة، ويفزع إليه في نوائبها العامة، العبر، نفسه، ص 83. وابن أبي زرع، الذخيرة السنية، المصدر السابق، ص 115.

⁴ - سيدي محمد نقادي، الاسهامات الفكرية، المرجع السابق، ص 24.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

تعتبر وصية "يغمراسن" لابنه "عثمان" وثيقة مرجعية تدل على شخصية "يغمراسن" السياسية وذلك البطل الذي حنكته التجارب، فلا بد لنا من الوقوف على فهم فحواها، حتى يتأتى لنا تقديم صورة واضحة وصريحة عن مضمون الصراع والملك الوارد بها.

روى "الأبلي" هذه الوصية مشافهة "لابن خلدون" والذي نقلها في العبر قائلا: «يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش، لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا لوفور مددهم، ولا يمكنني أنا القعود عن لقاءهم لمعرة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها، فإياك واعتماد لقاءهم، وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا إليك، وحاول ما استطعت الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك، وتكافئ حشد العدو لحشدك، ولعلك تصيرُ بعض الثغور الشرقية معقلا لخيرتك»⁽¹⁾.

يؤكد "ابن خلدون" في مقدمته على دور العصبية كمحور أساسي في ترسيخ قواعد الملك، وعقيدة الدفاع عن شرف القبيل المؤسس لهذا الملك، وذلك من أجل توطيد أركان الدولة وتأسيس نواتها الأولى، وهذا ما تسنى لبني عبد الواد في أول ظهور لهم كمملكة ذات سيادة ونفوذ بالمغرب الأوسط.

لكن السبب الجوهرى المثبط لعزائمهم ويات عائقا أمامهم في عدم الحفاظ على ملكهم ومجالتهم ومضاربهم، هو فقدان العصائب المنضوية تحت عصبيتهم الرئيسية الموحدة والجامعة لهم، بل انسلت القبائل والعشائر من العصبية الرئيسية لبني عبد الواد، وضمت ولائها للأقوى والغالب من العصبيات ببلاد المغرب الاسلامي، وتمثل هذه القبائل في بني توجين ومغراوة والقبائل العربية بجزال الظهرة ووانشريس.

وخير دليل على خذلان هذه العصبيات المتمثلة في القبائل والعشائر المذكورة آنفا للعصبية الكبيرة - بني عبد الواد - في نصرتهم ضد أعدائهم المتغلبين، عندما أشرف بنو زيان على الهلاك من الحصار الطويل سنة (706هـ/1306م)؛ حيث اتفق "أبو زيان" وأخوه "أبو

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 96.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

هو الأوّل" وأعيان قبيلهما على "الاسحار إلى العدو والإقدام عليه فإمّا مُلك أو هلك"⁽¹⁾، أي وجدوا أنفسهم لوحدهم دون إعانة وإمداد من طرف حلفائهم المنسلين.

يجعلنا هذا السبب فهم وصية "يغمراسن ابن زيّان" ومضمون الصراع القائم بين عصبية بني عبد الواد وغيرهم، وهو ما أكد عليه "بن خلدون" في مقدمته حينما قال: «وأنه لا بد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مستتبعه لها»⁽²⁾، ابتداء من الدائرة الضيقة لمفهومها "وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة"⁽³⁾، ثم تتوسع إلى ربط الولاء وضم كل العصبية القبيلة القاطنة بمجالاتها الحضرية والبدوية "إذعانا لها ولغلبهم المعهود"⁽⁴⁾، وبالتالي تصبح الرعية تسير وفق دين ملوكها وعوائدها في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها.

وهذا ما استطاعت مملكة بني مرين من تحقيقه والحاق الهزائم "بيغمراسن ابن زيّان" وخلفه من بعده في الكثير من المواقع والمواجهات، ضف إلى ذلك سبب رئيسي يجعلنا نبرر "ليغمراسن" وصيته في عدم مواجهة بني مرين والتولي عنهم نحو الشرق، وهو فقدان بيئة محتضنة للعصبية (ميزة التمسك بالأرض والاستقرار بها).

بحيث كانت تلمسان عاصمة تمثل قبيل بني زيّان لا أكثر، ومعروف عن هذا القبيل كثرة الترحال في ريفها⁽⁵⁾، على عكس المرينيين الذين اختاروا مدينة فاس عاصمة لملكهم لكنهم لم يهتمشوا مدينة مراكش كعاصمة ثانوية ومستقر العصبية قبلهم في العهد الموحد، لأنّ فقدان مراكش هو ضياع الملك، تلك قضية محورية أدركها الموحدون فلم يجروا أي خليفة

¹ - يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، ج2، المصدر السابق، ص 233.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 230.

³ - نفسه، ص 230.

⁴ - نفسه، ص 230.

⁵ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 29. يعدّ كثرة الترحال في مجالات المغرب الأوسط وعدم الاستقرار لقبيل بني زيان من بين النتائج الأكثر سلبية، لذلك سيخلفون وراءهم فراغا سياسيا واقتصاديا كبيرين، مما يزيد من أطماع العصبية الأخرى فيها، وبالتالي غياب السلطة المركزية بتلمسان في أغلب الأوقات حالت دون تحقيق الهدف المنشود.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيرية

على نقل العاصمة إلى مكان آخر، بسبب ما ترمز إليه كمنطقة تجمع جندها، رغم خصوماتهم مع المرابطين المنشئين الأوائل لمراكش.

وبالتالي تجنّب "يغمراسن" للعصبية التي لا قدرة له عليها؛ ووعي بقوة العصبية ووقعها في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهي مبدأ القوة والغلبة⁽¹⁾ الكفيلة بتحقيق دولة ذات سيادة وكاملة الأركان، كما تنبه وأشار لمفعولها في وصيته لولي عهده⁽²⁾، ثم إن عصبية بني مرين صارت تهيمن سياسيا على كل القبائل المتواجدة بالمغرب الأقصى⁽³⁾، حتى على تلك التي تفوقها من حيث العدد⁽⁴⁾.

ب - أسباب الخوف

• الغزو: ساهم موقع المدينة المتميز على سائر أقطار المغرب الاسلامي في تألقها في ميادين شتى، ودائما كانت لتلمسان مكانة ريادية على جميع الأصعدة، سياسيا اقتصاديا اجتماعيا علميا واستراتيجيا، كما تسبب كل ذلك في "محن كادت أن تزيلها من الخارطة السياسية"⁽⁵⁾، سماها "يحيى بن خلدون" في بغية الرواد «بجوهرة المغرب» والجوهر معرض للنهب، ونعتتها المصادر بألقاب عديدة ترمز إلى تفوقها الحضاري والعمراني وطبيعتها الخلافة

¹ - بوزياني الدراجي، العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية على ضوء الفكر الخلدوني، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2003م، ص 38.

² - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 204.

³ - استقوت عصبية بني مرين بفضل انضمام جميع القبائل تحت امرتها، وينشأ الملك في المغرب الأقصى خاصة والمغرب الاسلامي عامة على نفس النهج، بحيث كانت هذه القبائل تعيش على هامش الحكم القائم، ونشاطها الفعال تحت قيادة زعيم منها، ومن الضروري أن يعتمد هذا الزعيم على قومه لتحقيق ما يهدف إليه، من انتزاع الحكم من الأسرة المالكة وممارسته بنفسه، وعندما يتقلد الملك الجديد السلطة، تشتغل مجموعة القبائل التي مدت له يد المساعدة؛ بجني ثمرات التأييد الذي قدمه لصاحب الحكم، فتوجد بينها وبينه روابط وثيقة ناتجة من (العصبية)، وهذا ما كان ينقص بني زيّان في تثبيت ملكهم. للمزيد من التعرف على طبيعة الملك في بلاد المغرب الإسلامي ينظر إلى: محمد ولد داداه، مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأوّل إلى انتصاف القرن السابق، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1977م، ص 189.

⁴ - سيدي محمد نقادي، نفسه، ص 204.

⁵ - نفسه، ص 30.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

الفسيحة التي لفتت نظر الطامعين في اغتصابها من أهلها، "ازدادت رغبة الطامعين في الاستيلاء عليها، وفي كل مرة يجد الطامعون المبرر لحركتهم ضدها"⁽¹⁾.

ظاهرة الحرب والملك في بلاد المغرب الاسلامي متأصلة ومتجذرة منذ القرون الأولى، لاسيما في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي، ويرجع سبب ذلك كما قال "بن خلدون" في مقدمته إلى أربعة مظاهر وهي كالاتي:

- الغيرة والمنافسة

- العدوان

- الغضب لله ودينه

- غضب للملك وسعي في تمهيدته⁽²⁾

في اعتقادنا أنّ المظهران الأول والرابع اللذان استتجها "ابن خلدون" في مقدمته عن عصبية المغرب الإسلامي؛ هما سبب الغزو المباشر على مدينة تلمسان والعمل على إخضاعها وأهلها بكل الطرق والأساليب، من طرف أعدائها المجاورين لها والعشائر المتناظرة⁽³⁾، فضلاً عن اعتبار كل عصبية هي صاحبة الشرعية المطلقة في الاستئثار بالملك لوحدها، وهنا تنزو صاحبة القوة والتمكين على الخارجين عليها والمانعين لطاعتها⁽⁴⁾ كما تعتقد، ومن نتائج ذلك بث الخوف كشعور ينتاب أقل العصبية تمكيناً، عندما تفقد عصبيتها ويصبح أهلها عرضة للنهب والاستباحة من طرف أعدائهم، كما كان عليه الوضع في تلمسان.

قال "ابن مرزوق" في المسند عن حالة التلمسانيين من جراء كثرة الحصارات والغارات المضروبة على مدينتهم، "وما تلقيته من قدماء أهل بلدنا، فلم أجد بينهما مناسبة فكم خربت

¹ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 31.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 211.

³ - نفسه، ص 211.

⁴ - نفسه، ص 211.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

فيها من ذمم، وكم هلكت فيها من أمم، وكم انجلى من أهلها أعلام، وكم كابدوا من محن فيها وانتقام"⁽¹⁾.

وعندما تشجعوا وأثبتوا وجودهم؛ أدركوا معاني القوة الهائلة والصمود لاسيما اكتشاف أسرار الطبيعة التي لا تنقضي ولا تحصى، كعيون الماء المزودة لهم والإيمان الحقيقي بالتضحية في سبيل إثبات وجودهم، والانتصار على الخوف الذي لا ينفك أن أصبح شعورا ايجابيا، يطاردهم كلما ضعفوا واستكانوا إلى الخور والفتور، وبالتالي يخرج من ركام الخوف والهزيمة إلى النصر والثبات.

ومن القرائن الدالة على ذلك ما ذكره "ابن خلدون" في العبر، عندما توفي "عثمان ابن يغمراسن" في الحصار الهالك الذي ضربه "يوسف بن يعقوب المريني" على تلمسان سنة (703هـ/1303م)، وانكب الخاصة والعامة من بني زيّان في تدبير شؤونهم الداخلية، فأسرعوا بعقد البيعة للإبن الأكبر "عثمان" وهو "أبي زيّان" على حساب "أبي هو موسى"، وأسرعوا بهذا القرار خوفاً من منازعة "أبي هو" لأخيه في الحكم، ثم يكون مصيرهم لقمة سائغة لبني مرين المحاصرين لهم.

وبالتالي الشعور بالخوف هنا؛ أضحى حافظا ايجابيا في لم الشمل وفك الحصار على أنفسهم، وكانت النتيجة أن بايع كل الأطراف "أبا زيان بن عثمان" سلطانا عليهم لحنكته وحسن تدبيره، قال "بن خلدون عبد الرحمان" معقبا: «وبرزوا إلى قتال عدوهم على العادة فكأن عثمان لم يمت»⁽²⁾.

ذكر "ابن مرزوق" في المسند حالة التلمسانيين وهم كارهين لاحتلال "أبي الحسن المريني" مدينتهم، وغير راضين عن سياسته وإن عفأ، ومبغضين سيطرة وسطو المرينيون على ممتلكاتهم ونهبها، وغير راغبين في مد يد الطاعة والبيعة لسلطانهم، بحيث أرغموا للرضوخ والاستسلام للواقع المفروض عليهم تحت عمليات التهديد والترغيب.

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 203.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، م7، المصدر السابق، ص 100.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

يظهر جانب من الخوف الايجابي الذي جعلهم يمتنعون ويتفحشون في السب والأذى لبني مرين، قال "بن مرزوق": «حضرت معه - أبو الحسن - يوم دخل تلمسان عنوة، وحلف على يمين وقد رأى غيرها خيرا منها، فكفر وأتى الذي هو خير، ظهر من أهل تلمسان المشاقة والممناعة ما أتى على اتلاف الكثير من الأنفس، وهم مع ذلك يوحشون القلوب، ويغرسون أسباب البغضاء، يتفحشون في السب والأذى، ويقابلون أقبح المقابلات، مما لا تحمله كل النفوس، ولا تتغاضى عنهم، فتوعدهم رضي الله عنه بمقتضى الواقع، وشدد في الإغراء بهم قبل التمكن منهم»⁽¹⁾.

وكانت عاداتهم وتعاملهم مع هكذا مواقف في كل الغارات والاحتلالات التي تعرضوا إليها، بل كان أهل تلمسان يفضلون الدفاع عن مدينتهم، والاستبسال في مواجهة العدو حتى آخر رمق من حياتهم.

• عدد السكان

من بين عوامل الضعف والخوف السائد في تلمسان الزيانية التي أشار إليها "عبد الرحمان بن خلدون"، هي التفوق العددي القبلي لصالح بني مرين على حساب بني زيان، حيث اجتمعت عصبية بني مرين وأنتجت قوة متفوقة في العدد والعدة، مما جعلهم ينتصرون في أغلب المواجهات ويؤسسون على إثر ذلك دولة مترامية الأطراف، ومما أورده في هذا الصدد ما يلي: «لَمَّا كَانَ عَدْدُ بَنِي مَرِينٍ لِأَوَّلِ مُلْكِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ، كَانَتْ دَوْلَتُهُمْ أَقْوَى مِنْهَا وَأَوْسَعَ نِطَاقًا، وَكَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الْعَلْبُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، يُقَالُ إِنَّ عَدَدَ بَنِي مَرِينٍ لِأَوَّلِ مُلْكِهِمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ، وَإِنَّ بَنِي عَبْدِ الْوَادِ كَانُوا أَلْفًا، إِلَّا أَنَّ الدَّوْلَةَ بِالرُّفْهِ وَكَثْرَةِ التَّابِعِ كَثُرَتْ مِنْ أَعْدَادِهِمْ»⁽²⁾.

ثم إن طبيعة المعاش داخل المغرب الأوسط فترتكز على متناقضتين، ساهما في عدم تماسك الوحدة المركزية بتلمسان، ونقص الكثافة السكانية بها، وهما كثرة الترحال للقبائل

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 202.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص 129.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

البدوية في السهول والفيافي والصحراء على عاداتها، وقلة التواجد الساكنة بالمدن لاسيما تلمسان.

وبالتالي يستحيل على السلطة المركزية مواجهة المخاطر المحدقة بها، بينما يعتبر المغرب الأقصى خزان للسكان جعلهم مستقرين بالأرض، نظرا لانقياد جميع القبائل تحت لواء عصبية جامعة، وفي هذا الصدد يقول يضيف "بن خلدون" في المقدمة: «وعلى هذه النسبة في أعداد المتغلبين لأول الملك يكون اتساع الدولة وقوتها، والعصبية إنما هي بكثر العدد ووفوره كما قلناه، والسبب الصحيح في ذلك أن النقص إنما يبدو في الدولة من الأطراف، فإذا كانت ممالكها كثيرة كانت أطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة؛ وكل نقص يقع فلا بد له من زمن، فتكثر أزمان النقص لكثرة الممالك»⁽¹⁾.

ثم تكون نتائج التفوق في العدد على حسب "عبد الرحمان ابن خلدون" هو استفحال الملك بالعصبية المتحكمة، كما يرى كذلك أن مبنى الملك لا تستقيم له قناة إلا على أساسين لا بد منهما، فالأول الشوكة والعصبية والثاني هو المال، ويشير إلى الشرط الأساسي الأول بأنه يتمثل في الجند⁽²⁾ وكثرة عدده وقوته الضاربة، ثم لا بد من المال الذي هو قوام أولئك الجند وتلبية حاجات الملك⁽³⁾، وبالتالي يستحيل فوز تلمسان بالريادة السياسية لقلة زاداها البشري، فضلا عن الحصارات المستنزفة لأرواح البشر في تلمسان حيث لقي مائة وعشرون ألف من التلمسانيين حتفهم⁽⁴⁾ في الحصار الطويل، ومع ذلك تفوقت تلمسان على فاس في الحركة العلمية والتجارية⁽⁵⁾.

• فكرة توحيد المغرب الإسلامي ومشروع المجتمع

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 129.

² - نفسه، ص 230.

³ - نفسه، ص 230.

⁴ - يحيى ابن خلدون، ج1، المصدر السابق، ص 234.

⁵ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 31.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليده الحرب في تلمسان الزيانية

أفرز الصراع على مشروع السيادة في بلاد المغرب الاسلامي بين الدويلات الثلاثة هزائم متعددة، وضرب حصارات قاتلة فضلا على الانتقام من الطرف المنهزم والأقل عدة وعصبية، وشهدت تلمسان مسرحا بائسا لهذه الأحداث التي غلبت عليها صراع الأنا والبقاء للأقوى.

فمنذ الحصار الأول الذي أقدم عليه "أبو زكريا الحفصي" في أواخر (محرم 640هـ/ جويلية 1242م)؛ تداعى المجتمع التلمساني إلى حالة من الذعر والخوف الشديد وانقلبت الأحوال إلى الأسوأ، ليستمر عليه الوضع دهرا طويلا في تلمسان الزيانية، ويتشكل الخوف كشعور ناجم عن الخطر والتهديد؛ ساهم بدوره في تغيير السلوك الاجتماعي مثل: الهروب أو الاختباء أو التجمد اتجاه الأحداث المروعة التي يشاهدها ويعيشها الفرد.

يبدو أن فكرة توحيد المغرب الاسلامي لدى حكام المغرب الأقصى كانت واردة وبقوة في مخيلتهم، رأينا أنفا كيف أصر أبو يعقوب يوسف المريني على تفعيل هذا المشروع لكنه لقي حتفه قبل أن يحققه في الحصار الطويل الذي ضربه على تلمسان سنة (698هـ/ 1299م)، وهي الفكرة نفسها التي فشل في تحقيقها من بعده "أبي الحسن المريني" كذلك في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي، وها هو الشيخ السعدي يحاول أن يطبق الفكرة التي راودت سابقه في فاس ويحقق الأمنية العزيزة الغابرة⁽¹⁾ في سنة (957هـ/ 1550م)⁽²⁾.

بيد أنه فشل فشلا ذريعا أمام تطلعات الأتراك العثمانيين⁽³⁾ الذين دحروا جيش "الشريف" ومزقوه شذّر مدّر⁽⁴⁾، والسبب الذي حال دون تحقيق هذا المشروع هو فقدان السيطرة على تلمسان مركز المغرب الأوسط، رغم أن هؤلاء الملوك الثلاثة كانت لهم يد

¹ - أحمد توفيق المدني، تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530 - 1554م، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد 27، سبتمبر - أكتوبر 1975م، ص 44.

² - الناصري، المرجع السابق، ج5، ص 25.

³ - زهراء النظام، العلاقات المغربية الجزائرية مقارنة سياسية ثقافية خلال القرن 10هـ/ 16م، منشورات دار الأمان، الرباط، المغرب، 2015م، ص 177.

⁴ - أحمد توفيق المدني، نفسه، ص 44.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

طولى في المغرب الأوسط، بل نجح "أبو الحسن المريني" في توسيع مملكته شرقاً إلى تونس، لكن سرعانما قامت مملكة تلمسان من جديد لتعرقل هذا المشروع.

ومن الضروري أن ننبه إلى نقطة رئيسية؛ غفل عنها ملوك فاس وكانت عقدتهم في سبيل الوصول إلى غايتهم المنشودة ألا وهي مشروع الوحدة، وتمثلت هذه النقطة في أن تلمسان كانت (قفل المغرب)⁽¹⁾ كما ذكر "الإدريسي"، بمعنى أنها نقطة مفصلية في بلاد المغرب الإسلامي، بحيث لا يمكن لأي سلطان الانطلاق في تنفيذ والعمل على تحقيق هذا المشروع، إلا بعد تيقنه من إخضاع بني زيّان له.

وهذا ما تم "لأبي الحسن المريني" فوحد المغرب الإسلامي لفترة وجيزة سنة (748هـ/1348م)، ثم يغرق الأسطول المريني بعد هزيمة القيروان، وتعود الأسرة الحفصية إلى سدة الحكم وقبيل بني زيّان بعد ذلك إلى تلمسان ليتوقف مشروع الوحدة⁽²⁾، وهذا السبب الذي جعل "يغمراسن" يتخذها كعاصمة للملكه.

2. أهم الحصارات

لقد أدت سياسة كل من الدولات الثلاثة المنفصلة عن الخلافة الموحدية إلى آثار وخيمة، تحولت إلى مواجهة حربية كانت السيطرة في أغلبها للدوليتين المرينية والحفصية، وذلك بحصارهما لتلمسان ومحاولة تجويعها، هذا الحصار الذي تنوع ما بين قصر المدة وطولها⁽³⁾، ويعتبر فن الحصار من الأساليب الجوهرية للحرب⁽⁴⁾، التي فتكت بالمجتمع الزياني وأرهقت كاهله بكل الأساليب المعروفة في التضيق والخنق، فحالات الحرب والحصار والاضطرابات السياسية التي شهدتها مدينة تلمسان، أثرت بشكل سلبي في تراجع عملية الانتاج المحلي، وفتكت بأعداد كبيرة من السكان.

¹ - الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، م1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، ص 251.

² - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 217.

³ - سالم أبو القاسم غومة، العلاقة السياسية وأثرها الحربي بين الدولة المرينية ودولتي الزيانيين والحفصيين ببلاد المغرب في العصر الوسيط، المجلة الجامعة، جامعة الجبل الغربي، العدد الثامن عشر، ماي 2016م، ص 42.

⁴ - جي بريل، المرجع السابق، ص 3911.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

عرفت مدينة تلمسان الزيانية طيلة أربع قرون من الزمن حصارات منهكة وشاقة عليها، أحصتها بعض المصادر بأنها فاقت الثلاثين حصاراً أو أكثر، ولم تكن كلها منهكة وشاقة على المجتمع التلمساني في ما أحصيناه إلا خمس منها، أضرت بالمدينة والمجتمع نتيجة لاصرار المحاصرون على إرغام بني زيّان تحت سيطرتهم ونفوذهم، لكن الدفاع عن شرف المدينة واسترجاعها وتثبيت دعائمها؛ كان عقيدة راسخة لدى الزيانيين وأهل المدينة.

جدول تطبيقي يمثل أهم خمس حصارات خانقة لمدينة تلمسان

المصدر	مدة الحصار	تاريخ الحصار	المُحاصرون	المدينة المُحصرة	
ابن خلدون، العبر، م7، ص .85	سبعة عشر يوماً	سنة 640هـ/ 1242م	أبو زكريا بن أبي حفص	تلمسان	01
ابن أبي زرع، الذخيرة السنوية، ص 128	ثلاثة أشهر وثلاثة أيام	15 رجب الفرد سنة 670هـ/ 1272م	يعقوب بن عبد الحق المريني	تلمسان	02
يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 234.	ثمانين سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام	698هـ / 1298م - 07 ذي القعدة 706هـ / 1306م	أبو يعقوب المريني	تلمسان	03
يحيى ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 243.	سنتان	من 11 شوال 735هـ / جوان 1335م إلى غاية 28 رمضان 737هـ / 02 ماي 1337م	أبو الحسن المريني	تلمسان	04
الناصرى،	تسعة أشهر	يوم الاثنين 23	الشيخ محمد	تلمسان	05

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

الاستقصا، ج5، ص 25.	جمادى الأولى 957هـ / 09 جوان 1550م	المهدي السعدي		
------------------------	--	------------------	--	--

3. الأسلحة الحربية المستعملة على المجتمع التلمساني

أ - قوس الزيار: استعمل الميريونيون أسلحة وآلات الحربية فتاكة في هذا الحصار، ومن بين هذه الأسلحة كما وردت في العبر، (قوس الزيار) وهو قوس أو مقلاع هائل استعمله الميريونيون كآلة حصار جديدة⁽¹⁾، قال "بن خلدون" واصفا وظيفة هذه الآلة الحربية في الحصار على تلمسان: «ونصب عليها القوس البعيدة النزع، العظيمة الهيكل، المسماة بقوس الزيار، ازدلف إليه الصناع والمهندسون⁽²⁾ بعملها، وكانت توقر على أحد عشر بغلا⁽³⁾، إلى المكان الذي يفرغ فيه⁽⁴⁾.

ب - عرّادة: وصارت القسي الصغيرة (رعّادة أو عرّادة) تُستخدم بدلاً من العرّادة⁽⁵⁾ القديمة، وكثر عددها، وكان المحاصرون يضعونها فوق متاريس⁽⁶⁾ أبراجهم الزاحفة، وكانت قذائفها أخف وزناً من قذائف المنجنيق؛ حيث تُطلق بجذب وتر القوس الدولايب الضخم في رمي السهام، وكان يقوم على تشغيله عدد من الرجال⁽⁷⁾، وقد استخدمها المحاصرون في الوقت نفسه في إطلاق كرات اللهب لإضرام النار في هذه الأبراج⁽⁸⁾.

¹ - جي بريل، المرجع السابق، ص 3914.

² - من المحتمل أن المهندسون ليسوا من الأطراف المتحاربة، فقد كانوا يُعهد إليه بصنع مثل هذه آلات الحصار الضخمة، أو تعديلها بما يلائم الحال، وعلى الأرجح كانوا غير مسلمين لاسيما في العصور الوسطى.

³ - عبد الرحمان ابن خلدون، العبر، م7، المصدر السابق، ص 229.

⁴ - جي بريل، نفسه، ص 3914.

⁵ - العرّادة: هي ضرب من المجانيق تقذف به الأحجار والسهام الكبرى، ويقال العرّد والغرّند: الشديد من كل شيء، ويقصد به كذلك القوس الذي فيه وتر. ينظر إلى: ابن منظور، م2، المصدر السابق، ص 221.

⁶ - متاريس: جمع متراس، وهي دروع مصنوعة من الخشب أو الحديد تستخدم في مواجهة هجمات العدو، وهو مشتق من فعل (ترس)، قال ابن منظور: الترس من السلاح. م3، ص 339.

⁷ - جي بريل، نفسه، ص 3913.

⁸ - نفسه، ص 3914.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

ج - المجانيق: كانت المجانيق من الآلات الحربية المشهورة والمستعملة بكثرة في معظم حصارات بني مرين على تلمسان، فقد رماها "أبو يعقوب يوسف" بالمنجنقات⁽¹⁾ أكثر من مرة، "فأطلقت منها قذائف رخامية، ويبلغ محيط أكبرها مترين، ويزن 230 كيلوغراما"⁽²⁾، وطريقة إطلاقها تقوم أساسا على عددا من الرجال يؤرجحون عارضته إلى الخلف، بعد وضع ثقل على أحد أطرافها، فتندفع القذيفة بقوة هائلة نحو الهدف المراد⁽³⁾، ويحتفظ متحف متحف تلمسان ببعض كتل الرخام أو الحجر الرملي التي قذفها منجنيق المرينيين⁽⁴⁾، بالإضافة بالإضافة إلى شظايا القطع الحديدية التي كان يتم قذفها بواسطة المسحوق المشتعل، ولها أثر بالغ في أعصاب المُحاصِرِينَ⁽⁵⁾.

د - قسي عقارة: من غير المستبعد أن المرينيون استخدموا في حصارهم آلات حربية أخرى مثل آلة (قسي عقارة)، وهي آلة شديدة الفتك يمنعون بها المحاصرين من الظهور في المزاغل⁽⁶⁾، ليرموا بالسهم القائمين على شق الأنفاق⁽⁷⁾، وحتى يتمكن قائد جيش الحصار من الإشراف على مجرى القتال⁽⁸⁾، وبالتالي يمكن القول بأنها كانت من بين الوسائل الحربية المتاحة في عملية الحصار وتضييق الخناق.

هـ - الأنفاط: أوّل من استعملها هم الموحدون في أواخر عهدهم على "يغمراسن ابن زيان" عندما كان مسيطرا على سجلماسة⁽⁹⁾، وهي آلات جديدة قاذفة فتاكة، تقذف الحجارة الحجارة والكرات الحديدية الملتهبة، ويصحبها دوي كالرعد تشبه المدافع البدائية⁽¹⁰⁾، ومن

¹ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 231.

² - جي بريل، المرجع السابق، ص 3914.

³ - نفسه، ص 3913.

⁴ - عطاء الله دهينة، المرجع السابق، ص 373.

⁵ - نفسه، ص 373.

⁶ - المزاغل: عنصر دفاعي عبارة عن فتحات في السور، وظيفتها هي الرمي بالسهم.

⁷ - جي بريل، نفسه، ص 3915.

⁸ - نفسه، ص 3915.

⁹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 196.

¹⁰ - محمد عبد الله عنان، دولة الاسلام في الأندلس، ج4، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1990م، ص 640.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

شدة هولها وفتكها قال عنها "بن خلدون" في العبر: «وهندام النفط القاذف بحصى الحديد، ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها»⁽¹⁾، استخدمها "أبو الحسن المريني" في حصاره على تلمسان، كما "ضرب عليها سياج الأسوار وسرادقات الخفائر أطبقت عليهم، حتى لا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم"⁽²⁾، واستطاع واستطاع أن يقتحمها عنوة سنة (737هـ/1373م).

ثانيا/ تقاليد الحرب عند بني زيان

1. عادة إخلاء المدينة

لنفهم طبيعة هذا النزوح أو اللجوء إلى الصحراء (إخلاء المدينة) من طرف بني زيّان، لابد وأن نعرف طبيعة معاشهم والبيئة المحتضنة لهم قبل ذلك، "فيحيى بن خلدون" يورد إشارة واضحة عن ذلك، حيث يذكر أنّ بني زيّان كانوا ينتجعون من الصحراء موطناً لهم ويغلب عليهم طابع البداوة أكثر منه التحضر في التلال، وبما أنّ الدولة الموحدية بلغت شيخوختها وآثرت السقوط والانقسام على نفسها؛ فإنّ حظ بني زيّان منها بات مؤكداً له في تلمسان، وهنا يبدأ التحول في مناط العيش لديهم بحكم الامارة والسلطة ليتخذوا من تل تلمسان سكناً جديداً لهم، علماً أنّها تجمع بين الموضعين⁽³⁾ - التل والصحراء - وتحقق ذلك مع منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي.

وبالتالي نكاد نجزم بأنّ الصحراء الموطن الأصلي لقبيلة بني زيّان، جعلت منهم جنساً يتلائم ومختلف الظروف السياسية والاقتصادية المحدقة بهم من كلّ حدبٍ وصوب، ولا أدل

¹ - عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 196.

² - نفسه، ص 115.

³ - تكاد تتفق معظم المصادر والدراسات على أنّ هاذان الموضعين (تلم) و(سان) هما تجمع بين (التل والصحراء) أو بين (الريف والصحراء)، وهو لفظ بربري الأصل يعني: (تيلموس) أو (تيلماس) وتجمع على (تلمسان) أو (تلمسانين) بمعنى جيوب الماء أو العيون، وعلى غرار مدينة (أغادير) و(تاجرارت) فهي موطن قبيل بني زيان، استقلوا بها وبذلوا جهود مكثفة في عمارتها وتحصينها وتجميلها وتشبيد مبانيها وتوسيع خططها وتوفير مرافقها، وأصبحت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، مقراً لسلطة إدارة بني زيان المركزية، لكنها وقعت فريسة التنافس الحفصي المريني عليها. ينظر إلى سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 16. يحيى بن خلدون، ج1، ص 122. ورايح بونار، تاريخه وثقافته، ط3، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2000م، ص 282.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

على ذلك مما أورده "يحيى بن خلدون" في البغية بقوله: «ولم يزل هذا القبيل المبارك بصحرائه كما ذكرنا، ويتجمعون أحيانا تل تلمسان للميرة على عادة البوادي إلى العشرة الثانية من المائة السابعة، ففيها صاروا أجنح إلى التل منهم إلى الصحراء بما أنسوه من خصبه وغضارة عيشه فاتخذوه مربعا ومصطافا، سلما للدولة المومنية، بخلاف بني مرين، فكانوا عند ملوكها أرفع رتبة وأحظى منهم، واتخذهم بنو عبد المؤمن بن علي أولياء وأنصارا وحماة لقطر تلمسان»⁽¹⁾.
أوصى "يغمراسن" ابنه "عثمان" بضرورة تفادي المواجهة مع خصومه في جهة الغرب وهو يقصد بني مرين لسبيين:

➤ أولهما: استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش.

➤ وثانيهما: لا طاقة لهم بلقائهم إذا جمعوا لوفور مددهم. بمعنى اجتمعت عصبية بني مرين تحت راية واحدة، ثم إن البقاء في تلمسان بمثابة إنتحار لعدم تكافئ القوة.
هاذان السببان هما جوهر تخلف بني زيان إلى الصحراء وإلى غيرها من المضارب خوفاً من هلاكهم، وفي وصية "يغمراسن" ما يثبت ذلك في قوله: «وعليك اللياذ بالجدران متى دلفوا إليك»⁽²⁾، أي اللجوء إلى ما تحصن به في عمق الصحراء والأودية متى أسرعوا إليك بمددهم، وأصبحت سنة متوارثة وعادة يدافع بها الزيانيون عن حريمهم وملكهم متى يأتي الخطر والتهديد من كل حدب وصوب، والراجح أن استمرار ظاهرة الحرب القبلية وثقل ما تخلفه من خسائر على القبائل، هو ما حدا ببعضها إلى سن أعراف تتقي من خلالها بعض ما يشتعل فتنتها⁽³⁾.

وما لبث أن صارت وجهة أمراء بني زيان التوسع شرقا في النطاق الجغرافي الخاضع للسلطة الحفصية، وفق الاستراتيجية التي رسمها "يغمراسن بن زيان" لابنه "أبي سعيد عثمان"؛ تقليدا سلكه كل من "أبي سمو موسى الأول" (707-718هـ/1307-1318م)

¹ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، 217.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 96.

³ - حميد تيتاو، المرجع السابق، ص 137.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

وابنه "أبي تاشفين" (718-737هـ/1318-1337م)، بلغ مداه في التوسع شرقا إلى تونس⁽¹⁾.

رغم أن وصية "يغمراسن" لابنه فيها إقرار بالهزيمة والحث عن تجنب لقاء بني مرين واللجوء إلى الصحراء كلما تغلبوا؛ فإنها تؤكد على عادة المقاومة والمبارزة التي أضحت عرفا منتشرا بين الناس كلما سمحت الظروف بذلك، ويورد "بن خلدون" في العبر قطعة من الوصية في موضع آخر يوثق ما أثبتناه في ما يلي: «لا يغرنك أني رجعت إليهم بعدها، وبرزت إلى لقائهم، فإني أنفت أن أرجع عن مقاومتهم بعد اعتيادها، وأترك مبارزتهم وقد عرفها الناس، وأنت لا يضرك العجز عن مبارزتهم والتكول عن لقائهم، فليس لك في ذلك مقام معلوم، ولا عادة سالفة»⁽²⁾.

عادة التزوح القسري لملوك تلمسان أثناء الانهزام وجنوحهم إلى الصحراء التي كانت (الملتجأ)؛ سنها "يغمراسن بن زيان" في أول غارة عليه سنها "أبي زكريا الحفصي" في آخر (محرم 640هـ/ جويلية 1242م)، حيث راسل الأمير الحفصي "يغمراسن" يدعوه للإذعان والطاعة له فأبى، ويومئذ أحاطت جيوش الحفصيين بتلمسان فضيقت حصارها وبالغت في التنكيل بأهلها، فخرج "يغمراسن" من باب العقبة⁽³⁾ لرد عادية بني حفص فانهزم ونجا هو بنفسه إلى الصحراء، وسقطت تلمسان بيد الحفصيين⁽⁴⁾ ثم عاد "يغمراسن" إلى تلمسان بموجب نصوص المعاهدة التي عقدها مع "أبي زكرياء"، عندما توسطت له أمه في ذلك (سوط النساء).

وكانت الغاية من هذه العادة التي سنها "يغمراسن" في أول مواجهة له مع "أبي زكريا الحفصي" "تجنيبها أذى وفوضى المارك"⁽⁵⁾.

¹- الطاهر بونابي، مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2017م، ص 13.

²- عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 223.

³- نفسه، ص 84.

⁴- عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 13.

⁵- سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 25.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

دبَّ الخُوف والقلق في قلب "أبي يحيى يغمراسن" وقبيله عندما عزم خليفة الموحدّين "السعيد علي بن المأمون إدريس" سنة (645هـ / 1248م)؛ يريد استرجاع الإرث الموحدّي من قبضة الدويلات الثلاث، فنهض من مراکش وجمع حوله عرب المغرب وقبائله واستنفر كافة المصامدة، وأرغم بني مرين وبني زيّان على تأدية الطاعة، فخنعت بني مرين إلى ذلك وتخلف "يغمراسن"، مما جعله وبنو عبد الواد ينجون بأنفسهم وبأهلهم وأولادهم إلى قلعة تامزوردك⁽¹⁾ قبلة وجدة فاعتصموا بها⁽²⁾، خوفا من غضب "السعيد" والتنكيل بهم، ولطالما كانت هذه القلعة ملجأ مؤقتا على غرار جبال بني يزناسن والصّحراء.

من بين الظروف التي أثرت على مجتمع مدينة تلمسان هي الغارات المتتالية عليها من طرف بني مرين، لاسيما تلك التي قام بها "أبي سالم المريني"⁽³⁾ سنة (761هـ / 1360م)، واضطر "أبو حمو الثاني" للخروج إلى الصّحراء متخذاً الأسباب⁽⁴⁾، في استنهاض شيعته مع قبائل العرب من بني عامر بن زغبة والمعقل معه إلى الصّحراء، قال "الناصري": «والتفت عليه العرب بجللها»⁽⁵⁾؛ في خطة حربية تنم عن ذكاء خارق في استعادة تلمسان.

حيث قام بالتزول على المغرب الأقصى من جهة "أكريسيف ووطاط وبلاد الملوية وحطموا زروعها وانتسفوا بركاتها وخربوا عمرانها، وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من

¹ - تامزوردك: ويطلق عليه كذلك تَمَزِيدِيْت، وتامزردك، وتيجزجذت، وتيمزجذت. اختلف المؤرخون في ضبط هذا المصطلح، إلا أن الحسن الوزان يعرفه بأنه "قصر واقع في الحدّ بين هذا القفر وبلاد تلمسان، شيد قديما على صخرة، وكان ملوك تلمسان يجعلونه في حالة تاهب دفاعي لحراسة أماكن المرور لجنّد فاس، ويسيل في سفحه نهر التافنة، وتحيط به أراضٍ جيدة كانت تزرع فيها حاجيات السكان، وما دام هذا القصر خاضعا لحكم ملك تلمسان فإنه كان موضع صيانة تامة، أما الآن وقد سقط في أيدي الأعراب فإنه أصبح شبه إصطبل، لا يدخرون فيه سوى قمحهم وبراذع جمالم، وقد هرب السكان من جراء تعسفاتهم". المصدر السابق، ص ص 11-12.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 86.

³ - أبو سالم ابراهيم بن السلطان أبي الحسن تلقب بالمستعين بالله كانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وفاته عام اثنين وستين وسبعمئة، ينظر إلى: مؤلف مجهول، الحلل المشوية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط1، دار الرشاد، المغرب، 1979م، ص 180.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، الرحلة، المصدر السابق، ص 120.

⁵ - الناصري، المرجع السابق، ص 33.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

افسادهم فأهمه أمر المغرب، فترك على تلمسان من حلفائه الزيانيين أبا زيان⁽¹⁾ محمد وأعطاه الآلة وجمع له جيشاً من مغراوة وبنو توجين وانكفأ راجعاً إلى فاس، فأجفل أبو هو والعرب أمامه، ثم خالفوه إلى تلمسان فطردوا عنها أبا زيان واستولوا عليها⁽²⁾.

مما جعل "أبا سالم المريني" يعقد الهدنة مع "أبي هو الثاني" ويستقر الأمر على ذلك، وبالتالي نرى أن عادة النزوح إلى الصّحراء؛ وظفها بنو زيّان كاستراتيجية حربية لاسترجاع مجاهم الجغرافي، واسترجاع سيادتهم وتمتين عصبيتهم وذلك دأبهم منذ عهد "يغمراسن".

تم عادة إخلاء المدينة إلى هدف معين ومركز لدى بني زيّان؛ وهو استمالة العدو إلى الموضع الذي يتيح لهم الانقضاض عليه من حيث لا يدري، وكانت هذه خطة استراتيجية حربية منهم للدفاع والهجوم، لأن بني مرين اعتادوا على إلقاءهم إلى الصّحراء قسراً من أجل الاستيلاء على تلمسان، يقول "أبو هو موسى"، في واسطة السلوك: «وعندما تحققنا إتيانه - أبي سالم المريني - وأنه قد نقض عهوده وإيمانه، وأنه قاصداً للبلاد يرى أنه لا يصده عنها من صاد أخذنا في الترحيل بل الترجيح بين الخروج إلى الصّحراء أو ملاقاته في هذه الأنحاء، ثم نظرنا إلى البلاد التي خلف وراءه قد خلت من جناد، ولم يبق بها أحد إلا القواد، فاقضى نضرنا أن نخرج من تلمسان ونقصد إلى بلاده بمن معنا من الحماة والفرسان، فوجهنا إلى والدنا بالبلاد الشرقية بالتحاق بنا بمن معه من الجيوش العبد والديه، وخرجنا إلى الصّحراء تمويهاً على بني مرين ونحن في الحقيقة إلى بلادهم قاصدين»⁽³⁾.

¹ - أبو زيان محمد الثاني بن موسى تولى الحكم ما بين (796هـ/801هـ - 1394م/1399م)، كان مناصر "لابي سالم" المريني على حساب ابن عمه "أبي هو موسى" الثاني من أجل السلطة.

² - الناصري، المرجع السابق، ص 33-34.

³ - أبو هو موسى، المصدر السابق، ص 182.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

ثم كانت حملة السلطان "عبد العزيز المريني"⁽¹⁾ في (772هـ/1370م) وأرغم "أبي همو" للنزوح قسراً إلى صحراء توات⁽²⁾، واستمرت الحرب متأججة أكثر من عامين وظل "أبو همو" متنقلاً في بلاد الصحراء، إلى وفاة "أبي فارس المريني" يوم (22 ربيع الثاني 774هـ/1372م)، فاهتبل أهل تلمسان هذه الفرصة السانحة وانتقضوا على بني مرين⁽³⁾، وبالتالي نجد أنّ الخوف من زوال الدولة وتفادياً لأي تخريب للمدينة زحف إلى الصحراء لأنها كانت حصنه الحصين⁽⁴⁾؛ إذ انعكس ذلك على مجتمع تلمسان بانعدام الأمان والعيش تحت وطأة العدو.

أكد "يحيى ابن خلدون" في بغية الرواد على أنّ خروج بني زيّان إلى الصحراء خوفاً على حريمهم وأموالهم وسلطانهم، ثم من الحصار المستنزف لأموالهم وقوتهم عادة مكتسبة⁽⁵⁾ عندهم، وهو ما حدث "لأبي همو موسى الثاني" عندما وصله خبر حركة الأمير المريني "أبي فارس" إلى تلمسان، حيث يقول: «ثم أمر أيده الله قبيله الأعز بالاستعداد للصحراء على عادته في أمثال ذلك»⁽⁶⁾.

ومن القرائن الدالة على ذلك ما أورده "ابن الأحرر" في تاريخ الدولة الزيانية، أنّه أشار إلى تغيير ثلاثة أبيات شعر كتبهما "أبوهمو الثاني" على حائط قصره من طرف "أبي فارس" عبد العزيز" قائلاً:

سَكَنَّاها لِيَالِي آمِنِينَا وَأَيَّامًا تَسْرُ النَّاطِرِينَا

¹ - هو "أبو فارس عبد العزيز ابن أبي العباس بن سالم المريني"، ولي الحكم سنة (796هـ/1394م) بعد وفاة أبيه وكانت دولته 3 أعوام، وتوفي سنة (799هـ/1397م). ينظر ترجمته إلى: ابن الأحرر، روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية الرباط، المغرب، 1962م، ص 39.

² - ابن الأحرر، تاريخ الدولة الزيانية، المصدر السابق، ص 79.

³ - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 177.

⁴ - مبارك الميللي، المرجع السابق، ص 459.

⁵ - انتقلت عادة الخوف والجنوح إلى الصحراء كملتجأ إلى الحركات المناوئة لبني زيّان، خاصة للعرب المتحالفين مع بني مرين، يذكر "يحيى بن خلدون" في هذا الصدد أنّ "أبي همو موسى الثاني"، تلقى رسالة من ملك المغرب الأقصى "أبي العباس بن أبي سالم" شفاعة في حق "خالد بن عامر وساسي بن سليم"، فشفعه على أن يصل إلى بابه، لكنهما "صدّهما الخوف وخرجا إلى صحرائهما". ج 2، ص 307.

⁶ - يحيى ابن خلدون، نفسه، ص 225.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيرية

بَنَاهَا جَدُّنَا الْمَلِكُ الْمُعَلَى وَكُنَّا نَحْنُ بَعْضُ الْوَارِثِينَ
فَلَمَّا أَنْ جَلَانَا الدَّهْرُ عَنْهَا تَرَكْنَاهَا لِقَوْمٍ آخَرِينَ

فأمر السلطان "عبد العزيز" بتغيرها فقالوا في التبديل:

سَكْنَاهَا لِيَالِي خَائِفِينَ وَأَيَّامًا تَسُوءُ النَّاطِرِينَ
بَنَاهَا جَدُّنَا شَيْخُ الْمَعَاصِي وَكُنَّا نَحْنُ شَرُّ الْوَارِثِينَ
فَلَمَّا أَنْ جَلَانَا السَّيْفُ عَنْهَا تَرَكْنَاهَا لِقَوْمٍ غَالِبِينَ⁽¹⁾

يصف "أبو هو موسى" حصرته على بعده عن موطنه ولجونه إلى مكان غيره قائلا:

وَكَمْ لَيْلَةٌ بَثْنَا عَلَى الْجَدْبِ⁽²⁾ وَالطَّوَى⁽³⁾ نُرَاقِبُ نَجْمَ الصُّبْحِ فِي لَيْلِ عَاتِمِ عَاتِمِ
عَلَى مَتْنِ صِهَالٍ⁽⁴⁾ أَغْرٍ مُحَجَّلٍ مَدِيدُ الْخَطَى لَمْ يَخْشَ صَعْبَ الصَّلَادِمِ⁽⁵⁾

كشف "أبو هو الثاني" في مؤلفه عن الخوف كمنطلق إيجابي للدفاع والحفاظ على الملك، وجعل ارسال الهدايا للعدو والاكثار فيها، وسيلة هامة من أجل استعطاف العدو وجذبه، وكانت هذه الممارسة إحدى أساليب الدهاء الدبلوماسي لدى بني زيّان، فيقول مخاطبا ابنه: «يا بني أكثر لعدوك الهدايا ونصر على إرساله جزييل العطايا، وأنسه وواليه، وأكرمه وصافيه، وأظهر له الوداد وابن له الاعتقاد، ووال خاصته بالإكرام، وواليهم بجزييل الإنعام، وأظهر للعدو الشفوف عليك في الحال حتى يظهر أنك تخافه، وأنه صبر منك بالآمال، وأنتك تهاديه لأجل المخاف، وتواليه على وجه الاستعطاف»⁽⁶⁾.

نَفَّذَ السُّلْطَانُ الزِيَانِي "عُثْمَانَ ابْنَ يَغْمَرِاسِنَ" وَصِيَّةَ أَبِيهِ بِجَذَائِفِهَا؛ فَتَوَسَّعَ شَرْقًا وَجَنَحَ إِلَى السَّلْمِ وَالْمَهَادَنَةِ غَرْبًا، قَالَ "بْنُ خَلْدُونَ" فِي الْعَبْرِ مَعْلَقًا: «فَعَلَقْتُ وَصِيَّتَ الشَّيْخِ بِقَلْبِهِ، وَعَقَدْتُ عَلَيْهَا ضَمَائِرَهُ، وَجَنَحْتُ إِلَى السَّلْمِ مَعَ بَنِي مَرِينٍ لِيَفْرَغَ عَزْمَهُ لَذَلِكَ، وَأَوْفَدَ أَخَاهُ مُحَمَّدَ بْنَ

¹ - ابن الأحرر، المصدر السابق، ص ص 79 - 80.

² - القحط

³ - الجوع

⁴ - كثرة الصهيل وهو صوت الخيل

⁵ - أبو هو موسى، المصدر السابق، ص ص 68 - 69.

⁶ - نفسه، ص 191.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليده الحرب في تلمسان الزبانية

يغمراسن على يعقوب بن عبد الحق بمكانه من العدو الأندلسية في إجازته الرابعة إليها⁽¹⁾، فحاض إليه البحر ووصله بأركش⁽²⁾ سنة (684هـ/1286م)، فعقد له على ما جاء إليه من السلم والمهادنة، ورجعه إلى أخيه وقومه ممتلئاً كرامةً وسُروراً⁽³⁾.

يدل وصف حال "محمد ابن يغمراسن" بأنه (ممتلئاً كرامةً وسُروراً)؛ على تفريغ الهم والكرب والانهازم النفسي، من جراء تكالب بني مرين على تلمسان وأهلها.

وبالتالي نحس بأنَّ السلطان المريني "يعقوب" كأنه إعترف بسيادة وسلطان بني زيَّان على تلمسان، دون أن يلزمهم في العقد بالدعوة لنفسه في المنابر كخليفة ووريث الإرث الموحد بالمغرب الأقصى، على العكس ما فعله "أبي زكريا الحفصي" وألزم به بني زيَّان في احتلاله لتلمسان سنة (640هـ/1242م) كعادة ظاهرة.

ذلك فضلا على استغلال وقت السلم واغتنام فرص الأعياد من أجل إرسال الهدايا للعدو، وفيها تظهر خمس مزايا أساسية؛ ذكرها "أبو حمو الثاني" لابنه وهي كالآتي:

- وفيها تظهر إقامتك وسموك لتتعرف أحواله في أعياده.
- وما يزداد في أجناده وقواده.
- يعلمونك إذا رجعوا إليك، حتى لا يخفى عليك شيء من حاله.
- وحتى يأنس العدو من العدو.
- ومن عوائلك من حسن محاولتك وتراسلك.⁽⁴⁾

بيِّن "أبو حمو الثاني" عادة المراسلة مع العدو؛ وحدَّر من غدره ومكره واغتنام فرصة المهادنة في ترتيب الفرسان والأجناد والاستعداد لملاقاته، «وكذلك تكاتب خاصة عدوك الذين يوصلون الهدايا إليه ليعلموك إذا رجعوا ما هو عليه، وما فعل في بلاده، وما

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 96.

² - أركش: حصن بالأندلس على وادي لكه، وهو مدينة أزلية قد خربت مرارا وعندها زيتون كثير، ينظر إلى: عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984م، ص ص 27-28.

³ - عبد الرحمان ابن خلدون، نفسه، ص 223.

⁴ - أبو حمو موسى، المصدر السابق، ص 192.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليده الحرب في تلمسان الزيانية

حدث من زيادة في أجناده، فتفعل أنت ما يقابل ذلك وتزيد اضعافا على ما هنالك من حيث لا يكون العدو بك شعور ولا يعرف ذلك عند الخاصة ولا الجمهور، والعمل في ذلك يا بني أن لا تظهر زيادة بحضرتك ولا تفش ذلك في أمرتك، بل تفعل ذلك في البلاد التي لا تلي العدو، وهي عنه بعيدة، وذلك إذا فعلت من وجوه المكيدة فلا تزال في زمن المهادنة تدرك الفرسان والأجناد، وتستعد لعدوك أتم الاستعداد»⁽¹⁾.

ويضيف كذلك من عادات مراسلة العدو يجب أن تكون الفطنة حاضرة في طريقة التعامل معه، ولا يمكن الركون إلى المهادنة والسكون واستجلاب المودة، وذلك ما جرت به العادة في مجالس بني زيّان، إذ يقول: «يا بني وإذا بعث إليك أرسالا برسمة تهنية أو موالة أو تعزية أو استجلاب مودة تكون، أو ما يدعوا إلى المهادنة والسكون، فاعلم يا بني إنما بعثهم لاختبارك ليتعرف الصحيح من أخبارك، وما يزيد عنهم وما ظهر عليك، وما غاب عنهم وحضر لديك، فعلى هذه الحالة جرت أحوالنا مع أعدائنا حين يصلون ويحلون بأندائنا»⁽²⁾، أنهم متى أظهروا لنا المصافات وكتبوا إلينا بالموالة، فتفرس في أحوالهم فتجد في ذلك من احتيالهم، فيخرج لك الأمر كما تفرسناه وما تفرسناه وجدناه»⁽³⁾.

ويذكر "مارمول كاربخال" أنه لما استولى بنو مرين على هذه الإمارة أو على أكبر قسم منها، كانت لهم حرب دائمة مع أمراء هذه الدولة، الذين التجأوا إلى نوميديا ثم عادوا منها عند انحطاط الامبراطورية المرينية، ومنذ رجوعهم إلى الحكم، زادوا في إثراء عاصمتهم بتجارات جديدة، بحيث إنها كادت تسترجع ازدهارها الأول، لو لا أنها تضررت من حرب مستمرة أهلية أو خارجية⁽⁴⁾.

تمثل الخوف في طبيعة الحصار المتتالية على بني زيّان في تلمسان، مما أدى ذلك إلى البحث عن ملتجأ يكون حصنا منيعا لهم؛ فكانت قلعة تامزديكت وجبال بني يزناسن وإقليم

¹ - أبو حمو موسى، المصدر السابق، ص 191.

² - الأنداء: جمع النادي وهو القوم المجتمعون.

³ - أبو حمو موسى، نفسه، ص 242.

⁴ - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 303.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليده الحرب في تلمسان الزيانية

الصحراء الموطن الأصلي هو الملاذ الآمن لقبيل بني زيّان، وإذا كانت الصحراء منبت الأصل والنشأة والمجال المحتضن لهذا القبيل، فلا ريب أنه كان منطلقاً رئيسياً في إعادة ترتيب الصفوف ولم شمل العصبية والتخلص على هذه العادة المرهقة لبني زيّان.

2. الاستراتيجية الحربية عند يغمراسن

رغم كل قوة الجيش الحفصي في إحكام قبضة الحصار ورغم كل الخطط الحربية المستعملة لاختضاع "يغمراسن" داخل حصنه بتلمسان؛ إلا أن حنكته وشجاعته وجرأته الحربية تفوقت على تلك الجموع والعساكر كما قال "بن عذارى"، بالإضافة إلى بأسه الشديد الذي ألحقه بالعرب المتحالفة مع "أبي زكريا"، فما استطاعوا مواجهته وإيقافه فأفرجوا له، يخبرنا "التنسي" عن ذلك قائلاً: «فسأل أمير المسلمين يغمراسن عن أهل كل مسافة فأخبر أن (باب علي) تولاهما العرب، فالتف فيمن معه من الجند وخرج وحرمه وماله بين يديه من (باب علي) فأفرج له العرب، لما علموا من بأسه»⁽¹⁾ وذكر أنه ترك بتلمسان إمراة له فعاد بسببها إليها⁽²⁾.

وذكرت روايات أخرى أن "يغمراسن" قصد باب العقبة من أبواب تلمسان عندما علم أنه قد أحيط به ملتفا على ذويه وخاصته، واعترضه عساكر الموحديين، فصمد نحوهم وجندل بعضه أبطاهم فأفرجوا له وصعد جبل ورنيد⁽³⁾ ثم لحق بالصحراء⁽⁴⁾، وانحاز بنو عبدالواد عنها إلى جبال بني يزناسن، واحتل الحفصيون تلمسان⁽⁵⁾.

كان الخوف في بداية نشوء الدولة الزيانية عامل أساسي في تحريك النفوس، من أجل توطيد أركان الدولة وفرض نفوذها على مستوى المغرب الإسلامي، واستوجب ذلك ترتيب الصفوف واتخاذ الآلة كما كان الحال عليه في عهد "يغمراسن"، حينما كانت المعارك متوازية بينه وبين بني مرين (يوم 15 ربيع الأول 666هـ/1267م)، "فعبأ كل واحد منهما جيوشه

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 117.

² - ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 496.

³ - التنسي، نفسه، ص 117.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 85.

⁵ - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 133.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

وميز كتائبه واصطفت عيالات الفريقين حلف الجيوش في الهودج والمراكب والقباب المزينات باديات الوجوه عليهن الحلل وثياب الوشي يخرضن الأبطال على الأبطال، واختلط الأمثال بالأمثال وتمازجت الركاب وبرزت الغانيات من القباب"⁽¹⁾، كل هذا في وسط "احتفال عظيم وزى عجيب بالعيال والمواكب والقباب والجيوش الوافرة"⁽²⁾.

أ- آلة الحرب: جرت عادة المؤرخين في سردهم للأحداث والوقائع حول الحروب التي يخوضها بني زيان مع غيرهم بإطلاق كلمة (آلة)، وهي تدل في معناها كما جاء تعريفها في دائرة المعارف على ما يلي: "الآلة هي ما يتخذها الملوك من الألوية والرايات والطبول والأبواق والقرون إلى غير ذلك من مواطن الحرب، والصرُّ في ذوات الصوت من الآلة ارهاب العدو وتهيج همم الأبطال"⁽³⁾.

وذلك لأن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب فيصيب مزاح الروح نشوة تستهل بها الصعب، فيحرق المغنون بالسلطان في موكبه بآلاتهم ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة، وكانت زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويحمل على الاستماتة من لا يظن بها، ويسمون ذلك الغناء طاسوكيات وأصله كله فرح في النفس فتنبعث عنه الشجاعة، وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها فالقصد به التهويل لا أكثر، وربما يحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام، ولا بد للجيوش في مواقع الحرب من أن تكون مصحوبة بآلة وتعرف بالنوبة العسكرية"⁽⁴⁾.

¹ - ابن ابي زرع، المصدر السابق، ص 115.

² - نفسه، ص 115.

³ - يمدنا عبد الرحمان ابن خلدون بالاستعدادات التقليدية الحربية التي لا بد وأن يتخذها الملك عند دخوله للحرب، ويستدل على كلامه بما ذكره أرسطو عن السياسة قائلا: «فمن شارات الملك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون، وقد ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب إليه في السياسة، أن السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب، فان الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس بالروعة». المقدمة، ص 201.

⁴ - بطرس البستاني، دائرة المعارف - قاموس عام لكل فن ومطلب، م 1، ترجمة: نجيب محفوظ، بيروت، لبنان، 1876م، ص 144.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

دلت كلمة آلة في معناها العسكري على التهيؤ والاستعداد لمعارك ضارية، وبعث برسالة ضمنية إلى العدو تترك فيه أثر الخوف من هول وضخامة المشهد في ساحة الوغى، وفي دولة بني زيّان يتفق المؤرخون على أن "يغمراسن بن زيّان" كان من أشد هذا الحي بأسا، وأعظمهم في النفوس مهابة، فلما ولي هذا الأمر، واطلع بأعبائه، واستمال عشيرته وقومه وأحلافهم، واتخذ الآلة ورتب الجنود والمسالح، واستلحق العساكر من الروم والغز راحة وناشبة"⁽¹⁾.

وبالتالي كانت الآلة الحربية عند السلطان الزياني كما غيره من الملوك علامات اختص بها من دون رعيته ومساعديه أيضا⁽²⁾، ذات قوة وبأس ونفوذ مصحوبة بالخطط العسكرية وفن المواجهة، غير أنها تلاشت عندما فقدت عصبيتها الضاربة وبرزت عصبية بني مرين في السيطرة المتواصلة على الجبهة الغربية للمغرب الاسلامي.

ب - معركة تامزديكت وانتصار العصبية الزيانية 10 صفر 646هـ/1248م: من أسباب المعركة هو تحالف "يغمراسن" مع "أبي زكريا الحفصي"؛ مما أثار غضب أبو الحسن "السعيد الموحي"⁽³⁾ ونهض من مراكش عازما أمره على اخضاعهما والاستيلاء على أملاكهما، لكن محاولته باءت بالفشل في أوّل الطريق عندما واجه "يغمراسن".

يقول "التنسي": «فلما بلغ السعيد ما وقع بينهما وتعاقدا عليه، أقسم أن لا بد له من الاستيلاء على مملكتهما جميعا، فنهض من مراكش في بحار زاخرة من الجيوش، وانقادت بنو

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، م7، المصدر السابق، ص 83.

² - محمود بوعياض، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 25.

³ - هو الخليفة الموحي "علي بن ادريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الندرومي"، كنيته أبو الحسن، لقبه السعيد، تولى الخلافة سنة (640هـ/1242م) بعد وفاة أخيه الرشيد الذي ترك له امبراطورية مُمَزَّقة الأوصال، وكان الخليفة الجديد السعيد مولد حاد الطبع لكنه نشيط، وكانت بداية خلافته مثيرة للشفقة، فقد نشبت الثورات في كل مكان وعمت الفوضى الأجزاء الباقية من امبراطوريته، ومع ذلك أبدى السعيد نشاطا غير عاديا، وأخذ على عاتقه استعادة امبراطوريته آباءه بقوة السلاح، فأخضع بني مرين في المغرب الأقصى، ثم جمع جيشا قويا وقام بمهاجمة الثائرين في تلمسان، إلا أنه كان ضحية جراته، فلقي مصرعه في كمين نصب له في جبل تامزديكت عام 646هـ/1248م. للمزيد من التعرف أكثر ينظر إلى: ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص 257. روجي لي تورنو، حركة الموحيين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة، أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982م، ص 113.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

مرين وأعطوه رهائنهم وساعده بالتحرك معه، فلما سمع أمير المسلمين يغمراسن لما معه من القوة خرج منحازا إلى حصن تامززدت، فاعتمد السعيد حصاره في الموضع المذكور، فتعرض إليه أمير المسلمين بمن معه من قبيله وغيرهم⁽¹⁾.

ذكرت المصادر الاخبارية الأخرى أن "يغمراسن ابن زيان" أرغم على هذه الحرب المفروضة عليه من طرف الخليفة الموحد "أبي الحسن السعيد"، فخاف على أهله وحرمة "وفر أمامه هو وإخوانه وجميع قبائل بني عابد الوادي إلى تامزجدت فتحصنوا بها، فأقبل السعيد بجميع جيوشه حتى نزل عليه بها"⁽²⁾.

وكانت بني مرين من بين العصبية الضاربة لدى الخلافة الموحدية التي شارفت على نهايتها على غرار العصبية العربية وغيرها، إذ اجتاز "السعيد" سنة ست وأربعين بالبحر الزاخر، أما مؤحديّة وزناتية وعربية واجتاز بالمغرب، فأعطته مرين بالمقادة وجاءته بالمراهين، وتحركت معه حصتها وقصد تلمسان، فأفرج له عنها أمير المسلمين "أبو يحيى يغمراسن"، منحازا إلى جبل تيمزجرت المجاور جنوبا لوجدة"⁽³⁾.

سبب الخلاف المريني الزياني في عدم قبول "يغمراسن ابن زيان" شروط "السعيد"، حيث أرسل هذا الأخير قبل وصوله "من يأمر يغمراسن بالحضور والانضمام إليه، وكان رد هذا الأخير أنه يعد نفسه من رعاياه وتحت سلطته، لكنه لن يستطيع الانضمام إليه بسبب وجود المرينيين وهم أعداؤه ضمن جيشه، وأن كل ما في وسعه القيام به، هو إرسال فصيلة مهمة من بني عبد الواد للانضمام إلى الجيش الموحد"⁽⁴⁾.

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 118.

² - ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، المصدر السابق، ص 72.

³ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 227.

⁴ - أمبروزو هويثي ميراندا، المرجع السابق، ص 520.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

ويكون "يغمراسن" بذلك جانحا إلى السلم وراضيا بإعطاء الحصّة من قبيله⁽¹⁾، فيها جُملةٌ من الخيول العِتاق⁽²⁾، وفي جُملة من الدَّرَق⁽³⁾، فلم يقبل "السَّعيد" ذلك منه، وأخذته فيه العِزّة بالإثم، فاعتمد حصاره بالجبل المذكور⁽⁴⁾.

ومما زاد الطين بلّة رفض شيوخ الخلط ومعهم حوالي ألف فارس مرافقة "السَّعيد" في صعوده المتهور إلى تلك المنطقة الوعرة⁽⁵⁾، غير أنّه لم يعر كلامهم اهتماما مما جعل هزيمته مؤكدة أمام القوات الزيانية.

وكان استفحال أمر "السَّعيد" سنة (645هـ / 1247م) يريد استرجاع الارث الموحدى من قبضة الدويلات الثلاث⁽⁶⁾ حدثا مروعا في لقاء حتفه وهلاكه أمام "يغمراسن بن زيّان"، وبينما هو محاصرا جبل تيمزَجَزَجْت "على حين غفلة من الناس في قائلة، فبصر به فارس من القوم يعرف "بيوسف بن عبد المؤمن الشيطان"، كان أسفل الجبل للاحتراس وقريبا منه "يغمراسن بن زيّان" وابن عمه "يعقوب بن جابر" فانقضوا عليه من بعض الشعاب، وطعنه يوسف فأكبه عن فرسه، ويقال إنّما كان ذلك يوم عبي العساكر وصعد الجبل للقتال، وتقدم أمام الناس فاقتطعه بعض الشعاب المتوعرة في طريقه، فتواثب به هؤلاء الفرسان، ووقعت النفرة في العساكر لطائر الخبر فأنجلوا، وبادر "يغمراسن" إلى "السَّعيد" وهو صريع بالأرض فنزل إليه وحياه وفداه وأقسم له على البراءة من هلكته، والخليفة واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى أن فاض وانتهب المعسكر بجملته، وأخذ بنو عبد الواد ما كان من الأخبية والفازات،

¹ - يفهم من ذلك حسب ما أوردته المصادر أن "يغمراسن" أراد أن يستلطف خليفة الموحدين (السعيد) بمنحه حرمه وأبطال قومه وجنوده كرهان يضمن به ودّ الخليفة، غير أن الخليفة الموحدى رفض ذلك وطلب بأن يباشره "يغمراسن" بالطاعة بنفسه، فكانت المواجهة بينهما وانتصر فيها "يغمراسن"، ثم جعل يطلب الاعتذار من حرمه وأخته الشهيرة بـ(تاعزونت) على ما بدر منه، ثم أصحبنهن جملة من بني عبد الواد إلى مأمهن، وألقوهم بدرعة من تخوم طاعتهم، فكان "ليغمراسن" بذلك حديث جميل في الإبقاء على الحرم ورعي حقوق المُلْك.

² - ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 494.

³ - الدَّرَق: ضَرْبٌ مِنَ التَّرْسَةِ تُتَخَذُ مِنَ الْجُلُودِ، لَيْسَ فِيهَا خَشَبٌ وَلَا عَقَبٌ. ينظر إلى: صالح العلي صالح وأمينة شيخ سليمان أحمد، المعجم الصافي في اللغة العربية، 1981م، ص 165.

⁴ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 227.

⁵ - أمبروزو هويثي ميراندا، نفسه، ص 520.

⁶ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص 86 - 87.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

واختص "يغمراسن" بفسطاط السلطان فكان له خالصة دون قومه، واستولى على الذخيرة التي كانت فيه»⁽¹⁾.

استطاع بنو زيّان أن يتغلبوا على خصومهم وباقي العصابات المنضوية تحت الراية الموحدية بأعجوبة، "فمنحهم الله النصر عليهم وقتل السعيد على يد يوسف بن خزرون الدّلولي"⁽²⁾، وكان ذلك في يوم الثلاثاء منسلخ صفر سنة ست وأربعين وست مائة⁽³⁾.

وقد تفكك إثر ذلك جيش "السّعيد"، الذي لاذ أفراداه بالفرار في وقت قام فيه الخلط وبني الأشقر بنهب كل المخيم، قبل أن يتمكن بنو عبد الواد من الوصول إليه، ومن غير المستبعد أن يكون بنو عبد الواد هم الذين سمحوا للخلط وبني الأشقر بنهب المخيم، لأنهم كانوا قد وعدوهم بذلك إذا ما رفضوا القتال إلى جانب "السّعيد"⁽⁴⁾.

وكان هذا الانتصار عامل قوة بالنسبة "ليغمراسن"، وممكنه من دفع خطر الموحدين ومن الظفر بمكانة جعلته يتعامل معاملة التّد مع سلطان مراكش وسلطان تونس، ولكنه سيقدم عوناً حربياً أحياناً للخليفة الموحد "المرتضى" سنة (646هـ/1248م) ضد بني مرين، مع عقد صلات المودة والاحترام مع الملوك الحفصيين⁽⁵⁾، بيد أنهم استولوا على كل الذخائر والغنيمة التي خلفتها هذه المعركة، واختص "يغمراسن" بفسطاط السلطان، فكان له خالصة دون قومه⁽⁶⁾.

من نتائج هذه المواجهة هو النصر الذي لم يكن الزيانيون يتوقعوه، ثم الذخائر والغنيمة التي استولوا عليها، ومن بينها كما ورد عند "التنسي" و"عبد الرحمان بن خلدون" ما يلي:

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص 86 - 87.

² - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 227.

³ - التنسي، المصدر السابق، ص 119.

⁴ - أمبروزو هويثي ميراندا، المرجع السابق، ص 521.

⁵ - ألفريد بل، المرجع السابق، ص 310.

⁶ - الناصري، ج 2، المرجع السابق، ص 225.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيرية

تاريخ المواجهة	مكانها	الذخائر	المصدر
10 صفر 646هـ /	مدينة وجدة (حصن)	- المصحف العثماني ⁽¹⁾ - العقد المنتظم من حراوات	- العبر، م7، ص ص 86-87.
1248م	تامزيرديت)	الياقوت الفاخرة والدرر، المشتمل على مئين متعددة من حصبائه يسمى بالثعبان. - غُضار الزُمُرد.	- نظم الدر والعقيان، ص 123. - الذخيرة السنية، ص 72.
		- الأموال والسلاح والكراع والعيال والطبول والبنود والأخبية والقباب.	- بغية الرواد، ص 227. - الأنيس المطرب، ص 257.

وخلد هذا النصر العظيم الوزير "أبو علي الحسن ابن خلاص" صاحب سبته بقصيدة

يقول فيها:

بُشْرَى بِعَاجِلٍ فَتَحُ أَوْجِبَا العُرْسَا وَأَسْفَرَ الدَّهْرُ عَنْهُ بَعْدَ مَا عَبَسَا
يَا وَيْحَهُ رَاكِبًا لِاحْتَفِ كُودَنه⁽²⁾ وَالنَّصْرُ أَرْسَلَ فِي أَعْقَابِهِ الفَرَسَا
رَجَا تَلِمَسَانَ أَنْ تَعْدُو فَرِيستَه فُتِلَّ مِنْ دُونِهَا لِلْوَجْهِ وَأَفْتُرِسَا
بِتَامَزْدِيْتٍ قَدْ تَمَّتْ مَزَادَتُهُ وَأَوْجَسَ العُورَ فِيهَا مَأْؤُهُ وَجَسَا
فَسَنَّ غَمْرَاسِنَ غَمْرَتُهُ وَسَطَا بِرِحَابِهِ أَيُّ قَرْنٍ إِذْ سَطَا وَطَسَا
جَالَتْ هُنَالِكَ خَيْلَ اللَّهِ مُعَلَّمَةً عَزَائِمْنَا تَقْطِيفُ الخَطِيَّةِ الدَّعَسَا⁽³⁾

يرى بعض المؤرخين أن أصل الصراع الذي كان قائماً هو مناطق النفوذ المشتركة بين القبيلتين، وكانت المناغاة والمنافسة منذ الآماد المتطاولة بما كانت مجالات الفريقين بالصَّحراء

¹ - كان المصحف العثماني يعدّ من رموز آلة الملك، وحيازته ترفع من شأن صاحبه.

² - الكودنه: الكودن والكودني وهو الفرس الهجين.

³ - التنسي، المصدر السابق، ص ص 120-122.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

متجاوزة⁽¹⁾، وكان التخم بين الفريقين واديا إلى فيكيك⁽²⁾، وبما أن طبيعة نشأة كلتا القبيلتين في الصحراء وأنهم بدو أهل رعي وتنقل مستمر بين الفينة والأخرى؛ فإن الإفتراض المحتمل لهذا الصراع والتنافس والنزاع يكمن حول "المراعي ومنابع المياه والمرور بالممرات الخاصة، وسرقة المواشي فضلا عن نزاعات التفوق وخصام رعاة المواشي، الذي تسيل فيه الدماء وقيام حالات الثأر المستمرة"⁽³⁾.

وبالتالي لعبت البيئة والمجال دورا بارزا؛ في إشعال نار الخصومة والنزاع التقليدي القائم بين بربر زناتة - بنو زيان وبنو مرين - الضاريين في أعماق الصحراء، وعلى تخومها الشمالية والغربية، معتمدين على الترحال والتنقل المستمر انتجاعا للمياه والأودية⁽⁴⁾ والمسارح الفسيحة لأنعامهم على عادة البوادي⁽⁵⁾، وهذا النزاع بين هذين الفخذين من قبائل زناتة يبدو أنه يعبر عن نزاعان قديمة بين البطون؛ وسيتجلى عداؤهما باستمرار في القرون التالية⁽⁶⁾.

ج - خطة يغمراسن في الإغارة على أبي زكريا الحفصي:

- ¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 87.
- ² - فيكيك: عبارة عن ثلاثة قصور - أي قرى صغيرة - في وسط الصحراء الغربية الجزائرية الحدودية يحيط بها عدد كبير من النخيل، تبعد عن مدينة وجدة بثمانين وثلاثمائة كيلومتر إلى جهة الجنوب الشرقي منها، يقطن في هذه المنطقة كل من بربرة صنهاجة، وبطن من العمو الأعراب الهلالية، بالإضافة إلى أسر إدريسية شريفة، ويهتم سكانها بفلاحة البساتين وأشجار النخيل التي بلغ عدده في هذه الواحة نحو 400 آلاف نخلة. ينظر إلى: الحسن الوزان، ج2، ص 132. والصدوق بن العربي، كتاب المغرب، ط3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، 1984م، ص 214. ومحمد حجي، ومحمد حجي الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج2، مطبعة فضالة، المغرب، 1978م، ص 511.
- ³ - عطاء الله دهينة، المرجع السابق، ص 360.
- ⁴ - الأودية: جمع وادي أو واد، وهو منفرج بين جبال أو تلال أو آكام يكون منقذاً للسيل ومسلكاً جغرافياً، والعادة المشتركة بين العرب والبربر أنهم يطلقون الأسماء على الأسباب، وقال بن الصبّاح في كتابه أن بنوا عبد الواد سكنوا الوادي، من أودية جبال الحجاز وسُموا باسم الوادي، يبدو أنه اختلطت عليه مضارب الأماكن والأقاليم في العُدوة المغربية لاسيما في مجال تلمسان، ونسبهم إلى الحجاز وهي منطقة بعيدة عن مجال تلمسان، فهي من أعمال وأقاليم شبه الجزيرة العربية، وعلى العموم فإن كثرة ورود هذا القبيل على الوديان في تلمسان والإقامة فيه، إقترن وطبع لقب الوادي على جد آل زيان لكثرة ما كان يتعبد ويژهده فيه وأصبح يُسمى (عابد الوادي)، وعرف نسله من بعده بهذا اللقب. ينظر إلى: ابن الصبّاح الأندلسي، المصدر السابق، ص 55.
- ⁵ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 201.
- ⁶ - ألفريد بل، المرجع السابق، ص 309.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

كان "يغمراسن ابن زيان" بطلا مغوارا شديدا في الحروب التي خاضها مع أقرانه، لا ترد له راية في كل المواجهات التي يكون فيها الجيشان متكافآن من حيث العدد والعدة⁽¹⁾، وإلا يكون مصيره الانهزام أو التراجع للوراء حينما يدرك قدرة الخصم، لكن أسلوب الحرب والمواجهة عند "يغمراسن" كان مختلفا تماما عن توقعات أعدائه سواء من جهة الشرق أو من جهة الغرب، فاستعمل أسلوب الكرّ والفرّ⁽²⁾ مع إخلاء المدينة، ثم يقوم بهجوم معاكس في مضارب العدو في عقر داره، حينها يضطر الخصم بالتفاوض والرضوخ إلى طلبات "يغمراسن"، "فكان هذا الموقف ضربا من الحنكة السياسية التي أجبرت السلطان الحفصي على تعديل موقفه من يغمراسن"⁽³⁾.

يعتبر "يغمراسن" وحيد قومه في التمكن لسلطته بهذه الاستراتيجية، وخير دليل نستشهد به في هذا الصدد ما فعله "يحيى بن أبي حفص" صاحب افريقية في تلمسان في (صفر 640هـ/ 1243م)⁽⁴⁾، ودخلها عنوة على باب ايلان، وأرغم "يغمراسن" على الفرار وطلب الصلح منه وأخذ البيعة، وأبرم "يغمراسن" معاهدة ومعاقدة مع الأمير أبي زكريا وشروط مشروطة وربوط مربوطة⁽⁵⁾.

نجا "يغمراسن" بنفسه وحرمه إلى الصّحراء من قوة ما هاله وأرعبه في إقتحام الجيش الحفصي لتلمسان، بحيث جعل المدينة خالية من قبيله حتى لا تتعرض للتخريب، وهي العادة التي سنّها لبنيه من بعده.

¹ - يشير "عبد الرحمان ابن خلدون" إلى الظفر بالسلطان والملك في بلاد المغرب الأوسط، حيث علا كعبه على سائر أحياء زناتة مما جعلهم "ينابذوه العهد ويشقون عصا الطاعة وركبوا له ظهر الخلاف والعداوة، فشمّر ل حربهم ونازلهم في ديارهم وأحجرهم في أمصارهم ومعتصماتهم من شواحق الجبال وتمتع الأمصار، وكانت له عليهم أيام مشهورة ووقائع معروفة". ج7، ص ص 83-84.

² - ذكر "ابن خلدون" في مقدمته هذا الأسلوب الحربي، واعتبره قتالاً أختصّ به العرب والبربر من أهل المغرب، وما لبث هذا السلوك الحربي إلى أن أضحى من التقاليد الحربية الأكثر ثباتاً وشدّة، وعقيدة تكتيكية تستخدم في الهجمات السريعة المفاجئة والقصيرة، مع الإنسحاب قبل أن يتمكن العدو من الرد بقوة، فضلا عن المناورة المستمرة التي تهدف إلى إضعاف قوة العدو ببطء. ينظر إلى عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص ص 212-213.

³ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 25.

⁴ - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 61.

⁵ - ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 496.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

فكلما ساءت لهم الظروف وضافت عليهم الأرض بما رحبت؛ اتبعوا ما ألفوا عليه آبائهم في الجنوح إلى الصَّحراء والتربص لاستعادة سلطانهم المعتصب منهم ظلماً وعدواناً، قال "بن عذارى" في هذا الصدد: «ويغمراسن إذ ذاك محصور في المدينة يُبصر من داخلها لأهل المحلَّة وخيلها ورجالها، وكان يظن أن لا منازع له ولا يقف قبله، إلى أن رأى ما لا طاقة له به من كثرة المحلات النازلة عليه الواصلة برسم القتال عليه، فدبر في نفسه حيلة يعملها فعملها لما دبرها، وذلك أنه خرج من تلمسان مع أهله وعياله وبعض خيله ورجاله، وشق ما بين تلك الجموع والعساكر، وفعل ذلك بزعامته وشهامته فعلة ما يقدر أحداً أن يفعلها»⁽¹⁾.

رغم كل قوة الجيش الحفصي في إحكام قبضة الحصار ورغم كل الخطط الحربية المستعملة لاختضاع "يغمراسن" داخل حصنه بتلمسان؛ إلا أن حنكته وشجاعته وجرأته الحربية تفوقت على تلك الجموع والعساكر كما قال "بن عذارى"، بالإضافة إلى بأسه الشديد الذي ألحقه بالعرب المتحالفة مع "أبي زكريا" فما استطاعوا مواجهته وإيقافه فأفرجوا له لما علموا بأسه⁽²⁾.

استعمل "يغمراسن" حنكته العسكرية في إبطال مشروع "أبي زكريا يحيى بن أبي حفص" واسترجاع تلمسان بالقوة كما أخذت بالقوة، فانسحب إلى مضارب ومواطن تابعة "لابن أبي حفص" وتربص وأثخن فيهم يوماً وليلة مما جعل هذا الأخير يتراجع عن حساباته ويدعن للأمر الواقع.

ينقل لنا "ابن أبي رزق" هذا المشهد التاريخي قائلاً: «وفرَّ يغمراسن ومن كان معه من قومه منها إلى المدية، فأقام القتل والنهب فيها يوماً وليلة، ثم نادى منادي الأمير يحيى بالأمان، وأقام الأمير يحيى أياماً حتى هدنها وسكنها، فلما أراد الرجوع إلى إفريقية عرض ولايتها على من في عسكره من أشياخ الموحدين فكلهم رغب عنها وامتنع منها، فلما رأى ذلك قال

¹ - ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ص 496.

² - التنسي، المصدر السابق، ص 117.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

لهم إنما امتنعتم من ولايتها خوفا من شيطانها وليس لها غيره، فبعث إلى يغمراسن فأمنه فتاه فبايعه فسجل له على تلمسان وأحوازاها»⁽¹⁾.

ومن نتائج الخطط الاستراتيجية⁽²⁾ "ليغمراسن" هو استرجاع تلمسان والاعتراف له بالقيادة، حتى أنهم نعتوه (بالشيطان) كناية عن المكر والخديعة وسرعة البديهة، حيث ترك في نفوسهم أثرا سلبيا على مستوى الولايات التابعة لنفوذهم، فتحول الخوف إلى الطرف الآخر بدليل عزوف أشياخ الموحدين وامتناعهم عن إمارة تلمسان، فضلا عن تأديب القبائل العربية وضم مجالاتها لحدود مملكته المتوسعة شرقا إليها.

صاحبَ غزو تلمسان من طرف الحفصيين مخاوف واقعية أفسدت عليهم نشوتهم في غزوها وجعلها ولاية تابعة للحكم المركزي بتونس، وبالتالي لم يهتدي "أبا زكريا" إلى حيلة يقنع بها أشرف قومه في إقامة دعوته بها خوفا من "يغمراسن".

علّقَ "ابن خلدون" في العبر عن هذه الحادثة قائلا: «واستكبر ذلك أشرافهم وتدافعوه وتبرأ أمراء زناتة منه ضعفا عن مقاومة يغمراسن، وعلما بأنه الفحل الذي لا يجدع أنفه، ولا يطرق غيله، ولا يصد عن فريسته، وسرح يغمراسن الغارات في نواحي العسكر فاخطفوا الناس من حوله، وأطلقوا من المراقب عليه»⁽³⁾.

أخذ "يغمراسن" يغير على جيش "أبي زكريا" الكمائن متربصا به في كل مكان، وهنا أدرك "أبو زكريا" بأن لا سبيل لاختضاعه لدعوته فراجعها وفاوضه على أن يقلده أمر تلمسان تحت رايته، "نتيجة اعتراف آل عبد الواد ضمنيا وعلانية بأولوية يغمراسن عليهم"⁽⁴⁾.

لكن ذلك لم يكن كافيا في نظر "أبي زكريا الحفصي"، حتى يتقي شره ويجعل حدا بينه وبين "يغمراسن" استعمل منافسيه من زناتة في بلاد الوانشريس والمدية وغيرها، يعترضون

¹ - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 61.

² - المبادرة والمرونة والتخطيط في القيام بالعمليات الهجومية في الحرب الدفاعية، وفي القيام بالعمليات السريعة في الحرب الطويلة الأمد، وخوض عمليات سريعة في الدفاع والهجوم من التقاليد الحربية التي توارثها بنو زيان في بلاد المغرب الأوسط.

³ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 85.

⁴ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 25.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

خطة "يغمراسن" في التوسع ورد الاعتبار لسultanه، فجعل "أبو زكريا" "عبد القوي بن عطية التوجيني والعباس بن منديل المغراوي وعلى بن منصور الملكيشي على قومهم ووطنهم وعهد إليهم بلبس من شارة السلطان وزيه، وأذن لهم في اتخاذ الآلة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعتهم"⁽¹⁾.

اضطر "يغمراسن ابن زيان" لتقديم الولاء "لأبي زكريا" سنة (640هـ/1243م)، غير أن عدم الثقة في هذا الولاء والخوف من توسع نفوذ إمارة تلمسان؛ جعل "أبا زكريا" يدعم زعماء القبائل الزناتية الشرقية لمنافسة "يغمراسن"⁽²⁾، حيث جعل أمرائها "سلاطين كالأسوار المشيدة بينه وبين أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن"⁽³⁾، وحاول "المستنصر الحفصي" أن يحافظ على إخلاص "يغمراسن" في هذه التبعية فمنحه وأولاده منحا رمزية سنة (652هـ/1254م)⁽⁴⁾، كما ورد في بيان المغرب: «وكان ليغمراسن في هذا العام وبعده بحوزة توئس أملاك وأسهم، إحسان عليه من المستنصر بالله وإنعام»⁽⁵⁾.

وكان ولاء "يغمراسن" للحفصيين عامل قوة يستند إليه مما يجعله يحتفظ باستقرار استقلالته بشكل واسع، في حين كان هذا الولاء شكلي مبني على الخوف من توسيع نفوذ طرف على حساب الآخر، ورغم كل هذا استأسد "أبو زكريا" بالحكم لنفسه بتونس وجعل العدوتين يدينون له بالولاء والطاعة استنادا لما أورده "بن خلدون" في العبر قائلا: «ونصب كرسي الخلافة للموحدين بتونس انصرفت إليه الوجوه من سائر الآفاق بالعدوتين، وأملكوه الكرة، وأوفد زناة عليه رسلهم من كل حي بالطاعة»⁽⁶⁾.

كان من ضمن العادات والتقاليد الرسمية للحفصيين في المدن التي يتم غزوها بالقوة؛ ذكر اسم الأمير في منابرها وهذا ما تم فعله في تلمسان؛ رغم إبقاء زعيمها عليها "يغمراسن

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 85.

² - أحمد عزاوي، المرجع السابق، ص 66.

³ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 227.

⁴ - أحمد عزاوي، نفسه، ص 66.

⁵ - ابن عذارى، المصدر السابق، ص 542.

⁶ - عبد الرحمان ابن خلدون، نفسه، ص 94.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيرية

بن زيان"، الذي أقرّ بذلك واعتبره عادة ألفها بنو حفص تستوجب ذكرها، ومن القرائن الدالة على ذلك ما حكا عنه "عبد الرحمان بن خلدون" في قوله: «يحكى أن يغمراسن بن زيان، ماهدّ دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو زكريا يحيى بن أبي حفص على تلمسان، ثم بدا له إعادة الأمر إليه على شروط شرطها، كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله، فقال يغمراسن: تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاؤوا»⁽¹⁾.

فكانت لهم على "يغمراسن" وبنيه طاعة معروفة يؤدون بيعتها، ويخطبون على منابرهم بدعوتها منذ تغلب الأمير "أبي زكريا بن عبد الواحد" على تلمسان⁽²⁾، لكن السلطة الفعلية بإقليم بني عبد الواد كانت "ليغمراسن"⁽³⁾.

لكن هذه العادة اختفت بعد وفاة "يغمراسن" سنة (681هـ/1283م)، وسبب ذلك هو تنافس الأمراء الحفصيين على عرش تونس، ثم إنهم أصبحوا موالين للمرينيين المحاصرين لتلمسان ومظاهرتهم بأساطيلهم، قال "بن خلدون" في العبر مبينا موقف بني زيان من ذلك: «فأسفهم ذلك وأخرسوا منابرهم عما كانت تنطق به من الدعاء من عهد يغمراسن، فلم يراجعوا دعوتهم من بعد»⁽⁴⁾، وأثر ذلك في بلاط تلمسان وأفضت إلى أن "عثمان بن يغمراسن" وضع حد لهذه العادة وتعطيلها من منابره، وأخرج قومه وإيالته عن دعوتهم⁽⁵⁾، وقطع "أبو زيان بن عثمان" اسم الخليفة الحفصي من خطبة الجمعة نهائيا⁽⁶⁾، في سنة (703هـ/1304م)⁽⁷⁾.

3. عادة الجوار

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 211.

² - نفسه، ص 232.

³ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 25.

⁴ - عبد الرحمان ابن خلدون، نفسه، ص 234.

⁵ - نفسه، ص 103.

⁶ - ألفريد بل، المرجع السابق، ص 310.

⁷ - عبد الرحمان ابن خلدون، نفسه، ص 234.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

وبما أن تلمسان كانت مستهدفة من طرف هذا السلطان المريني "أبي يعقوب يوسف"؛ إلا أن سلاطينها من بني زيّان أقاموا علاقات وطيدة مع خصوم المريني داخل مجال حكمه، واستضافوهم واستأجروهم وأحسنوا وفادتهم كما جرت به العادة عندهم، ولاشك أن الهدف من كل ذلك هو معرفة التناقضات ومواطن الضعف داخل العصية المرينية، لإستغلالها من جهة والإستثمار في هؤلاء الخصوم والمعارضين من جهة أخرى.

وحتى يتأتى "لعثمان ابن يغمراسن" توسيع دولته غربا واسترجاع بعض المدن والضياع المسلوبة منه، وهذا تقليد حربي عرف به بنو زيّان منذ وقت بعيد، واقتضى منا هذا التقليد بأن نرصد جدولين تاريخيين، نبين فيهما عدد الحصارات المضروبة على تلمسان من طرف السلطان المريني "أبي يعقوب"، وعدد اللّاجئين السياسيين إلى تلمسان التي أضحت مركز آمن للفارين من القتل والتنكيل والبطش.

رصد بيبلوغرافي لعدد الحصارات التي تعرضت لها تلمسان في فترة حكم أبي يعقوب

يوسف المريني

المصدر	مدة الحصار	تاريخ الحصار	الجهة التي تعرضت للحصار
ابن خلدون، بغية الرواد، ج 1، ص 230.	شهرين وخمسة وعشرون يوما	من 25 جمادة الأخرى إلى 20 رمضان عام 689هـ / 1290م	تلمسان
ابن أبي زرع، الأنيس، ص 385.	/	رمضان عام 695هـ / 1295م	تلمسان
ابن أبي زرع، الأنيس، ص 385.	حاصرها وشد في قتالها أياما	696هـ / 1296م	تلمسان
ابن أبي زرع، الأنيس، ص 385.	/	697هـ / 1297م	تلمسان
ابن أبي زرع، الأنيس، ص 385.	(الحصار الثاني)	رجب 697هـ / 1297م	تلمسان

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

386.	حاصره أياما		
ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 234.	ثمانى سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام	698هـ / 1298م - 07 ذى القعدة 706هـ / 1306م	تلمسان

يتضح جليا من خلال هذا الرصد أن عدد الحصارات المضروبة على تلمسان فاقت الخمس حصارات على التوالي، كلها كانت مصدر خوف وقلق بالنسبة للرعية في تلمسان وسلطانهم، إضافة إلى المدة التي توالى فيها؛ نجد عشر سنوات كانت كافية للمرينيين في خنق مدينة تلمسان مدة طويلة أخرى، وتفاوتت مدة الحصار إذ لم تتجاوز بضعة أيام كما ورد في المصدر.

حيث لم يواجه فيها "عثمان ابن يغمراسن" الجيش المريني إلا في معركتين، وانهمزم ثم انكفأ متقوقعا داخل حصنه كعادته واستعد للدفاع والمقاومة العنيفة الطويلة، والسبب في ذلك هو وفود عدد كبير من الفارّين إلى تلمسان، واحتضان السلطان "عثمان بن يغمراسن" لهم، مما أغضب "أبا يعقوب" وهم بشن الغارات المتكررة.

رصد بيبلوغرافي للاجئين إلى تلمسان

اللاجئون	السنة	الوجهة	المصدر
محمد بن إدريس بن عبد الحق المريني	685هـ / 1286م	تلمسان	ابن أبي زرع، الأنيس، ص 377.
الأمير عمر بن عثمان بن يوسف المسكوري وجميع أهله.	685هـ / 1286م	تلمسان	ابن أبي زرع، الأنيس، ص 377.
محمد بن عطا البربري الزناتي	12 رجب 688هـ / 1289م	تلمسان	ابن أبي زرع، الأنيس، ص 379.
عمر بن يحيى الثائر	شوال 691هـ / 1292م	تلمسان	ابن أبي زرع، الأنيس، ص 381.
عامر بن يحيى الوزير	691هـ / 1292م	تلمسان	ابن أبي زرع، الأنيس، ص

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

382.			
ابن أبي زرع، الأنيس، ص 382.	تلمسان	691هـ/1292م	أولاد الأمير أبي بكر بن عبد الحق
ابن خلدون، العبر، م7، ص 228.	تلمسان	694هـ/1294م	ثابت بن منديل المغراوي

جرت العادة أن يَهْرُبُ اللّاجِؤُونَ والمُجْبَرُونَ عَلَى تَرْكِ بِلَادِهِمْ وَعَدَمِ القُدْرَةِ عَلَى العُودَةِ إِلَيْهَا فِي المَسْتَقْبَلِ المَنْظُورِ؛ إِلَى مَرَاكِزِ أَمْنَةٍ أَوْ مَدُنِ مَجَاوِرَةٍ أَوْ الهِجْرَةِ إِلَى بُلْدَانِ مُسْتَقَرَّةِ الأَوْضَاعِ لِطَلَبِ اللُّجُوءِ السِّيَاسِيِّ والحِمَايَةِ والمَسَاعَدَةِ، وَفِي هَذِهِ الحَالَةِ لَا يُمْكِنُ لِلسُّلْطَانِ تَسْلِيمَ هَذَا اللّاجِئِ وَلَوْ مَاتَ دُونَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ عَادَةٌ مَسْتَحْكِمَةٌ مُتَأَصِّلَةٌ تُسَمَّى (الإِسْتِجَارُ) أَي طَلَبُ الجَوَارِ الآمِنِ والإِسْتِغَاثَةِ مِنَ سُلْطَانِ البَلَدِ، وَعَلَى إِثْرِ ذَلِكَ اقْتَضَتْ الخِطَّةُ العُمَرَانِيَّةُ الجَدِيدَةَ لمَدِينَةِ تِلْمَسَانَ تَشْيِيدَ حَيِّ جَدِيدٍ بِمَكَانِ (المَطْمَرِ)، الَّذِي اسْتَقْبَلَ كُلَّ مَنْ رَغِبَ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ الإِسْتِقْرَارَ بِالمَدِينَةِ⁽¹⁾.

عُرِفَ بَنُو زِيَانَ بِهَذِهِ العَادَةِ وَعَمِلُوا بِهَا، حَتَّى أَنَّ "عُثْمَانَ ابْنَ يَغْمَرِاسِن" اسْتَشَارَ غَضَباً وَأَغْلَظَ القَوْلَ لِرَسُولِ "أَبِي يَعْقُوبِ يُونُسَ"؛ عِنْدَمَا طَلَبَهُ فِي تَسْلِيمِ عَامِلِهِ عَلَى مَرَاكِشِ "مُحَمَّدِ بْنِ عَطُو البَرْبَرِيِّ الزِنَاتِيِّ" المَسْتَجِيرِ "بِعُثْمَانَ"، وَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: «وَاللَّهِ لَا أَسْلَمُهُ أَبَداً وَلَا أُبَيْعُ صِرْمَتِي، وَأَتْرُكُ مَنْ اسْتَجَارَ بِي حَتَّى أَمُوتَ فَلْيَصْنَعْ مَا بَدَأَ لَهُ»⁽²⁾.

أَيُّ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ فِي عَهْدِهِ وَذِمَامِهِ وَأَمَّنَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَلْحَقُ العَارَ بِهِ إِذَا أُغْفِرَ جِوَارُهُ بَعْدَ عَقْدِهِ، لِذَلِكَ يَرَى "عُثْمَانَ" أَنَّهُ مِنْ عَدَا عَلَى المُجَارِ فَكأَنَّما عَدَا عَلَى المُجِيرِ نَفْسَهُ، فَيَكُونُ التَّقَاتِلُ وَالتَّحَارُبُ؛ وَهُوَ مَا جَنَّاهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ خِنَاقٍ وَحِصَارٍ.

تتأكد عادة طلب الجوار نفسها في مشهد آخر وثقه "التنسي" عن أحد الأمراء الزيانيين اسمه (أحمد)، وعلى الأرجح هو السلطان "أحمد العاقل" لأن مدة مكوثه في تلمسان بما فيها عهد إمارته حوالي 32 سنة (834هـ/866هـ - 1430م/1462م)، حيث فر هذا الأمير من

¹ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 78.

² - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص 386.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

أمام "محمد المتوكل الزياني"، الذي دخل تلمسان فاتحاً وملكا عليها في يوم الاثنين (3 جمادى الأولى سنة 866هـ / 1462م)، حيث يقول "التنسي": «ففرَّ الأمير أحمد إلى العباد واستجار بقبر الولي القطب الغوث شيخ الشيوخ السيد أبي مدين شعيب الأنصاري»⁽¹⁾.

عرف عهد "أبو سعيد عثمان الزياني" بكثرة الثورات من قبل القبائل البربرية المعارضة للدولة الزيانية أمثال بنو توجين بقيادة آل "عبد القوي"⁽²⁾، وحكم الدولة في ظروف مأساوية للغاية، ذلك أن الدولة فقدت أغلب أملاكها باستقلال قبائلها أو تعاونها مع القوة المرينية⁽³⁾، إضافة إلى كثرة الحصارات والغارات المضروبة على تلمسان من جراء فرار عمال الدولة المرينية إليها، فكانت هناك حروب طاحنة اشتد فيها الأمر على الفريقين⁽⁴⁾.

كل هذه العوامل والأسباب ساهمت بشكل كبير في تحريك الضغائن الكامنة "لأبي يعقوب يوسف"، فعزم على غزوها وسار إليها في جنوده في (2 شعبان من سنة 698هـ / 1298م)⁽⁵⁾، بعد إن استكمل حشده، ونادى في قومه، وأجزل أعطياتهم وأزاح عليهم، واحتل بساحة تلمسان، وأناخ عليها وضرب معسكره بفنائها⁽⁶⁾، فشيّد الأسوار وزخرف البناء، وأوسع الغروس وأدار على تلمسان نطاق الحَصْرِ⁽⁷⁾.

4. عادة أخذ الرهائن

نظراً لبيئة المغرب الأوسط البدوية الرعوية التي يغلب عليها طابع الترحال وعدم الاستقرار، لم يفلح قبيل بني زيّان في إحكام القيد على هذه القبائل البدوية المنتجة من سهول وبراري المغرب الأوسط مضارب لها، بحثاً على الكلاّ لأنعامها، رغم كل الجهود المبذولة في أخذ الرهن من هذه القبائل كولاء للسلطة المركزية بتلمسان، فمنذ عهد "أبي حمو

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 254.

² - مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج4، دار الحكمة، الجزائر، 2007م، ص 24.

³ - نفسه، ص 24.

⁴ - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 140.

⁵ - ابن أبي رزق، المصدر السابق، ص 386.

⁶ - عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص 229.

⁷ - يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 231.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

موسى" (708 / 718 هـ - 1308 / 1318 م)، والسلطة الزيانية تجدد أخذ الرهائن حتى أصبح ذلك عادةً مألوفةً لحمل القبائل على الطاعة.

أول من سنَّ هذه العادة هو "أبي هو موسى الأول" عندما نهض إلى بني توجين ومغراوة، ودوخ بلادهم ثم انكفأ إلى بلاد وانشريس وشرّد "محمد بن عطية الأصم" عنها، كما أخضع القبائل العربية في ناحية شلف واحتاز الرياسة على سائر أعمال المغرب الأوسط سنة (710 هـ / 1310 م)، لأنهم كانوا خلعوا الدعوة أيام الحصار⁽¹⁾، وحتى يضمن للملكه الولاء "أخذ من سائر بطون بني توجين الرهن على الطاعة والجباية"⁽²⁾.

توحي النصوص المصدرية بأنَّ عادة أخذ الرهائن؛ كانت تتجدد كل ما يحس سلطان تلمسان بتقلب أوضاع هذه القبائل عليه، فيضطر للخروج إليهم لتأديبهم واستأصال شأفتهم ثم تجديد عهد الولاء بأخذ الرهائن، ففي سنة (717 هـ / 1317 م) نهض "أبو هو موسى" إلى الشرق وأثخن في القبائل المتمردة على حكمه وملك المرية، واستبغ في أخذ الرهن من أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب⁽³⁾، حضراً وبدواً، وقفل إلى حضرة مُلكه⁽⁴⁾.

وخصَّ السلطان "أبو هو موسى الأول" حي القصبة المجاور للمشور لرهائنه، من القبائل المستقرة من مغراوة وتوجين (منطقة شلف والجبال الساحلية وجبال وانشريس)، أما منطقة (تافرطه) بالجهة الشمالية الغربية فأبقاها دون تعمیر وخصها لرهائنه من الرحل⁽⁵⁾، وكانت القصبة⁽⁶⁾ كما قال "بن خلدون" في العبر: «هي الغور الفسيح الخطية، تماثل بعض

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 136.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 103.

³ - نفسه، ص 108.

⁴ - يحيى ابن خلدون، ج1، المصدر السابق، ص 237.

⁵ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 78.

⁶ - تضاربت آراء المؤرخين والباحثين حول تحديد مفهوم القصبة وضبط تعيين مكانها داخل مدينة تلمسان، لكن الراجح حسب ما جاء في الخطة العمرانية؛ أن مفهود القصبة: هو المكان الذي اختاره السلطان أبو هو الأول لاستقرار رهائنه، وهم سجناء (دون حرس ولا أبواب موصدة)، ويفهم مما ورد من إشارات في المصادر بأن منطقة استقرار الرهائن بتلمسان تضم حدود واسعة جمعت بين المشور والقلعة، والقلعة هي القصبة، وبالتالي يصبح المشور جزءاً من القصبة قبل أن يتم تسويره في فترات لاحقة. للمزيد من الاطلاع أكثر ينظر إلى: سيدي محمد نقادي، الخطة العمرانية، المرجع السابق، ص ص 37-40.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليده الحرب في تلمسان الزيانية

الأمصار العظيمة، اتخذها للرهن، وكان يبالغ في ذلك حتى يأخذ الرهن المتعدد من البطن الواحد والفخذ الواحد والرهن⁽¹⁾.

بالغ "أبو حمو موسى الأول" في أخذ الرهائن وإرغام كل العصابات الصغيرة بالانقياد لسلطانه ومملكة بني زيان، بل "تجاوز ذلك إلى أهل الأمصار والثغور من المشيخة والسوقة فملاً تلك القصبه من أبنائهم وإخوانهم، وشحنها بالأمم بعد الأمم، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء"⁽²⁾، ويحتمل سن هذه العادة من طرف السلطان الزياني بتخوفه من تقلب هذه القبائل الغير مستقرة عليه، ولربما يفقد خروج سيادة المغرب الأوسط من تحت يده، وبالتالي أقدم على هذا الفعل بحماس زائد لقطع الشك باليقين في ضمان الولاء والطاعة له.

يكون "أبو حمو موسى الأول" قد شيد في تلمسان الزيانية منشآت عمرانية أصبحت أهلة بالسكان والتجارة، فضلا عن بناء مسجد لإقامة الصلوات من جراء سنه لهذه العادة، مما جعل "عبد الرحمان بن خلدون" يستغرب من هذه حال هذه البنية العمرانية التي لم يعرف أحد من قبل فعل مثلها، واعتبر ذلك سجنا⁽³⁾ مدنيا محكم الرقابة على الرهائن، وإذا كان "يغمراسن" قد اختط القصر الملكي، فالمسجد هو من أعمال "أبي حمو موسى الأول"⁽⁴⁾، ويرجع سبب تشييد المسجد داخل قلعة المشور؛ هو تمكين رهائن السلطان "أبي حمو" من تأدية صلواتهم به، ولا سيما صلاة الجمعة، استنادا لما ذكره "بن خلدون" في العبر قائلا: «واختط لهم المساجد فجمعوا بها لصلاة الجمعة»⁽⁵⁾.

وسار على دربه خلفه "أبي تاشفين" في أخذ الرهائن من سائر القبائل الموالية لسلطانه وعصبيته، لما كان محاصرا لبجاية وابتنى حصن (تَامَزِيدُكْت)، قال "بن خلدون" في العبر: «وأوعز السلطان إلى جميع عماله ببلاد المغرب الأوسط بنقل الحبوب إليها حيث كانت،

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 108.

² - نفسه، ص 108.

³ - نفسه، ص 108.

⁴ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 34.

⁵ - عبد الرحمان ابن خلدون، نفسه، ص 108.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

والأدم وسائر المرافق حتى الملح، وأخذ الرهن من سائر القبائل على الطاعة واستوفوا جبايتهم⁽¹⁾، وتبعاً لذلك نهج السلطان "أبي ثابت الزياني" عادة سلفه في أخذ الرهائن من القبائل العربية وغيرها في ربيع سنة (751هـ / 1350م)⁽²⁾.

وعلى ذكر الرهائن والأسرى؛ تذكر المصادر أنه ذلك من الأعراف السياسية السائدة والثابتة عند ملوك بني زيان، كولاء وانقياد للعصبية الزيانية مقابل إسداء الهدايا والأموال عليهم، وخصص جانباً من القصر الملكي بالمشور لوضع هؤلاء الرهائن تحت أعين السلطان وحاشيته.

وفي مستهل سنة (764هـ / 1363م)⁽³⁾ أخرج "أبو حمو موسى الثاني" ولده الأمير "أبا تاشفين" لأخذ المراهين، قال "بن خلدون" في البغية: «ولما رأت العرب ما وهب الله لأمر المسلمين من عز السلطان، وتمهيد الأوطان، وبلوغ الأوطار، ومضاء السمهري بسعادته والخطار، وتيقنوا جنوح عدوه الأكبر إلى السلم، وذهاب كل خيال طارق حتى في الحلم، تقمّنوا مسرة مقامه الكريم بإعطاء رهائنهم، على سننها المتعارف لسلف الكريم من آبائهم، فخرج لقبضها منهم ولده المولى الأمير العلى أبو تاشفين، فنزل البطحاء مطيلاً بها المقام لذلك»⁽⁴⁾.

إذا كان استعمال القوة والجبر في أخذ الرهائن، من القبائل العربية والبربرية القاطنة بمجال المغرب الأوسط لضمان ولائهم لحكم بني زيان؛ فإن ذلك ساهم في عدم بناء دولة قوية بشريا، بسبب نمط العيش والنظام المتذبذب السائد في بلاد المغرب الأوسط، بحيث يعتبر الولاء القهري؛ سلوكاً يخلو من الرغبة في العيش الجماعي - الذي هو ركيزة مدنية سليمة

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 112.

² - نفسه، ص 124.

³ - مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص 247.

⁴ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 125.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

بإمكانها تحدي الصعاب - لذا فكلما سمحت الظروف بادرت هذه القبائل في الطعن في ولائها ليتجدد الصراع⁽¹⁾.

5. عادة الثأر عند بني زيّان

كانت هذه العادة متأصلة عند "يغمراسن ابن زيّان"، إذ كرس النظام القبلي الزناتي مبدأ القوة والاختصاص والتوسع كمنهج حكم للقبيلتان المتصارعتان (بني زيّان وبني مرين)، فالقوة هي القانون وهي العرف السائد والحق للقوي ولو كان معتديا، وتمخض عن هذه العدائية بين الطرفين فكرة الانتقام والإسراف في الثأر، فلا تكتفي قبيلة المقتول إلا بقتل أكبر عدد من قبيلة الجاني حتى تشفي غليلها.

وأفادتنا المصادر الاخبارية بالجرح العميق الأثر الذي تركته حرب (وادي تلاغ) في نفسية "يغمراسن"، حيث "فرّ على وجهه مهزوما وقتل قرّة عينه عمر وهو أكبر ولده وولي عهده، وقتل عبد الملك بن حنينة وأبو يحيى بن يحيى وعمر بن ابراهيم بن هشام وجماعة من أشرف بني عبد الواد"⁽²⁾.

لكن "يغمراسن" رفض الصلح على إثر موقعة (وادي تلاغ)، فضلا على بناء علاقة سلمية طلبها منه السلطان المريني "يعقوب بن عبد الحق" من أجل نصرت "أحمد بن الأحمر" في الأندلس، لأن مخلفات الحرب الأخيرة بينهما كانت قاسمة الظهر "ليغمراسن بن زيّان"، ومن ثم برزت العصبة المرينية تطفو على السطح، مما جعل "يغمراسن" يمتنع حتى عن مد يد العون في الجهاد ضد النصاري في الأندلس، وعندما وصله خبر ذلك "أقسم ألا يصالحه أبدا حتى يأخذ منه الثأر أو يموت دون ذلك"⁽³⁾، وكتب بذلك كتابا من بعض فصوله هاذان البيتان:

فَلَا صَلْحَ حَتَّى تُرْوِي السَّيْفَ وَالْقَنَا وَتَأْخُذُ مِنْكُمْ عَبْدَ الْوَادِي بِشَارِهَا

¹ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 166.

² - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 116.

³ - نفسه، ص 126.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

وَأَشْفِي عَلِيلِي مِنْ مَرِينِ التِّي طَعَتْ بِسَبِي غَوَانِيهَا وَقَتْلِ خِيَارَهَا⁽¹⁾
أرسل السلطان المريني الأشياخ والصلحاء للمرة الثانية إلى "يغمراسن"، يرغب منه "في
الموادعة والمسألة لكي يجوزوا إلى الجهاد آمين على جهادهم وقال لهم عند وداعهم أعلموا
يغمراسن أن الصلح خير كله"⁽²⁾.

لكن الثأر عادة راسخة في ذهن سلطان تلمسان، فما كان منه إلا رفع شعار التحدي
والصمود أمام غريمه ليثأر لولده وأشرف قومه، فقال للأشياخ: «لا صلح بيني وبينه أبدا ولو
بلغت في حربه إلى الردا، لقد قتل ولدي وقرّة عيني وولي عهدي عمر، أصلحه وأهدر دمه؟
والله لا كان هذا أبدا⁽³⁾. ولا أترك دم ولدي يذهب سدا حتى آخذ منه بالثار وأذيق بلاده
التبار»⁽⁴⁾.

أفادت المصادر الاخبارية بأن "يغمراسن ابن زيان" عقد اتفاقيات سرية⁽⁵⁾ مع ملوك
غرناطة من بني الأحمر وكذلك مملكة أراغون، بحيث يقوم "يغمراسن" بإشغال بني مرين
عنهم⁽⁶⁾، ويحمي رعاياهم ومصالحهم بتلمسان⁽⁷⁾، لأن تتابع انتصارات السلطان "أبي يوسف
يوسف يعقوب المريني" بالأندلس أثار امتعاضا شديدا وحسدا في قلوب الأندلسيين⁽⁸⁾،
فسببت هذه الاتفاقيات مع "يغمراسن" بانزال العراقيل والعوائق ببني مرين وشغلهم عن
الجهاد بمشاغبته ومناوءاته⁽⁹⁾، لكن نتائج ذلك كانت هجمات متتالية على "يغمراسن"
وهزيمته في موقعة خَرْزُوزَة سنة (679هـ/1280م)، وبالتالي اقتضت المصلحة الخاصة المبنية
على اتفاقيات خارجية بتأجيج صراعات دامية مع بني مرين وكسبب ثاني إلى عادة الثأر.

¹ - ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 126.

² - نفسه، ص 130.

³ - نفسه، ص 309.

⁴ - نفسه، الذخيرة السنوية، المصدر السابق، ص 129.

⁵ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 223.

⁶ - عبد الرحمان الجليلي، المرجع السابق، ص 135.

⁷ - Chantal de la Véronne, Op cit, p 36.

⁸ - عبد الرحمان الجليلي، نفسه، ص 135.

⁹ - عبد الرحمان ابن خلدون، نفسه، ص 93.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

تسببت عادة الأخذ بالثأر بتعجيل معركة طاحنة، ومواجهة ساخنة من كلا الطرفين، وهي معركة (ايسلي) التي تحدثنا عنها، حيث باغت "يعقوب بن عبد الحق" المريني "يغمراسن بن زيان"، وفرض عليه هذه المواجهة التي لم يكن "يغمراسن" مستعدا لها بكل ما يجب، كما ترتبت عن هذه العادة الكآبة والقلق النفسي لدى "يغمراسن" مع صدمة فقدان بنيه وأشرف قومه، وظلت هذه العادة جاثمة عليه مما جعله يستجيب للتحدي في محاولة فاشلة، كانت أشد وقعا في القلب من سابقتها.

فجلب تعنت "يغمراسن" واستفزازه لغريمه بعدم قبوله الصلح وحقن الدماء هزيمة نكراء؛ مما جعل المتربصون يتشفون في "يغمراسن" ويأخذون ثأرهم منه، من بينهم الأمير "محمد بن عبد القوي التجيني" الذي كان متحالفا مع "يعقوب بن عبد الحق" وأطلق يده على تخريب تلمسان، حيث أتى "محمد بن عبد القوي" في جيش كثيف واحتفال عظيم بالطبول والبنود، واشتد الحصار على يغمراسن وعظم القتال، وضيق قبائل توجين على مدينة تلمسان لأخذ ثأرهم من يغمراسن بن زيان، فقطعوا الثمار والجنات وخربوا الرباع، وأفسدوا الزروع ورقوا القرا والضياع، حتى لم يدعوا بتلك النواحي قوت يوم، حاشا السدرة والدوم، فلما نسف بلاده وقتل أجناده⁽¹⁾ أمره أمير المسلمين (يعقوب بن عبد الحق) بالرجوع بالرجوع إلى بلاده، وقعد أمير المسلمين بظاهر تلمسان حتى يعرف أنه وصل إلى بلاده وانشريس خوفا⁽²⁾ عليه من يغمراسن لئلا يتبعه⁽³⁾، مما يكشف أن عادة الثأر ليغمراسن كانت وبالا عليه بحيث لم يقدر قوة خصومه وتوحد عصبيتهم.

بات هذا السلوك العدواني من التجارب المعتادة عند "يغمراسن" يتأجج غيظ وسخط، وإذا تتبعنا بدقة في إقدامه على هذا السلوك؛ ندرك بأن فكرة الغضب والرغبة في رد الإيذاء

¹ - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، المصدر السابق، ص ص 310 - 311.

² - شكّل يغمراسن مصدراً خوفاً وقلقاً كبيراً بالنسبة لأقرانه فضلاً على المتطفلين على إمارته، وذلك بفضل حنكته السياسية وقدراته الحربية وسرعة بديهته في التصدق ونصب الكمائن، وما كان للأمير التوجيني محمد بن عبد القوي الاغارة على تلمسان وتخريب مزارعها وبعض أرباضها إلا بدعم وتأيين من طرف يعقوب المريني، وبالتالي انتقلت عادة الخوف المكتسبة إلى الطرف الآخر رغم انتصاره وغلبته.

³ - ابن أبي زرع، الذخيرة السننية، المصدر السابق، ص 132.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليده الحرب في تلمسان الزيرية

بمثله من بين المحفزات الانتقامية عند "يغمراسن"، فإنه شعر بالاهانة والألم النفسي عندما فقد أبنائه وبعض خاصته كما رأينا، ثم إن هناك ثأراً عنيفاً قبل ذلك أقدم عليه "يغمراسن" بنفس الشعور عندما قُتِلَ والده "زيان بن ثابت" من طرف "كندوز بن كمي" على رياسة هذا القبيل، قال "بن خلدون" في العبر: «واعتمل يغمراسن في الثأر بأبيه زيان من قاتله كندوز، فاغتاله بيته»⁽¹⁾.

يروى لنا "ابن خلدون" في العبر أن "يغمراسن" انتقم وثار لأبيه بطريقة شنعاء، حيث أفرغ شحنة الغضب بداخله هو وأمه كذلك، ونتج عن ذلك شعور باللذة والراحة النفسية لدى المنتقمون من قاتل أبيهم "كندوز"، الذي اغتاله "يغمراسن" بمكيدة وغدره في بيته، حيث دعاه "المأدبة جمع لها بني أبيه، حتى إذا اطمأن المجلس، تعاوروه بأسياهم واحترزوا رأسه، وبعثوا به إلى أمهم، فنصبت عليه القدر ثالث أثافيها"⁽²⁾ تشفياً منه وحفيظة"⁽³⁾.

كل ذلك ولم يشفي غليل "يغمراسن" فقد عمل على طلب بقية بني "كندوز" لاستئصالهم عن بكرة أبيهم، غير أنهم فرّوا من أمام طلبه⁽⁴⁾ ولحقوا بتونس ثم بالمغرب الأقصى مستنجدين بمنافسيه، وبالتالي فقد ظهر أن مشاعر الثأر والرّد بالمثل، لها آثارٌ وخيمةٌ وخطوبٌ جسيمةٌ وليدة عقول قاصرة في الالتزام بالوابع الديني ومنطق الانسانية، ولم تكن عادة الثأر حكراً على بني زيان؛ بل منتشرة في معظم القبائل المتناحرة على سدة الرياسة والحكم في بلاد المغرب الاسلامي.

ثالثاً/ التحصينات الدفاعية وعادة التسوير - قراءة في نظرية الصمود والتحدي -

1. موقع المدينة وأهميته

استعد أهل تلمسان للدفاع عن مدينتهم من أي مكروه قد يحصل لهم على غفلة منهم، وبما أن المدينة ذات موقع استراتيجي وتضاريسي هام، تنحدر عيونها المائية إلى داخل المدينة

¹ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 239.

² - **ثَالِثَةُ الْأَثَافِي**: كِنَايَةٌ عَنِ الْمَصِيبَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْكَارِثَةِ الَّتِي تُحَلُّ بِشَخْصٍ مَا.

³ - عبد الرحمان ابن خلدون، نفسه، ص 239.

⁴ - نفسه، ص 239.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليده الحرب في تلمسان الزبانية

فإن ملوك تلمسان استثمروا ذلك في مواجهة العدو، واخترعوا سقاية تحت الأرض تزودهم بالماء عندما يضرب الحصار عليها، وهذا ما أكده "كاربنجال" في كتابه قائلاً: «المدينة مزدانة بعدة سقايات تستمد ماءها من عين واحدة مجلوب من نوميديا، عبر قنوات تحت الأرض على مسافة تنيف على ثلاثين فرسخاً، وقد أعطى ملوك تلمسان دائماً الأمر بعدم الكشف عن هذه القنوات خوفاً من تحويلها إذا ما حوصرت المدينة»⁽¹⁾، ساعدت هذه التقنية الجديدة في صمود تلمسان أمام الحصار الطويلة التي ضربت عليها، غير أن الخوف من اكتشافها وتحويلها كان مصدر قلق يؤرق كاهل الحكام.

أجمعت المصادر والدراسات على أن مدينة تلمسان؛ ما كان لها أن تصمد كل هذا الوقت الطويل في حصار "أبي يعقوب يوسف"، لولا أنها توفرت على منابع ماء خولت لها شيئاً من الزراعة والمأكولات، فضلاً على موقعها الاستراتيجي المحصن طبيعياً.

ومن بين هذه الدراسات الأثرية التي ألت بذلك ما قام به الأستاذ الدكتور "سيدي محمد نقادي" في بحثه المعمق حول موقع مدينة تلمسان، وتوصل إلى ما يلي:

➤ تكمن أهمية المدينة في كونها تربع على السفح الشمالي من جبال سلسلة الأطلس التلي، يحميها جبل شوكة.

➤ يمنع هذا الجبل الرياح الجافة والحارة المحملة بالرمال الناتجة من المناطق الجنوبية والسهبية، وفي الوقت نفسه هي تستقبل الرياح الغربية المحملة بالرطوبة التي تلتطف الجو وتضمن لها نسبة معتبرة من التساقط (بين 600 - 700 مم/ سنوياً).

➤ وهذه النسبة كافية لضمان غطاء نباتي كثيف ومتنوع مكن السهل الذي تشرف عليه المدينة من إنتاج وافر للعديد من المحاصيل.

➤ يتوفر هذا الجبل على صخور مكونة للمنطقة وهي صخور مسامية، سمحت بتسرب المياه في جوف الأرض، فكثرت المياه والينابيع حول وداخل المدينة.

¹ - مارمول كاربنجال، المصدر السابق، ص 299.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

➤ تشرف مدينة تلمسان كموقع استراتيجي هام من ناحية الشمال، على سهل فيضي خصيب، يؤمن لها حاجياتها الغذائية⁽¹⁾.

➤ وقرت هذه الظاهرة منسوبا معتبرا من المياه الصالحة للشرب وسقي البساتين، كما أن موقعها المحصن طبيعيا، رفع من قدراتها الدفاعية، مما جعلها تصمد أمام حصار المرينيين أزيد من ثماني سنين وهو أطول حصار عرفته مدينة متوسطة خلال العصور الوسطى⁽²⁾.

استنادا إلى ذلك يفسر المؤرخ "عطاء الله دهينة" على أن عاصمة أسرة بني زيّان ظلت معتصمة ومتدعة بمرافقها الدفاعية، ومحاطة بأسوار وأبراج وساحات عسكرية هامة، ومن ناحية أخرى كانت تمتد حول المدينة البساتين وخزانات المياه⁽³⁾، وهو ما يؤكد "الحسن الوزان" في وصف افريقيا: «وفي المدينة عدة سقايات لكن العيون توجد خارج المدينة»⁽⁴⁾، ونظرا لكثرة العيون الصابة داخل المدينة فكر السلطان الزياني "أبو تاشفين الأول" (718-738هـ / 1318-1337م)، في بناء منشآت مائية تستخدم لتزويد سكان المدينة بمياه الشرب في حالة حصار وربما أيضا لري الحدائق، ومن بين هذه المنشآت التي تم تشييدها الصّهرج الأعظم⁽⁵⁾.

أحصت دراسة "دهينة" بأنّ هذا الصّهرج الكبير هو حوض واسع مستطيل تبلغ قياساته مائتي متر على مائة متر، ويبلغ عمقه حوالي ثلاثة أمتار، وكان يتم ملؤه بواسطة خزان ماء للتوزيع، ويقع هذا المبنى على يسار طريق المنصورة⁽⁶⁾، وكان محصنا بالجدار الأمامي، ومع أنه كان مصدرا لتزود الساكنة بالمياه، إلا أن العادات الاسلامية وشخصية السلطان "أبي تاشفين الأول"؛ الذي ضاعف من عدد المباني الكمالية فرضت إستخداما آخر

¹ - سيدي محمد نقادي، الاسهامات الفكرية، المرجع السابق، ص 33.

² - سيدي محمد نقادي، التهيئة العمرانية بمدينة تلمسان من المرابطين إلى بداية الاحتلال الفرنسي (دراسة ميدانية)، مجلة أفاق وأفكار، جامعة الجزائر 02، العدد 03، السنة 2012م، ص ص 174-175.

³ - عطاء الله دهينة، المرجع السابق، ص ص 371.

⁴ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 20.

⁵ - التنسي، المصدر السابق، ص 140.

⁶ - عطاء الله دهينة، نفسه، ص ص 371.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

لصهريج تلمسان، مثلما كان عليه الحال بالنسبة للأحواض الواسعة التابعة لقصور الأمراء في تونس والأحواض الكائنة بالأندلس (مثل بركة القصر بغرناطة)، بمعنى أن الصهريج التلمساني الذي كانت تحيط به الأراضي المزروعة، كانت بمثابة زينة للمدينة⁽¹⁾.

ولا غرو، فالمتصفح للنصوص المتوفرة حول الجيوب المائية بمدينة تلمسان، يكشف دون عناء عن ظاهرة الخوف ومدى انعكاساتها الخطيرة على سلامة المدينة وأهلها من بطش أعدائها المحاصرين لها، فكان ملوك تلمسان يصدرون دائما الأوامر بعدم الكشف عن هذه القنوات خوفا من تحويلها إذا ما حوصرت المدينة⁽²⁾.

وهو ما تفتن له "أبو الحسن المريني" بوشاية من أحد البنائين حسب ما يذكره "ابن فضل الله العمري" في قوله: «وكان في المدينة عين ماء لا يقوم بكفائتها، وكان يجري إليها الماء من عين خارجة عن البلد لا يعرف أحد، منبعا أخفيت من كثرة البناء المحكم، ولم يظهر لها على علم إلى أن خرج أحد من يعرفها من البنائين المختصين بسلطانها الكاشف عنها حين بنائها، فأظهرها للسلطان أبي الحسن وكشفها عنها فقطعها عنهم وأبعدها منهم وصرفها إلى جهة أخرى، فقتنوا بالعين التي داخل بلدهم، واكتفوا بالبلالة»⁽³⁾، لكن هذه الدولة الزيانية رغم كل ذلك استعادت دائما سلطتها، وحكمت أزيد من مائة وعشرين سنة، دون أن يكدر الأجانب صفوها⁽⁴⁾.

2. جراءة وشجاعة بني زيّان في مواجهة المخاطر

مارس خصوم بني زيّان سياسية الهيمنة والاستعلاء بهدف إخضاع مدينة تلمسان وكسر شوكة ملوكها البواسل، لكن هذه السياسة سرعانما تلاشت واضمحلت أمام إصرار بنو زيّان في الدفاع عن حقهم المغتصب، وصمودهم في وجه الحملات وكثرة الحصارات

¹ - عطاء الله دهينة، المرجع السابق، ص ص 371 - 372.

² - مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص 299.

³ - ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص 206.

⁴ - مارمول كاربخال، نفسه، ص 307.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليده الحرب في تلمسان الزيانية

المنهكة؛ لينتقلوا إلى مرحلة التحدي والتغلب على الخوف لاسترجاع ملكهم المسلوب منهم، ثم توسيع مجال نفوذهم كلما سنحت الظروف بذلك.

ومن المؤشرات الدالة على صحة هذا التفسير صمود تلمسان كالتُّود الشامخ، أمام حصار "يوسف بن يعقوب المريني" لمدة ثمانية سنين وثلاثة أشهر⁽¹⁾ مع نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجريين، ورغم كل الحصار الطويل الذي أنهك قوة بني زيان وأحق بهم الضَّرر؛ إلا أنَّهم صمدوا وعزموا على الخروج من حصنهم لرفع شعار التحدي، تعجب "بن خلدون" لحالهم وقال: «وأشرفوا على الهلاك فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج بهم للاستماتة، فكيف لهم الصنيع الغريب»⁽²⁾.

إنَّ أهم ما يميز الرعيل الأول من ملوك بني زيان هو قوة الصمود والتحدي ورباطة الجأش؛ والتعامل مع كل العمليات العسكرية والغارات المضروبة على مدينتهم بحكمة كبيرة وعزيمة ثابتة ثبوت الجبال الرواسي، ومن الشواهد الدالة على ذلك ما حدثه "محمد بن إبراهيم الأبلي" تلميذه "عبد الرحمان بن خلدون"، كيف عزم بنو زيان أمرهم لمواجهة جيش "يوسف بن يعقوب المريني" المحاصر لهم في يوم الأربعاء (7 ذي القعدة من عام 706هـ/ 1306م)⁽³⁾.

وأحضر الملك - أبو زيان - أبنائه وأخوته وأحفاده وخاطبهم بكلمات مؤثرة، ثم ختم قوله بأنه مستعد أن يموت شجاعاً أمام العدو بدلاً من أن يستمر في حياة دنيئة بائسة كهذه، فما عليه إلا أن يأنس من نفسه شجاعة تمكنه من فك القيد وتحدي الصعاب، فعبر الكل عن موافقته⁽⁴⁾، لكن الملك "أبا زيان" تريت في الاقدام على ما عزموا رأيهم عليه، وقال لأخيه "أبي هو موسى الأوَّل": «أرجئي ثلاثاً لعل الله يجعل بعد العسر يسراً»⁽⁵⁾.

¹ - يحيى بوعزيز، المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد، المرجع السابق، ص 10.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 100.

³ - نفسه، ص 101.

⁴ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 18.

⁵ - عبد الرحمان ابن خلدون، نفسه، ص 101.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

نتيجة لكل هذه العواصف والشدائد التي عصفت ببني زيان وكادت أن تهلكهم، فقد ثبتوا وصمدوا تجاه بني مرين ثبوت الجبال الراسيات، مدافعين عن حرمهم بالمهج إلى أن جاءهم الفرج⁽¹⁾، فذهب يومئذ العناء عن آل زيان وقومهم وجميع سكان عاصمتهم فكأنما نشروا من أجداث، وكتبوا على سكتهم ما أقرب فرج الله استبشارا وتعجبا وشكرا لله⁽²⁾.

فقتل "يوسف المريني" أحد خصيانه في حالة جنون، وذلك في نفس الصباح الذي تقرر فيه الخروج، فت الخبر في عضد المحاصرين وعندما انتشر في تلمسان زاد السكان جرأة وقوة وعزيمة وتحديا، فخرجوا مع الملك من المدينة وأحرزوا على انتصارا لم يكن من قبل في الحسبان، وقتلوا عددا كبيرا من عدوهم الذي فر شذر مذر، وغنموا أقواتا وكمية وافرة من الماشية اضطر العدو إلى تركها، وهكذا تحولت مجاعة الأمس إلى رخاء عظيم⁽³⁾، ثم كان الصلح بين الدولتين، وأوصى أبو ثابت المريني بعدم التعرض للمنصورة بسوء، غير أن بني عبد الواد لم يكن يستطيعوا تحمل رؤية شبحها المشؤوم فحطموها تحطيمًا⁽⁴⁾.

تذكر النصوص التاريخية؛ أنّ ملوك بني زيان كانوا على قدر من الشجاعة والصمود والتّحدي ما لم يكن عليه بني مرين، فعلى غرار "يغمراسن" وبطولاته الحربية هاهو حفيده السلطان "أبا ثابت"، يقف صامدا في وجه السلطان "أبي عنان المريني" وهو في الأسر، ويتحداه بكلمات تدل على أن قيم الشجاعة والبطولة كانت عرفا راسخا في دولة بني زيان لا تقبل التنازل ولو كلف ذلك أرواحهم، وبذلك يكون السلطان "أبي ثابت الزياني" قد رضي بالقدر المحتوم على يد المتغلب أبي عنان.

روى "التنسي" و"يحيى ابن خلدون" موقف السلطان "أبي ثابت" في الصمود والتّحدي، وقيم المروءة والرّجولة التي كانت تنقص بني مرين، حيث سأله "أبو عنان" وأجابه على النحو التالي: «كيف رأيت أبطال بني مرين؟ فرد عليه قائلا: والله ما أعانكم إلا السعد،

¹ - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 143.

² - نفسه، ص 143.

³ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 18.

⁴ - عبد الرحمان الجيلالي، نفسه، ص 143.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

فأما الرجولة فقد غلبناكم فيها»⁽¹⁾، وفي رواية "يحيى بن خلدون" قال: «إننا غلبناكم رُجُلَةً وغلبتمونا بَخْتًا»⁽²⁾.

3. عادة التسوير

إن التَّهديدات والمخاطر التي تعرضت لها تلمسان؛ كانت تقتضي حمايتها من أعدائها بتحصينها وتشديد طرق دفاعية متينة، وكانت هذه التحصينات أقامها الموحدون قبل الزيانيون مع نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، ليجدها بعد ذلك الزيانيين بإضافة خطوط أمامية وأساليب جديدة، وأقام "أبو الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن الموحد" "أسوارها والاستبلاغ في تحصينها وسد فروجها، وإعماق الحفائر نطاقا عليها، حتى صيرها من أعز معاقل المغرب وأحصن أمصاره"⁽³⁾.

أ- الأسوار: عَمِلَ أهل تلمسان بتحصين مدينتهم وتسويرها حماية لها من كل خطر، وقد أجمع كل من شاهد هذه الأسوار على أنها كانت شاهقة ومتينة البنيان، شيدت قاعدتها بالحجارة ثم رفع السور فوقها بالطابية تكسوه طبقة من الملاط القاسي، كما أنه أستعمل في بعض الأحيان الآجر المستطيل، وكانت هذه الأسوار قد زادت من مناعة المدينة؛ وما يؤكد هذا هو أن تلمسان المدينة الوحيدة في غرب المغرب الأوسط، صمدت ثماني سنوات أمام الحصار الطويل "لأبي يعقوب يوسف المريني"، ولم يتمكن "أبو الحسن المريني" من دخولها إلا بعد عناء كبير وحصار دام ستين⁽⁴⁾.

تميزت مدينة تلمسان بأسوار في غاية الارتفاع والقوة، فتحت فيها خمسة أبواب واسعة جدا، مصاريعها مصفحة بالحديد، وقد أقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها موظفون

¹ - التنسي، المصدر السابق، ص 155.

² - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 165.

³ - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 81.

⁴ - سيدي محمد نقادي، الخطة العمرانية، المرجع السابق، ص ص 25 - 26.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

وحراس ومكاسون، والقصر الملكي جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير على شكل قلعة⁽¹⁾ ولاشك أن هذه الأسوار زادت في مناعة المدينة ومن صعوبة النيل منها.

وتحسبا للخطر الداهم من الناحية الغربية، قام "يغمراسن" بتدعيم السور الجنوبي لمدينة تلمسان برفع كتلة دفاعية على مستوى برج كيس (المعروف عند أهل المدينة ببيت الريش)⁽²⁾، والذي عدَّ "أبو الحسن المريني" المكان المفضل لمراقبته حصار تلمسان، أما السور الغربي فأحدث به باب كشوطة⁽³⁾ سنة (665هـ/1267م)، كما يدل وجود أفران الجير⁽⁴⁾ خارج أسوار المدينة بجوار المقالع على طريقة دفاعية محكمة، حيث كانت تجلب من هذه الأفران زيوت ومياه وجير ساخنة ثم تفرغ على الأسوار، لصعد المتسلقين إلى داخل المدينة.

ب - الخنادق: دلت كلمات (الخنادق)⁽⁵⁾ المشار إليها في نظم الدر عند "التنسي"؛ بأنها تلك الحفائر العميقة المشيدة أمام الأسوار، وهي بمثابة خطوط أمامية دفاعية تعمل على عرقلة وتعويق حركة الهجوم، وكانت شديدة الانخفاض والعمق على شكل نصف دائري، تحمي الجبهات الغربية والشمالية لمدينة تلمسان من الاختراق.

ج - الستائر: وردت هذه الكلمة تلميحا عند "التنسي" وهو يسرد أخبار "أبو هو الأول"⁽⁶⁾، عرفها التيجاني في رحلته حيث قال: «الستائر أو الستارة؛ يسمّى كذلك الفصيل،

¹ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 20.

² - سيدي محمد نقادي، الاسهامات الفكرية، المرجع السابق، ص 28.

³ - يحيى ابن خلدون، ج1، ص 228. يعرف أيضا بباب فاس، يوجد بمكان غير بعيد عن الملعب البلدي، ويقال أن الاسم في اللهجة الزبانية يفيد معنى القوة والضخامة.

⁴ - هي مصانع مبنية بالحجارة والطين تتكون من ثلاث فتحات، الأولى: لإدخال الحجارة ثم تتحول بعد مدة طويلة من الانصهار إلى (مادة جير)، ثم الفتحة الثانية: لإدخال الحطب لحرق الحجارة. والفتحة الثالثة: تعلق الفرن لإخراج الدخان. كما يستعمل الفرن لتحضير (الملاط) وتبييض الجدران وتسقية السطوحات وتنقية المواجل..إلخ. في مدينة تلمسان كان لها وظيفة إقتصادية وأخرى دفاعية في تحصين الأسوار من الاختراق.

⁵ - التنسي، المصدر السابق، ص 135.

⁶ - نفسه، ص 135.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليده الحرب في تلمسان الزيانية

وهو حَائِطٌ قَصِيرٌ عَلَى السُّورِ، لَمْ يَظْهَرْ قَدِيمًا وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ التَّحْصِينَاتِ الَّتِي شَيَّدَهَا بَنُو حَفْصٍ فِي طَرَابُلُسٍ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ (614هـ/1217م)»⁽¹⁾.

لاشك أن هذه التجربة الدفاعية كانت من بين الطرق المستعملة في تلمسان الزيانية كما أشار إليها "التنسي"، إذ أدت دور دفاعية جديد، بحيث رفعت بأماكن حساسة لتكسير جبهة الهجوم، ثم لمنع وسائل الدمار من الاقتراب من السور الرئيسي، وذلك للتقليل من وقع مقذوفاتها عن الاصطدام به⁽²⁾.

ورد في المصادر بأن المدينة كانت محاطة بسبعة أسوار شاهجة، كإشارة للتحصين المحكم البناء لتلمسان، لكن الغالب على الظن بأن الأسوار السبعة المشار إليها لم تكن كلها بارتفاع واحد، ورجحت الخطة العمرانية للمدينة بأن بوجود سور رئيسي تتقدمه جدران سميت بالستائر⁽³⁾، وتشيد الستائر أمام الأبواب الرئيسية، والتي هي أسوار قصيرة جعلت بالأماكن ذات الدفاعات الضعيفة، لتكسير جبهة الهجوم أولاً ثم لمنع تقدم وإقتراب آليات الدمار من الأسوار والأبواب⁽⁴⁾.

د - الأبواب: ذكرت المصادر التاريخية والجغرافية لمدينة تلمسان أبواباً شتى؛ واكتفى يحيى بن خلدون في البغية عندما أتى على وصف مدينة تلمسان خمسة أبواب: «قِبْلَةُ بَابِ الْجِيَادِ، وَشَرْقاً بَابُ الْعُقْبَةِ، وَشَمَالاً بَابُ الْحُلُويِّ، وَبَابُ الْقَرْمَدِينَ، وَغَرْباً بَابُ كَشُوطَةَ»⁽⁵⁾، وهذا ما يبدو لنا صريحاً على إعتبار أن المدينة بلغت في عهده أقصى امتدادها فيما يخص المساحة المسورة، وبنيت الأبواب في مواقع خضعت لاعتبارات دفاعية بالدرجة الأولى، إذ يفتح الباب أمام خندق وذلك للحد من سرعة الحركة (سيما في حالة هجوم)⁽⁶⁾.

¹ - أبو محمد أحمد التيجاني، رحلة التيجاني، قدم لها: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981م، ص 240.

² - سيدي محمد نقادي، الخطة العمرانية، المرجع السابق، ص 178.

³ - نفسه، ص 178.

⁴ - نفسه، ص 24.

⁵ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 129.

⁶ - سيدي محمد نقادي، نفسه، ص 24.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

جرت العادة في عملية التسوير وبناء الأبراج وخطوط الدفاع باستعمال مادة (الطابية)، لأنها مكونة من خليط التراب والكلس والرماد والحجارة الصغيرة أو الدبش مع كمية الماء، ثم يُدكُّ لمدة طويلة للرفع من درجة مقاومته⁽¹⁾، ثم ينتظم بعد ذلك حائطاً كله ملتحمًا كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية، وصانعه الطواب⁽²⁾.

وبما أنَّ الجنود المقاتلين يتأهبون للدفاع عن مدينتهم بكل الطرق المتاحة لديهم، من تسوير وحفر خنادق وإنشاء ستائر واقية؛ إلا أنهم تغلبوا على الخوف وتحمسوا بالرد على خصومهم المحاصرين لهم بالعرادة، من حيث ما جاءت بكرات اللهب والنار، بل كانوا شجعان وفعلوا أكثر من ذلك استناداً لما ذكره "التنسي" نقلاً عن صاحب (دُرر العُمر) قال: «ولقد رأيتهم يحملون وهم رجالة على الفرسان فيفرون أمامهم، ولا يقدر أن يكروا عليهم، فما أكاد أقضي العجب من شجاعتهم»⁽³⁾.

4. أبو هو موسى الثاني وإعادة إحياء الدولة

تميز عهد "أبو هو موسى الثاني" بالانتصارات والتفوق وفرض قوة الدولة على منافسيها في بلاد المغرب الاسلامي، ومن جملة النتائج التي ترتبت عن هذا العهد هو ربط صلات دبلوماسية سياسية مع بني مرين؛ تتضمن في طياتها عقود ومواثيق تعيد رسم الحدود وفك قيود الأسرى والرهائن التلمسانيين، الذين أجبرتهم الظروف لوقوعهم تحت الأسر ومعاونة القهر⁽⁴⁾.

وعندما نتفحص واقع تلمسان طيلة فترة حكم الزيانيين، نجد بأنَّ أوقات الحصارات وما تلاها من هزائم واقتحام مدينة تلمسان على أهلها، كانت من بين الأوقات الحرجة في

¹ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، ص 296.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، ص 321.

³ - التنسي، المصدر السابق، ص 132.

⁴ - اجتمعت عوامل كثيرة تسببت في معاونة أهل تلمسان وتعرضهم للأسر في مدينة فاس وتشردهم في مدينة تونس والأندلس، منها كثرة الحروب والغارات المضروبة عليه، وهو ما أقدم عليه أبي عنان المريني سنة 753هـ/ 1253م وصفى أمراء بني زيان ثم ثقف أشرفهم وأسره. ينظر إلى: ابن الخطيب، رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1898م، ص 75.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

هذه الفترة، لاسيما في هزيمة "أبي تاشفين" سنة (737هـ/1337م)، ثم هزيمة الأخوين "أبي سعيد" و"أبي ثابت" سنة (753هـ/1352م)، إذ تمكن "أبو عنان فارس المريني" برمي مدينة تلمسان بثلاثة الأثافي، وأسر الآلاف من بقايا الزيانيين وغيرهم في فاس مركز حكم بني مرين، لكن عزيمة الاصرار والتحدي لإسترجاع المدينة والدفاع عن شرفها وشرف بني زيان كانت النقطة التي أفاضت الكأس، بحيث سينفجر "أبي سمو الثاني" في وجه المرينيين واسترد ملكه رغم أنوفهم بل وأجأهم إلى الصلح والمهادنة.

بُعِثَت الدولة الزيانية في أوج قوتها السياسية وتلاحم عصبيتها على قلة عددها في عهد "أبي سمو الثاني"، الذي حرص أشد الحرص على استرجاع الأسرى والرّهائن من قبيله وأتباعهم من فاس، وما احتفاله واحتفائه بهم عند استقبالهم ورضوخ بني مرين لشروطه في ذلك؛ إلا ردة فعل قوية لما شهدته الدولة من نكبات متتالية أفضت إلى تهجير وتشريد التلمسانيين خارج ديارهم المألوفة، قال "يحيى بن خلدون" في البغية: «في 10 رجب سنة 763هـ/1362م وصل بنو عبد الواد المثقفون كانوا بالمغرب، إلى باب مولاهم الذي أولاهم من الفضل ما أولاهم، في زهاء أربعمئة، قد أخذت يد السياسة بحجزهم عن مهاوي الهلاك»⁽¹⁾.

ثم إنه من المؤشرات الدالة على صحة هذا التفسير، ولا نعدم من القرائن ما يثبت هذا القول؛ فالنصوص تؤكد ذلك كما ورد في زهر البستان حيث يروي: «ثم أمر عند شروع الكتيبة في العقود بسراح بني عبد الواد وفكّهم من القيود، ولعمرك لقد كان على رَغْم بني مرين في التحقيق، إلا أن القهر والاضطرار، يدعون المرء أن يرتكب الأخطار، فكان أوّل برّاعة⁽²⁾ الخير تسريح بني عبد الواد، وأوّل السعادة خلوصهم من دار البوار وقهر الأعاد، ثم أمرهم بالمسير إلى بلادهم، بجملة أهلهم وأولادهم، فوصل البشيرُ بسراحهم، وجبرهم بعد انتزاحهم، فكان وُصولهم في العشر الأواخر من الشهر المذكور، وأذهب الله عنهم ما كانوا

¹ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 99.

² - البراعة: أي التَّفوق.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

فيه من القهر والتُّبور⁽¹⁾، فكان في جملتهم ثلاثمئة نفسٍ دون الأولاد، كلُّهم من وجوه بني عبد الواد، فسبحان محيي الرُّسوم الفانية، المانح بعد التُّبورِ العافية⁽²⁾.

اعتبرت عصبية بني زيَّان أنَّ سلطانهم الأجد "أبا محو موسى الثاني" منقذهم من معاناة الأسر والاسترقاق، وقد عبر على هذا الانطباع صاحب زهر البستان فقال: «واعتبر أنَّه خُلِقَ لسعادتهم⁽³⁾، فما تصفُ الألسنُ ما الله عليهم من الفضل بسلطانة، وما وقاهم الله به من دُلِّ العدوِّ وسنانه⁽⁴⁾.

والحقيقة أنَّ حروب بني مرين التي خربت كثيرا معالم تلمسان، وتسببت في الكثير من المصائب، تمثل خير دليل في فهم ظاهرة الخوف، وتبعاً لذلك يقتضي الأمر أن ينقلب الخوف إلى الطرف الآخر المريني، ومن بين المظاهر المفصحة عن ذلك ما كشف صاحب زهر البستان عن الخوف الذي تملك السلطان "أبا عنان"، عندما هدم سور تلمسان الذي كان درعا واقيا لبني زيَّان، فيقول: «وذلك أنَّ السلطان أبا عنان قد تحقق عنده عودة الملك لبني عبد الواد، وأنهم سيقومون عليه وعلى بنيه في البلاد، وأن هلاك قومه على أيديهم، فكان لا يخاف إلا من تعديهم، فلذلك هدم سور تلمسان، وجعلها مباحة بعد الاستحصان، مخافة أن يملكها بنو عبد الواد، فيظفرون منها بالبلاد⁽⁵⁾»، وكذلك فعل ذلك بالبلاد الشرقية والبلاد الغربية خوفا من بني عبد الواد⁽⁶⁾.

أ - التعبئة الحربية

يذكر لنا "الحسن الوزان" في وصف افريقيا عادات استعداد ملوك الزيانيين للحرب ضد عدوهم في قوله: «لكن في وقت الحرب عندما يزحف ضد العدو فإنه (ملك تلمسان) يجمع

¹ - التُّبور: يعني الحزن والويل والهلاك

² - مؤلف مجهول، زهر البستان، المصدر السابق، ص 186.

³ - يقول الحسن الوزان في وصف افريقيا في الصفحة 19: «ولما ضعفت شوكة بني مرين، تكاثرت سكان تلمسان من جديد حتى بلغ عدد دورها المسكونة ثلاثة عشر ألف دار»، إشارة الى أن فك الحصار أعطى متنفسا لمجتمع تلمسان في الاعمار وانكسار الخوف أو بعبارة دقيقة انتصر التلمسانيون على خوفهم.

⁴ - مؤلف مجهول، نفسه، ص 186.

⁵ - نفسه، ص ص 41 - 42.

⁶ - نفسه، ص 42.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

الأعراب والفلاحين من مختلف القبائل ويؤجرهم مدة العمليات العسكرية، ولا يصحب معه عندما يتجول في البلاد كبير موكب ولا معدات فخمة لإقامة المعسكر، وإنما يلبس و يقيم كمجرد قائد، ولا ينفق إلا القليل بالرغم من العدد الكثير من الجنود في حرسه»⁽¹⁾.

يشير "الوزان" إلى مرحلة متأخرة من المواجهات التي ربما شاهدها أو حدث عنها، غير أن جمع المحاربين وتنظيم الجيش كان من بين التقاليد المتوارثة داخل المنظومة الحربية لدى بني زيّان، وكانت التعبئة الحربية يومئذ على ما تعارفه الناس بينهم من الترتيب العسكرية المعهودة في الجيش العربي: المقدمة ومكانها في الحرب دائما أمام الملك أو نائبه، والميمنة عن يمينه، والميسرة عن يساره، والقلب وفيه يكون القائد الأعلى وورائهم الساقة وبهذا سمي الجيش خميسا⁽²⁾.

يصف "أبو هو موسى" حيلة ومكيدة للمواجهة في حربه مع بني مرين، في وصيته لابنه إذ قال: «فتأمل يا بني هذه المكيدة وتأمل هذه الحركة: يا بني وإذا رأيت عدوك الذي هو أقوى منك أراد التحرك عليك والمبادرة إليك، وكان قليل السياسة ضعيف الرياسة مع كثرة جيشه وماله وإمداده وأبطاله، فيرجى لك الظفر به والنصر عليه»⁽³⁾.

وكان "أبا هو الثاني" نفسه يدس العيون ويبثهم داخل مدن خصومه بني مرين على عادته، كما ذكر يحيى بن خلدون في قوله: «وجاء إلى الخليفة أيده الله بالخبر عيون المبتوثة بالمغرب، عادة لا يضلها حزمه، ولا تنساها سياسته»⁽⁴⁾.

وتجدر الإشارة هنا إلى استغلال الفرصة في الانقضاض على العدو في نقطة ضعفه وإصابته في مقتل، بحسب المذهب العسكري للدولة والإمكانات المتاحة لذلك، ويسترسل "أبو هو" في سرد التقاليد الحربية مع خصومه بني مرين، في قوله: «يا بني نستعمل معهم المحاولات والمكائد، وننصب لهم الاشرار بكل المراصد، إلى أن استخلصنا جميع بلادنا من

¹ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص ص 22 - 23.

² - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 131.

³ - أبو هو موسى، المصدر السابق، ص ص 178 - 179.

⁴ - يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ص 47.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

أيديهم وجازيناهم على تعديهم وذلك بين محاولة وقهر وتأيد ونصر، ولقد دخلناها عليهم دون جيش كثير ولا مال فبلغنا بالسياسة والمحاولة غاية الآمال، إلى أن صارت أموالنا أكثر من أموالهم وأحوالنا أحسن من أحوالهم وأعدادنا أكثر من أعدادهم وأجنادنا أوفر من أجنادهم وبلادنا أمهر من بلادهم»⁽¹⁾.

يخرج النَّصر من رحم الهزيمة النَّفسية والعددية؛ عندما تكون الخلفية الذهنية في الدفاع عن البلد والحرم وكسب النصر، والظفر بالغنيمة هي إعلاء راية التوحيد ولم الشمل، هذا شعور ايجابي انتاب "أبي هو الثاني" ترجمه إلى نظم تغنى به قصيدة نذكر بعضها منه على سبيل المثال:

جَرَتْ دُمُوعِي بَيْنَ الرُّسُومِ الطَّوَّاسِمِ لَمَّا شَحَطَتْهَا مِنْ هُبُوبِ الرِّوَاكِمِ
وَقَفْتُ بِهَا مُسْتَنْفَهًا لِخِطَابِهَا وَأَيُّ خِطَابٍ لِلصِّفَاتِ الصَّلَادِمِ
وَمَعَهَا أُسُودُ الحَرْبِ تُطْوِي بِهَا السَّرَى يَرُونَ المَنَايَا بَعْضُ المَغَانِمِ
مَكْرًا لِيَوْمِ الحَرْبِ لَا يَشْتَكِي أَلُونَا مَفْرًا إِذَا طَالَتْ عِظَامُ الهَزَائِمِ
شَدَدْنَا عَلَيْهِمْ شِدَّةً مُضْرِبَةً فَوَلُّوا شِرَادًا مِثْلَ جَبَلِ النِّعَائِمِ
وَهَبَتْ رِيَاخُ النَّصْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَكَانَتْ إِلَيْنَا مُبْهَجَاتِ العِنَائِمِ⁽²⁾

كما اقتضى العرف في تدبير الظاهرة الحربية؛ ما جرت به العادة في تقديم القبيلة المحمية للقبيلة التي تحميها، ما يلزمها من العلف لدوابها والضيافة لها⁽³⁾، وهو جاء في فتوى شيوخ تلمسان وفاس في نازلة يهود توات، وما يلزمهم من الجزية في أن لهم في دفعها "عوائد من قديم الزمان من الأشياخ في الأعياد وسائر النوائب من الفتن وغيرها من ضيافات العرب وغيرهم"⁽⁴⁾.

¹ - أبو هو موسى، المصدر السابق، ص ص 66 - 67.

² - نفسه، ص ص 67 - 72.

³ - حميد تيتاو، المرجع السابق، ص 136.

⁴ - الونشريسي، ج2، المصدر السابق، ص 217.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

ومن ناحية أخرى جرى العرف في بعض المناطق، بالتزام جميع أفراد القبيلة بضمان ما يدفع نيابة عنهم من مال وغيره لرد عدوان قبيلة أخرى⁽¹⁾، كما ورد في فتوى "القاسم العقباني" "عمن صالح أهل قريته في أموالهم من غاصب. فأجاب بأن قال: له الرجوع عليهم بما صالح به على حفظ أموالهم وأمتعتهم من أخذ الغاصب"⁽²⁾.

ب - الجوسسة وبث العيون في جيش العدو (الوشاية)

اجتمعت عوامل عديدة جعلت من "أبي همو" رائدا في الصراع السياسي والعسكري، "وقد دفع هذا أبا همو إلى التفنن في اختراع الوسائل التي تضعف عدوه وتقوي مكانه، فبث عيونهم في بلاد عدوه لاستطلاع أحواله، وطالب من يوالونه إما باليمين الموثق أو بالرهن على ولائهم، وحاول أن يختار الطقس المناسب للمعركة في بعض المرات"⁽³⁾، ولما طرد بني مرين من تلمسان سنة (760هـ/1359م) ودخلها منتصرا؛ فأبت بني مرين عليه ذلك وأفسدت انتصاره في السير إليه وقتاله في جيش متين لا قبل له به، وكان قد علم خبر عددهم وقوتهم من طرف بعث جواسيسه إليهم، فجاءته وأعلمته بالخبر⁽⁴⁾.

ثم كانت حركة "أبو سالم المريني" بعد ذلك في (761هـ/1359م)، متوجها إلى تلمسان في أعداد كثيرة وأمداد وفيرة ورماة مترجلة لا قبل "لأبي همو الثاني" بها، والعادة جرت عند "أبي همو" بدس العيون والجواسيس لتقدير قوة خصمه واتخاذ قراره، قال صاحب زهر البستان مبينا ذلك بأنه كان: «يبعث الجواسيس حيناً بعد حين، وتأتيه مياومة أخبار بني مرين، فأتته الجواسيس بالحركة فعرّفها يقيناً، وأوصاف المحلّة نقلاً وتعييناً، واستراح الخبر بالرحيل، والعلم بالكثير والقليل، فعندما تحقق إتيانه، وأنه يرفل بلده وأوطانه، أعلم أرباب دولته وأشياخ حضرته وفرسان جولته، أنّ أبا سالم قادم على البلاد، وعامل على قهر بني عبد

¹ - حميد تيتاو، المرجع السابق، ص 136.

² - الونشريسي، المصدر السابق، ص 215.

³ - وداد القاضي، النظرية السياسية للسلطان أبي هو الزباني الثاني ومكاتها بين النظريات السياسية المعاصرة لها، مجلة الأصاله، السنة الرابعة، العدد 27، سبتمبر - أكتوبر 1975م، ص 22.

⁴ - مجهول، المصدر السابق، ص 58.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

الواد، ثم تحدّث معهم يختبر آراءهم ويعرف أهواءهم، فمنهم من يقول بالملاقاة ومنهم من يقول بالفساد وشنّ الغارات»⁽¹⁾.

الجوسسة ظاهرة معروفة ومنتشرة في بلاد المغرب الاسلامي، وهي من الأساليب والتقاليد الحربية المستعملة عندي بني زيّان، وهي أحد أنواع السُّبل المتتوية في الحروب، بحيث تشكل تربصا وخطرا داهما لكلا الطرفين المتحاربين، وكان بنو زيّان بتلمسان يترصدون العدو ويتخذون العيون، وأصحاب الأخبار لجمع المعلومات الكافية من قبل جهات سياسية خارجية، ومن أجل التطلع إلى معرفة كل التفاصيل والدقائق عنهم، لاسيما في رحلاتهم وتحركاته، وكان لهذا التقليد الحربي أهمية كبرى في تثبيت دعائم الدولة الزيانية.

استعملها بنو زيّان قبل "أبو حمو الثاني" رغم خطورتها، للحصول على معلومات سرية خاصة بالعدو لاصابته في مقتل⁽²⁾، وتدلل الخطة العمرانية لمدينة تلمسان على رفع برجين للمراقبة بالمسجد الكبير بوسط المدينة على هيئة مئذنتين⁽³⁾، شيدهما "يغمراسن بن زيّان" لجواسيسه؛ حتى يتمكن من رصد تحركات الحفصيين والمرينيين على حد سواء، والتأكد من نواياهم قبل وصولهم إلى مشارف تلمسان، قبل ثلاثة أيام على أقل تقدير⁽⁴⁾.

ويبدو أنّ عيون وأصحاب الأخبار في دولة بني زيّان كان لها انتشار واسع في الخارج، يخفون أنفسهم ويتجسسون على ذوي الشأن وعلية القوم في دولة بني مرين بفاس، فضلا عن نقل أخبار المناوئين والمعارضين لبني زيّان، يقول "بن مرزوق" في المسند على لسان والده: «لما توجهت من تلمسان لفاس، في غرض الرسالة والسفارة في عقد المصالحة، عرض لي جماعة

¹ - مجهول، المصدر السابق، ص 102.

² - لكن هذه العادة السرية كانت وبالا وانهزاما على "أبي تاشفين الأوّل"، عندما بعث عيونته تتجسس في رصد فرصة للإيقضاض على "أبي الحسن" سنة (737هـ/1337م)، فكانت إحدى الهجمات الخاطفة على جموع بني زيّان وأميرهم، وولوا الأدبار لسوء تقدير قوة الخصم. ينظر إلى: عبد الرحمان بن خلدون، العبر، م7، ص 115.

³ - طلب أصحاب المهن والحرف البنائية من يغمراسن نقس اسمه على المئذنتين فرفض وأجابهم باللسان الزناتي "يسنت ربي"، أي: علم ذلك عند الله. لكن المؤشرات العمرانية لذلك تدل على أن يغمراسن اهتم بشكل واضح على رفع المئذنتين لغرض الدفاع، وبالتالي يفسر هذا التخمين على أن يغمراسن كأنه رفع برجين للمراقبة داخل المدينة لرصد كل الأخبار السرية والتحركات المستهدفة للملكه. ينظر إلى: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 228.

⁴ - سيدي محمد نقادي، الاسهامات، المرجع السابق، ص 28.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

من أهل تلمسان أخبروني بأن أحمد بن قاسم بن الحاج، وكان من وجوه أهل تلمسان، قد شدد عليه الثقاف وضيق عليه، لكونه اتهم بأن العيون والجواسيس الذين يصلون من تلمسان ينزلون به، فيؤويهم ويفيدهم بما يرجعون إليه من الأخبار»⁽¹⁾.

رابعا/ ظاهرة التكافل الاجتماعي وأثرها في بناء المجتمع التلمساني

1. علاج الأزمات في المجتمع التلمساني

أ- الأمن الغذائي

أصبح من الضروري على قبيل بني زيّان اتخاذ احتياطات على المستوى الأمني الاجتماعي للمحافظة على سلطانهم وعمرانهم، فكان إدّخار الطعمة والأشربة وتمصير الخنادق والمطامير سبيلا إلى ذلك، وما انفكّ العملُ مستمرا حتى صار عادةً مألوفةً منتشرة داخل المجتمع يحمي نفسه من كل الصدمات العسكرية التي يتعرض إليها فضلا عن الجوائح التي كان يتعرض إليها، ثم إن إدّخار الأطحمة والمؤن تحسبا لأي طارئ ساهم بشكل كبير في علاج الأزمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وشجع ذلك على نشاط التكافل والتضامن بين أفراد المجتمع التلمساني كلحمة واحدة، تتداعى لها سائر الأطراف بالمدد والمآزره ودفع الضرر.

ظل الأمن الغذائي يحتل مكانة هامة في التدبير السياسي للأزمات والكوارث الطبيعية خلال العصر الوسيط⁽²⁾، بحيث هو القدرة على إنتاج الغذاء داخل الدولة استعدادا للأزمات والحروب والقلاقل المحدقة بها والمهددة لكيانها، وبالتالي يكون سلوك الادخار حاضرا بأبعاده الاجتماعية والاقتصادية داخل تلمسان الزبانية، مما ينبئ على أن أفراد المجتمع كانوا متفوقين على غيرهم في هذا المجال، نظرا للظروف الأمنية العصبية التي عطلت كل منافذ جلب الرزق والمعاش، وما الحصار الطويل الذي دام ثمانية سنوات ونيف إلا دليل على ذلك.

¹ - ابن مرزوق، المسند، المصدر السابق، ص 322.

² - سعيد بنحمادة، المرجع السابق، ص 3.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

ومن القرائن كذلك ما وصى به "أبو همو الزياني" في واسطة السلوك، وُلِّيَ عَهْدِهِ بمراعاة الحاجات الغذائية العامة في مثل هذه الظروف المحرجة مع عدم احتكارها⁽¹⁾، منبهاً على خطورة المجاعات وآثارها السلبية على المجتمع والدولة⁽²⁾، إذ يقول: «وإن كان من قحط ومجاعة واقعة وأزل فترفق بهم في المخازن والمجابي، وتحسن لضعفائهم المحتاجين وتحابي وتؤثرهم مما ادخرته لشدائدهم في زمن الرِّخاء من فوائدهم، فتَعمر أسواقهم بما اختزنته من الطعام، مما يقوم بهم أود الناس في ذلك العام»⁽³⁾.

وبما أنَّ الأمن الغذائي هو وليد محددات طبيعية واقتصادية واجتماعية وذهنية، فإنَّ النظام الغذائي لم يكن مجرداً عن ولي الأمر؛ وإنما تحددت معالم الادخار فيه وفق مراعاة أزمنة الشدة والضيق مع توازن عقلاني في التسيير، وهذا ما يتجلى في وصية "أبي همو" لابنه قائلاً: «واعلم يا بني أن بالطعام قوام عالم الإنسان فلا تفرط في اختزانه في كل أوان، وليكن غرس ذلك الحصن ما يكون به الانتفاع مثل التين والزيتون وما قارب هذه الأنواع»⁽⁴⁾.

نرى في هذه الوصية تنبيه "أبي همو الثاني" لابنه؛ بضرورة توفير الغذاء والحرص على تحصيله وعدم التفريط فيه، فضلاً على استغلاله بشكل جيد مادام متوفر مثل التين والزيتون، وهذا التخزين يعد وجهاً من بين أوجه الاستعداد للحروب⁽⁵⁾.

طالما كانت العامة في المجتمع التلمساني تدخر الأطعمة والأشربة لوقت الشدة والحاجة، وفي اعتقادنا أنَّ هذا السلوك الايجابي ينم على أنَّ الأمن الغذائي عندهم بات أولوية قصوى لضمان استقرارهم وازدهارهم، فكانوا يصنعون المطامير لاختزان مختلف المواد الضرورية في معاشهم اليومي.

¹ - على ذكر احتكار الأطعمة زمن مسغبة أو خمصة أورد العقباني فتوى تمنع ذلك، مع اجازة احتكارها في وقت لا يضر كلها القمح والشعير وسائر الأطعمة، ويمنع احتكارها كلها ما عدا الأدم والفواكه والسمن والعسل والتين والزبيب وشبه ذلك. ينظر إلى العقباني، المصدر السابق، ص ص 129 - 130.

² - سعيد بنحمادة، المرجع السابق، ص 3.

³ - أبو همو موسى، المصدر السابق، ص 152.

⁴ - نفسه، ص ص 153 - 154.

⁵ - موسى هواري، تخزين الحبوب ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، العدد الثامن، ديسمبر 2016م، ص 122.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

إذ يعطينا "ابن مرزوق" في المناقب نصا واضحا عن ذلك في قوله: «حدثني عمي رحمه الله تعالى، أنه كانت له مطامير⁽¹⁾ من قمح وفحم وكان يعد اللحم المدخر المعروف بالمسلي⁽²⁾ وبالخلنج والزيت، فإذا كان يوم الثلج فتح مطمورة من قمح وأخرى من فحم ويتصدق بالزرع والفحم والإدام طول يومه، فلا يرجع إلى داره حتى يفرغ من المطمورتين»⁽³⁾، وتتواجد هذه المطامير في حي مخصص لذلك يسمى بحي (المطمر) ما بين باب كشوطة والقرمدين.

لاشك أن المطامير كانت تتخذ في البيوت لادخار القوت والحبوب وما إلى ذلك من المعاش، فهي لها منافع كثيرة منها تزويد أهل البيت بالمؤونة اللازمة وقت الحاجة إليها خاصة في زمن القحط والمجاعة وانعدام الأمن، ولعل السبب الرئيسي الذي حول هذا السلوك الادخاري إلى عادة متأصلة في مجتمع مدينة تلمسان هو انعدام الأمن والاستقرار في الكثير من الأحيان.

وبالتالي كانوا يلجؤون إلى حفر مطامير داخل بيوتهم ويتم إخفاؤها وحمايتها لتصمد مدة أطول دون أن تفسد، يقول "بن فضل الله العمري": «بلاد الغرب»⁽⁴⁾ مخصوصة بطول

¹ - المطامير: جمع: مطمورة. هي حفر تحفر في الأرض توسع أسافلها تحبأ فيها الحبوب، ومنها جاءت المَطْمُورَةُ: وهي حفرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هُبِيَ خَفِيًّا يُطْمَرُ فيها الطعام والمال أي يُخْبَأُ وقد طمرتها أي ملأتها، بحيث يكون فيها ضيقاً وأسفلها واسعاً، وهي تُحْتَاجُ بَعْدَ الحفرِ إلى المعالجة، فَتُطَيَّنُ جُدْرَانُهَا أحياناً بالطين الممزوج بالشعير ودقاق التين، وقد تُبْنَى جُدْرَانُهَا الدَّاخِلِيَّةُ بالحجارة والطين الممزوج بالتين، ثم يتم تمليط هذه الجدران من الداخل، ولعل هذا لا يكون إلا في حال كانت المطمورة في ثربة غير متماسكة، فتلك التي حُفِرَتْ في أرض صخرية صلبة لا تحتاج إلى بناء. وقد يقصد كذلك بالمطامير (الأهراء) كما ذكر بن خلدون في العبر عن أبو زيان أثناء الحصار، حيث سأل خازن الزرع وقال له: «كم بقي من الأهراء»، ج7، ص 101. ينظر إلى: ابن منظور، المصدر السابق، م2، ص 769. ياقوت الحموي، المصدر السابق، م5، ص 147. موسى هواري، نفسه، ص 124-125. مقدمة بن خلدون، ص 320.

² - المسلي: هو اللحم المُصَبَّرُ أو المُقَدَّدُ، يُقَطَّعُ وَيُمَلَّحُ وَيَجْفَفُ فِي الشَّمْسِ وَالهُوَاءِ، وَأُسْتَعْمِلَتْ هذه الطريقة في تخزين اللحم مدة طويلة لدى مجتمعات المغرب الإسلامي خاصة في عيد الأضحى، وعادة ما كانوا يستعملونه في أطباق متنوعة كالكسكسي والطاجين وغير ذلك. ينظر إلى المنتصر بن أبي لحية القفصي، نور الأرماس في مناقب القشاش، تحقيق ودراسة عيسى وحسين بوجرة، المكتبة العتيقة، تونس، 1998م، ص 555.

³ - ابن مرزوق، المناقب، المصدر السابق، ص 190.

⁴ - يقصد بذلك بلاد الغرب الإسلامي بما فيها الأندلس.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

مكث المخزونات بها، فإنه ربما بقي القمح والشعير في بعض أماكنها ستين سنة⁽¹⁾، لا يتغير ولا يُسوسُ ثم يخرج بعد خزن هذه المدة الطويلة فيزرع وينبت، وخصوصا تلمسان في بر العدو⁽²⁾.

يستنتج من ذلك أن أرض بعض المناطق كانت تحفظ الحبوب لفترات طويلة، ولكنها لا تصل أبدا إلى المدة التي ذكرتها هذه الكتابات، لأن التجربة أثبتت أن المدة المثالية لحفظ مختلف أنواع الحبوب هي ثلاث سنوات، وقد تطول لأعوام قليلة أخرى تبعا لطبيعة المواد المخزنة ونوعية التربة، فالحبوب المحفوظة في المطامير يصيبها دائما تغير⁽³⁾.

يتبين لنا مما سلف أن المطامير كان يتخذها العامة من الناس، وسيلة لدفع الأيام العصبية مثل أيام الثلج القارسة التي يعانون منها في تحصيل طعامهم، ومن هنا ندرك قيمة هذا المجتمع في الحفاظ على التوازن المعيشي بأبسط الوسائل المتاحة لديه آنذاك، بحيث انتقلت هذه التجربة من فعل ايجابي يؤمن للفرد والجماعة داخل تلمسان غذائه ومعاشه في الأزمات والحروب إلى عادة مستحسنة في كل موسم يمر، حتى أصبحوا يفضلون الأطعمة بعد خروج الأزمة ويتصدقون بها ثم يجددون التخزين لموسم آخر.

وينقل لنا "ابن مرزوق" عن عمه دليلا صريحا يدعم ما أتينا في قوله: «وكان إذا اجتمع زرعه واختزن - القمح -، لا يكاد يقوم بقوت أهل داره طول السنة، فكان يجعله في مخزن وينهى عن أن يكال، فيخرج منه بطول العام ما يتغذى به أهل محله ويتصدق منه طول الأيام⁽⁴⁾»، وتجدر الإشارة إلى أول من سن هذه العادة الوقائية من تفشي الأوبئة وصد الخطر الخارجي هو السلطان "أبو حمو موسى الأول" عندما تقلد الحكم سنة 706هـ/1307م "

¹ - قال المحقق: يَجُوزُ أَنْ تُكُونَ مَا أُثْبِتْنَاهُ وَيَجُوزُ أَنْ تُكُونَ مُحَرَّفَةً عَنْ سِتِّينَ سِنَةً أَوْ سِتِّ سِنِينَ. نقل بن فضل الله في كتابه عن ابن ظافر في كتابه سياسة الملوك: أن القمح يقيم بطليطة ثمانين سنة مخزوناً في صهاريج، ثم يخرج ويُزْرَعُ قال: ولا يزيدا مدة الخزن إلا صفاء، ولا طول المكث إلا جدّة. يبدو أن هناك مبالغة في ما روى بن فضل الله لأن مدة المخزون طويلة جداً ومن غير الممكن أن يمكث الزرع طول هذه المدة دون أن يفسد. ينظر إلى الصفحة، رقم 206.

² - ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص 205.

³ - موسى هواري، المرجع السابق، ص 127.

⁴ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 236.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

فشيد الأسوار وأقعر الخنادق وملاً المطامير والصناديق"⁽¹⁾، وكان في الحي الغربي لتلمسان الذي يدعى (المطمر)، مخازن محفورة في الأرض تخزن فيها المؤونة من الحبوب التي تصبح تممة جدا في حالة حصار⁽²⁾.

فلاشك أن "أبا همو الأول" أخذ كل الاحتياطات اللازمة من أجل بقاء نسل بني زيّان في تلمسان، لأن لا يفنوا على يد بني مرين جراء الصدمة النفسية من الحصار الطويل عليهم، وعلى هذا الأساس يزودنا "التنسي" بمعلومات دقيقة مفادها كالاتي: «وبنى الخنادق، وخزن فيها من الطعام والادام والملح والفحم والحطب ما حد له ولا حصر»⁽³⁾، إذا كانت الخنادق في تلمسان حصنا دفاعيا لها يصد كل الهجمات الموجهة إليها من طرف العدو؛ فإنها كانت تؤدي دور اجتماعيا آخر وهو تخزين المؤن وغيرها من المواد الضرورية داخل المدينة وفي البيوت.

في نفس السياق يوضح "ابن فضل الله العمري" أكثر عادة الادخار وتخزين الحبوب والزروع واللحوم؛ التي بدأها "أبوهمو موسى" الأول من جراء رحيل بني مرين عن حصار تلمسان، ثم واصل على منواله ابنه "أبي تاشفين"، فيقول: «وشرع حينئذ أبو همو في تحصيل قوتها وتحصين أسوارها، ولم يدع ما يحتاج إليه المحاصر لعدة سنين كثيرة حتى حصله من الأقوات والآلات حتى سلّيت الشحوم، وئملت بها الصهاريج ومئلت أبراج المدينة بالملح والفحم والحطب واختزن أرضاً داخل المدينة كلها زرعاً، ومات أبو همو وولي بعده أبو تاشفين فزادها تحصيلاً من الأقوات، وتحصيناً من الأسوار والآلات»⁽⁴⁾.

يروى "ابن مرزوق" في المناقب قصة عن معاناة طلبة العلم وبعض التجار، الذين خافوا على أنفسهم وأموالهم من حملة "أبو زكريا الحفصي"، واستنجدوا بجد "بن مرزوق

¹ - يحيى ابن خلدون، ج1، المصدر السابق، ص 235.

² - عطاء الله دهبينة، المرجع السابق، ص 370.

³ - التنسي، المصدر السابق، ص ص 135 - 136.

⁴ - ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص 204.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

الجد" لكي يحميهم ويستأنهم من الضياع والهلاك، وقالو له: «نجعل أسبابنا في دارك»⁽¹⁾، أي يضعون أمتعتهم في داره، الشاهد من هذه القصة أن جعلوا أمتعتهم وأموالهم في مصرية كانت للشيخ بالقرب من المسجد الجامع، وهي بمثابة مستودع الأغراض الشخصية، وتخزين كل ما يحمله الوافد على الشيخ من سلع وأطعمة وأفرشة وغيرها في أوقات الضرورة. وعقب "ابن مرزوق" عن ذلك فقال: «فجمعوا أسبابهم وأسباب التاجر، فجعلوها في الموضع المذكور، وتفرق الناس فأكثرهم اختفى في القنوت والمطامر والصُّبور والمواضع الغائبة»⁽²⁾، على غرار المطامير التي كانت مخزن للمؤونة ومكان شبه آمن يختفي فيه الخائف؛ فان المصرية كانت من بين المخازن الأساسية التي يفرع إليها الخائفون وقت الحرب والحصار. كما أفادت الخطة العمرانية لمدينة تلمسان؛ أن أهلها تعودوا على تخزين مؤنهم في الطارمات والمصريات وأسطح المنازل، ويعد ذلك مظهرا من مظاهر التكافل الاجتماعي في حياة الناس:

• **المخزن:** هو بيت المؤونة العائلي؛ يضم البعض من هذه المخازن بابا ثانيا ينفتح على الدرب لتسهيل تموينه، وهو يعرف بالمخزن إذا كبر حجمه، وبالخزانة إذا كان الأمر دون ذلك⁽³⁾، والمخزن يساوي الطارمات⁽⁴⁾، وينقسم عادة إلى جزئين رئيسيين وهما:

➤ **جزء المؤونة:** وهو الذي يسمى في الواقع بالطارمة، وبه دكانات وطاقات ورفوف لوضع الأكياس الجافة، ومنها الفول والعدس والحمص، كما نجد الخواب (لزييت الزيتون) والأقساط والطبريات لوضع الأطعمة المحضرة (الحلويات، العجائن)، أو نصف محضرة (الخليع، القديد، والمصبرات كالزيتون)، كما تعزز على جدران هذا الجزء الملائم لتعليق

¹ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 172.

² - نفسه، ص 173.

³ - ويطلق عليه لفظ (المخزين) للتصغير.

⁴ - هي بناء تحت أرضي مخصص في غالب الأحيان لحرفة الدرازة. ويقال كذلك الطرمة: وهي خزانة العسل، زيت الزيتون، مكسرات وقد تصنع من الفخار.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

بعض الخضر الجافة (ثوم، بصل، فلفل)، وكذا الأعشاب الطبية (شبح، زعتر، مرعى الحمام أولوية)⁽¹⁾.

➤ **جزء الوقود والطبخ:** وبه صندوق الفحم، وبالزاوية المحتذية لمكان الفحم يوجد موقد ضخّم تعلوه مدخنة؛ يستعمل الموقد لتسخين البرمة، وهي وعاء ضخّم من النحاس الأحمر السميك تستغل في عملية التصيين، وأيضا لتسخين الطناجير وهي القدور الكبرى التي تستخرج لتحضير الأطعمة أيام الأفراح⁽²⁾.

• **المصرية:** ورد ذكرها في المناقب بأنها مكان مخصص لممارسة التجارة ومكانها في الحي، واستعملت في أوقات الاضطرابات لإيواء الغرباء داخل المدينة والتكفل بهم⁽³⁾، إلا أنها كانت تؤدي دور اجتماعيا محضا على عكس الأولى، حيث أستغلت في الغالب للسكن المؤقت فقط ولجماعة معينة، وعلى أساس أنها خاصة بالضيوف؛ يصعد إليها من الدار الملازمة لها، كما هو الحال بدرج سلسلة⁽⁴⁾.

فالمصرية توجد إذن بالضرورة فوق سقيفة المدخل، وكان الضيفان يستقبلهم صاحب الدار فيها، من أجل إحياء ذكرى أو وليمة معينة أو لقراءة جزء من القرآن (السلكة)، كما يستقبل فيها ذوي القربى من الذكور الذين لا يجوز لهم الإقتراب من الحريم⁽⁵⁾، ومع ذلك كان التلمسانيون يستغلونها في ايداع بعض أغراضهم وأقواتهم الضرورية.

• **سطح الدار:** نظرا للبناء المحكم للعرمان الاجتماعي في مدينة تلمسان؛ فإن ذلك يعطينا انطبعا لطبيعة النسيج العمراني المساهم في استقرار أحوال الناس بواسطة التكافل الاجتماعي، فأسطح المنازل بتلمسان كان تستعمل في النهار المشمس بتناوب فيه الأعمال التالية: تجفيف الملابس والمفروشات والأصواف، وتبييس الفواكه (التين)، أو الخضر

¹ - سيدي محمد نقادي، الخطة العمرانية، المرجع السابق، ص 164.

² - نفسه، ص 164.

³ - ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 173. وبذلك تمثل بناءات علوية يتهافت عليها الحرفيين الذين يريدون الحفاظ على أسرار مهنتهم.

⁴ - ينظر للملحق رقم 12

⁵ - سيدي محمد نقادي، نفسه، ص 166.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

(الفلفل)، أو اللحم (القديد)، وتجفيف القمح قبل طحنه، وتشميس وتهوية الأمتعة من الرطوبة إن وجدت⁽¹⁾.

جرت العادة اليومية بالاشتغال على هذا النهج داخل البيوت التلمسانية، بالإضافة إلى ذلك كان التلمسانيين يراعون الجوار ويتجنبون إزعاج الناس بعبادات أخرى خصصت ممارستها بالأسطح، مثل: تحميص البن في لتجنب إذاية الناس بالدخان، أو بالرائحة كتبخير الصوف، ويستقبل السطح أيام الأفراح كالنساء والأطفال وذلك متى وجد الرجال وسط الدار، أما بالليل فيتحول إلى مقر للسهر خاصة في فصل الصيف، وإن كانت هذه العادة نادرة في تلمسان؛ إلا أن ذلك كان واردا بأسطح المنازل الصغيرة التي تأوي عائلة متواضعة العدد⁽²⁾.

إن سلوك الادّخار كان من بين الأسباب التي أدت إلى صمود المجتمع الزياني لمدة طويلة تحت وطأة الحصارات المضروبة على تلمسان، لاسيما الذي ضربه "أبو الحسن المريني" سنة (737هـ/1337م) وأغلق جميع المنافذ وقطع وسائل الحياة والاتصال والامدادات عنها⁽³⁾، ليرغم أهلها على الإستسلام وحكامها إلى الخضوع إلا أنه لم يفلح في مهمته، يقول "العمرى" في رحلته عن صمود أهل تلمسان: «وكانوا مع هذا التّشديد الشّدِيدِ فِي غَايَةِ الامْتِنَاعِ، لِحِصَانِهِ بَلَدِهِمْ وَلِكثْرَةِ مَا يَهَا مِنَ الْمَاءِ وَالْأَقْوَاتِ، وَلَمْ يَظْهَرِ مِنْهُمْ وَهْنٌ وَلَا خَوْرٌ لَانْقِطَاعِ الْمِرَّةِ لَمَّا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَخْزُونِ، حَتَّى قَدَائِدَ اللَّحُومِ وَمَسْلِيَّاتِ الشُّحُومِ وَلَمْ يَتَّعِرْ طَعْمُهَا»⁽⁴⁾.

ولأن الحرب النفسية تعتمد في تعبئة الناس على العواطف والغرائز والتكافل الاجتماعي بشكل أساسي، فإن مخزون المجتمع الزياني المُحصَرين من المؤن كان يعينهم

¹ - سيدي محمد نقادي، المرجع السابق، 165.

² - نفسه، 165.

³ - تسبب السلطان المريني أبو الحسن في قطع واغتصاب كل ما يصل إلى تلمسان من ماء وحبوب وزرع وغير ذلك، وأثناء حصاره لتلمسان استولى على كمية كبيرة من الحبوب العائدة من العشور المفروض على المزارعين في مدينة تمزيزدكت، والتي أمر السلطان الزياني أبو تاشفين بتخزين الحبوب فيها عندما حاصر مدينة بجاية، إلا أن أبو الحسن المريني احتكرها وباعها لتجار ميورقة. للمزيد من التعرف أكثر يرجى الاطلاع على: تاريخ الدولة الزيانية، لمختار حساني، ج2، المرجع السابق، ص 59.

⁴ - ابن فضل الله العمرى، المصدر السابق، ص 206.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

على الثبات مدداً طويلةً إلى حدٍ ما، إذا ارتفعت روحهم المعنوية بالأمل في نجدة تأتيهم وإخلاصهم لأمرهم⁽¹⁾.

ولا مشاحة أن الخبز والعودة للتغذية النباتية؛ من بين أهم التغذية التي كانت المجتمعات المتوسطية في بلاد الغرب الإسلامي⁽²⁾ تهرع إليه كبديل للأغذية المألوفة الأخرى، في وقت المساعب والجوع والحصرات، وبما أن تلمسان توفرت على جيوب مائية داخل المدينة؛ فإن أهلها اتجأوا إلى استغلال الماء في إنتاج المأكولات النباتية لسد حاجاتهم الغذائية، وهذا أحد مقومات الصمود لفترة طويلة من السنين العجاف التي عرفوها.

ساهم الحصار الطويل على مدينة تلمسان في كوارث غذائية؛ أصابت في الصميم فقراء الأمة وغيرهم من الشرائح الاجتماعية الدنيا، فيضطرون والمسغبة قائمة، إلى تناول أغذية أسوأ بكثير مما اعتادوا تناوله، أو تفتقر فيها أدنى الشروط الصحية⁽³⁾، حيث ضيق أبو يعقوب على أهل تلمسان "حتى أكلوا الجيف والحشرات وجميع الحيوانات من الفيران والعقارب والحيات والضفادع وغير ذلك"⁽⁴⁾.

لكن ذلك لم يمنع أهل تلمسان من تقاسم الألم بينهم وتكافلهم والأخذ بأسباب الصبر ومواساة بعضهم البعض وسد حاجياتهم، مما زاد في رباطة جأشهم وصمودهم وتحديهم للأوضاع المزرية والقاهرة لحياتهم، فكانت نتيجة هذا التضامن تماسك بنية المجتمع وحمايته من الزوال، فضلا عن كونه حاجة ملحة في علاج الأزمات الخطيرة، وما المستودعات

¹ - جي بربيل، المرجع السابق، ص 3911.

² - ابراهيم القادري بوتشيش، ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات - المغرب والأندلس من القرن 6 حتى القرن 8هـ / 12-14م نموذجاً، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد 7 - 8، 2013م، ص 33.

³ - الحسين فقادي، من مظاهر التغذية في تاريخ المغرب الوسيط، مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع، الدار البيضاء، العدد: 16، السنة السادسة جوان 1999م، ص 49.

⁴ - ابن الأحرر، المصدر السابق، ص 69.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

الجماعية لادخار المؤونة ورغبة أفراد المجتمع في صد شبح الآفات الطبيعية؛ إلا أصدق سلوك تآزري عرف به أهل المغرب والأندلس⁽¹⁾ عامة وأهل تلمسان خاصة.

ب - ظاهرة تهافت النسوة في ادّخار الذهب والفضة: عرف أهل تلمسان ظاهرة جديدة تنم عن سلوك اجتماعي راقٍ، وهي ظاهرة تهافت النسوة في ادّخار الذهب (تخزين الذهب والفضة)، ويتبادر إلى الذهن السؤال التالي: ما هو الدافع الذي جعل هؤلاء النسوة يتهافتن في ادّخار المعادن النفيسة؟.

لا ريب أن الظروف السياسية والاضطرابات المختلفة التي تعرض لها المجتمع التلمساني على العهد الزياني؛ من شدائد وأزمات اجتماعية واقتصادية ساهمت بقوة في تشكيل عاداته وتقاليد وذهنياته، وبرزت هذه الظاهرة كاستجابة فورية للأزمات المحدقة بالمجتمع.

اعتمادا على الموروث الشعبي التقليدي لمدينة تلمسان، وما جادت به الذاكرة الشعبية من تقاليد وأعراف التي أغفلتها الاسطوغرافيا التاريخية الزيانية، فإننا لا نجد حرجا في الركون إلى هذا الموروث كمصدر رئيسي للدراسة، ومن هنا يتأتى لنا القول بتهافت النسوة في ادّخار المعادن الثمينة تحسبا للشدائد وأمن العيش وليس للتباهي، واعتدن على ذلك بصفة مستمرة إلى زمن متأخر.

وباعتبار جودة هذه المعادن وارتفاع قيمتها؛ ستتحول الأسر التلمسانية إلى أسر ميسورة الحال وتساهم في معالجة الأزمات الاجتماعية بالتضامن والتكافل والتعاون، وبالتالي تنتقل العادة من فردية إلى جماعية مؤثرة بشكل ايجابي في تحدي الشدائد وتجاوزها إلى رفاهية العيش، وبذلك تكن النسوة قد امتلكن وعيا دينيا واجتماعيا راقيا، وأسهمن بأموالهن وحليهن في أعمال البر التي تعود بالنفع العام على مختلف أفراد المجتمع ومؤسساته⁽²⁾.

¹ عبد الهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6-8هـ/14-16م)، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2008م، ص 215.

² زهور أربوح، أوضاع المرأة بالغرب الإسلامي من خلال نوازل المعيار للونشريسي - دراسة فقهية اجتماعية -، ط1، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2013م، ص 275.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

ولا شك أنّ ولع المرأة التلمسانية الأبدي؛ بما تدخره من مجوهرات وحلي تضعه على جيدها ومعصمها، أنتج وفرة اقتصادية هامة أنعشت نفوس الطبقة الفقيرة وملأت جيوبهن حيناً، فالأعيان والميسورين من الرجال لا مجال لهم في الحصول على ما لهم إلاّ بدعم من نسائهم، اللاتي يدفعنهم لشراء ما يردن.

2. ظاهرة الأحباس - تهافت الأهالي على تطبيق قاعدة التصدق بالمال الفائض -

بلغت ظاهرة الأحباس في تلمسان الزيانية شأواً كبيراً ما لم يبلغه أي نوع من الأملاك، حيث استعملت لأغراض كثيرة مما جعل دورها الاجتماعي والثقافي رائداً، ومن ذلك العناية بالعلم والعلماء والمتعلمين والمساجد والمدارس والفقراء واليتامى وفي السبيل، وتظهر أهمية الأحباس في مدينة تلمسان على الصعيد الديني والاجتماعي والعلمي، فهو مصدر حياة الثقافة ومؤسساتها، كما هو مصدر حياة المجتمع على جميع فئاته من حيث دوره الفعال في التضامن والتكافل، فضلاً على أنه يصبو إلى تخفيف آلام المحتاجين وبث روح السعادة والمحبة بين أفراد المجتمع، مع الحد من تفشي ظاهرة البؤس والتسول.

تستند ظاهرة الأحباس والتصدق بالمال الفائض في المجتمع التلمساني مشروعيتها من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾، سميت صدقة لأنها تؤكد صدق الانسان في طاعة الله، وفي انفاقه أحب ما يملك، لقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾⁽²⁾، وفسر العلماء بأن هذه الصدقة تطهر الغني من الشُّح وتطهر الفقير من الحقد وتطهر المال من تعلق حق الغير به، كما تزكي الغني وتنمو نفسه وينعكس ذلك سعادة في قلبه، وبالتالي اعتاد أهل تلمسان إخراج الصدقة وإيداع الأحباس في أماكنها، فضلاً عن تصريف المال الفائض لصالح المنفعة العامة كما هو متعارف عندهم.

¹ - سورة التوبة، الآية رقم 103.

² - سورة آل عمران، الآية رقم 92.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

تتمثل هذه الظاهرة في عائلة "المقري" وغيرها في تلمسان الزيانية، إلا أن آل "المقري" عملوا بمقتضى القرآن الكريم وطبقوا الأحكام الشرعية في ذلك، بل تجردوا من الدنيا وملذاتها رغم غناهم الواسع، والمتتبع للخطة العمرانية وما يقابلها من الروايات التاريخية يفهم معنى الزهد في العمارة وغيرها من ضروريات الحياة اليومية للآل المقري وغيرهم، قال الحسن الوزان "دور تلمسان أقل قيمة بكثير من دور فاس"⁽¹⁾، جاء وصفه دقيقا لما كان عليه أهل تلمسان؛ إذ كانوا يتجنبون الإسراف في تبذير المال على زخرف العمارة المدنية وينفقونه في أغراض أخرى تتعلق بالعلم والتعليم والمساهمة في بناء الدور والمنازل والمدارس حسباً لمستحقيها⁽²⁾.

وبما أن شركة آل "المقري" التلمسانية كانت شركة احترافية ومشهورة بتجاريتها الخارجية؛ فإنها ساهمت بعمل تضامني كبير تضامني كبير في الحركة الثقافية⁽³⁾ ومن خلال التصديق بأموالهم لفائدة المحتاجين وأصحاب الفاقة بتلمسان، ثم تحسيسهم "لخزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب"⁽⁴⁾.

وفي إطار التكفل الفعلي بطلب العلم، كان "أبا العباس السبتي"، العالم الصوفي قد طالب بتعزيز منح الطلبة، وذلك بدعم من بيت المال، فصارت الصدقات المقدمة من الخواص للطلبة تسمى في تلمسان وفي سائر مدن المغرب الأوسط والأقصى (بالعباسية)، نسبة "لأبي العباس الخزنجي السبتي"⁽⁵⁾.

3. تجليات عادة التوزيع النسائية في الحياة الاجتماعية للمجتمع الزياني

أ - ظاهرة عمل المرأة: ورد في تحفة الناظر عند "العقباني" إشارات واضحة تدل عن عمل المرأة التلمسانية، وكان ذلك عرفا سائرا في ذلك الوقت وبقي معمولا به إلى وقت

¹ - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 19.

² - المقري، نفع الطيب، ج5، المصدر السابق، ص 198.

³ - بكاي هوارية، شركة آل المقري التجارية ودورها في تمتين العلاقة التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي، مجلة المعارف، جامعة الوادي، العدد 04، 2018م، ص 171.

⁴ - ابن الخطيب، الاحاطة، ج2، المصدر السابق، ص 560.

⁵ - نقادي سيدي محمد، الاسهامات، المرجع السابق، ص 78.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

متأخر من العصر الحديث، فلم يكن اجتماع النسوة للتويذة أو لغيرها من العادات؛ منكرًا يقتضي الشرع محاربتة والحد منه أو يتم تغييره من طرف المعنيين به، لاسيما وأن الواقع الاجتماعي فرض وجود نوازل وفتاوى تبين مضمونه؛ بقدر ما كان ظاهرة اجتماعية واقتصادية مألوفة داخل المجتمع التلمساني.

كان سوق الغزل بتلمسان يفتح أبوابه لأصحاب الحرف والمهن والصنائع المحلية، منذ الصُّباح ولا يغلق حتى ينصرف الباعة والتُّجار إلى دورهم، وجرت العادة لدى المرأة الزيانية العمل داخل بيتها؛ لمختلف المهن والحرف التقليدية حتى لو كانت ميسورة، مع الاتقان والاحكام في الصنعة لتنتج أجود النسيج أو الأقمشة وغير ذلك، ثم تذهب به إلى سوق الغزل لتبيعه⁽¹⁾.

وهذا ما يدلنا على نشاط المرأة في ميدان العمل وحركة السوق، علما بأنها كانت تنتج كميات كبيرة من غزل الصوف وصناعة الأنسجة وغيرها، بل وكانت الصنائع التلمسانية في المنسوجات من أجود الصناعات التي طارت في الآفاق وأشاد بها أهل المغرب الاسلامي، لإحكام الصنعة وإتقان العمل، والدليل على عمل المرأة وحرفتها ما أورده "بن مرزوق" في المسند، عندما عفا "أبا الحسن المريني" على أهل تلمسان بعد دخوله إياها، خاصة من أهل الحرف والصنائع، وذكر بأن "امرأة كانت سواقة تنادي على السلع بالدور"⁽²⁾، وجرت العادة أن تتولى هذه المهنة من النساء المرأة (المُتَّجَلَّةُ)⁽³⁾.

وفي الذاكرة الشعبية نجد بأن الأم تتباهى ببيتها المخطوبة بقولها: (كل أصعب بصنعة)، فتصبح بذلك الفتاة تشارك بحماس في تكوين شهرتها بنفسها، ومن القرائن التي تثبت ذلك ما أشار إليه "العقباني" في مدونته الفقهية، بأن أهل تلمسان اعتادوا أن لا يبيعوا إلا المميز من المنتوجات الصناعية مثل (اللُدُّ) وهو العدل من الصوف⁽⁴⁾.

¹ - العقباني، المصدر السابق، ص 78.

² - ابن مرزوق، المسند، المصدر السابق، ص 194.

³ - العقباني، نفسه، ص 78. المُتَّجَلَّةُ: هي المرأة التي لا أرب للرجال فيها.

⁴ - نفسه، ص 115.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزبانية

إجتماع النساء للتَّويزَة⁽¹⁾:

ب - **تويزة الغزل والنسيج**: اعتبرها "العقباني" تقليدا اجتماعيا عند النساء بمدينة تلمسان، ألفتُهُ في غزل الصوف إعانةً ورفقا، بحيث يلتقي النسوة في بيت احدهن ويجتمعن في مجلس واحد يغزلن الكتان والصوف⁽²⁾، وتعرف بتويزة الغزل والنسيج.

• **تويزة تنقية القمح**: تقوم النساء بتنقية القمح من كل ما يمكن أن يعلق به بعد نخله، ثم يغسلنه في مكان الإقامة، ويقمن بتجفيفه تحت أشعة الشمس، وبذلك يكون مهياً للطحن⁽³⁾.

• **قتل الكسكسي**: يتم دعوة النسوة لقتل الكسكسي عادة في حالتين اثنتين: لدى وشاكة إقامة زفاف، وإما لدى دنو شهر رمضان، حتى يتفرغن بحلول إحدى المناسبتين إلى أعمال ونشاطات أخرى⁽⁴⁾.

• **تويزة عجّن الخبز**: جرت العادة في الولايم والأعراس؛ أن يطلب من بعض النساء المعروفات بلياقتهن البدنية وقدرتهن على الاحتمال، بأن يقمن بعجن الخبز حتى يقدم للضيوف⁽⁵⁾، ويستعدن للقيام بهذه العمل الجماعي قبل وقت الوليمة بنصف يوم.

¹ - التَّويزَة: تعرف في المعتقد الذهني لدى عامة الناس في المغرب الأوسط بأنها (اللِّمَّة)، وهي اجتماع النساء والبنات بما في ذلك الصبيان للقيام بتنشيف الصوف وتقليمه وغزله تحضيرا لجهاز عروس مثلا وما إلى ذلك من المناسبات، فضلا على أنها كانت فضاءا واسعا يتلقى فيه الرجال لأداء واجباتهم الفلاحية والزراعية بالدرجة الأولى، وهذا المصطلح يدل على إحدى القيم الاجتماعية التراثية التي بقيت متوارثة إلى يومنا هذا، فالجال فيها مفتوحا للكبار والصغار في الرغبة والقدرة على مد يد المساعدة كعملية تضامنية تقوم على مبدأ التعاون بين أفراد المجتمع الواحد، وبالتالي هي استجابة لنداء الجماعة لغرض مبادلة تعاونية تضامنية بين هؤلاء الأفراد، لتصبح في مدينة تلمسان عرفا اجتماعيا ساعد على تلبية الحاجات الضرورية ماديا ومعنويا. للتعرف أكثر على مضمون التويزة وأدوارها المختلفة ينظر إلى: سعيدي محمد، ظاهرة التويزة وأبعادها الاجتماعية والثقافية الاقتصادية، مجلة الآداب، جامعة تلمسان، العدد 13، ديسمبر 2007م، ص 91.

² - العقباني، المصدر السابق، ص 77.

³ - لمياء مرتاض، أشكال التضامن الاجتماعي - التويزة نموذجا -، مجلة اللغة والاتصال، جامعة وهران، العدد 19، مارس 2016م، ص 57.

⁴ - نفسه، ص 59.

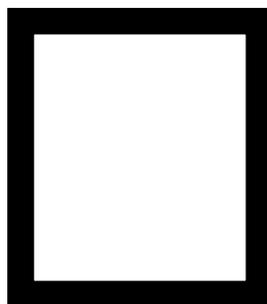
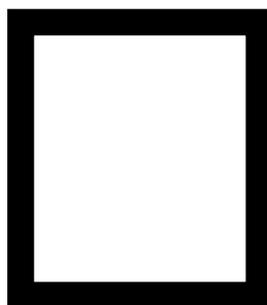
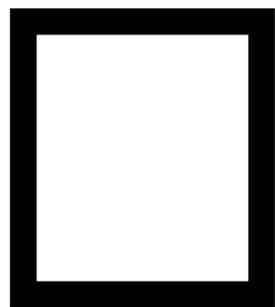
⁵ - نفسه، ص 59.

الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية

• **توزيع النظافة:** في إطار الممارسة اليومية داخل الدُّروب التلمسانية، اعتباراً (للمنوبة بين الجارات)؛ جرت العادة بتنظيف الأحياء والدُّروب بالتناوب بنوع من الاحترام المتبادل، فضلاً على التضامن لأي نشاط يوثق وحدة التجاور، وإذا عجزت صاحبة النوبة بالقيام بنوبتها لعذرٍ مقبول، فلا تحاسب، وتتطوع أخرى للقيام بهذا الشغل، وعلى هذا الأساس يمكن إدراك مضمون (التوزيع) كتقليد اجتماعي أساسي في زيادة التأزر بين الجيران⁽¹⁾.

¹ - سيدي محمد نقادي، الخطة العمرانية، المرجع السابق، ص 256.

خاتمة



خاتمة:

من خلال هذا العرض الجمل لموضوع عادات وتقاليد المجتمع التلمساني الزياني، توصلنا إلى جملة من النتائج والاستنتاجات عاجلت اشكالية البحث المطروحة في المقدمة، وهي كالآتي:

أول ما يجب الإقرار به أن تلمسان الزيانية من غير مقوماتها الحضارية والرؤحية، الراسخة على مدى فترات التاريخ وإمكانياتها المادية المتنوعة، ما كان لها أن تشهد التطور والازدهار الذي بلغته ما بين القرنين السابع والعاشر الهجريين/ 13-16م، إذ تعتبر الدعائم الروحية والثقافية التي ارتكزت عليها مؤسساتها السياسية والاجتماعية؛ مصدر العادات والتقاليد والأعراف التي ظلت عالقة بها طوال تاريخها.

تعتبر ظاهرة الاحتفالات الدينية الحواضر في العالم الإسلامي عادة راسخة في ذهنيات المجتمع والسلطة الحاكمة، إذ تختلف طقوس الممارسة وطريقة الاحتفال من مجتمع إلى آخر، وتعتبر هذه العادة بمثابة الحضور الديني في المخيال الإسلامي، لدى المجتمعات وإبقائه حاضرا في حياة الناس وتثبيته كتقليد رسمي يوطد التواصل العام بين أفراد المجتمع.

تكتسي عادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المجتمع المغربي؛ بصفة عامة والمجتمع التلمساني بصفة خاصة أهمية كبيرة في الحضور الديني والمتخيل الذهني عندهم، وتكمن هذه الأهمية في تعظيم النبي ﷺ في اليوم الذي ولد فيه واستحضار الذات الالهية في هذا التعظيم.

صارت هذه العادة الاحتفالية من الأمور التي ألفها المجتمع التلمساني، ودخلت في تقاليدها الهامة، وجرت منها مجرى العقائد الواجبة الرعاية والأداء، وأصبحت عندها من الشعائر التي يعز عليها اغفالها أو ترك القيام بها في أوقات التي أضحت مقدسة.

نظرا لتحولات الواقع الاقتصادي الذي كانت تعيشه الدولة الزيانية؛ فإن اليهود استطاعوا بأن يتقلوا إلى داخل المدينة بعدما كانوا مهمشين في الملاح بموجب هذه التحولات، وعلى إثر ذلك استطاعوا أن يمارسوا عاداتهم الدينية الاحتفالية والمهنية الاقتصادية، بضوابط دينية اسلامية محضة.

خاتمة

يبدو أن عادة الاحتفال بالزواج عند أهل تلمسان؛ كانت على درجة كبيرة من البذل والعطاء والاحتفاء عند مختلف الأجناس، وهي ظاهرة عامة خلدت آثارها إلى اليوم، بحيث اتسمت بالطابع الذوقي وهو ما رأيناه في معظم الاحتفالات القائمة عند بني زيان؛ إذ دائما ما كانت تحضر الخاصية الجمالية الذوقية عندهم بشكل أساسي أحيانا مبالغ فيه، لاسيما في عرض موائد الطعام وقرع الطبول والمزامير، بما في ذلك تنظيم حفلات موسيقية وغنائية التي غالبا ما تكون السلطة هي الجهة المشرفة على كل ذلك.

كان أهل تلمسان يحتفلون باستعداد الجيش واستعراضه في أجواء سرور وابتهاج، حيث عرفوا هذه العادة منذ أن تشكلت الدولة الزيانية، وبات هذا التقليد الاحتفالي العسكري لدى بني زيان؛ أحد مظاهر القوة والأنفة والأبهة، بحيث أعطى هذا الاحتفال طاقة ايجابية وشعور بالحماسة في الاقدام على القتال، كما أنه يضيف على جو المعركة بهالة من الفخر والثقة بالنفس العالية.

توصلنا من خلال هذا البحث إلى التعرف على عادات دبلوماسية بتلمسان الزيانية، ساهمت في توطيد العلاقة بينهم وبين مختلف حلفائهم في المشرق والمغرب وحتى النصارى في البحر المتوسط، كما تظهر أثر هذه العادة المستحسنة في مزايا كثيرة بين الطرفين وعلى رأسها الصلح ونبذ الضغينة والحد.

انبثقت على هذه الصداقة الحميمة والعلاقة الوثيقة بين بني زيان وبني حفص من جراء هذه العادة الدبلوماسية، في فترات الهدنة والتصالح والتحالف جنبا إلى جنب من أجل تحقيق المصالح الشخصية عادات غير مباشرة ساهمت في تطوير البناء المجتمعي على المستوى الهرمي للسلطة الزيانية.

اعتاد التلمسانيون اختيار أماكن فسيحة ومنتزهات جميلة للترفيه النفسي والأكل فضلا عن المطبخ، وهذا ينم عن السلوكيات والتصرفات ثقافية لديهم، كذلك ينم عن الآداب والذوق العام عند تناول الطعام والشراب بشكل حضاري يرسخ بقوة طبيعة المعاش وانتقاله من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر الانساني.

خاتمة

عاشت طبقات المجتمع التلمساني على العهد الزباني في ظروف اجتماعية ملائمة ، وشكّلوا بذلك نموذجاً للتسامح والتعايش، بل تقلدوا مناصب عليا كمهندسين وأطباء وقواد عسكريين، وكانوا من أرباب التجارة والمهن والصنائع، مما عزّز مكانة تلمسان اقتصاديا وسياسيا على مستوى البحر المتوسط، ونتج عن ذلك علاقة تأثير وتأثر وتفاعل اجتماعي شكل زخما ثقافيا هاما.

تكمّن أهمية اللباس في كونه واحد من أبرز التعابير الثقافية والحضارية، فهو مقوم من مقومات شخصية الفرد ورمز من رموز انتمائه وهويته الجماعية، وبذلك هي ترتبط ارتباطا وثيقا بالعادات والتقاليد التي تحدد طريقة اللباس، مع تنوعها واختلافها في المجتمع التلمساني.

لاشك أن لباس المرأة التلمسانية كان لباسا نابعا من الواقع التقليدي الخاص بالمنطقة وثقافة أهلها؛ إذ كان له الطابع المميز حيث غلب عليه الأناقة والنفاسة والذوق التقليدي كما جرت عليه العادة عندهم.

كان لزاما على أهل الذمة من اليهود والنصارى بأن يلبسوا ألبسة خاصة بهم، تميزهم عن بقية المسلمين بمدينة تلمسان، كالزنابير والكبوس والعمائم الصفراء وغيرها.

تفوق المجتمع التلمساني في عادة التصنيع والمهنية والجودة، بحيث لبي كل حاجيات السوق داخل تلمسان وخارجها، وكانت الألبسة والنسيج التلمساني من أجود ما يصدر.

مما يدل على السلوك الحضاري في المنظومة القيمية للمجتمع التلمساني، هو النظافة والمحافظة على البيئة، والتي تعتبر من بين المظاهر الأكثر أهمية في الوسط الاجتماعي، ومن كثرة ما اعتاد التلمسانيون في المحافظة على عمرانهم جاءت المصادر الجغرافية تصف لنا ذلك في مشاهداتهم بصورة عفوية تلقائية.

ومما يستنتج من المزارات للأضرحة والقبور وانتشار ظاهرة التبرك؛ أن العلاقة الثنائية بين ضريح الشيخ "أبي مدين" وموضع "العباد"؛ كانا قبلة واحدة للصالحين والزاهدين

خاتمة

وحكام وعامة الناس من أجل التماس البركة، كما أعتبر "العباد" مكانا للفرار واللجوء للتكفير عن الذنوب والخطايا والتماس البركة.

استنتجنا بأنَّ الخُوف من كثرة الحصارات على مدينة تلمسان كان عاملا إيجابيا في الدِّفاع عن شرف المدينة وشرف القبيل الزياني، انطلاقاً من عقيدة راسخة في ذهنية هذا المجتمع؛ مفادها أنَّ عصبية بني زيَّان صاحبة الشَّرعية في الحُكم بالمغرب الأوسط، وهي أولى بمدينة تلمسان أكثر من غيرها من العصبيات المناوئة لها.

عادة التُّزوح القسري لملوك تلمسان وجنوحهم إلى الصحراء التي كانت (الملتجأ)؛ سنها "يغمراسن بن زيان" في أول غارة عليه شنت عليه، وأصبحت سنة متوارثة وعادة يدافع بها الزيانيون عن حريمهم وملكهم متى يأتي الخطر والتهديد من كل حذب وصوب، وكانت الغاية من هذه العادة التي هو تجنيبها أذى وفوضى وخراب المعارك.

تبين من خلال البحث في تقاليد الحرب عند بني زيان؛ بأن كانت لهم عادة استراتيجية هامة، حيث كان يهرب اللأجؤون والمجبرون على ترك بلادهم وعدم القدرة على العودة إليها في المستقبل المنظور؛ إلى مراكز آمنة أو مدن مجاورة أو الهجرة إلى بلدان مستقرة الأوضاع لطلب اللُّجوء السياسي والحماية والمساعدة، وفي هذه الحالة كانت تلمسان تأوي هؤلاء، وهذه عادة مستحكمة متأصلة تسمى (الإستجار) أي طلب الجوار الآمن والإستغاثة من سلطان البلد.

ساهم التضامن الاجتماعي في مدينة تلمسان على العهد الزياني في تخفيف آلام المحتاجين وبث روح السعادة والمحبة بين أفراد المجتمع، مع الحد من تفشي ظاهرة البؤس والتسول.

شاركت المرأة التلمسانية في الكثير من أعمال البر والإحسان والخير، وذلك بواسطة تهافت النسوة في ادِّخار المعادن الثمينة تحسبا للشدائد وأمن العيش وليس للتباهي، واعتدن على ذلك بصفة مستمرة إلى زمن متأخر، وبذلك تكن النسوة قد امتلكن وعيا دينيا واجتماعيا راقيا، ساهم في معالجة الأزمات الاجتماعية.

خاتمة

ما من شكّ أن يبقي عملنا غير مكتمل الجوانب، نرجو من الله تعالى أن يهدينا إلى الوقوف على مظاهرة أخرى لم ننتبه لها، إذ أنّ البحث يبقي مفتوحا لكل من أراد أن يتعمق فيه.

الملاحق

الملاحق

ملحق رقم (01): مخطط مدينة تلمسان تبدو عليه تمرکز اليهود في قباسة خارج المدينة ثم انتقلهم داخل المدينة.



مصطفى بن حموش، يهود الأندلس في تلمسان قصة النزوح والاقامة، مجلة الوعي، العددان 3-4، ماي 2011م، تلمسان عاصمة الثقافة الاسلامية، تلمسان، الجزائر، ص 174.

الملاحق

ملحق رقم (02): ضريح افراييم آلانكوه بتلمسان



مأخوذ من موقع www.judaicalgeria.com

الملاحق

ملحق رقم (03): جدول يوضح الأعياد الاحتفالية الدينية عند أهل الذمة

طبيعة الاحتفال	تاريخ الاحتفال	الأعياد (الكبرى والصغرى)	عادة الاحتفالات بالأعياد عند أهل الذمة
الأعياد الكبرى			
يعنون به بشارة غبريال وهو جبريل عليه السلام، على ما يزعمون أنه بشر مريم بميلاد عيسى عليه السلام.	29 من برمهاث	عيد الإشارة	النصارى
عادتهم في ذلك أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة ويزعمون أنه يوم ركوب المسيح اليعفور(الحمار) في القدس ودخوله صهيون وهو راكب، والناس يسبحون بين يديه وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.	يعملونه في سابع أحد من صومهم	عيد الزيتون (الشناعين أو التسييح)	
وهو العيد الكبير عندهم، يقولون إن المسيح قام فيه بعد الصلبوت (اعتقادهم بصلبه وموته وقيامه) بثلاثة أيام. على أساس أنه يتحمل خطيئة المؤمنين به وبذلك قد اشترى لهم الغفران.	كل يوم أحد	عيد الفصح	
يحتفلون به ويزعمون أن المسيح عليه السلام تسلق فيه من بين تلاميذه إلى السماء من بعد القيام.	42 من الفطر	خميس الأربعين (السُّلَّاق)	
يتم الاحتفال بهذه المناسبة الدينية اعتقاداً منهم على أن روح القدس حلت بالتلاميذ، وتفرقت عليهم السنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة وتوجه	يعمل بعد خمسين يوماً من يوم القيام	عيد الخميس (العَنْصُرَة)	

الملاحق

كل واحد		
منهم إلى بلاده يدعو إلى دين المسيح.		
يوقيدون فيه المصابيح بالكنايس ويزينونها، ويقولون ولد يوم الإثنين فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد.	ولد في يوم 25 كيهك الموافق لشهر ديسمبر .	عيد الميلاد
يغمسون أولادهم فيه في الماء وقت البرودة الشديدة، ويزعمون أن يحيى بن زكرياء غسل عيسى عليه السلام، كما يزعمون أن عيسى لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة.	11 من طوبة من شهورهم	عيد الغطاس
الأعياد الصغرى		
يحتفلون بهذا اليوم تبركا به لأن المسيح ولد فيه.	6 بؤونة/ 8 ميلادية.	عيد الختان
يتبركون به اعتقادا منهم أن سمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أمه.	8 أمشير	عيد الأربعون
وستتهم فيه أن يأخذوا إبناء ويملؤوه ماءً ويزمزموا عليه، ثم يغسل البطريك به أرجل سائر الناس، ويزعمون أن المسيح فعل مثل هذا في هذا اليوم، وعوام النصارى يسمون هذا الخميس خميس العدس، وهم يطبخون فيه العدس المقشور.	يعمل قبل الفصح بثلاثة أيام	عيد خميس العهد (خميس أبريل)

الملاحق

عيد سبت النور	يعملونه قبل الفصح بيوم.	يقومون بتعليق القناديل في بيت المذبح اعتقاداً منهم أن النور يظهر على مقبرة المسيح في هذا اليوم.
عيد الحدود	وهو بعد الفصح بثمانية أيام.	يعمل أول أحد بعد الفطر لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم، وفيه يجددون الآلات
		واللباس والأثاث.
عيد التجلي	13 مسرى من شهورهم	يتبركون بهذا اليوم لأن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد أن رفع.
عيد الصليب	10 أيلول/ سبتمبر الموافق لـ: 328 ميلادية.	اتخذ النصرى هذا اليوم عيداً تأسياً بقسطنطين بن هيلاني عندما انتقل من اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية، واتخذ لهم الصليب مقدس ديني لهم وبنى لهم الكنائس للتعبد.
عيد رأس السنة (رأس هيشا)	أول يوم من تشرين/ أكتوبر	ينزل عندهم منزل عيد الأضحية في الاسلام، اعتقاداً منهم أن الله فدى ابراهيم بذبح عظيم عندما أمره بذبح ابنه اسحاق عليهما السلام.
عيد صوماريا (الكبور)	9 تشرين/ أكتوبر	يصومون فيه ويقتل من لم يصمه، ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الافطار وهي عندهم تمام الأربعين الثالثة التي صام فيها موسى عليه السلام، ويزعمون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم إلا الزنا والظلم وجحود ربوبية الله.
عيد المظلة	وهو ثمانية أيام	كل هذه الأيام أعياد عندهم، يجلسون

اليهود

الملاحق

تبدأ من اليوم 15 تشرين/ أكتوبر	تحت سعف النخل الأخضر وأغصان الزيتون والصفصاف، يزعمون بذلك ذكرى سارة لإضلال الله تعالى إياهم في التيه بالغمام، وهو حج لهم كذلك.
عيد الفطير (الفصح) 15 نيسان/ أبريل	يحتفلون سبعة أيام ويأكلون الفطير وينظفون فيها بيوتهم من خبز الخمير، لأنها عندهم الأيام التي خلص الله فيها بني إسرائيل من فرعون، وجعلوا يأكلون اللحم والخبز والفطير.
عيد الأسابيع 6 من شهر سيوان	يحتفلون بهذا العيد بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع وفيها فرضت عليهم الفرائض وكمل فيها الدين، ويأكلون فيه القطائف ويجعلونها بدلا من المن الذي أنزل عليهم في هذا اليوم.
عيد الفوز (الفوريم) 15 آذار/ مارس	وهو عيد أحدثوه تيمنا بميلاد موسى عليه السلام ووفاته، كذلك يحتفلون به في سرور وهو وخلاعة وهدايا يهدوها لبعضهم، ويصورون هيمون الذي أراد التنكيل بهم في صور ويحرقونها.
عيد الحنكة 25 من شهر كسلة	يحتفلون ثمانية أيام حيث ويوقدون سراجا على كل أبوابهم من الليل، وهو مشتق من التنظيف لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار شيعة الجبار (من الجبابرة).

المصدر: شهاب الدين أحمد النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج1، تحقيق: مفيد قميحة،

دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004م، ص ص 181-186

ملحق رقم (04): وثيقة المكاتبة بين السلطان الزياني عبد الرحمان بن أبي موسى بن يغمراسن إلى السلطان الملك الناصر (محمد بن قلاوون) في سنة خمس وعشرين وسبعمائة

الأوحد ، الأكل ، الأرفع ، الأجد ، الأسنى ، الأسمى ، ناصر الإسلام والمسلمين ،
ومُعَلِّي كَلِمَةِ الْمُوحِدِينَ ، الْمُقَدَّس ، المرحوم ، ذى المجد المشهور ، والفخر المنشور ،
والذكر المدخور ، الملك المنصور ؛ أدام الله علو قدره في الدنيا والآخرة ، وأسبغ عليه
نعمه باطنة وظاهرة ، وجعل وجوه محاسنهم في صفحات الدهر سارة سافره ،
وصفقة أعدائهم خائبة خاسره .

وبعد حمد الله الذي أظهر الأمر العليّ الناصريّ وأيده ، وبسط في قول الحق

إلى الحضرة العالية السامية ، السنية ، الماجدة ، المحسنة ، الفاضلة ، المؤيدة ،
المظفرة ، المنصورة ، المالكة ، حضرة السلطان ، الملك ، الجليل ، الفاضل ،
المؤيد ، المنصور ، المظفر ، المعظم ، ناصر الإسلام ، ومُذِلُّ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، الذي
أيده الله بالبراهين القاطعة ، والأنوار المنيرة الساطعة ، الأعلى ، الأوحد ، الأكل ،
الأرفع ، الأجد ، الأسمى ، الأسرى ، ذى المجد الظاهر ، والشرف الباهر ، الملك
الناصر ، ابن السلطان ، الملك ، الجليل ، العادل ، الفاضل ، المؤيد ، المظفر ، الأعلى ،
الأوحد ، الأكل ، الأرفع ، الأجد ، الأسنى ، الأسمى ، ناصر الإسلام والمسلمين ،

كما كتب عبد الرحمن بن أبي موسى بن يعمراسن ، إلى السلطان الملك الناصر
(محمد بن قلاوون) في سنة خمس وعشرين وسبعائة :

إلى الحضرة العالمة السامية ، السنية ، الماجدة ، المحسنة ، الفاضلة ، المؤيدة ،
المظفرة ، المنصورة ، المالكة ، حضرة السلطان ، الملك ، الجليل ، الفاضل ،
المؤيد ، المنصور ، المظفر ، المعظم ، ناصر الإسلام ، ومذل عبدة الأصنام ، الذي

وبعد حمد الله الذي أظهر الأمر العليّ الناصريّ وأيده، وبسط في قول الحق
 وفعله لسانه ويده، وسدّد نحو الصواب منحاه كله ومقصده، والصلاة التامة المباركة
 على سيدنا محمد رسوله المصطفى، الذي خصه الله بعموم الدعوة وأفرده، وقرن ذكره
 بذكره فأبقاه أبد الدهر وخلده، والرضا عن آله الكرام، وصحابة الأعلام، الذين
 حفظوا بالتوقير والتعزير مغيبه ومشيده، وكانوا عند أسنتلال السيوف، ومحال
 الخوف، عدده المظفر وعدده، والدعاء لذلك المقام الشريف بسعد يطيل في شرف
 الدين والنسب مدده وأمه .

ملحق رقم (05): عادة إرسال الهدايا إلى ملوك غرناطة برسالة موثقة.

الرسالة التاسعة والخمسون

هدايا من أمير تلمسان

إلى أمير غرناطة¹ [686-682]

ظهيرنا الذي لا نعدل به ظهيراً، وصفيننا الذي تعتد ما أفادنا الذهر من مُصافاته^{1/57}، علقاً كريماً خطيراً، ولا نجد له في كرم الوفاء وشيم العلاء نظيراً، الأميرُ الأجلُّ أبو فلان ابن الأمير الأجل الأعلى أبي فلان²، أدام الله أسباب سعوده، وعرقه من صنائعه الجميلة ومواهب اعتنائه الجزيلة ما يزيد على معهوده؛ معظمُ إمارته العلية، المعتدُّ بموالاته المنتهية في الصدق والخلوص إلى الغاية القصية، التآكرُ لمآثر شرفه الطريف والتلبد، وجلاله الذي لا مزيدَ عليه لمستزيد، ولا مراءً في مرتبته الواضحة الجليلة، فلان³، سلام كريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد حمد الله الذي جعل التحابُّ في ذاته سنة لعباده، والصلاة (والسلام) على سيدنا محمد رسوله المؤيد من الآيات بما قمع الجاحد وقطع لسان جناده، وعلى آله وأصحابه نجوم الإسلام الهادية لمن اقتدى بها إلى سبيل رشاده⁴.

فكتبته - كتب الله لكم سعدا تسمى⁵ أجزاءه، ونهني بالنصر على العدو سماؤه، من فلانة⁶ حرسها الله، وليس بفضل الله إلا خيرٌ يطرد مصنوعه، ويُسرُّ يَجْمَلُ مَرْتَبُهُ وَمَسْمُوعُهُ، والحمد لله كثيراً؛ وجانبكم الإماريُّ نُجْلُهُ حَقُّ إجلاله، ونسأله بحكم الخلوص المحكم المعاند في جميع أحواله، ونُسِرَّ بما يكيفه الله (له) من تيسير الوطر وتسخير القدر في عزاز أمره وإقباله، ونرى له من المزية الشريفة والرتبة المنيفة ما استحقه باجتهاده في حماية الإسلام واكتفاته بحياطة أهله بالرأي⁷ والخسام واستقلاله، ونثني على خصائص

1 - الرسالة من إنشاء ابن خطاب وبما عن أمير تلمسان عثمان إلى أمير غرناطة محمد القوي في تكويد الموتة والمهادنة من المغرب الأوسط تهدي الخيول إلى بلاد الأندلس، فقد ورد في عنوان الرسالة في الأصل "وكتب في إهداء فارس؛ ظهيرنا الذي... 1" وردت الرسالة في فصل الخطاب من 56-58 (خ ح) ، و من 44-45 (خ ح) ، وقد حطنا ما هو ناقص في هذه النسخة بين هاتين.

2 - نفترض أنه سلطان غرناطة الثاني أبو عبد الله محمد (القوي) بن محمد الغالب بالله. قرن مع الرسالة السابقة (رقم 58) أسلوب مخالفة أمير غرناطة.

3 - نفترض أنه عثمان بن يوسف أمير تلمسان وقد انزل النسخ اسمه كما اختاروا اسم المکتوب إليه.

4 - يظهر هنا وجود بقر يعمن الذعاه للأمير المکتوب إليه.

5 - في (خ ح)؛ تسمى.

6 - يبدو أنها تلمسان.

7 - في (خ ح)؛ أهله بالرعي والمسام.

أحمد عزايي ————— المغرب والأندلس

مجده الباسق الفرع والأصل السابق في مضمار الفخار استيلاءً على الخصل بأفعاله الكريمة وأقواله، والله يحفظ ذلكم في ذاته.

وإلى هذا - وصل الله سعدكم- فقد عرفتم فيمن عرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأرواحُ أجنادٌ¹ مجنونةٌ فما تُعارفَ منها انثلف، وما تُناكر² اختلف"، وأرواحنا بحمد الله قد ألقها الصفاء خيراً انتلاف، ولم يدغ (بينها)³ صدق الضمان وحسن السرائر شبهة اختلاف، فحن مقتبطون بما تأكد بيننا وبينكم من الذمام أشد الإغتيال، مرتبطون إلى العمل بموجبه وإبرام مذهبه⁴ أكرم ارتباط، ولا يزال يُجدد مع الأحيان⁵ رسمه⁶، ويثمر بكل وجه حظه الأوفر وقسمه⁷.

ولمّا كان المصطفى صلى الله عليه وسلم قد قال - وكفى بقوله دليلاً - "شهادوا تحابوا" فجعل الهدية إلى التحاب في ذاته سبيلاً، سلكتنا في تكويد أسباب مصافحتكم على تلكم الطريقة، واحتدينا حدّ شريعته الكريمة الأنيفة، فبعثنا إليكم مع فلان موصل هذا إليكم - حفظه الله- من تحف هذا الموضوع⁸ الذي هو من بلانكم⁹ معدود، وإلى حكمكم مردود⁸، طرفاً توجّه يعثر في ذيول خجله، ويمتد إلى ما يقدر من جميل قبولكم وتحقيق أمله؛ ولو أنّ الهدية تكون يقدر⁹ المهدي إليه ثقلت لقرركم الجليل النينا، ولم نجد نقيساً يليق بتلكم الإمارة العليا، لكن إغضائكم يؤمل، وفضلكم هو الذي عليه يعول، ونرجو أنّ جلالكم ينظر إلى النية، لا إلى ذات الهدية؛ وإمارتكم الجليّة تُعيرها من رضاها نظرة، وثقلها¹⁰ من قبولها المأمول عترة، صملاً على شاكلة فضلها الواسع المجال، العديم¹¹ المثل؛ لا زالت والذهر ينفك طوعها في زمام، والتصر يصحب جيشها المظفر من خلف وأمام، والسلام¹².

1 - في (ع ح) : جنود
2 - في (ع ح) : وما تناكر منها
3 - في الأصلين : بينهما
4 - في (ع ح) : وسمه
5 - كان في هذه الفترة صراع داخل الإمارة الحميرية بسبب مشكل بني الشفيلة الذي وفر العلاقات بين الحميريين والمرينيين وفرس التحالف بين غرناطة وشمس، راجع لغرب الإسلامي، 2/ ص 16 وما بعدها.
6 - ورد في عنوان الرسالة في الأصل: "وكتاب في إثناء فرسين ظهرنا الذي ..."
7 - في (ع ح) : في تلاتكم
8 - في (ع ح) : معدود
9 - في (ع ح) : على قدر
10 - في (ع ح) : وثقلها
11 - في (ع ح) : العزيز المثل
12 - الرسالة غير مؤرخة، ونرجح أن يكون تأريخها منحسراً فيما بين ذي الحجة سنة 681 (تاريخ ابتداء إمارة عثمان في شمس) وشهر محرم من سنة 686 (تاريخ وفاة ابن خطاب مثنى الرسالة).

ملحق رقم (06): رسالة ولاء يغمراسن بن زيان لأبي اسحاق الحفصي.

الرسالة رقم (154)

ولاء يغمراسن لأبي إسحاق الحفصي¹

[681-678]

الحضرة الكريمة حضرة مولانا الأمير الأعلى أبي إسحاق ابن مولانا الأمير الأعلى (أبي زكرياء⁴⁹ بين ساداتنا ومواليينا الأمراء الراشدين) أدام الله أيامها، ونصر بنودها وأعلامها؛ عبداً نعمتها، المستكبر إلى ظلّ حرمتها، الموالي شكر جزيل إحسانها وعظيم منتها، فلان²، سلام³...
وبعد⁴...

فكتبه (العبد) - كتب الله لها سعداً قائماً، وعضداً⁴⁰ نظير مناوئها قاصماً⁵، من تلعمان حرسها الله والعبد سائق من العبودية لها متلاً واضحاً، مُوَالٍ من خدمتها وتصيحبتها عملاً يمتسده صالحاً رابحاً، شاكرٌ لإحسانها الذي لم يزل غانياً عليه راحاً، لا يزال يذنب⁶ على ذلكم ليته ونهاره، ويلظر إلى ما يوافق رضاها فيتسبع آثاره، والله يعينه عليه.

وإن العبد أصدر خدمته هذه إلى الحضرة العلية - أيدها الله - مقرراً ما لديه من الخدمة لبابها، والتعلق بأسبابها، والانصواء إلى كنفها المنيع وجنابها، متيقناً أن خدمتها أمنٌ لمتولئها من التوالب، ويمنٌ في المجدي من أمره والعواقب، وسببٌ يذني إليه ما تأمن الأمال والمأرب، وببركة الاستناد إلى الحضرة الكريمة - أيدها الله - تُدرك الثنى، وتتفاد لطالبتها الثنى، وترتقى المراتب العلى؛ أبقاها الله وبأيها موفور السعود، مقهور الخسود، منصور الجنود، محمور بالوفود، يمه، والسلام.

¹ - الرسالة من إنشاء ابن خطاب عن يغمراسن بن زيان إلى السلطان الحفصي أبي إسحاق كما وردت في فصل الخطاب ح/48-49 وفي ح/ع/39-40 وقد وضعنا بين هاتين ما هو ناقص في (ح ع)
² - هو يغمراسن كما يتضح من عنوان الرسالة
³ - يوجد هنا بتر يتضح من المقارنة مع ما بعد السلام في الرسالة 153
⁴ - البئر هنا يخص الحملة والتصوية على الرسول (ص) والفرسية عن المهدي والدعاء للأمير الحفصي
⁵ - هل يقصد أحد المتفرعين في قسنطينة: الهنتلي أو ابن الوزير؟ راجع الرسالتين 157 و 158 والدراسة التاريخية العنصر الأول من المحور الثاني عن إفريقيا والمغرب الأوسط
⁶ - مشكولة هكذا في (ح ع)، ولم نجدها بهذا الشكل في لسان العرب، وإنما على صورة: يذنب، إلا إن كان المقصد: يذاب

ملحق رقم (07): رسالة تهنئة من عثمان بن يغمراسن لقبائل زناتة لبيعتهم إياه.

الرسالة رقم (162)

تهنئة للأمير عثمان

باتفاق زناتة على بيعته¹

[حجة 681]

[أمولاي إن الله خصتك بالعتى --- ففقت الورى فضلاً ومجداً وسؤنذا
بلغت من الملك المؤنل رتبة --- ولرقع منها ما سئلته عدا]

127/ المقلم الذي قضى الله باصطلاته وإرقائه، وانتقى له المراتب المنيفة
والمواهب الشريفة أكرم انتقائه، مقام مولانا السلطان أبي سعيد أدام الله أمانه والنصر
مؤانيه، والبشرى نلتيه، والأقدار تساعده في كل ما ينفذه ويمنضيه ؛ معلوك إحسانه،
وشاكر فضل العميم وطوله الحميم مله لسانه، محمد بن خطاب، سلام...²
وبعد حمد الله الذي يوتي الملك من يشاء، والصلاة على سيدنا محمد رسوله
الذي أشرفت بنور رسالته واتجلت الظلمات، وعلى آله وأصحابه³ نجوم سمائه الذين بهم⁴
الافتداء والاهتداء ، والدعاء لمقامكم الكريم ينصر مهذب به الأرجاء، وتبذت بأيده
الأعداء.⁵

فكتبه - كتب الله لكم⁶ سعداً نير الشوارق، صليب⁶ البوارق -، من تلمسان
حرسها الله وبركات إياتكم (المسعدة)⁷ ودولتكم الكفيلة بالخيرات الفريدة⁸ تصفي من النعم
مواردها⁹، وتجد بمزيد الصلاح فتتجز مواعدهما، والحمد لله كثيراً ؛ والمملوك محافظ على
الخدم في جميع أحواله، شاكر لغوارف إلعامكم التي تعمل في شكرها لسان رويته
وارتجاله، والله يعين على ذلكم.

1 - الرسالة من إنشاء ابن خطاب عن نفسه إلى أمير التمان الثاني عثمان بن يغمراسن (681-703) كما وردت في فصل
الخطاب من 127-128 (خ ج) وعنوانها فيه "وكتب إلى أحد أرباب الدولة في تونس" ، ووردت في من 106-107 (خ
ج) وعنوانها فيه "وكتب إلى الأمير أبي سعيد مهذباً باتفاق زناتة على بيعته بعد أبي يحيى" ، وقد وضعنا بين هاتين
(...) ما هو ناقص في (خ ج) ، وبين مقتولين [...] ما هو ناقص في (خ ج)

2 - كذا، ويظهر أنه يوجد هنا بئر

3 - في (خ ج) : وصعبه

4 - في (خ ج) : برأيه

5 - في (خ ج) : بيده الأعداء

6 - من صليب : شديد ؛ وفي (خ ج) : صليب

7 - بيان في (خ ج)

8 - كذا في (خ ج) ، وفي (خ ج) : العفدة

9 - في (خ ج) : وازدها

وإلى هذا، - وصل الله سعدكم - فإن الخديم أسدر هذه الخدمة إلى بابكم العلي وهو مسرور الفؤاد، شاكر ما من الله به من الخير المستفاد، وهو ما سناه من الاتفاق على بيعتكم السعيدة¹ وإيانتكم الجديدة، فالحمد لله والحمد لله على هذا التكليف الذي أفرغ المتور في الصدور، وتكفل بصلاح الخاصة والجمهور، جاء اليسر به مقروناً، وشهد بأن التصر بصحبها مضموناً (لا مظلوناً)، وعاد بها إلى الملك شياؤه، وفُتحت من الصلاح المستأنف أبوابه، وضقى على الجوانب سربال الأمن وجلبابه²، هنا الله مولانا هذا الصنع الذي أنست سرته كل ما سبق من الحوادث، وجلت ظلم الخطوب الكوارث، وبارك له في هذا الملك الذي بناه [ه] على لوثق أسليه، والإيالة² التي ليس حلتها فزيتها بثباته؛ فطالما كانت ترتقب مبارك وقته، وتتمنى أن تحظى بيخته، حتى بلغت مناهها، وألفت عصاه، واستقرت نواها، وأتجفت منكم بأسنى تحفها، وحلت شمسها بكم حماها وهو بيت شرفها، والله سبحانه¹²⁸ يوالي بشائركم ويتابعها، ويعرقتكم من الغضد ما يدلو به من أمالكم شامعها، بمنه، والسلام.

¹ - ورد في عنوان الرسالة في (خ) "وكتب... سهنتا باتفاق زينة على بيعته بعد أبيه أبي يحيى."
² - في (خ) : ولإياله

ملحق رقم (08): رسالة دبلوماسية من عثمان يحدد فيها البيعة للسلطان الحفصي.

الرسالة رقم (169)

بيعة عثمان بن يعمراسن للسلطان الحفصي
بعد استرجاع الملك من الدعي ابن أبي عمارة¹ [سنة 683]

الحمد لله الذي أعاد على الخلافة عيدان شبابها وربيعاته، وحمد مقام المتحمل لعبه نصرته المتكفل بدره عثرتها² فأنجدها [على] مرامه وأعاته، وقبض لأمرها من دنيا عن بماره بمواضي عزائمه وشفاره حتى أقره [في] منصته³ وأطه مكانه، واستنقذ حقيها من يد غاصبه المتسور⁴ على إرثه متصوراً في صورة عاصبه فحفظه من جوره ونسلطه وصالته، وأبدى في مطلع البشائر من شوارق شواهد صنيعه الياهر بارقاً طالما كانت العيون قد غشيت لوالي القن الجون ترتقب إيماضه من ذلك الأفق العالي ولمعانه، وجعل في اختلاف⁵ الدول وتبدلها وتقلب المخلوقات بين الإيجاد والإعدام وتقلبها عبرة لمن أرسل في مجال الاعتبار والاستبصار عدانه؛ [سبحانه] من ملك بيده الملك يوثقه من يشاء ويختار، وفي عجائب مبدعاته نقيه الأنياب وتحر الأفكار، أحتجب برداء كبريائه، وأظهر آيات التفقارنا إليه واستغنايه، فلم يمتع للعقول إلا الاعتراف بربوبيته والإقرار وأثار قلوب أوليائه بآياته، وأخرجها برحمته من غياهب الجهل وظلماته، ثم قلبها بين لصبيعه وما صفة الأجسام من صفاته، جل ربنا وتعالى أن يكون جسماً فينسب إليه الافتقار⁶، أو يلحقه الحصول في المكان والاستقرار.

نحمده جل جلاله⁶ وحمده أحق ما يبدئ اللسان فيه ونعبد، ونشكره وبشكره⁷ تكفيد شوارق نعمه وعوارف كرمه وتزبد، وينحو لنا من أطاقه مع الأنساء المجردة والأفلاس المرندة الجديد [فالجديد]؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة بيدو عليها من الصدق رؤاء، وترد مشرع القبول فلا يحصى عنها تطلع منه وارتواء، ونصلي على سيدنا محمد رسوله الذي اجتياه لرسالاته واصطفاه، وآناه من الآيات ما أحسنه حجة على صدق نبوته وكفاه، وأنزل معه من النور المبين ما أبرأ [هـ] عني الأبصار والبصائر

1 - الرسالة من إنشاء ابن خطاب عن عثمان أمير المؤمنين وهي عقد بيعة، ورد نصها في "فصل الخطاب" من 12-17 ح) وقد جعلنا بين هاتين ما هو ناقص فيها كما ورد في 13-18 ح) وقد جعلنا بين هاتين ما هو ناقص فيها، وقد لا حظنا كثرة أخطاء الرسالة في هذه النسخة فلكفينا بالتبويب إلى بعضها

2 - (هـ) ح) - عثرتها

3 - (هـ) ح) 1، (هـ) ح) 1، (هـ) ح) 1 - معرفته

4 - (هـ) ح) 1 - المشهور

5 - ينسب إلى الافتقار

6 - (هـ) ح) 1 - جل شتوه

ملحق رقم (09): رسالة تتضمن عادة الإنعام على الأمير محمد بن يغمراسن

الرسالة الثانية والخمسون

رغبة الأمير الزياني محمد بن عامر بن
يغمراسن في "إنعام" من الواثق الحفصي¹ (10 محرم 677)

الحضرة العلية الزاهرة المنيرة التي أشرق لألوانها، وأغدقت
بالخيرات سماؤها، وتلافت الملة الحنيفية حينما بقي منها إلا ذماؤها،
حضرة سيدنا ومولانا الواثق بالله²، المؤيد بالله، أمير المؤمنين³ أبو
زكرياء بن سيدنا ومولانا المستنصر بالله، المنصور بفضل الله، أمير
المؤمنين أبو⁴ عبد الله، بن ساداتنا وموالينا الأمراء الراشدين⁴، وصل الله
إعلاها وإظهارها، وأفاض على البسيطة أنوارها، وأهدى في رقاب
المارقين عن طاعتها الخارجين عن حزبها المفلح وجماعتها أشفائها؛
عبدها وابن عبدها⁵، الموقى خدمتها المفترضة إلى أقصى حدها، الشاكر
لمواهب إحسانها وعوارف امتنانها التي غمرته وهو في المهد بعدها،
ومقتل بساطها الأشرف الذي من قبله اشتمل من العافية بأضفى ودها
وأجدها، محمد بن عامر بن يغمراسن، سلام...⁶
وبعد حمد الله تعالى...⁷

فكتب العبد - كتب الله للحضرة الكريمة تجديد السعود، وتأييد البنود،
من تلمسان كلاًها الله، وبركات الدعوة الهادية الأنوار، السامية المنار،
تنسحب على الأقطار، وتفيض فيض البحار، وتعم من قرب ومن كان
بعيد الدار، فالملوك منقلب في نعمها، متشرف بخدمتها، متحيز إلى كنف
حرمها حيث العز ثابت، والملك أسلمه ثابت، والفضل تجلى حرره،
وتتلى صورته؛ والعبد وإن نأى مكانه، ولم يحظ برويته والحضرة⁸ العلية
عيانه، فهو يطالعه مع الأحيان لقلبه، ويلثم اليمساط الكريم تخيلاً حتى يمن
الله بدنوه منه وقربه؛ وكانت حضرة سيدنا ومولانا المستنصر بالله
المنصور بفضل الله أمير المؤمنين - رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة،

1 - الرسالة من إنشاء ابن خطاب كما وردت في فصل الخطب (ج) من 54 (مجد واردة في (ج) ح)، كتبها عن الأمير محمد بن أبي علي عامر بن يغمراسن.
2 - هو أبو زكرياء يحيى بن المستنصر (675-678)
3 - كان أبو المستنصر أول من اتخذ هذا القاب من الحفصيين في مطلع التصديقات
4 - الكندي أبو زكرياء جد الواثق يلقب "الأمير" رغم استقلاله عن الموحيين سنة 634
5 - هذه "العبودية" تعني الكعبة للحفصيين من طرف بني زيان منذ سنة 640 أيام يغمراسن
6 - يظهر أن الشاخ عبدوا هذا إلى التارة فترن مع رسالة أخرى موجهة إلى الحفصيين
7 - هذا أيضاً يتر بضمين بكلمة الحمللة والتسليمة والتوحشية (عن المهدي) والاعاء الحفصي الحاكم
8 - كذا في الأصل والأعجب؛ فالحضرة

وكساه الضَّافِي من ملابسٍ رحمته ورضوانه الفاخرة،- أنعمت على عبدها عامراً¹ بنعمة تسوَّغها طولَ حياته، وبقي رسمها جازياً لأولاده عبيدكم بعد مماته.

والعبد قد أرضعته بعمكم حتى بلغ حدَّ الخدمة، وتسامى أمله إلى مزيد النعمة، ليستعين به على ما يتولاه من خدَمكم وينتقله، وبواليه من موجبات العبودية والطاعة ويصله²، ولتبقى النعمة القديمة خالصة للإخوة الأصاغر عبيدكم فلما هي كفايتهم، وبها تيمَّ كفالتهم ورعايتهم؛ وحضرة مولانا - أيده الله - أحقُّ من أتبع إحسانه بإحسانه، وشقَّ صنائع إنعلمه عند عبده، واستمطرَ سبحانه جوده فجاد بهتانه، فبأبها - وصل الله سعودها - كعبة الأمل، والقبلة التي يُولى شطرها وجه السؤال، وتُمدَّ الأيدي إليها فترجع وهي مملوءة بجزيل الثوال.

اللهم أمدِّ الحضرة العليا بنصرك وتأييدك، وأنجز لها في إظهار أمرها وإملائه مسابقَ وعودك، واجعل عصرها أسعدَ الأعصار، واكثفها بجميل اعتنائك فيما تأخذ (وتنزل)³ في الإيراد والإصدار، إنك على كل شيء قدير، والسلام.

كتب في عاشر محرم سنة سبع وسبعين وستمائة .

¹ - هو عامر بن يعقوب بن أي واد الأمير المكتوب عنه (نجد طه يحيى ابن خلدون تكرر أحد أبناء يعقوب بن وهو أبو عامر) بعية
البروك في تكرر الملوك من بني عبد الوهاب، ج 1/207، طه الجزائري (1980)
² - في الأصل - وصل؛ والأصح ما كتبتاه ليتناسب مع التسجع السابق
³ - في الأصل - وتندور

ملحق رقم (10): عادة الاحسان التي رغب ألفها الأمير الزياني محمد من الحفصيين في رسالة موثقة.

الرسالة الثالثة والخمسون

رغبة الأمير الزياني عامر بن محمد بن
يغمراسن في مزيد من "الإحسان" الحفصي¹ [678-681]

الحضرة التي صدقت في فضلها وإحسانها الآمال والأمان، وأسست من النصر واليسر على أوثق ما تقام عليه المباني، حضرة مولانا الأمير [الأعلى] أبي إسحاق - أيد الله أمرها وأسماء، وثمر حظها من الفتوح الجلية والمُنوح الجسيمة وأتماء-؛ عبد إنعامها الجزيل، المستند إلى جنابها الرحيب وظلها الظليل، الموالى شكر إفضالها المرني على البغية والتأمل، ومقيم بساطها الذي من قبله اجتنى عين² السعادة والبركة من ذلكم التثم والتقبيل، (عامر بن محمد بن يغمراسن)³، سلام كريم يخصها ورحمة الله وبركاته.

وبعد حمد الله العظيم، والصلاة على سيدنا محمد [رسوله] الكريم، وعلى آله وصحبه الماضين على سننه الواضح القويم، والرضى عن الإمام المهدي المعلوم مبيد أهل التعطيل والتجسيم⁴، والدعاء للحضرة المجاهدية⁵ بالنصر المبلغ لأمرها العزيز أقصى مبالغ التكميل والتتميم. فكتبه العبد - كتب الله لها سعدا تتألق شهبه، وتتدفق سحبه - من تلمسان (حرسها الله)، وبركات الحضرة العلية - أيدها الله - شاملة، ورعائتها الجميلة للجميع كافية كافة، وأنوار سعادتها باهرة لا متوارية ولا أقل، والأرجاء بالدعة والأمن عامرة أهلة، والحمد لله كثيرا؛ والعبد للخدم ملتزم، وبميسم العبودية الخالصة متمسك، مُشيدٌ يشكر عوارف كرمها الذي سببه في الأنام منقسم، لا يخلى من ذلكم حيناً من أحيائه، ولا يُخل به في إسراره وإعلانه، والله يعينه على ما يتولاه من التماس القرية⁶ إلى بابكم الكريم، بتمه.

¹ - الرسالة من إنشاء ابن خطاب عن محمد بن عامر بن أمير تلمسان يغمراسن إلى أبي إسحاق أمير تونس (678-681)، وردت في فصل الخطاب ج 1 ص (53-54) و ج 2 ص (42-43)؛ وقد جعلنا بين هاتين ما هو ناقص في (ج)، وما بين معقوفين ما هو ناقص في (ج).

² - في (ج) : على

³ - كذا في (ج)، وفي (ج) : التثم والتقبيل محمد بن (ثم بعدها يواصل ذكر كشتين أو ثلاث)

⁴ - كان المهدي بن تومرت يصف المرابطين بالمجسمين أي أنه التمسهم بتجسيم الذات الإلهية لعدم قولهم بوحدة الذات والصفات الإلهية كما يقول بها الأشاعرة، قال ابن خلدون "ذهب إلى رأيهم في توليد المتشابه من الآي والأحاديث" (المعبر 466/6) والمعروف أن الحفصيين في الطريقة تمسكوا بالرموز المهدوية حتى أن ابن خلدون كثيرا ما يسميهم بالموحدين.

⁵ - نسبة إلى "المجاهد" لقب السلطان الحفصي أبي إسحاق.

⁶ - في (ج) : القرية

الملاحق

الملحق رقم (11): جدول تطبيقي يوضح العادات والتقاليد والصفات الأخلاقية لبعض أعلام تلمسان

المصدر	عاداته وتقاليده وصفاته الأخلاقية	الولي
القلصادي، رحلته، ص 97.	كانت أوقاته كلها معمورة بالطاعات ليلا ونهارا، من صلاة وقراءة قرآن وتدريس علم وفتيا وتصنيف، وكانت له أوراد معلومة وأوقات مشهودة.	ابن مرزوق الحفيد (766هـ/ 1364م- 842هـ/ 1439م)
التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 504.	جعل الله حبه في قلوب العامة والخاصة، فلا يذكر في مجلس إلا والنفوس متشوقة لما يحكى عنه، وكان في التواضع والانصاف والاعتراف بالحق في الغاية وفوق النهاية لا أعلم له نظيرا في ذلك.	
التنبكتي، نيل الابتهاج، ص 503.	ذو الأخلاق المرضية والحوال الصالحة السنية والعمال الفاضلة الزكية.	

الملاحق

<p>ابن سعد، روضة النسرين، ص 187.</p>	<p>كان من أرباب المجاهدات وأهل الأحوال والمقامات، ملازما للأوراد من قراءة وأذكار وصلاة ليل وصوم نهار... فكانت تجيء إليه ثمرات كل شيء، ويقصده الناس بالصدقات والنذور وربما جاءه من الذهب المائة والمائتان فلا يدخر ذلك ولا يتتفع في خاصة نفسه بشيء منه، وإنما يفرقه في الفقراء والمحاويج من أهل الستر والعفاف.</p>	<p>أحمد بن الحسن الغماري نزيل تلمسان المتوفى في 13 شوال 874هـ/ 15 أبريل 1470م</p>
--	---	---

<p>ابن سعد، روضة النسرين، ص 195.</p>	<p>كان يخرج للجبال والأراضي التي لا ملك لأحد عليها، ويجعل حزمة من الحطب على ظهره ويبيعها هناك.</p>	
<p>ابن سعد، روضة النسرين، ص 200.</p>	<p>كان ملازما لتجويد القرآن، يزدحم عليه القراء لعظم بركته وإتقان معرفته بطريقتي الرسم الأداء.</p>	
<p>ابن سعد، روضة النسرين، ص 201.</p>	<p>كان يعمر أكثر أوقاته في المقابر وخصوصا روضة سيدي أبي سعيد خارج باب القرمادين... منفردا في عبادة ربه مفكرا في أمر آخرته.</p>	
<p>ابن سعد، روضة النسرين، ص 214.</p>	<p>الاستجارة بالشيخ على عادة المظلومين: قال بن سعد: «ومما شاهدت من كرامات سيدي أحمد أنني كنت عنده ذات ظهر... وإذا بشخص قد أخذ بجلقة باب دويرته وهزها واستغاث به،</p>	

الملاحق

	<p>ففتحت الباب ووجدت الحرس قد حملوه، وإنما هرب من أنياب الظلمة لما عليه من الغرامة، وجاء لحرم الشيخ ليستجير به على ما جرت عادة المظلومين».</p>	
<p>ابن سعد، روضة النسرين، ص 120.</p>	<p>وكان الناس يقصدونه بالصدقات والندور من بلاد السودان وغيرها، ويتتهي ذلك في بعض الأوقات إلى عدة الميين من الذهب فلا يدخر من ذلك شيئاً، بل يفرقه لوقته في المساكين وطلاب العلم.</p>	<p>الحسن أبركان المتوفى في أواخر شوال من سنة 857هـ / 1454م</p>
<p>ابن سعد، روضة النسرين، ص 121.</p>	<p>وكانت الخلفاء وأكابر الوقت من العلماء والوزراء يقصدونه في بيته ويلتمسون صالح دعوته...وقد أجرى الله على يده كثيراً من رد الغصوبات وكف الظلمات وفك العانة، وفتح ببركته أموراً من المسائل المهمات.</p>	
<p>ابن سعد، روضة النسرين، ص 121.</p>	<p>وكان من عاداته إحياء ما بين المغرب والعشاء بالصلاة على الدوام، ووقت إفطاره في أيام فطره بعد العشاء الآخرة، وكان محباً في ذكر الله وفي قراءة القرآن على الخصوص، ومن محبته في قراءة القرآن في اللوح كل سنة إلى أن مات</p>	

الملاحق

ملحق رقم (12): صورة لحي درب السلسلة بمدينة تلمسان العتيقة الذي يوجد به
المصريات.



قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

ثانياً: السنة النبوية

1. ابن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت164-241هـ)، مسند الامام أحمد بن حنبل، ج41، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2001م، ص ص 148-149.
2. البخاري أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت256هـ)، صحيح البخاري، ط1، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، 2002م.
3. النيسابوري أبو الحسن مسلم، صحيح مسلم، تحقيق: نظر محمد الفريابي، ط1، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، 2006م.
4. السجستاني أبو داوود سليمان بن الأشعث الأزدي (ت675هـ)، سنن أبي داوود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قربللي، ج5، دار الرسالة العالمية، دمشق، سوريا، 2009م.
5. الترمذي محمد بن عيسى (ت679هـ)، الجامع الكبير، م4، تحقيق وتخرّيج: بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1996م.

ثالثاً: المخطوطات

1. ابن زرفة محمد المصطفى، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 3322.
2. ابن مرزوق أبو عبد الله، جنى الجنتين في شرف اللّيلتين - ليلة القدر وليلة المولد -، مخطوط، المكتبة الوطنية المغربية، رقم 1380.
3. التلمساني ابراهيم ابن أحمد الثغري، تقييد في ماهية بعض الأعشاب ومنافعها، مخطوط، المكتبة الوطنية المغربية، رقم 1705.

رابعاً: المصادر

قائمة المصادر والمراجع

1. ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد (668هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج2، ط1، المطبعة الوهيبية، القاهرة، مصر، 1886م.
2. ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، المغرب، 1972م.
3. _____، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 1972م.
4. ابن أبي لحية القفصي المنتصر، نور الأرماس في مناقب القشاش، تحقيق ودراسة عيسى وحسين بوجرة، المكتبة العتيقة، تونس، 1998م.
5. ابن الأثير عز الدين (630هـ)، الكامل في التاريخ، م7، مراجعة وتصحيح: محمد يوسف الدقاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م.
6. ابن الأحمر أبو الوليد اسماعيل، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ط1، 2001م.
7. _____، روضة النسر في دولة بني مرين، المطبعة الملكية الرباط، المغرب، 1962م.
8. _____، نثر الجمان في شعر من نظمنا وإياه الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط2، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، سوريا، 1987م.
9. ابن الجرزي أبو الخير محمد، عرف التعريف بالمولد الشريف، عناية: محمد أبو الخير الملقبي، دار الحديث الكتانية، 2011م.
10. ابن الجوزي جمال الدين ابن الفرغ (597هـ)، تبتلس ابلس، ط1، دار الفكر، لبنان، 2001م.
11. ابن الجوزي سبط (654هـ)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ج22، تحقيق: ابراهيم الزبيق، ط1، دار الرسالة العلمية، دمشق، سوريا، 2013م.

قائمة المصادر والمراجع

12. ابن الحاج النميري، فيض العباب وإضافة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد، محمد بن شقرون، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2015م.
13. ابن الخطيب لسان الدين، الاحاطة في أخبار غرناطة، القسم الثالث، القسم الخامس، مراجعة وتقديم وتعليق: تحقيق بوزياني الدراجي، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
14. _____، رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، 1898م.
15. ابن الخطيب لسان الدين، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب، ج3، تحقيق: السعدية فاغية، مطبعة الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1989م.
16. ابن الزياد التادلي (657هـ)، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق: على عمر، ط2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2015م.
17. ابن الصَّبَّاح الأندلسي الحاج عبد الله، نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق: جمعة شيخة، مجلة دراسات أندلسية، العددان 45-46، ديسمبر 2011م، تونس.
18. ابن العجمي الحلبي أبو ذر سبط (ت884هـ)، كنوز الذهب في تاريخ حلب، ج1، تحقيق: شوقي شعث وشوقي البكور، ط1، دار القلم العربي، سوريا، 1996م.
19. ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1973م.
20. ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان، ج1، ط1، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، 1987م.
21. ابن تغري بردي جمال الدين (ت874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1963م.
22. ابن ثابت حسان، ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرحه وكتب هوامشه وقدم له: عبد.أ. مهنا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1994م.

قائمة المصادر والمراجع

23. ابن خلدون عبدالرحمان(ت808هـ)، المقدمة، تحقيق: عادل بن سعد، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2016م.
24. _____، رحلة بن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004م.
25. ابن خلدون يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبدالحميد حاجيات، ج2، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، 2011م.
26. ابن خلكان شمس الدين(681هـ)، وفيات الأعيان وانباء انباء الزمان، م3، م4، تح: احسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان.
27. ابن خليل عبد الباسط، الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم.
28. ابن رزين التجيبي، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، تحقيق: محمد بن شقرون، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1984م.
29. ابن سيده أبو الحسن(ت458هـ)، المخصص، السفر الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
30. ابن سعد التلمساني(ت901هـ/1399م)، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق: يحيى بوعزيز، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
31. ابن عبد الملك الأنصاري، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: محمد بنشريفة وإحسان عباس، ط1، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1973م.
32. ابن عذارى المراكشي أبو العباس(توفي بعد 716)، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق وتعليق: بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، م3، ط1، دار الغرب الاسلامي، تونس، 2013م.
33. ابن عماد الحنبلي شهاب الدين(189هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، م7، تح: محمد الأرانأوط، ط1، دار بن كثير، بيروت، لبنان، 1991م.

قائمة المصادر والمراجع

34. ابن عمار أبو العباس سيد أحمد، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1906م.
35. ابن فضل الله العمري (ت749هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الرابع-ممالك اليمن والغرب الاسلامي وقبائل العرب-، تحقيق: حمزة أحمد عباس، ط1، المجمع الثقافي، الامارات العربية المتحدة، 2002م.
36. ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس (ت810هـ)، أنس الفقير وعز الحقيير، اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسي وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، 1965م.
37. ابن كثير أبو الفداء اسماعيل (774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج17، ط1، هجر للطباعة والنشر، الجيزة، مصر، 1999م.
38. ابن مرزوق أبو عبد الله محمد، المناقب المرزوقية، تحقيق: سلوى الزاهري، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2008م.
39. _____، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق: مارييا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
40. ابن مريم التلمساني، البستان في الاولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م.
41. ابن منظور، لسان العرب، م5، ط1، دار بن الجوزي، القاهرة، مصر، 2015م.
42. أبو الفدا عماد الدين ابن محمد (732هـ)، تقويم البلدان، مراجعة وتصحيح: رينود والبارون ديسلان، دار الطباعة الملكية، باريس، فرنسا، 1840م.
43. أبو حمو موسى الثاني الزياتي، واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق: محمود بوترة، دار النعمان للنشر والتوزيع، 2011م.
44. أبو شامة شهاب الدين (ت665هـ)، الباعث على انكار البدع والحوادث، تح: محمد محب الدين أبو زيد، ط1، مكتبة مجد الاسلام، القاهرة، مصر، 2007م.

قائمة المصادر والمراجع

45. الإدريسي الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، م1، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر.
46. الأنصاري أبو عبد الله محمد، فهرست الرصاع، تحقيق: محمد العنابي، ط1، 1967م، المكتبة العتيقة، تونس، ص23.
47. البلنسي محمد العبدري(725هـ)، الرحلة المغربية، تقديم: سعد بوفلاحة، ط1، منشورات بونة للبحوث والدراسات، 2007م.
48. التليدي عبد الله ابن عبد القادر، المطرب بمشاهير أولياء المغرب، ط4، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2003م.
49. التنبكي أحمد بابا، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج1، تحقيق: محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، المغرب، 2000م
50. التنسي محمد ابن عبدالله، نظم الدر والعيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمود بوعباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.
51. التيجاني أبو محمد أحمد، رحلة التيجاني، قدم لها: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981م.
52. الثغري التلمساني عبد الله ابن محمد، مناقب أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني صاحب مفتاح الوصول ومناقب ولديه، تحقيق: قندوز بن محمد الماحي، ط1، دار الوعي، الجزائر، 2018م.
53. الحموي شهاب الدين ياقوت(626هـ/1228م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977م.
54. الحميري عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984م.
55. الذهبي شمس الدين محمد(748هـ)، سير أعلام النبلاء، ج22، تحقيق: بشار عواد معروف ومحيي هلال السرحان، ط11، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1996م.

قائمة المصادر والمراجع

56. _____، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج25، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
57. الرصاع محمد ابن القاسم(894هـ)، تذكرة الحيين في أسماء سيد المرسلين، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط3، المجمع الثقافي أبو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 2002م.
58. الزبيدي محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، ج5، تحقيق: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1969م.
59. الزركشي أبو عبد الله، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
60. السبتي محمد ابن أحمد العزفي، الدر المنظم في مولد النبي الأعظم، تحقيق: عبد الله حمادي، دار دروب للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2015م.
61. السخاوي محمد ابن عبد الرحمان(906هـ/1496م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ج1: تح: نجوى مصطفى وليبية ابراهيم مصطفى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، مصر، 2002م.
62. السلمي أبو عبد الرحمان(ت412هـ)، الطبقات الصوفية، تحقيق: أحمد الشرباصي، ط2، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، مصر، 1998م.
63. السهروردي عبد القاهر(636هـ)، عوارف المعارف، م1، تحقيق: أحمد عبد الحليم السايح توفيق علي وهبة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2006م.
64. الشامي محمد ابن يوسف الصالحي(946هـ)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج1، تح: مصطفى عبد الواحد، لجنة احياء التراث الاسلامي، القاهرة، مصر، 1997م.
65. الصفدي صلاح الدين، الوافي بالوفيات، ج3، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2000م.

قائمة المصادر والمراجع

66. العقباني أبو عبد الله محمد (ت871هـ/1467م)، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: علي الشنوفي، المعهد الفرنسي للدراسات الاستشراقية الفرنسية، دمشق، سوريا، 1967م.
67. العلوي علي ابن أبي بكر السقاف، البرقة المشيقة في ذكر لباس الخرقة الأنيقة، مطبعة مصر، 1928م.
68. عياض القاضي أبا الفضل اليحصبي (ت544هـ)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 236.
69. العيني بدر الدين (ت855هـ)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1992م.
70. القلصادي أبو الحسن (ت891هـ/1486م)، رحلة القلصادي، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978م.
71. القلقشندي أبو العباس أحمد (ت821هـ-1418م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج3، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914م.
72. كاربخال مارمول، افريقيا، ج2، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1989م.
73. المازوني أبو زكريا، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: مختار حساني، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009م.
74. المازوني أبو عمران موسى ابن عيسى، ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار، تحقيق: عبد القادر بوباية، ط1، الرشاد للطباعة والنشر، سيدي بلعباس، الجزائر، 2017م.
75. مبارك علي باشا، الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، ج1، مطبعة بولاق، القاهرة، مصر، 1889م.

قائمة المصادر والمراجع

76. مخلوف محمد ابن قاسم، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003م.
77. المغيلي عبد الكريم (ت909هـ)، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط1، دار بن حزم، بيروت، لبنان، 1994م.
78. المقري التلمساني أبو العباس، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، م9، تحقيق: مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012م.
79. _____، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج1، تحقيق وتعليق: مصطفى السقا و ابراهيم الاياري و عبد الحفيظ شلي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1939م، ج5، تحقيق: سعيد أعراب و عبد السلام الهراس، مطبعة فضالة المحمدية، الرباط، المغرب، 1980م.
80. المقرئ تقي الدين أبا العباس العبيدي (845هـ)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج3، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997م.
81. _____، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر.
82. _____، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج2، تح: محمد حلمي محمد أحمد، لجنة احياء التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، 1971م.
83. _____، المواعظ والاعتبار، ج4، طبعة1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
84. _____، جنى الأزهار من الروض المعطار، تحقيق: محمد زينهم، ط1، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، مصر، 2006م.
85. مؤلف مجهول، الحلل الموسوية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار و عبد القادر زمامة، ط1، دار الرشاد، المغرب، 1979م.

قائمة المصادر والمراجع

86. مؤلف مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م،
87. النويري شهاب الدين أحمد (ت733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج28-29، تح: نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004م.
88. الهجويري أبا الحسن علي، كشف المحجوب، ج1، ترجمة وتعليق: إسعاد عبد الهادي قنديل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2007م.
89. الوزان الحسن، وصف افريقيا، ج2، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م.
90. الونشريسي أحمد ابن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، ج2، تحقيق: محمد حجي وآخرون، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، المغرب، 1981م.

خامسا: المراجع

1. الابراهيمى محمد البشير، آثار الامام محمد البشير الابراهيمى، ج1، ط1، جمع وتقديم: أحمد طالب الابراهيمى، دار الغرب الاسلامى، بيروت، لبنان، 1997م.
2. أبو مصطفى كمال السيد، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الاسلامى من خلال نوازل وفتاوى المعيار العربى للونشريسي، مركز الاسكندرية للكتاب، مصر، 1996م.
3. أحمد شوقي بنين وآخرون، المخطوط العربى وعلم المخطوطات، مطبعة فضالة-المحمدية، الرباط، ط1، 1994م.
4. أربوح زهور، أوضاع المرأة بالمغرب الإسلامى من خلال نوازل المعيار للونشريسي - دراسة فقهية اجتماعية -، ط1، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2013م.

قائمة المصادر والمراجع

5. برونشفيك روبر، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ج2، ترجمة: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1988م.
6. بشير عبد الرحمن، اليهود في المغرب الإسلامي وإسبانيا المسيحية، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، جامعة الزقازيق، مصر، 2014م.
7. بل ألفريد، الفرق الاسلامية في الشمال الافريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، ط3، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1987م.
8. بن أشنهو عبد الحميد، الأيام الأخيرة للملك بني زيان واستشهاد عروج، ضمن كتاب جماعي حول مآثر تلمسان ماضيا وحاضرا، إعداد: نخبة من الأساتذة والمؤرخين، جمع وتعليق: محمد بوزواوي، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.
9. بن العربي الصديق، كتاب المغرب، ط3، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، 1984م.
10. بن منصور عبد الوهاب، قبائل المغرب، ج1، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1968م.
11. بنحمادة سعيد، الأغذية والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال العصر الوسيط مدخل لدراسة العوائد والقيم، منشورات الزمن، الرباط، المغرب، 2016م.
12. بنميرة عمر، النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط، ط1، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، 2012م.
13. بنهيمه ياسر، لباس المتصوفة في المغرب الوسيط من خلال المصادر المناقبية، ترجمة: راجي رضوان، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب، 2018م.
14. بوسلام محمد، اللباس التقليدي في المغرب - الجذور والإنتاج والأصناف والتطور -، ط1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2014م.

قائمة المصادر والمراجع

15. بوعبياد محمود، جوانب من الحياة في المغرب الأوسط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
16. بونابي الطاهر، مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، سلسلة الكتب الأكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر، 2017م.
17. بونار رابح، المغرب العربي تاريخه وثقافته، ط3، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2000م.
18. البياض عبد الهادي، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6-8هـ/14-16م)، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2008م.
19. تيتاو حميد، الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، المغرب، 2010م.
20. الجراري عباس، الحضور الديني في العادات والتقاليد المغربية، مطبوعات الأكاديمية المملكة المغربية، المعارف الجديدة، الرباط، المغرب.
21. الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1965م.
22. حجي محمد، ومحمد حجي الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج2، مطبعة فضالة، المغرب، 1978م.
23. الحريري محمد عيسى، تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني 610هـ-1213م/869هـ/1465م، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987م.
24. حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م.
25. الحسني محمد بن علوي المالكي، حول الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2010م.

قائمة المصادر والمراجع

26. الحيسن ابراهيم، الأطعمة والأشربة في الصحراء – أثربولوجيا الطبخ وآداب المائدة عند البيضان –، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2014م.
27. خروبي عفيفة، أصول أبي العباس الونشريسي من خلال المعيار المغربي، ج2، دار البصائر، الجزائر، 2011م.
28. الدراجي بوزياني، العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية على ضوء الفكر الخلدوني، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2003م.
29. دهينة عطاء الله وآخرون، الجزائر في التاريخ - العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني -، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
30. دوتي ايدموند، الصلحاء مدونات عن الإسلام المغربي خلال القرن التاسع عشر، ترجمة: محمد ناجي بن عمر، إفريقيا الشرق، المغرب، 2014م.
31. الزاهي نور الدين، المقدس الإسلامي، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2005م.
32. سامعي اسماعيل، تاريخ الإحتفال بالمولد النبوي الشريف في العالم الإسلامي والجزائر دراسة وصفية تحليلية نقدية، دار الفجر، قسنطينة، 2016م.
33. سعد الله فوزي، الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم، ج2، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016م.
34. سلطان عبد المنعم عبد الحميد، الحياة الاجتماعية في العصر الفاطمي دراسة تاريخية وثائقية، دار الثقافة العلمية، الاسكندرية، مصر، 1999م.
35. السندوبي حسن، تاريخ الإحتفال بالمولد النبوي من عصر الاسلام الاول الى عصر فاروق الأول، ط1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، 1948م.
36. سويسي صابر، رمزية اللباس في التجربة الصوفية، مؤمنون بلا حدود مؤسسة دراسات وأبحاث، الرباط، المغرب، 2013م.

قائمة المصادر والمراجع

37. شرقي الرزقي، المعالم التاريخية والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان في عدسات مصوري القرن (19م)، نشر ابن خلدون، تلمسان، الجزائر، 2013م.
38. عبدلي لخضر، التاريخ السياسي لمملكة تلمسان في عهد بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007م.
39. العبيدي آسيا تامر الهادي، آل البيت العلوي بالمغرب وأثرهم في الحياة العامة حتى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2019م.
40. العربي اسماعيل، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1980م.
41. عزاوي أحمد، المغرب الاسلامي خلال القرنين 7 و8هـ دراسة وتحليل لرسائله، ج1، الرباط نيت، المغرب، 2006م.
42. عزاوي أحمد، المغرب والأندلس في القرن السابع/ 13م - دراسة وتحقيق لدوانيات كتاب فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر ابن الخطاب -، مطبعة ربا نيت، الرباط، المغرب، ص 166.
43. العطري عبدالرحيم، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، 2014م.
44. العمراني عبد الحي حسن، المجتمع المغربي من خلال كتب النوازل، ط1، مطبعة الجديدة، الدار البيضاء.
45. عنان محمد عبد الله، دولة الاسلام في الأندلس، ج4، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1990م.
46. فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني - دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية-، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م.
47. لقبال موسى، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

قائمة المصادر والمراجع

48. لوبون غوستاف، الآراء والمعتقدات، ترجمة: عادل زعيتر، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2014م.
49. لي تورنو روجي، حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ترجمة، أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982م.
50. _____، فاس في عصر بني مرين، ترجمة: نقولا زيادة، مكتبة لبنان، 1967م.
51. المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
52. المنوني محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، ط3، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، المغرب، 2000م.
53. موسى عز الدين عمر أحمد، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ط1، دار الشرق، بيروت، لبنان، 1983م.
54. مؤنس حسين، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط5، دار الرشاد، القاهرة، مصر، 2000م.
55. ميتز آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، تر: محمد عبد الهادي أبوريدة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، 2008م.
56. ميراندا أمبروزو هويثي، التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة: عبد الواحد أكميز، منشورات الزمن، الدار البيضاء، المغرب، 2004م.
57. الميساوي سهام الدبابي، مائدة لإريقية دراسة في ألوان الطعام، ط1، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، تونس 2017م.
58. المليي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية.
59. الناصري أبو العباس أحمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفري الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء المغرب، 1955م.

قائمة المصادر والمراجع

60. النظام زهراء، العلاقات المغربية الجزائرية مقارنة سياسية ثقافية خلال القرن 10هـ/

16م، منشورات دار الأمان، الرباط، المغرب، 2015م.

61. نقادي سيدي محمد، الاسهامات الفكرية للعلامة الأبلي التلمساني بالحواضر

المغربية، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، 2016م.

62. _____، الخطة العمرانية لمدينة تلمسان ودلالاتها الاجتماعية، تلمسان،

2013م.

63. ولد داداه محمد، مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن

السابق، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1977م.

سادسا: قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

I. المراجع

1. Achel Israel Hadas-Lebel, Rebi Ephraim Elnkaoua, Rab de Tlemcen 1359-1442, Tlemcen, 1954.
2. Attallah Dhina, le royaume Abdelouadide a l'epoque d'Abou Hammou Moussa I^{er} et d'Abou Tachfin I^{er}, Office des publications Universitaires, Alger.
3. Bargés(L.J.JL), complément de l'histoire des Beni -Zeiyan rois de Tlemcem, ouvrage du Cheikh Mohammed Abd'al-Djalil al-Tenesty, Paris, 1887.
4. Bargés(L.J.JL), Tlemcen ancienne capital du royaume de ce nom – souvenirs d'un voyage, Tlemcen capital de la culture Islamique, 2011.
5. Catherine Mayeau-Jaouen, Gens de la maison et mouleds d'Égypte, De la religion civique à la religion populaire, Publications de l'École Française de Rome, paris, 1993.
6. Chantal de la Véronne, Yaghmurasan- premier souverain de la dynastie berbère des Abd-Al-Wadides de Tlemcen 633/1236-681/1283.
7. Dozy René, Dictionnaire détaillé des noms, des vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1845

8. Dozy René, supplément aux dictionnaires Arabes, Tome2, Leyde, E.J.Brill, 1881.
9. Fatima (Z.B.O), Tlemcen capitale musulmane le siecle d'or du Maghreb central, Edition Dalimen, Tlemcen, 2011.
- 10.Louis Rinn, Marabouts et Khouan étude sur l'islam en Algérie, Alger, 1884.
- 11.Marçais Georges, L'Architecture musulmane d'Occident (Tunisie,Algérie, Maroc, Espagne, Sicile), Paris,1951.
- 12.Marçais Georges, les villes d'art célèbres : Tlemcen, Edition du Tell, Blida, 2003.
- 13.Paul Eudel, L'orfèvrerie Algérienne et Tunisienne, Alger, 1902.
- 14.Robert Brunschfig, deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV^e siècle Abdal Basit B.Hallil et Adorne, Paris V^e, 1936.
- 15.S.M Negadi, Architecture & Urbanisation a Tlemcen - la cite medievale, 2006.
- 16.Stéphane Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique de Nord, Tome 6, Les royaumes indigènes vie matérielle, intellectuelle et morale, Paris, 1927.
- 17.W et G Marçais, les monuments arabes de Tlemcen, Paris, 1903.

.II المجلات:

1. Arnaud, Les tribus chorfa, Reveu Africain,N⁰99, 1877.
2. Darmon, Origine et constitution de la communauté Israélite de Tlemcen, in Revue Africaine, vol 14, 1870.
3. O.Mac Carthy, Algeria Romains, recherches sur l'occupation et la colonisation de l'Algérie par les Romains, 1^{er} mmoire subdivision de Tlemcên, in Revue Africaine, vol 1, 1856.
4. Richard L. Lawless, Tlemcen, capital du Maghreb central, Analyse des fonctions d'une ville islamique médéivale, in Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N⁰ 20, 1975.

5. Voy Devoulx, Edifices religieux de l'ancien Algérie, in Revue Africaine, 6^{ème} année, n66, 1876.

سادسا: الدوريات

1. بكاي هوارية، شركة آل المقرى التجارية ودورها في تمتين العلاقة التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي، مجلة المعارف، جامعة الوادي، العدد 04، 2018م.
2. بن حموش مصطفى، يهود الأندلس في تلمسان قصة النزوح والاقامة، مجلة الوعي، العددان 3-4، ماي 2011م، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، الجزائر.
3. بن داود نصر الدين، فخر المغرب على المشرق بن مرزوق الخطيب، مجلة القرطاس، تصدر عن مخبر الدراسات الفكرية والحضارية، جامعة تلمسان، العدد التجريبي، ديسمبر 2008م.
4. بن قربة صالح يوسف، مقدمة لدراسة الملابس المغربية - الأندلسية في العصر الإسلامي من خلال المصادر التاريخية والأثرية، مجلة تاريخ المغرب العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، العدد 14، الرباط، المغرب، 2000م.
5. بن معمر محمد، رحلات الحج من المغرب الأوسط إلى مكة خلال العصر الوسيط، مجلة الحضارة الإسلامية، جامعة وهران 1، العدد 1، ديسمبر 2017م.
6. بوتشيش ابراهيم القادري، ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات - المغرب والأندلس من القرن 6 حتى القرن 8هـ/ 12-14م نموذجا -، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران، العدد 7 - 8، 2013م.
7. بوعزيز يحيى، المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية 1236-1554م، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد 27، سبتمبر- أكتوبر 1975م.
8. التازي عبدالهادي، لماذا عيد المولد النبوي في الغرب الإسلامي والأسباب التي كانت وراء إنشائه، مجلة دعوة الحق، العدد 27، ديسمبر 1988م.
9. حاجيات عبد الحميد، مركز إشعاع ثقافي في المغرب الأوسط، مجلة الدراسات التاريخية، تصدر عن معهد التاريخ بجامعة الجزائر، العدد العاشر، 1997م.

قائمة المصادر والمراجع

10. سعيدي محمد، ظاهرة التوزيع وأبعادها الاجتماعية والثقافية الاقتصادية، مجلة الآداب، جامعة تلمسان، العدد 13، ديسمبر 2007م.
11. غزالي عبد العالي، طرق التعليم عند أبي عبد الله الشريف التلمساني، مجلة عصور الجديد، جامعة وهران 1، أحمد بن بلة، العدد 27، أكتوبر 2017م.
12. غومة سالم أبو القاسم، العلاقة السياسية وأثرها الحربي بين الدولة المرينية ودولتي الزيانيين والحفصيين ببلاد المغرب في العصر الوسيط، المجلة الجامعة، جامعة الجبل الغربي، العدد الثامن عشر، ماي 2016م.
13. فقادي الحسين، من مظاهر التغذية في تاريخ المغرب الوسيط، مجلة أمل للتاريخ والثقافة والمجتمع، الدار البيضاء، العدد: 16، السنة السادسة جوان 1999م.
14. فيلاي عبد العزيز، الأقليات المسيحية في تلمسان الزيانية ودورها في المجال العسكري والتجاري والعمراني، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 19، فبراير 2004م.
15. القاضي وداد، النظرية السياسية للسلطان أبي هو الزياني الثاني ومكانتها بين النظريات السياسية المعاصرة لها، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد 27، سبتمبر-أكتوبر 1975م.
16. لعرج عبد العزيز، المساجد الزيانية بتلمسان عمارتها وخصائصها.
17. لعرج عبد العزيز، تلمسان عمرانها وعمارتها الدينية، مجلة الوعي، مجلة فكرية ثقافية تصدر عن دار الوعي، العدد 3-4، ماي 2011م، تلمسان، الجزائر.
18. المدني أحمد توفيق، تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530-1554م، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد 27، سبتمبر-أكتوبر 1975م.
19. مرتاض عبد المالك، حركة الشعر المولدي في تلمسان على عهد أبي هو الثاني، مجلة الأصالة، السنة الرابعة، العدد 26، جويلية أوت 1975م، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011م.

قائمة المصادر والمراجع

20. مرتاض لمياء، أشكال التضامن الاجتماعي - التوزيع نموذجاً -، مجلة اللغة والاتصال، جامعة وهران، العدد 19، مارس 2016م.
21. نقادي سيدي محمد، التهيئة العمرانية بمدينة تلمسان من المرابطين إلى بداية الاحتلال الفرنسي (دراسة ميدانية)، مجلة أفاق وأفكار، جامعة الجزائر 02، العدد 03، السنة 2012م.
22. هواري موسى، تخزين الحبوب ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، العدد الثامن، ديسمبر 2016م.

سابعاً: الأطاريح

1. شقدان عبد الرزاق، تلمسان في العهد الزياني (633-962هـ / 1235-1555م)، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2002م.
2. عبد الشكور نبيلة، إسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن السادس إلى نهاية التاسع الهجري / الثاني عشر الخامس عشر ميلاديين، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2007-2008م.
3. علوي مصطفى، تلمسان من خلال كتب الرحالة والجغرافيين المغاربة والأندلسيين من القرن السابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري (13-15م)، أطروحة دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي الياصب، سيدي بلعباس، 2015م.
4. قوني زينب، الشعر الديني القديم في القرون السابع الثامن التاسع الهجرية موضوعاته وآثاره، أطروحة دكتوراه في اللغة والأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2015م.

ثامناً: المعاجم:

قائمة المصادر والمراجع

1. بريل جي، دائرة المعارف الاسلامية، إعداد وتحرير، عبد الحميد يونس وآخرون، ج 12، ط1، مركز الشارقة للابداع الفكري، 1998م.
 2. البستاني بطرس، دائرة المعارف - قاموس عام لكل فن ومطلب -، م1، ترجمة: نجيب محفوظ، بيروت، لبنان، 1876م.
 3. جبران مسعود، معجم الرائد، ط7، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1992م.
 4. رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 2002م.
 5. رينهات دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، 2012م.
 6. رينهات دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة: محمد سليم النعيمي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1997م.
 7. صالح العلي صالح وأمينة شيخ سليمان أحمد، المعجم الصافي في اللغة العربية، 1981م.
 8. عبد الكريم الخطيب مصطفى، معجم مصطلحات والألقاب التاريخية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1996م.
 9. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، ط2، مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة، بيروت، لبنان، 1940م.
- تاسعا: الموسوعات والقواميس:**
1. حساني مختار، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج4، دار الحكمة، الجزائر، 2007م.
 2. الحسيني الحسيني معدي، موسوعة الصوفية - نشأة وتطور التصوف وإشكالية تعريفه وموقف القرآن والسنة منه -، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2013م.

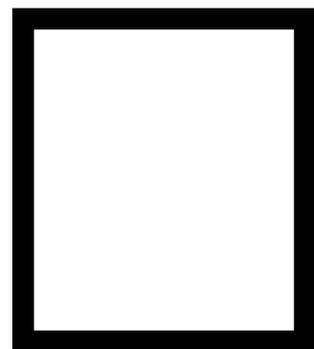
قائمة المصادر والمراجع

3. الفيروز آبادي مجد الدين (ت817هـ)، القاموس المحيط، مراجعة وإعتناء: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2008م.

عاشرا: المواقع الالكترونية:

1. www.judaicalgeria.com □
2. www.terredisrael.com/Rav-Tlemcen.php □

الفهارس



رقم الآية في المذكرة	الآية	السورة	رقم الآية
32	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾	سورة القلم	04
42	﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣١﴾﴾	سورة النور	63
45	﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾	سورة الأنبياء	107
51	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾	سورة القدر	05
155	﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ	سورة التوبة	29

□ فهرس الآيات

		عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾	
319	سورة التوبة	﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٣﴾﴾	103
319	سورة آل عمران	﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَالِمٌ ﴿١٤﴾﴾	92

- ابن خميس 25, 244 ,
 ابن زكرياء يحيى ابن محمد ميمون
 الفاروندي 68 ,
 ابن سعد 70, 193, 194 ,
 ابن عبّاد 43 ,
 ابن عبد المنان 48, 168, 213 ,
 ابن عذارى 25, 26, 270, 279 ,
 ابن عربي 143 ,
 ابن عمار 74, 103, 104, 358 ,
 ابن فضل الله العمري 124 , 102 ,
 138 , 139 , 168 , 296 , 312 ,
 313 , 316 , 358 ,
 ابن فضل الله العمري 296, 311 ,
 ابن قنفذ 135, 145, 146, 148 ,
 161, 196, 198, 199, 200, 202,
 358
 ابن كثير 19, 20, 21, 22, 357 ,
 ابن مرزوق الجدي 71, 314 ,
 ابن مرزوق 40, 33, 32, 26, 23 ,
 42, 44, 49, 50, 51, 58 ,
 63, 66, 67, 68, 70, 71 ,
 72, 73, 93, 95, 97, 122, 123 ,
 124, 125, 128, 129, 130 ,
 131, 136, 137, 138, 140 ,
 141, 143, 144, 145, 147 ,
 148, 149, 150, 153, 160 ,
- ابراهيم 99 ,
 الابراهيمى 45, 46, 51, 363 ,
 الآبلي 113, 225, 246, 249, 297 ,
 369
 ابن أبي دُبوس 92 ,
 ابن أبي زرع 33, 81, 83, 84, 92 ,
 198, 258, 271, 272, 273, 278,
 280, 283, 284, 285, 290, 291,
 292, 355, 197
 ابن الأحمر 48, 75, 79, 168, 206 ,
 212, 213, 266, 267, 317, 355
 ابن الأزرق 65 ,
 ابن الجوزي 142, 167, 358 ,
 ابن الحاج النميري 80, 120, 165 ,
 ابن الحَبّاك 170 ,
 ابن الخطيب لِسَان الدّين 167 ,
 ابن الصَّبّاح 75, 76, 77, 92, 117 ,
 120, 169, 181, 234, 277, 356
 ابن الصَّبّاح 76, 92, 116, 117, 120 ,
 228, 277, 92, 116
 ابن الطيب 152 ,
 ابن العربي 146, 277, 364 ,
 ابن القطان 201, 216 ,
 ابن خلدون عبد الرحمان 206, 90, 91 ,
 ابن خلكان 20, 21, 22, 23, 24 ,
 143, 357
 ابن خليل 30, 53, 132 ,

- 170 , 171 , 174 , 175 , 178 ,
 179 , 180 , 184 , 192 , 193 ,
 194 , 197 , 201 , 202 , 203 , 204 ,
 205 , 206 , 207 , 210 , 211 , 213 ,
 214 , 215 , 216 , 217 , 218 , 219 ,
 220 , 224 , 227 , 230 , 234 , 236 ,
 237 , 243 , 244 , 247 , 252 , 253 ,
 254 , 308 , 309 , 311 , 312 , 313 ,
 314 , 315 , 321 , 349 , 354 , 358 ,
 371 , 43 , 50 , 145 , 201 , 202 ,
 210 , 214 , 215 , 220 , 230 , 371
 ابن مريم , 144 , 193 , 220 , 295 ,
 308 , 358
 أبو إسحاق الحفصي 98 ,
 أبو إسحاق , 43 , 44 , 95 , 96 , 97 , 99 ,
 100 , 216 , 225 , 233
 أبو الحسن ابن أبي حفص بن عبد المؤمن
 الموحدى 299 ,
 أبو الحسن ابن حرزهم 146 ,
 أبو الحسن السعيد , 84 , 197 , 206 ,
 273
 أبو الحسن المريني , 67 , 69 , 201 , 209 ,
 230 , 253 , 256 , 257 , 258 , 261 ,
 296 , 299 , 300 , 316
 أبو الحسن عليا بن أحمد المعروف بإبن
 الفحام 167 , 36 ,
 أبو الخطاب ابن دحية 24 ,
 أبو العباس ابن القطان 71 ,
 أبو العباس أحمد العاقل ابن أبي هو , 60 ,
 26 , 268 , 308 . 310 , 372
 أبو العباس أحمد ابن محمد 26 ,
 أبو العباس الرفاعي 145 , 204 ,
 أبو العباس السبتي 320 ,
 أبو القاسم العزفي 26 ,
 أبو القاسم ابن ميمون السنوسي 86 ,
 أبو المعالي 146 ,
 أبو بكر ابن عبد الحق 285 ,
 أبو تاشفين 39 , 117 , 203 , 289 ,
 أبو تاشفين الأول 66 , 67 , 69 , 92 , 79 ,
 94 , 117 , 120 , 168 , 180 , 295 ,
 308
 أبو تاشفين الثاني 47 , 134 ,
 أبو ثابت 47 , 298 ,
 أبو ثابت الزباني 289 , 298 ,
 أبو جعفر الكرخي 18 ,
 أبو حامد الغزالي 146 ,
 أبو حفص 95 , 136 , 143 ,
 أبو هو الأول . 89 , 117 , 224 , 225 ,
 89 , 250 , 262 , 287 , 288 , 297
 300
 أبو هو الثاني , 29 , 38 , 39 , 45 , 47 ,
 57 , 59 , 69 , 76 , 84 , 93 , 104 ,
 134 , 165 , 219 , 245 , 289 , 302 ,
 304 , 358 , 39677 , 85 , 109 ,
 , 38 , 43 , .166 , 219 , 222 , 264 ,
 79 , 82 , 92 , 95 , 164 , 168 , 194 ,
 209 , 216 , 220 , 265 , 303 , 306 ,
 267 , 268 , 308 . 310 , 372

- أبو حمو موسى , 28, 38, 39, 43, 45, 57, 69, 76, 78, 85, 93, 104, 106, 107, 108, 109, 133, 134, 165, 209, 222, 223, 245, 265, 267, 268, 269, 287, 288, 289, 302, 305, 306, 310, 312, 358, 396. 28, 33, 34, 35, 37, 38, 47, 74, 77, 86, 103, 224, 225, 239, 266, أبو زكريا ابن عبد الواحد 282, أبو زكريا الحفصي 256, 313, أبو زكريا يحيى ابن الصيقل 237, أبو زكريا يحيى ابن عمر بن جدار العبد وادي 66, أبو زيان الأول.. 98, 112, أبو زيان الثالث سنة 111, أبو زيان ابن عثمان 253, أبو زيان محمد 57, 265, أبو زيد ابن الامام 236, أبو زيد عبد الرحمان ابن النجارس 224, أبو زيد عبد الرحمان الزياتي ابن أبي زكريا 137, أبو زيد عبد الرحمان ابن النجار 71, أبو سالم المريبي 94, 86, 265, 264, 264, 307, أبو سعيد المريبي 66, أبو سعيد عبد الرحمان 135, أبو سعيد كوكبوري , 19, 20, 21, 22, 23, 24, 26, أبو شامة 20, 358, أبو عبد الله ابن البلد 153, أبو عبد الله الجراوي 68, أبو عبد الله الشريف التلمسان , 70, 194, 237, 239, 372, 70, 74, 75, 103, 112, 150, 216, 218, 224, 235, 238, 235-207, 58, 74, 150-359, أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري , 37, 47, أبو عثمان سعيد 145, 204, أبو علي الحسن ابن خلاص 84, 276, أبو علي عمر ابن العباس الصنهاجي , 195, أبو عمرو ميمون ابن يوسف بن عبد الرحمان بن زاغ 68, أبو عنان 304, أبو فارس المريبي 266, أبو محمد عبد السلام 135, أبو محمد عبد الله ابن عبد الواحد المجاصي , 205, أبو محمد عبد الله 205, 236, أبو محمد عبد المؤمن ابن يوسف المديوني , 35, أبو مدين شعيب , 146, 195, 198, 220, 394, 144, 145, 146, 148,

180, 195, 196, 198, 199, 200, , 122, 145, 184, 192, البخاري
201, 203, 204, 206, 230, 286, 210, 240, 354
327

أبو موسى القروي 145, -ت-

أبو يعقوب ابن نسطاس 15, , التنسي ,, 28, 29, 30, 31, 34,
أبو يعقوب المريني.. 211, 79, 85, 15, , 36, 37, 39, 44, 47, 49,

86, 87, 195, 203, 211, 256, , 59, 61, 75, 84, 98, 102,
15, 44, 258, 260, 284, 317 , 112, 120, 139, 167, 168,
74, 84, 104, 207, 215, 224, 239, 283, 285, 294 , 169, 197, 200, 201, 202,

أبو اسحاق الشاطبي 43, , 203, 208, 209, 213, 216,

أبو زكريا الحفصي, 263, 268, 272, 277, 280, 396 , 227, 231, 232, 233, 270,

أحمد ابن الحسن ,, 192, 194, 214, 279, 276, 275, 273, 272,
350, 243 , 285, 286, 287, 295, 298,

أحمد ابن الناصر بن المولى أبي حمو 30, 299, 300, 301, 302, 313,
أحمد ابن زاغو 203, 239, 359

أحمد ابن قاسم القباب 41, تيدوكسن بن طاع الله 66,

إدريس ابن إدريس بن عبد الله 231, -ث-

الإدريسي 257, 359, ثابت بن منديل المغراوي 285,
آدم ميتز 18, , الجنيد 141, 146,

افرايم ألانكاوه 59, 65,

ألفونسو 62, -ح-

الامام أحمد 32, , حاجيات, 28, 29, 32, 105, 241,
الامام مالك 41, 53, 54, 264, 327, 357, 363, 371

الأمير بأحكام الله 17, , الحاكم بأمر الله 16,

-ب- حسان ابن ثابت 32, 356,

الحسن أبركان, ط, 70, 193, 243, 351

- ع-
- الحسن البصري 146 ,
 حَسَن السندوبي 18 ,
 الحسن الوزان 42, 77, 102, 103,
 104, 106, 107, 110, 112, 113,
 114, 116, 118, 128, 130, 134,
 135, 136, 139, 140, 148, 154,
 158, 159, 161, 162, 176, 197,
 229, 230, 264, 277, 295, 297,
 298, 300, 304, 305, 320
 الربّي صمويل 65 ,
 الرّشيد 248 ,
 الرصاع 31, 33, 38, 39, 43, 359,
 360
- ز-
- زهيرة 79 ,
 زيان ابن ثابت 248, 293
- س-
- سبط ابن الجوزي 20, 22, 23 ,
 السعيد الموحي 274 , 272
 السقطي 146 ,
 السهروردي 142, 143, 146, 150,
 151, 153, 154, 360
 سوط النساء 263 ,
 سيدي الحلوي 131, 220, 234 ,
 سيدي عبد الله بن منصور 220 ,
 الشافعي 152 ,
 الظاهر برقوق 98 ,
- عائشة رضي الله 32 ,
 عباس ابن منديل المغراوي 281 ,
 عبد الباسط ابن خليل 30, 51, 54,
 132, 214
 عبد الرحمان ابن معاوية 219 ,
 عبد الرحمان ابن موسى بن عثمان 201 ,
 عبد الرحمان الجليلي 47, 87, 92, 93,
 106, 108, 109, 137, 168, 169,
 170, 178, 179, 180, 208, 223,
 233, 263, 266, 270, 286, 291,
 298, 305
 عبد الرحمان ابن خلدون 66, 67, 68,
 72, 81, 82, 89, 91, 92, 96, 97,
 98, 99, 100, 106, 108, 117,
 134, 139, 141, 158, 206, 208,
 209, 224, 225, 226, 230, 232,
 233, 235, 248, 249, 250, 252,
 253, 254, 255, 259, 260, 261,
 262, 263, 264, 268, 270, 272,
 274, 275, 277, 278, 280, 281,
 282, 286, 287, 288, 289, 291,
 293, 297, 299, 302, 308
 عبد العزيز المريني 266 ,
 عبد العزيز فيلاي 19 ,
 عبد القوي ابن عطية التوجيني 281 ,
 عبد الله الثغري 70, 112, 150, 194,
 195, 210, 217, 224, 235, 236
 75 , 74 , 70
 عبد الله حمادي 15 ,

- الغماري , , 192 , 194 , 242 , 243 , 350
- عبد المؤمن ابن علي 29, 262, 272 ,
عبد الوهاب بن منصور 24, 45, 221 ,
العبدري 176, 199, 228, 229, 359 ,
عثمان ابن يحيى بن محمد بن جرار 66 ,
عثمان ابن يغمراسن 62, 93, 97, 99 ,
113, 117, 225, 267, 282, 284,
285, 343
عثمان العبد وادي 67 ,
عثمان رضي الله عنه 49, 179 ,
عروج بربروس 111 ,
عطاء الله دهينة 81, 82, 120, 186 ,
187, 220, 232, 242, 243, 260,
277, 295, 296, 313
العقباني , , 41 , 49 , 50 , 51 , 62 ,
80 , 128 , 154 , 155 , 156 ,
163 , 171 , 181 , 182 , 183 ,
184 , 185 , 186 , 187 , 188 ,
189 , 190 , 193 , 204 , 307 ,
310 , 320 , 321 , 322 , 361 ,
393
علي ابن أبي طالب 14, 15, 146 ,
232
علي ابن أحمد 36, 167, 195 ,
عمر ابن أبي سلمة 122 ,
عمر ابن عثمان بن يوسف الهسكوري ,
284
عنقاوة 65 ,
- ف-
- فرج بن عبد الله 117 ,
الفيروز آبادي 28, 375 ,
- ق-
- قابوس ابن النعمان بن المنذر 25 ,
القاسم ابن إدريس 232 ,
القرافي 169 ,
القلصادي , 116 , 152 , 153 , 163 ,
192 , 193 , 203 , 204 , 227 ,
237 , 238 , 239 , 240 , 241 ,
242 , 349 , 361 , 395
القلقشندي 14, 14, 16, 17, 54, 55 ,
56, 101, 166, 339, 361
قيصر الروم 169 ,
- ك-
- كاربخال مارمول 69, 78, 91, 107 ,
110, 111, 114, 115, 116, 119,
120, 127, 133, 136, 158, 197,
222, 223, 230, 269, 294, 296,
361, 69, 78, 91, 104, 107,
110, 111, 113, 114, 115, 116,
118, 119, 120, 127, 133, 136,
158, 222, 230, 269, 294, 296,
361
كندوز ابن كمي 293 ,
- غ-

- م- منصور ابن عمّار 144 ,
 موسى ابن عُثْمَان 89 ,
 المازوني 123, 126, 127, 151, 152, 191, 195, 203, 208, 209, 215, 216, 361
 المتوكل على الله أبي عنان 212 ,
 محمد ابن ثابت 54 ,
 محمد ابن زيان 82 ,
 محمد ابن عامر ابن يغمراسن 100 ,
 محمد ابن عطو البربري الزناتي 284 ,
 285
 محمد ابن محمد بن أحمد عمرو التميمي ,
 212
 محمد ابن يوسف الثغري 33 ,
 محمد ابن يوسف القيسي الأندلسي 58 ,
 محمد الشهير ابن أبي عزفة اللخمي 25 ,
 محمد بن إدريس بن عبد الحق المريني ,
 284
 المرتضى 209, 275 ,
 المستنصر 95, 96, 136, 281 ,
 معروف الكرخي 146 ,
 المعز لدين الله 18 ,
 المغيلي 222, 362 ,
 المقتدر العباسي 169 ,
 المقري 15, 25, 27, 37, 43, 44, 68, 76, 113, 119, 120, 145, 154, 165, 167, 170, 180, 181, 196, 320, 362, 371 15, 16, 17, 23, 78, 79, 127, 362
- الناصرى 84, 256, 258, 264, 265, 275, 368
 النبي ﷺ 13, 14, 15, 17, 18, 20, 24, 26, 31, 32, 33, 35, 36, 38, 39, 40, 42, 44, 45, 46, 48, 122, 146, 151, 155, 192, 201, 209, 227, 325, 360, 31, 34, 44, 62, 122, 146, 156, 217, 231
 النويري 16, 61, 337, 363
- ه- الهجويري 141, 146, 147, 148, 363
 هلال القطلاني 66, 67
- و- الواثق بالله 100 ,
 واسين بن يصلتن 231 ,
 الونشريسي 48, 44, 43, 42, 41, 50, 54, 55, 62, 63, 64, 65, 71, 72, 155, 156, 157, 158, 191, 192, 211, 212, 306, 307, 363, 366
- ي- ياسر بنهيمه 142, 147, 152

- يحيى ابن إبراهيم بن علي العطار 180 ,
 يحيى ابن خلدون 28, 33, 36, 37,
 45, 50, 52, 57, 58, 66, 67, 76,
 81, 82, 83, 93, 94, 102, 103,
 106, 110, 112, 116, 121, 129,
 131, 132, 134, 137, 164, 165,
 166, 167, 168, 176, 177, 193,
 194, 204, 205, 207, 213, 222,
 231, 232, 233, 237, 239, 250,
 251, 255, 260, 261, 262, 266,
 273, 274, 275, 277, 281, 286,
 287, 289, 299, 300, 301, 303,
 , 34 , 33 , 29 , 28 305, 308
 , 134 , 128 , 121 , 94 , 45
 , 258 , 239 , 207 , 167 , 153
 313 , 303 , 298 , 266
 يعقوب ابن عبد الحق 83, 92, 258,
 268, 290, 292
- يغمراسن 28, 29, 44, 81, 82, 83,
 84, 92, 93, 95, 96, 97, 98, 99,
 100, 102, 106, 108, 110, 126,
 127, 137, 171, 194, 197, 202,
 206, 207, 208, 213, 214, 215,
 223, 226, 231, 232, 233, 242,
 245, 247, 248, 249, 250, 251,
 253, 257, 260, 262, 263, 264,
 265, 268, 270, 272, 273, 274,
 275, 277, 278, 279, 280, 281,
 282, 283, 284, 288, 290, 291,
 292, 293, 298, 300, 308, 328,
 337, 342, 346, 395, 396
 يوسف الزيدوري 152, 238 ,
 يوسف ابن يعقوب 44, 146, 253,
 297
 يوشف ابن تاشفين 223 ,

-أ-	باب العقبة , 193, 194, 220, 237, 263, 270, 301
, 17, 19, 20, 21, 22, 23, 24, إبريل	باب القرمادين , 81, 220, 350, 301
26, 397	باب ايلان , 278
أركش , 268	باب كشوطة , 300, 301, 311
آسفي , 199	بجبل آفرشان , 203
الاسكندرية , 16, 66, 192, 363, 366	بحر الظلمات , 115
الأسواق , 188	برج كيس , 300
أغادير , 227, 261	البعل , 119
إفريقيا , 91, 42, 130, 131, 136	بغداد , 78, 170, 225, 374
, 278, 178, 147, 138, 137	بلاد الشرقية , 184
364, 363, 279	
آكر سيف , 264	-ت-
الأمصار الشرقية , 171	تاجرات , 227, 261
الأندلس , 24, 25, 26, 43, 49	تافرطه , 287
, 132, 124, 96, 92, 65, 59	تامرزدكت , 208, 272, 403, 197,
, 212, 209, 178, 160, 138	269, 272, 276, 264, 288, 119,
, 296, 290, 260, 247, 219	206
, 367, 362, 357, 331, 311	تلمسان , 19, 25, 28, 29, 30,
, 93, 371	, 33, 34, 36, 38, 39, 42,
أوروبا , 59, 127	, 46, 47, 48, 49, 51, 53,
ايسلي , 292	, 54, 55, 58, 59, 60, 61,
	, 62, 63, 64, 65, 66, 67,
-ب-	, 68, 69, 70, 71, 72, 74,
باب البستان , 29	, 76, 78, 79, 80, 85, 89,
باب الجياد , 202, 205, 206, 220,	, 90, 91, 92, 94, 97, 98,
301	, 102, 104, 106, 107, 110,
	, 111, 112, 115, 116, 113,

- 127, 128, 130, 135, 136, 138, 141, 145, 147, 148, 152, 154, 155, 160, 166, 170, 171, 177, 179, 180, 182, 183, 184, 187, 190, 192, 193, 194, 195, 196, 197, 198, 203, 204, 208, 209, 210, 212, 213, 220, 222, 223, 227, 230, 233, 235, 237, 238, 239, 242, 243, 253, 254, 256, 258, 261, 264, 265, 272, 277, 280, 283, 286, 287, 288, 292, 295, 298, 300, 302, 304, 308, 316, 320, 321, 322, 325, 34, 76, 89, 90, 91, 92, 94, 164, 165, 166, 246, 248, 276, 277, 285, 292
- توات 306 ,
تونس , 26 , 30 , 33 , 43 , 52 , 54 , 76 , 95 , 96 , 100 , 116 , 131 , 136 , 138 , 149 , 156 , 199 , 209 , 220 , 224 , 257 , 263 , 272 , 275 , 281 , 282 , 296 , 301 , 302 , 311 , 355 , 356 , 357 , 359 , 360 , 361 , 368
- الجامع الأعظم 191, 192, 197, 207 ,
جبال الظهر 249 ,
جبال بني يزناسن 264, 270 ,
الجبانات 188 ,
- جبل ورنيد 270 ,
الجزائر , 14, 19, 23, 27, 28, 29, 32, 33, 37, 38, 39, 41, 45, 47, 62, 65, 69, 70, 71, 80, 81, 87, 93, 111, 113, 120, 123, 129, 135, 151, 160, 169, 170, 171, 177, 226, 241, 251, 261, 263, 272, 286, 295, 331, 356, 357, 358, 359, 361, 363, 364, 365, 366, 367, 368, 369, 371, 372, 93, 373, 374 ,
الجلسة 119 ,
- ح-
- الحرطون 119 ,
حصن العقاب 247 ,
حمام 176, 242 ,
الحوانيت 188 ,
الخنادق 300, 309, 313, 403 ,
- د-
- درب سلسلة 193 ,
دمشق , 50, 122, 124, 170, 219, 228, 354, 355, 361
- ر-
- رباط الموفق 204 ,

- ز- عين المجادلة 119 ,
- غ- زواغة 119 ,
- س- الغرب الإسلامي 26 , 31 , 41 , 42 , 45 , 79 , 104 , 124 , 131 , 147 , 186 , 198 , 311 , 317 , 342 , 354 , 357 , 363 , 364 , 371
- ساقية النصراني 119 ,
- سبتة 24 , 25 , 26 , 27 , 84 , 276 , 397
- سجل ماسة 187 , 260 ,
- سفسف 128 ,
- ش- غرس الباي 119 ,
- غرناطة 228 , 296 ,
- ف- الشام 17 , 19 , 161 ,
- شمال إفريقيا 226 ,
- الصحراء 110 , 113 , 125 , 230 , 232 , 261 , 262 , 263 , 264 , 265 , 266 , 270 , 277 , 278 , 279 , 328 , 366
- الصفصيف 119 , 120 , 128 ,
- الصهريج 120 , 295 ,
- ق- فاس 33 , 43 , 49 , 67 , 68 , 69 , 84 , 86 , 94 , 98 , 107 , 115 , 136 , 139 , 158 , 168 , 170 , 176 , 222 , 224 , 230 , 250 , 255 , 256 , 257 , 264 , 265 , 300 , 302 , 303 , 320 , 355 , 356 , 368 , 382
- فج الريح 119 ,
- فندق الرمانة 178 ,
- فيكيك 277 ,
- ع- العباد 21 , 43 , 153 , 176 , 180 , 192 , 195 , 196 , 197 , 198 , 199 , 200 , 201 , 202 , 205 , 207 , 211 , 230 , 286 , 327 , 360 , 401 , 145
- عين الرزقاء 119 ,
- عين الفوارة 119 ,
- عين القصر 119 ,
- ق- القاهرة 13 , 15 , 16 , 17 , 18 , 20 , 21 , 22 , 23 , 25 , 28 , 65 , 78 , 127 , 138 , 142 , 143 , 144 , 146 , 167 , 195 , 201 , 218 , 260 , 317 , 355 , 356 , 358 , 360 , 361 , 362 , 363 , 366 , 367 , 368 , 374 , 375
- قباسة 59 , 60 , 61 , 331 ,

القرافة 201 ,	206, 257, 260, 355, 356, 358,
القرويين 170, 191, 239, 257 ,	359, 360, 361, 362, 363, 364,
قطلان 93 ,	366, 367, 368, 374, 375, 397
قلعة المشور 29, 119, 288 ,	المطمر 285, 311, 313 ,
القيسارية 62, 93, 172, 178, 179 ,	المغرب 132, 201, 221 ,
-ك-	المغرب الاسلامي 1 , 13 , 14 , 24 ,
كدية العشاق 119 ,	25 , 27 , 43 , 47 , 51 , 54 ,
-م-	60 , 64 , 96 , 97 , 98 , 110 ,
ماخوخ 119 ,	113 , 135 , 190 , 192 , 195 ,
المدرسة التاشفينية 170, 180 ,	209 , 223 , 228 , 240 , 241 ,
المدرسة اليعقوبية 239 ,	248 , 249 , 251 , 252 , 255 ,
المدينة المنورة 29, 204 ,	256 , 257 , 270 , 272 , 293 ,
مراكش 92, 115, 158, 170, 195 ,	302 , 308 , 321 , 363 , 364 ,
209, 249, 250, 262, 264, 272,	367 , 368 , 373 , 397 , 402 ,
275, 285	المغرب الأقصى 42 . 114, 251, 268 ,
المرج 206 ,	293
المسجد الأعظم 49, 170, 192, 214 ,	المغرب الأوسط 42 . 248, 257, 286 ,
المشارق 201 ,	246 , 288 , 289 ,
المشرق 18, 26, 42, 65, 149, 193 ,	المغرب 1 , 13 , 14 , 21 , 23 , 24 ,
209, 223, 241, 326, 371	25 , 26 , 27 , 28 , 31 , 33 ,
المشور 28, 29, 30, 34, 36, 61 ,	37 , 39 , 40 , 41 , 42 , 43 ,
102, 116, 117, 166, 167, 216,	45 , 47 , 48 , 51 , 54 , 60 ,
287, 397	64 , 65 , 66 , 67 , 69 , 75 ,
مصر 13, 14, 15, 16, 17, 18, 20 ,	78 , 79 , 83 , 84 , 90 , 92 ,
21, 22, 25, 26, 28, 61, 64, 98,	94 , 95 , 96 , 97 , 98 , 100 ,
102, 127, 138, 142, 143, 144,	110 , 113 , 115 , 124 , 125 ,
145, 146, 167, 192, 195, 200,	127 , 130 , 133 , 135 , 136 ,
	137 , 139 , 142 , 145 , 150 ,

159, 162, 168, 190, 192, 195,	الملوية 264 ,
199, 200, 202, 206, 209, 221,	موريطانيا الطنجية 115 ,
223, 226, 228, 230, 233, 235,	موريطانيا القيصرية 115 ,
240, 241, 246, 247, 248, 249,	
250, 251, 252, 254, 255, 256,	-ه-
257, 261, 264, 266, 270, 271,	
272, 277, 278, 280, 281, 286,	هب الريح 119 ,
287, 288, 289, 293, 299, 302,	هنين 66, 96, 103 ,
308, 310, 311, 317, 318, 320,	
321, 322, 341, 351, 355, 356,	-و-
357, 358, 359, 362, 363, 364,	
365, 366, 367, 368, 369, 371,	وادي تلاغ 83, 84, 290 ,
372, 373, 397, 402, 90, 246,	وانشريس 287, 292 ,
248, 311	
المقابر, 186, 188, 197, 211, 350,	وجدة, 84, 103, 206, 208, 264,
401, 190, 192	276, 277
مكة 20, 66, 67, 204, 218, 371,	الوريط 119 ,
الملاح 61 ,	وطاط 264 ,
ملعب الخيل 76 ,	

فهرس الموضوعات

فهرس المحتويات	
أ- ك	مقدمة
الفصل الأول: الظاهرة الاحتفالية عند الزينيين وأثرها الديني والاجتماعي	
12	أولاً: الاحتفالات بالأعياد وممارسة الشعائر الدينية عند المسلمين وأهل الذمة
13	1 . المولد النبوي الشريف - جذور الممارسة الاحتفالية وانتقالها الى المغرب الإسلامي -
14	أ- الاحتفال بالمولد النبوي عند الفاطميين بمصر
19	ب- الاحتفال بالمولد النبوي عند أبي سعيد كوكبوري في إربل
24	ج- الاحتفال بالمولد النبوي عند العزفيين في سبتة
28	د- الاحتفال بالمولد النبوي عند الزينيين في تلمسان
29	• قصر المشور رمز الاحتفال الرسمي بعادة المولد النبوي الشريف
40	و- رأي الفقهاء في المولد النبوي بين الاستنكار والتأييد
47	ز- الاحتفال بالليلة السابعة للمولد
49	2. مظاهر الاحتفال بشهر رمضان
51	أ- عادة الضرب في البوقات في رمضان بالمساجد
52	3. الاحتفال بالعيدين (الفطر والأضحى)
52	أ- عيد الفطر
53	ب- عادة الاحتفال بعيد الأضحى
55	ج- عادة ركوب السلطان لصلاة العيدين أو للسفر
57	4. الاحتفال بمذق القرآن
59	5. طقوس الاحتفالات الدينية عند أهل الذمة
66	ثانياً: العادات الاحتفالية العامة عند الأسرة
66	1. عادة الاحتفال بموكب الحج
68	2. الزواج وتجهيز العروس
72	3. الوليمة والعقيقة
73	4. عادة الاحتفال بالتمليحة

74	ثالثا: الزبانيون وتقاليدهم في الاحتفالات المدنية
74	1. تدشين المنشآت المعمارية
75	2. عادة ركوب الخيل
79	3. مجالس اللهو والطرب.
80	4. احتفالات حربية
81	أ - عادة الاستعراض العسكري
84	ب - خروج الجيش
85	ج - الاحتفال بالنصر
87	د - منح درجات الترقيات في مراتب الجند
الفصل الثاني: تركيبة المجتمع التلمساني وعاداته في اللباس والأكل	
90	أولاً: تركيبة المجتمع
92	1. الملوك والسلاطين
96	أ - عادة الاحتفال والبيعة لقدم أحد الحلفاء السياسيين
99	ب - عادة المصاهرة السياسية
104	2. القادة وكبار الجند
109	أ - الأعيان
109	ب - القبيل
109	ج - الأنصار
110	د - المماليك
112	3. الفقهاء والعلماء
113	4. التجار والحرفيون والفلاحون
115	5. فئة العوام
117	6. فئة العبيد وأسرى الحرب
118	ثانياً: العادات الغذائية وآداب الأكل
118	1. أماكن الأكل وآداب المائدة
118	أ - المتنزهات وأماكن الأكل

121	ب - آداب المائدة
122	2. المشاركة في الطعام
124	3. أنواع الطعام
124	أ - أخباز ولحوم
127	ب - فواكه وبقوليات
129	ج - أطباق تقليدية
129	• البرُّكُوكَشُ: (الكُسْكُسي)
130	• الفداوش
131	• الحمصة
132	• المشهدة
132	• المجبنة
133	ثالثاً: تقاليد اللباس
133	1. لباس القادة والملوك
140	2. لباس التجار والحرفيون
140	3. لباس العلماء والمتصوفة
141	أ - الجُبَّة
142	ب - الخِرْقَةُ
147	ج - المرقعة
148	د - الرفيع من الصوف
152	هـ - لباس الفقراء
154	4. لباس أهل الذمة
158	5. لباس المرأة
159	أ - السروال
159	ب - الخمار
160	ج - الشاشية
160	د - الحايك

161	هـ - الجبة
الفصل الثالث: عوائد الزيايين وأعرافهم في الممارسات المهنية والمعتقدات الشائعة	
164	أولاً: عاداتهم في التصنيع والمهنية
165	1. الجودة في الدقة والتصنيع
166	أ - ساعة المنجاة
168	ب - الشجرة العجبية
168	ج - الدجاجة العجبية
170	د - الساعة المائية
170	هـ - ثرية المسجد
171	2. العمران ورمزية الاشارة
171	أ - رمزية الاشارة
175	ب - عادة النظافة في المدينة
177	3. الانتظام في الاسواق
181	4. عوائد منبوذة داخل المجتمع أنكرتها المدونة النووازية والكتب الفقهية - العقباني (تحفة الناظر أنموذجا) -
181	أ - عادات منكورة في المساجد
181	• أكل الطعام في المساجد في رمضان
181	ب - عادات منكورة في الأسواق
181	• إلقاء الأزبال بالأفنية والطرق
182	• الميازيب التي تقطر بالتجاسة واتخاذ مرابط الدواب على الطرق
183	• ايقاف الدواب
183	• منع الجزارين من الخلط
183	• منع التجار خلط السلع
184	ج - عادات خروج المرأة في المجتمع التلمساني
184	• إعلان النساء بالنوح ولطم الحدود

185	• خروج النساء متزينات بأنواع الزينة
186	• دخول النساء الحمام
187	• نظر النساء إلى الأجنب من الرجال لغير ضرورة
188	• خروج النساء إلى المقابر
188	• جلوس النساء إلى الصنّاع
189	• خُرُوجُ الْوَحْشِ مِنَ الْإِمَاءِ مُلْتَحِفَاتٍ كَالْحَرَائِرِ
190	ثانياً: عادات شائعة في المعتقدات والطقوس
190	1. المراسيم الجنائزية وطقوس الممارسة
191	أ - عادة الجهر بالتهليل أمام الجنازة
191	ب - عادة نعي الميت من منار الجامع
191	ج - عادة القراءة في أجزاء القرآن في صباح القبر
192	د - عادة عشاء القبر (سابع الميت)
195	2. المزارات والقبور والتبرك
195	أ - العباد قبله للمزارات والتبرك
198	• أبو مدين شعيب رمز البركة
202	ب - التبرك بالأولياء
202	• التماس البركة من الأولياء في حياتهم
204	• التماس البركة من الأولياء في قبورهم
207	• عادة سلاطين بني زيان في ترك الوصية بالدفن بجوار الصالحين
208	ج - التبرك بالمساجد
208	د - التبرك بالمصاحف وكتب الحديث
212	3. الرثاء
213	4. عادات تقبيل اليد
219	5. معتقدات أخرى
222	ثالثاً: ما جرى عليه العرف في الأسماء والألقاب

222	1. لقب الامارة
226	2. لقب المدينة
230	3. الشرف (جدلية النسب والانتماء)
233	4. الأوصاف العلمية والأخلاقية للنخبة العاملة بتلمسان (العادات الاخلاقية)
237	5. تقاليد طلب العلم وطرق تحصيله عند النخب التلمسانية الواردة في رحلة القلصادي
242	أ - طبائع العلماء والأولياء وعاداتهم في المشروع الأخلاقي
الفصل الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وتقاليد الحرب في تلمسان الزيانية	
246	أولا/ الخوف واستعمال العنف على المجتمع التلمساني
246	1. الخوف وأثره على ذهنية بني زيان
247	أ - مضمون الصراع على مناطق النفوذ وموقف يغمراسن منه
247	• نشأة دولة بني زيان
248	• وصية يغمراسن
251	ب - أسباب الخوف
251	• الغزو
254	• عدد السكان
255	• فكرة توحيد المغرب الإسلامي ومشروع المجتمع
257	2. أهم الحصارات
259	3. الأسلحة الحربية المستعملة على المجتمع التلمساني
259	أ - قوس الزيار
259	ب - عرّادة
260	ج - المجانيق
260	د - قسي عقّارة
260	هـ - الأنفاط
261	ثانيا/ تقاليد الحرب عند بني زيان

261	1. عادة إخلاء المدينة
270	2. الاستراتيجية الحربية عند يغمراسن
271	أ - آلة الحرب
272	ب - معركة تامزديدكت وانتصار العصبية الزيانية
277	ج - خطة يغمراسن في الإغارة على أبي زكريا الحفصي
282	3. عادة الجوار
286	4. عادة أخذ الرهائن
290	5. عادة الثأر عند بني زيان
293	ثالثا/ التحصينات الدفاعية وعادة التسوير - قراءة في نظرية الصمود والتحدي -
293	1. موقع المدينة وأهميته
296	2. جرأة وشجاعة بني زيان في مواجهة المخاطر
299	3. عادة التسوير
299	أ - الأسوار
300	ب - الخنادق
300	ج - الستائر
301	د - الأبواب
302	4. أبو حمو موسى الثاني وإعادة إحياء الدولة
304	أ - التعبئة الحربية
307	ب - الجوسسة وبث العيون في جيش العدو (الوشاية)
309	رابعاً/ ظاهرة التكافل الاجتماعي وأثرها في بناء المجتمع التلمساني
309	1. علاج الأزمات في المجتمع التلمساني
309	أ - الأمن الغذائي
314	• المخزن
315	• المصرية
315	• سطح الدار

318	ب - ظاهرة تهافت النسوة في ادّخار الدّهب والفضّة
318	2. ظاهرة الأحباس - تهافت الأهالي على تطبيق قاعدة التصدق بالمال الفائض
320	3. تجليات عادة التوزيع النسائية في الحياة الاجتماعية للمجتمع الزباني
320	أ - ظاهرة عمل المرأة
322	ب - إجتماع النّساء للتّويّزَة
322	• تويّزة الغزل والنسيج
322	• تويّزة تنقية القمح
322	• قتل الكسكسي
322	• تويّزة عجن الخبز
323	• تويّزة النظافة
326	خاتمة
332	ملاحق
355	قائمة المصادر والمراجع
378	الفهارس
394	فهرس الموضوعات

ملخص:

يعتبر موضوع "العادات والتقاليد والأعراف" في مجتمع مدينة تلمسان على العهد الزياني، من بين أهم المواضيع التي كشفت الغطاء عن جانب من الأفكار والذهنيات والقضايا الاجتماعية به، وعلى هذا الأساس استمد المجتمع عاداته وأعرافه من رحم التنوع الطبقي للعناصر والمكونات الاجتماعية المتواجدة به، وكان البعد الديني الاسلامي حاضرا ليضبط ممارسة هذه الطقوس اليومية والموسمية الاحتفالاتية، كنسق اجتماعي وحضاري متكامل له مميزاته وخصوصياته على المستوى المعيشي والأخلاقي وجميع المستويات الأخرى.

الكلمات المفتاحية: العادات، التقاليد، الأعراف، تلمسان، الاحتفالات، المجتمع.

Abstract:

"Customs, traditions and manners" at the level of the society of the city of Tlemcen in the Ziyanide era, is one of the most important subjects which unveiled some of the ideas, minds and social affairs in relation to this subject. To this end, Tlemcenian society has derived its customs and mores from the plurality of different elements and social components present in it. The Islamic religion was present to adjust the practice of these celebratory daily and seasonal rituals, as an integrated social and civilizational format which has its characteristics and peculiarities at the standard of living, morality and all other levels.

Keywords: Customs, Traditions, Tlemcen, Zayanide, society, celebrations.

Résumé:

«coutumes, traditions et mœurs» au niveau de la société de la ville de Tlemcen à l'ère Ziyanide, est l'un des sujets les plus importants qui a dévoilé une partie des idées, des esprits et des affaires sociales en relation avec ce sujet. A cet effet, la société tlemcenienne a dérivé ses coutumes et ses mœurs à partir de la pluralité des différents éléments et composants sociaux présents en elle. La religion islamique était présente pour ajuster la pratique de ces rituelles quotidiennes et saisonnières célébrées, comme un format social et civilisationnel intégré qui a ses caractéristiques et particularités au niveau de vie, de moralité et tous les autres niveaux.

Mots clés : coutumes, traditions, mœurs, Tlemcen, célébrations, société. □